الشخصية

من منظور نفسي إسلامي

الدكتورة
شادية أحمد التل
أستاذة علم النفس التربوي - جامعة اليرموك

الشخصية

(من منظور نفسي إسلامي)

بسم الله الرحمن الرحيم



1427هـ - 2006م

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2006 / 7/1881)

212
التل، شادية
الشخصية من منظور إسلامي/ شادية أحمد التل.-عمان:دار الكتاب الثقافي 2006
(...) ص.
ر.أ (1881/7/ 2006)

الواصفات: / االشخصية //الإسلام//الآداب الإسلامية//المجتمع الإسلامي//علم النفس الفردي

* تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من دائرة المكتبة الوطنية

رقم الإجازة المتسلسل لدى دائرة المطبوعات والنشر **(2006/7/2014)**



شارع إيدون إشارة الإسكان

تلفون
(00962-2 – 7261616)
فاكس
(00962-2-7250347)
ص .ب (211-620347)
Dar Al-Ketab
PUBLISHERS
Irbid - Jordan
Tel:
(00962-2-7261616)
Fax:
(00962-2-7250347)
P. O. Box: (*211-620347*)
E-mail:
Dar_ Alkitab1@hotmail.Com



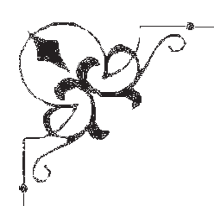
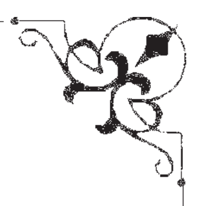
دار المتنبي للنشر والتوزيع
الأردن - إربد - تلفاكس: (7261616)

الشخصيـــة

(من منظور نفســي إســلامي)

الدكتورة
شادية أحمد التل
أستاذة علم النفس التربوي/ جامعة اليرموك

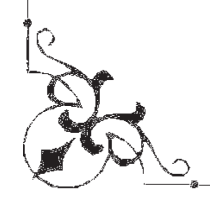
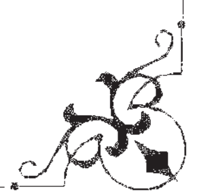
دار الكتاب الثقافي
الأردن - اربـد

بسم الله الرحمن الرحيم

وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا(10)

(الشمس 7-10)



إهداء

الى من زرعا في نفسي الانتماء إلى الأمـــة الإسلامية الماجدة

وكانا عنقودي خير وعطـــاء... أمـي وأبي الحبيبين

وإلى أختيّ الغاليتين عاتكة وسلامة... رحمهم الله أجمعين

فهرس المحتويات



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـة

الحمد لله الذي وهبنا نعمة العقل، وأسبغ علينا آلاء المعرفـة، لنصـل تـراث الأمـة الإسلامية بحاضرها ومستقبلها، أما بعد...

فبعد أن نبهنا الله سبحانه إلى ما في الأرض من آيات، دعانـا إلى التأمـل في الـنفس ولم يـدعنا إلى النظـر إلى الـنفس الإنسـانية؛ أي التفكّـر في أعماقهـا، لا في ظاهرهـا أو سطوحها. فهي دعوة إلى تأمل آيات خلق النفس، التـي هـي نفـس كـل منّـا، لأنهـا وإن كانت أقرب الأشياء إلينا، إلا أنها في الأغلب، أبعد الأشياء عن نظرنـا وتأملنـا، عـلى شـدة حاجتنا إلى هذا النظر. فالقلّة من البشر هم الذين يتأملون في أنفسهم، بالمعنى المقصود في القرآن الكريم. ولعل آخر ما يرغب المرء منّا أن يطلّـع عليـه وأن يدركـه هـو حقيقـة نفسه، أو ذاته الداخلية. فهو يُخفي حقيقة نفسه عن غيره من البشر وحتى عن نفسـه. ولعله لو اطلّع على مكنوناته لأزعجه ذلك كثيراً، الأمر الذي قد يفسر سرّ هذا الإخفاء.

وليس التقابل بين عالَم النفس الإنسانية والعالَم الأكبر مجرد مصادفة، بل حقيقة مقصودة، فما يكشفه لنا العالَم الأكبر من أدلة وبراهين يكشفه لنـا عـالَم الـنفس. ففـي الإنسان تتمثل مقومات العالَم المشهود. وعليه، فـإذا تمكـن الإنسـان مـن إدراك نفسـه، تمكن من إدراك العالَم من حوله ومن فوقه ومن تحته، ووجد نفسه دليلاً عـلى الخـالق المبدع، ودليلاً على قدرته المعجزة وتدبيره الحكيم.

وهكذا فإن دعوة الإنسان إلى التأمل في خلـق نفسـه واستبصـار ذاتـه ومكنوناتـه تمثل الطريق إلى معرفة الخالق سبحانه. ومن عرف ربه عمل ما يرضيه سبحانه، وانتهـى عما نهى عنه. ومن أرضى ربه حقق لنفسه السعادة في الـدنيا، وكسـب رضى الله وثوابـه، فحقق بذلك لنفسه سعادة الدنيا والآخرة.

وقد لا يكون من باب المغالاة القول بأن موضوع الشخصية يعدّ الأكثر جاذبية وسحراً من أي موضوع آخر. فهو لا يهمّ المتخصص فحسب، بل يهمّ كل فرد منّا بصورة مباشرة أو غير مباشرة. وهو مرجع لكل منّا، يرجع إليه لفهم نفسه وفهم سلوكه ومشاعره وفكره، وتحديد قدراته وطاقاته، بغية مساعدته على حسن التكيف النفسي والاجتماعي، وبناء الاتجاهات الإيجابية عن الذات وعن الآخرين، وغرس القيم الإسلامية النبيلة... وليس هذا فحسب، بل يعدّ موضوع الشخصية مرجعاً لكل منّا في

محاولته لتحقيق ما يسعى إلى أن يكون عليه، أي تحقيق ذاته وتحقيق الغاية من وجوده... يرجع إليه الزوج ليعينه على التعامل مع زوجته. ويرجع إليه الوالدان لفهم سلوك أبنائهما وتربيتهم. ويرجع إليه صاحب العمل لتطوير أداء المؤسسة وزيادة إنتاجها، ويرجع إليه القائد في قيادة مرؤسيه، ويأوي إليه المريض النفسي ومن يعاني من اضطرابات نفسية لتعديل إدراكه المشوه لذاته وللحياة والموت ولتعديل سلوكه ومشاعره.

وتغدو معرفة الشخصية أكثر أهمية وحسماً في عصرنا الحالي الذي يشهد التغير السريع في المعرفة، والذي يزخر بمعطيات جديدة، أفرزتها متغيرات عديدة، يشعر فيها الفرد بعدم الطمأنينة وعدم الاستقرار، الأمر الذي يقتضي تسليح أبنائنا وطلبتنا وأنفسنا بالمعرفة اللازمة لتحديد هويتنا الشخصية ودورنا في الحياة، والغاية التي نسعى إلى تحقيقها، وتوكيد العقيدة الإسلامية وإنمائها في ذواتنا، واستعادة الثقة بهوية الأمة وفكرها الأصيل، والانطلاق منها إلى النهضة الحضارية التي ننشد، وإلى التكيف مع المتغيرات والمستجدات استيعاباً وعطاءً وابتكاراً، فاعلين ومتفاعلين، مؤثرين ومتأثرين. وما من شك بأن الارتقاء بالإنسان، وتمكينه من تحقيق هذه الأهداف هو إنجاز حضاري نتطلع إليه، وإنه لإنجاز دونه المنجزات العلمية التي غمرت عصرنا الحالي، وبهرت بألوانها وأضوائها الأبصار والقلوب. ذلك أن الحضارات البشرية ما قامت إلا من أجل تكريم الإنسان وإسعاده. وهو المخلوق الذي كرّمه الله وأسجد له ملائكته.

وما من شك بأن سبر أعماق الشخصية بمفهومها الشمولي لا يكون محققاً للغرض، إذا لم ينبثق عن التصوّر الإسلامي للإنسان، ولمكانته، ولدوره في الحياة، وللغاية من وجوده. وقد جاءت الشريعة الإسلامية منهجاً إلهياً للإنسان في تحديد الغاية من وجوده، وفي تحديد السلوك الذي يكفل تحقيق تلك الغاية. فقد جاء الإسلام ليبيّن للناس أن الغاية من خلقهم هي عبادة الله سبحانه؛ بأن يكون الله قبلتهم يطلبون مرضاته، ويكدحون في تنفيذ أوامره، واجتناب نواهيه. كما جاء ليبيّن للناس منهاج تحقيق تلك الغاية، وهو منهاج الخلافة في الأرض المتمثلة في التعاليم الواردة في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. أما دور المسلم فيتلخص في السعي الذاتي لتمثل الإرشاد الإلهي، ووضعه في حيز التنفيذ. فهو مكلف بفهم الخطاب الإلهي وتطبيقه في حياته، بما يحقق الغاية من خلقه. وهذا هو التكليف الذي يترتب عليه الثواب والعقاب في الإسلام.

ويهدف هذا الكتاب إلى تجلية معالم الشخصية الإنسانية كما أرادها الإسلام، وصوّرتها آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، وتراث السلف الصالح. كما يسعى إلى تحديد بنيتها وديناميكيتها وتطورها ودوافعها ومؤشرات سوائها وانحرافها. ومن الجلي بأن الإنسان لم يحظ خلال رحلته الطويلة بصورة متكاملة متوازنة وسطية للشخصية، كما حظي المسلم حين تلقى إشراقة الوحي وهدي القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، لذلك يسعى الكتاب الحالي إلى بيان المنهج الوقائي الذي رسمه الإسلام لوقاية الشخصية من الانحراف، ومن ثم تحديد المنهج العلاجي للأمراض النفسية في حال ظهور أعراضها، حتى تستعيد الشخصية توازنها وتكيفها، فتنصاع لهدي الله وتؤوب إلى حماه، ترضى بقضائه وقدره، وتسعى دوماً إلى مرضاته.

يقع الكتاب في سبعة فصول، يوضح الفصل الأول مفهوم الشخصية في الإسلام، ومفهوم النفس وأحوالها والمفاهيم الأخرى التي تتداخل مع مفهوم النفس وهي: القلب، والعقل، والروح، والعمل (السلوك). كما يعرض التصوّر الإسلامي للإنسان. وينتهي الفصل بتوضيح مفهوم الشخصية في علم النفس الغربي.

ويتناول الفصل الثاني موضوع الشخصية من حيث: بنيتها وديناميكيتها وقواها وتفاعلاتها، وتصنيفاتها في ضوء كل من المعيار العقائدي وجبلّة الإنسان وسمات الشخصية.

ويخصص الفصل الثالث للحديث في تطوّر الشخصية، ويتعرّض للعوامل المؤثرة فيه من وراثة وبيئة، ثم يتناول موضوع الفروق الفردية. وينتهي الفصل بعرض مراحل تطوّر الشخصية من طفولة فبلوغ فأشد (رشد).

وفي الفصل الرابع، يتمّ الحديث في موضوع الدافعية الإنسانية وأنواعها، والصراع بين الدوافع وطرق تنظيم إشباعها من المنظور الإسلامي. وينتهي الفصل باقتراح رؤية قرآنية لتفاعل النفس مع زينة الحياة الدنيا.

ويتناول الفصل الخامس مفهومي السواء والانحراف من منظور إسلامي. وفي ضوء هذين المفهومين، يتم توضيح مفهومي الشخصية السوية والشخصية المنحرفة. كما يتمّ تحديد مستويات الانحراف النفسي وأنواعه، ومؤشرات سواء الشخصية وانحرافها. وينتهي الفصل بتوضيح مفهوم الصحة النفسية، والشخصية الوسطية والمتطرفة. ثم

يعرض معالم شخصية رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم نموذجاً للشخصية الوسطية التي تتمتع بالصحة النفسية.

ويدور الفصل السادس حول المنهج الوقائي من الانحرافات النفسية وذلك في كل من: مجال الدين ومجال العقل ومجال النسل ومجال النفس، ومجال المال. بعدها يتمّ عرض أساليب الوقاية من الانحرافات النفسية وهي: القدوة الحسنة، والترغيب والترهيب وضرب الأمثال، والموعظة، والقصة، والحوار.

ويدور الفصل السابع حول المنهج العلاجي للأمراض النفسية، فيتناول مفهوم المرض النفسي وخطورته وتصنيفات الأمراض النفسية وأسبابها، ومفهوم العلاج النفسي وأهدافه وخصائصه. وينتهي الفصل بالحديث في أساليب العلاج النفسي في الإسلام؛ فيتعرّض إلى العلاج المعرفي والإيماني، والعلاج بالذكر، والعلاج بالصبر، والعلاج بالتوبة، والعلاج بالأدوية والعقاقير. بعدها يتمّ عرض بعض الأمراض النفسية وعلاجها من منظور إسلامي وهي: الخوف المرضي، والوساوس القهرية، والاكتئاب، والغضب، والكبر... وفي نهاية كل فصل، يتم إيراد الهوامش الخاصة به. وينتهي الكتاب بخاتمة وتعقيب، بعدها ترد قائمة المراجع التي تمّت الاستفادة منها.

وختاماً، لا يسعنا إلا أن نتقدّم بالشكر أجزله إلى فضيلة الأستاذ الدكتور محمد عقلة الإبراهيم وإلى فضيلة الدكتور عمر الأشقر اللذين تفضلا بمراجعة هذا الكتاب، وأثريا جوانبه الشرعية بملاحظاتهما القيّمة، آملين أن يكون هذا الكتاب عوناً للقارئ الكريم ومرجعاً للمتخصصين في علم الشخصية.

وإن وفقنا الله إلى شيء من الحق في هذا الكتاب فإنّا شاكرين لأنعمه، وهو المتفضل الوهاب، وإلا فبحسبنا أن نفتح الطريق إلى مزيد من البحث والدراسة في هذا الموضوع الحيوي والهام. وندعو الله سبحانه أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وهو من وراء القصد.

الدكتورة شادية التل

9/ رجب 1427هـ

3/ آب 2006م




الفصل الأول

أساسيات في موضوع الشخصية

- مقدمة
- مفهوم الشخصية في الإسلام
- مفهوم النفس في الإسلام
- أحوال النفس في الإسلام
- مفاهيم تتداخل مع مفهوم النفس
- التصور الإسلامي للإنسان
- مفهوم الشخصية في علم النفس الغربي




الفصل الأول

أساسيات في موضوع الشخصية

مقدمة

ما الذي جعل من عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد، وصلاح الدين الأيوبيرضي الله عنهما، قادة عظاماً في تاريخنا الإسلامي؟ هل ثمة خصائص شخصية معينة تصف القائد الناجح؟ لقد ربط القرآن الكريم القيادة بصفتين للشخصيــة هما العلم والقوة، في قوله تعالى: (**وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)** [1].

وقد أمر الله تعالى رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم أن يطلب المزيد من العلـم، في قوله سبحانه:(**وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا)**[2]. فهو الذي يبلغ الرسالة وينفذ أحكام الله عـز وجل. وعليه، ينبغي أن يكون القائد عالماً بمعارف العصر، متفقهـاً في الـدين، قـادراً عـلى الاجتهاد في النوازل والأحكـام. كـما تقتضي القيـادة قـدراً مـن القـوة والكفـاءة وتحمـل المسؤولية. الأمر الذي يفسر رفض رسول الله صلى الله عليه وسلم إسناد الولايـة للصـحابي الجليل أبي ذر الغفاري عندما طلب منه أن يوليه، فقال له "يَا أَبَا ذَرَ إِنَّكَ ضَعِيفٌ. وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ. وَإِنَّهَا، يَوْمَ الْقِيَامَةِ، خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ. إلاَّ مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا" [3]. مع أنه قال فيه "مَا أَظَلَّت الْخَضْراءُ وَلاَ أَقَلَّت الغَبْراءُ مِنْ ذِي لَهْجَـةٍ أَصْـدَقَ ولاَ أوْفى مِـنْ أَبِي ذَرٍّ" [4].

ويلخص عمـر بـن الخطـاب رضي الله عنـه الخصـائص الشخصـية للقائـد في قولـه المشهور "لن يقيم أمر الناس إلا امرؤ حصيف العقدة، بعيد الغور، لا يطلّـع النـاس منـه على عورة، ولا يخاف في الله لومة لائم". ويكشف استعراض شخصيات القادة في تاريخنـا الإسلامي اشـتراكهم في عـدد مـن الخصـائص الشخصـية، لعـل أبرزهـا: العلـم والحكمـة، والذكاء

---

(1) البقرة، 247.

(2) طه، 114.

(3) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة ، ج3، ص 1158.

(4) أخرجه الترمذي، سنن الترمذي المعروف بالجامع الصحيح، كتاب المناقب، بـاب مناقـب أبي ذر الغفـاري ﵁، ص 334، وقـال حديث حسن.

والفطنة، والتعقل وبعد النظر، والقدرة على حل المشكلات واتخاذ القرار الحصيف، والقدرة على التأثير والإقناع، والجرأة في الحق، والشجاعة، والقوة، والتواضع والتسامح، والأمانة، والصبر، والصدق.

شخصية القائد مهمة، ولكن ماذا عن شخصيتك أنت؟ هل يصفك الآخرون بأنك شجاع، حكيم، خجول، واثق من نفسك، متردد، عنيد، متسامح، عدواني..؟ هل تشترك مع جميع البشر في بعض الخصائص الشخصية؟ هل تشبه فئة معينة من البشر في خصائص أخرى؟ هل تتميز شخصيتك عن غيرها من البشر في الفكر والعواطف والسلوك؟ وهل تتغير خصائص شخصيتك من يوم إلى آخر ومن موقف إلى آخر، أم تتسم بالثبات النسبي؟

مما لاشك فيه أن لكلمة "الشخصية" سحراً خاصاً ليس فقط لدى علماء النفس، بل حتى لدى العامة، الذين يستخدمونها كثيراً في حياتهم اليومية، ويطلقون أحكاماً تقويمية بشأنها. وعندما يتحدث الرجل العادي عن الشخصية، فغالباً ما يشير إلى المهارة الاجتماعية، أي الجاذبية والسحر الذي يحدثه الفرد في الآخرين. وقد يقصد بها أبرز الانطباعات التي يخلِّفها الفرد لدى الآخرين، لذلك نجده يردد عبارات من مثل "فلان شخصية متسامحة" أو "شخصية عدوانية" أو "شخصية شجاعة" أو "شخصية جبانة"... الخ، أي أنه يختار الصفة الأكثر بروزاً فيمن يتم وصف شخصيته، ويعنونها بها.

ولكن ما مفهوم الشخصية في الإسلام؟ وهل يختلف هذا المفهوم عنه في علم النفس المعاصر؟ وللإجابة على هذين السؤالين، سيتم تحديد مفهوم الشخصية في الإسلام. كما سيتم تحديد المفهوم المعاصر للشخصية في الفكر الغربي.

- **مفهوم الشخصية في الإسلام:**

جاء الاشتقاق اللغوي لكلمة "الشخصية" من الفعل "شخّص". يقال شخّص الشيء أي عيّنه ظاهرياً وباطنياً، وأقام له أشكالاً بارزة واضحة المعالم ذات كيان مرئي. وقد ورد لفظ "شخص" في "لسان العرب" لابن منظور على أنه "جماعة شخص الإنسان وغيره. وكل شيء رأيت جسمانه فقد رأيت شخصه. وهو كل ما له ارتفاع وظهور" [1]. وفي قاموس "المنجد"، الشخص هو "سواء الإنسان وغيره تراه عن بعد، ويطلق على

(1) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، ط1، ص 280.

الإنسان ذكراً أو أنثى" [1]. وفي "المعجم الوجيز" "الشخص هو" كل جسم له ارتفاع وظهور، وغلب على الإنسان، وجمعه أشخاص وشخوص، أما الشخصية فهي صفات تميز الشخص عن غيره، يقال فلان ذو شخصية قوية، أي صفات وإرادة وكيان مستقل"[2].

وقد ورد لفظ "شخص" في الحديث الشريف في قوله صلى الله عليه وسلم "لا شخص أغير من الله"، والمراد به إثبات الذات، فاستعير لها لفظ "الشخص"، وقد جاء في رواية أخرى "لا شيء أغير من الله" وقيل معناه "لا ينبغي لشخص أن يكون أغير من الله" [3].

أما كلمة "شخصية" فلم ترد في القرآن الكريم، وقد وردت مرادفات لها (من حيث المعنى)، وحيثما يطلق أي منها في هذا الكتاب، فهو دال على المرادفات الأخرى، ولعل أبرزها التالية:

1. **النفس بمعناها العام**، كما في قوله تعالى:(وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا) [4]، ويقصد بها الوحدة المتكاملة الناتجة عن تفاعل معقد بين الروح والجسد.

2. **الإنسان** كما في قوله تعالى:(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ) [5]، ويقصد به أفراد الجنس البشري (فرداً وجماعة). فالرجل إنسان والمرأة إنسان. وقد سميت إحدى سور القرآن الكريم باسم "سورة الإنسان".

3. **الذات** كما في قوله تعالى: (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ) [6]، ويقصد بالذات حالة الفرد ووجوده أو ماهيته أو نفسه أو شخصه. والمقصود في هذه الآية الكريمة "اصلحوا فيما بينكم، ولا تظالموا، ولا تخاصموا، ولا تتشاجروا"، وفي ذلك إشارة إلى العلاقات المتبادلة بين الناس.

4. **المرء** كما في قوله تعالى:(كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ)[7]، ويقصد به الإنسان أو الرجل.

---

(1) قاموس المنجد.

(2) مجمع اللغة العربية، المعجم الوجيز، ص 337-338.

(3) ابن منظور، لسان العرب، ص 280.

(4) البقرة، 48.

(5) القيامة، 14.

(6) الأنفال، 1.

(7) الطور، 21.

5 .**الفرد** كما في قوله تعـالى:(وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ) [1]، ويقصد به واحد لا نظير له أو نصف الـزوج ومـن لا نظير له.

وبناء على ما سبق، فسيتم اشتقاق معنـى كلمـة "الشخصـية" في الإسـلام مـن دلالـة المفهوم وليس من اللفظ. ويقصد بهذا المفهـوم – أي مفهـوم الشخصـية – حـال الإنسـان (أو الفرد أو المرء أو النفس بمعناها العام أو الذات الإنسانية) ووجوده، أو ماهيته وكل ما يخـتصّ به، ويميزه عن غيره من البشر. إضافة إلى علاقاته المتبادلة –تأثيراً وتأثراً- مع الآخرين. فهو فرد لا نظير له، مستقل عن غيره من جهة، ومتفاعل مع غيره من جهة أخـرى. والشخصـية وحـدة متكاملة ناتجة عن تفاعل معقد بين الروح والجسد. ولعلنا نرى أن مفهوم "النفس" الإنسـانية بمعناها العام، كـما ورد في القـرآن الكـريم، هـو أقـرب هـذه المرادفـات إلى المفهـوم المعـاصر للشخصية الإنسانية كما سيتضح ذلك لاحقاً.

ويلمس المستعرض للتراث الإسلامي، أن علماءنـا المسـلمين لم يعرفـوا لفـظ "شخصـية" ألبتة. كما لم يسـتخدموا لفـظ "شـخص" في مؤلفـاتهم قبـل ابـن سـينا وإخـوان الصـفا الـذين استخدموا هذا اللفظ بمعنى "قوة مبادرة واختيـار يلتـزم وينـدمج وينسـجم ويشـعر، فيقبـل ويرفض. وعليه، فالشخص له استقلال ذاتي" [2]. وكما يلاحـظ أن علماءنـا المسـلمين اسـتخدموا كلمة "النفس" بمعناها العام بمقابل كلمة "الشخصية" في مفهومها المعاصر على نحو أكثر مـن غيرها من المرادفات التي سبقت الإشارة إليها. وعلى الرغم من أن القارئ للـتراث الإسـلامي لا يجد نظرية شاملة متماسكة للشخصية الإنسانية، قادرة على تفسير السلوك الإنساني على نحو منطقي منظم، تعنى بالقضايا الجوهرية في تكيف الإنسان مع البيئـة، وتحـدد الـدوافع التـي تحرك سلوكه، إلا أن الفاحص لما ورد في القـرآن الكـريم والحـديث النبـوي الشر-يف والـتراث الإسلامي حول مفهوم النفس الإنسانية، بمعناها العام، يمكنه رسم معـالم الشخصـية الإنسـانية في الإسلام، وهذا ما يسعى الكتاب الحالي إلى تحقيقه.

وعليه، فلا بد من توضـيح مفهـوم "الـنفس" بمعناهـا العـام، ثـم تحديـد التصـور الإسلامي للنفس الإنسانية للانطلاق منه إلى صياغة معالم الشخصية الإنسانية في الإسلام.

---

(1) الأنبياء، 89.

(2) نزار العاني، الشخصية الإنسانية في التراث الإسلامي، ص 38.

مفهوم النفس في الإسلام:

وردت كلمة "نفس" ومشتقاتها في القرآن الكريم (295) مرة. فقد وردت ككلمة مجردة (61) مرة. فيما وردت مشتقاتها مسندة إلى ضمائر (234) مرة[1]، على النحو التالي نفساً ونفسك، ونفسه، ونفسها، والأنفس، والنفوس، وأنفسهن، وأنفسهم، ونفوسكم، وأنفسكم، وأنفسنا. وقد حملت كلمة "نفس" ومشتقاتها في القرآن الكريم معاني عامة مختلفة، لعل أبرزها التالية

1. **النفس بمعنى أصل البشرية، كما في** قوله تعالى:(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ)[2].

2. **النفس بمعنى الذات الإلهية**، كما في قوله تعالى(قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) [3]، و قوله تعالى: (وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ) [4]، وقوله أيضاً (وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي) [5].

3. **النفس بمعنى شخص بعينه**، كما يتضح في الآيات الكريمة التالية:

(فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ) [6]، والمقصود هنا شخص سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

(قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي) [7]، والمقصود هنا شخص موسى عليه السلام.

(وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ) [8]، والمقصود هنا شخص يوسف عليه السلام.

(كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ)[9]، والمقصود هنا شخص يعقوب عليه السلام.

---

(1) محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

(2) النساء، 1.

(3) الأنعام، 12.

(4) آل عمران، 30.

(5) طه، 41.

(6) الكهف، 6.

(7) المائدة، 25.

(8) يوسف، 32.

(9) آل عمران، 93.

(قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ)[1]، والمقصود هنا الرجل الذي قتله موسى عليه السلام في أرض مصر.

4. **النفس بمعنى ذات الإنسان أو كليته** (أي الكل المتكامل الناتج عن تفاعل الجسد والروح). ويتضح هذا المعنى في الآيات الكريمة التالية:

(وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا) [2].

(وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ)[3].

(وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ)[4].

(قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا) [5].

(مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا) [6].

(لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا) [7].

كما ورد مفهوم النفس في القرآن الكريم **بمعانٍ خاصة**، لعل أبرزها التالية:

1. **النفس بمعنى الروح**، كما يتضح في قوله تعالى(أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ) [8].

2.النفس بمعنى القلب وما يتصل به، كما يتضح في قوله تعالى(وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً)[9].

النفس بمعنى القوة المفكرة في الإنسان، كما يتضح في قوله تعالى(وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا)[10].

(1) القصص، 33.
(2) البقرة، 48.
(3) المائدة، 45.
(4) الزخرف، 71.
(5) التحريم، 6.
(6) المائدة، 32.
(7) البقرة، 233.
(8) الأنعام، 93.
(9) الأعراف، 205.

(10) النمل، 14.

4.النفس بمعنى نيّة الإنسان وجوهره الداخلي، (أي قوى الخير والشر فيه)، كما يتضح في قوله تعالى:(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) [1].
(رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ) [2].
(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ) [3].

هذا ومن الجدير بالذكر أن مفهوم "النفس" ورد في السنة النبوية الشريفة بالمعنى العام كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم "لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ" [4]. كما ورد بالمعنى الخاص في قوله صلى الله عليه وسلم "أَلَمْ تَرَوْا الإِنْسَانَ إِذَا مَاتَ شَخَصَ بَصَرُهُ؟» قَالُوا: بَلَىٰ. قَالَ: « فَذلِكَ حِينَ يَتْبَعُ بَصَرُهُ نَفْسَهُ" [5].

وبناء على ما سبق، يمكن القول بأن مفهوم النفس الإنسانية تعني في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ذات الإنسان أو الكل المتكامل الناتج عن تفاعل الجسد والروح. وتشمل كلاً من: الروح، والقلب (وما يتصل به)، والقوة المفكرة، والنية والجوهر الداخلي (أي قوى الخير والشر)، إضافة إلى العلاقات المتبادلة مع الآخرين. وعليه، يمكن تمييز الجوانب التالية للشخصية: الجانب الجسمي، والجانب العقلي (الفكر والمعتقد...) والجانب الانفعالي (النية، والدوافع...)، والجانب الروحي، والجانب الاجتماعي (العلاقات المتبادلة مع الآخرين).

هذا ومن الجدير بالذكر أننا نحب ونبغض، ونصدر أحكاماً تقويمية على الشخصية من خلال ما يظهر عنها من أعمال صالحة أو سيئة، والله أعلم بالنوايا. ويذكر أن أبي الدرداء مرّ على رجل أصاب ذنباً والناس يسبونه، فقال لهم: أرأيتم لو كان أخاكم في بئر أكنتم مستخرجيه؟ قالوا: نعم. قال: فاستغفروا لأخيكم واحمدوا الله الذي عافاكم. فقالوا أفلا تبغضه؟ قال: لا... إنما أبغض عمله، فإذا تركه فهو أخي.

كما احتلت النفس الإنسانية – بمعنييها العام والخاص- مكانة مهمة في التراث الإسلامي. ويمكن القول بأن دراسة ابن سينا للنفس تعدّ أوسع الدراسات النفسية في

(1) الرعد، 11.

(2) الإسراء، 25.

(3) ق، 16.

(4) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، حديث رقم 12.

(5) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب شخوص بصر الميت يتبع نفسه، حديث رقم 1529.

الفكر الإسلامي. وقد كانت دراسته ملهمة للعديد من الدراسات اللاحقة في الشرق والغرب. فهو ينظر إلى النفس نظرة روحية، فيراها تدرك المعقولات والكليات وتدرك ذاتها دون آلة، وليس هذا من خواص البدن، فالحس لا يدرك ذاته بل يحس شيئاً خارجاً عنه. كما أن أجزاء البدن تأخذ في الضعف بعد منتهى النشوء، وذلك دون الأربعين أو عندها، والنفس إنما تقوى بعد ذلك في أكثر الأمر. وهو يرى أن النفس بمعناها العام هي "الكمال الأول لجسم طبيعي آلي من جهة ما يفعل الأفاعيل، بالاختيار العقلي والاستنباط بالرأي، ومن جهة ما يدرك الأمور الكلية". ويكشف ثلاثة قوى للجهاز النفسي هي: النفس النباتية التي تخلق أولاً، ثم تخلق النفس الحيوانية، وأخيراً النفس الناطقة[1].

ويشير الغزالي في "إحياء علوم الدين" إلى معنيين للنفس؛ خاص وعام، يتعلق المعنى الخاص بالصفات الحيوانية المذمومة المضادة للقوى العقلية، ويراد به المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة في الإنسان. فيما يتعلق المعنى العام بحقيقة الإنسان وذاته، فإن نفس كل شيء حقيقته أي جوهره الذي هو محل المعقولات، وهو من عالم الأمر وعالم الملكوت، ويسميه القرآن الكريم النفس المطمئنة. والروح الأمري، وهي الجوهر الحي الفعال المدرك. وهي الإنسان بالحقيقة ومحل المعقولات والتفكير والتمييز والرؤية. وهي نفس الإنسان وذاته، ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب أحوالها، فتكون لوامة أو أمارة أو مطمئنة. "والنفس بهذا المعنى هو ما يشير إليه كل واحد بقوله أنا". ويضيف "إن أول ما يخلق عند الطفل هي النفس الشهوية التي يشترك فيها مع الكائنات الحية الأخرى من نبات وحيوان. ثم تخلق له النفس الغضبية التي يشترك فيها مع الحيوان فقط. وأخيراً تخلق النفس العاقلة التي ينفرد بها عن الكائنات الحية الأخرى"[2].

ويرى ابن حزم في كتابه "الفصل في الملل والنحل" أن النفس جسم طويل عريض عميق، ذات مكان، جثة متميزة مصرفة للجسد"[3]. وقد ذهب سائر أهل الإسلام والملل المقرة بالمعاد إلى ما ذهب إليه ابن حزم، وبهذا فإن النفس والشخصية اسمان مترادفان لمعنى واحد، ومعناهما واحد.

ويلخص ابن القيم في كتابه "الروح" آراء العديد من المفكرين المسلمين حول ماهية النفس الإنسانية، في أربعة أقوال: النفس هي الروح، والنفس هي الجسد (البدن)،

---

(1) ابن سينا، النجاة، ص 258.

(2) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج3، ص 4-15.

(3) انظر: ابن قيم الجوزية، الروح، ص 248.

والنفس هي أحدهما (الروح أو الجسد)، والنفس هي مجموعهما (الروح والجسد). وفي ضوء هذا التباين حول ماهية النفس الذي وصل إلى حد التناقض والتضارب، توصل ابن القيم إلى أن للنفس معنيين؛ معنى عام يشمل الجسد والروح معاً (أي أنه يطلق على الإنسان بكليته) ومعنى خاص يتعلق بالجزء (كالروح)، وقد ساق ما يزيد على مئة دليل تفسيري وتحليلي في القرآن الكريم لتوضيح ما ذهب إليه، فقد يطلق لفظ "النفس" على الإنسان بكليته، كما في قوله تعالى(يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا)[1]. وقد يطلق اللفظ على الروح وحدها، كما في قوله تعالى : (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ)

ولما كان لفظ "الشخصية" كمفهوم يشير إلى النفس الإنسانية بمعناها العام (الذي أشرنا إليه سابقاً)، لا وجود له في القرآن الكريم والحديث الشريف والتراث الإسلامي، لحداثة اللفظ، ولكي يتحقق التناغم بين محتوى الكتاب الحالي، وعنوانه، فلا بد من الإشارة إلى أنه حيثما يرد مفهوم النفس الإنسانية بمعناها العام فسيقصد به الشخصية بمفهومها المعاصر، وذلك في ضوء غلبة استخدام مفهوم النفس على غيره من المرادفات الأخرى للشخصية في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والتراث الإسلامي، كما ذكرنا سالفاً.

وعليه، فالشخصية وحدة متكاملة ناتجة عن تفاعل شديد التعقيد بين مكوني الجسد والروح. وهي كيان مستقل يميز صاحبه عن غيره من البشر من حيث الفكر (المعتقد) والانفعالات (العواطف والمشاعر والميول والاتجاهات...) والسلوك. وتشمل المجموع الكلي المتكامل للجوانب الجسمية والعقلية والانفعالية والروحية للإنسان في تفاعله المعقد مع البيئة الطبيعية والاجتماعية، منذ ولادته وحتى مماته.

- **أحوال النفس في الإسلام:**

اختلف الباحثون حول عدد أحوال النفس كما وردت في القرآن الكريم، كما سموا تلك الأحوال "أنواعاً"، فقد أورد الطويل[2]، في كتابه "في النفس والقرآن الكريم" سبعة أنواع للنفس الإنسانية هي: النفس الأمارة بالسوء، والنفس اللوامة، والنفس

---

(1)النحل ، 111

(2)الفجر، 27.

(3)عزة الطويل، في النفس والقرآن الكريم.

المطمئنة، والنفس الزكية، والنفس الحوازية، والنفس الظالمة، والنفس المجاهـدة. فيما قصرها زريق[1] على ثلاثة أنـواع هـي: الـنفس المطمئنـة، والـنفس الأمـارة بالسـوء، والنفس اللوامة. أما مرسي[2]، فقـد جعلهـا في اثنـي عشرـ نوعـاً هـي: الـنفس المطمئنـة، والنفس اللوامة، والنفس الزكية، والـنفس المجادلـة، والـنفس الملهمـة، والـنفس الأمـارة بالسـوء والـنفس الشـاكرة، والـنفس المجاهـدة، والـنفس الشـحيحة، والـنفس الصـالحة، والنفس المهتدية، والنفس الخيّرة. وقد صنفها ابن عبود[3] في سـبعة أنـواع هـي: الـنفس الراضية، والنفس المطمئنة، والنفس الأمارة بالسوء، والـنفس اللوامـة، والـنفس الكاملـة، والنفس العارفة، والنفس المرضـية. فـيما اسـتخدم توفيـق في كتابـه "التأصـيل الإسـلامي للدراسات النفسية" كلمة "أحوال" بدلاً من أنواع، ورأى أن هناك خمس أحـوال للـنفس الإنسانية هي: النفس السوية، والنفس الإمارة بالسوء، والنفس اللوامة، والنفس الزكيـة، والنفس المطمئنة. وقد زاد بعض الباحثين على الأنواع/ الأحوال المذكورة، إلى الحد الـذي اعتبرت فيه كل صفة من صفات النفس التي وردت في القرآن الكريم على أنها نـوع مـن أنواع النفس الإنسانية، لذلك ظهرت الحاجة إلى التمييز بـين أحـوال الـنفس وصـفاتها في ضوء مستوى عمومية السلوك وما تندرج تحتها من سلوكات، أكـثر خصوصـية، ذلـك أن ورود كلمة "نفس" أو مشـتقاتها في آيـة قرآنيـة لا تكفـي بالضرـورة لاشـتقاق حـال مـن أحوال النفس الإنسانية.

والتحقيق أنها نفس واحدة، بحسب ما ذكره ابن القيم[4]، ولكن لها أحوالها؛ فهي نفس مطمئنة مثلاً باعتبار حال طمأنينتها إلى الله بعبوديته والسكون والإنابة إليه، والتوكل عليه. وتحصل الطمأنينة الحقة بذكر الله، قال تعالى (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)[5]، وهكذا بالنسبة للأحوال الأخرى للنفس. فهي نفس واحدة، تكون أمارة تارة ولوامة أخرى، ومطمئنة ثالثة. وعليه، فإن السلوك الإنساني يعكس الحال التي تغلب على الشخصية في لحظة ما.

---

(1) معروف زريق، علم النفس الإسلامي.

(2) كمال مرسي، المدخل إلى علم الصحة النفسية.

(3) المهدي ابن عبود، الإنسان وطاقاته الروحية.

(4) ابن قيم الجوزية، الروح.

(5) الرعد، 28.

ومن الجدير بالذكر أن أحوال النفس الإنسانية تتسم بالاستقرار النسبي (فهي ليست ثابتة كلياً ولا متغيرة كلياً)، الأمر الذي يسمح بالتنبؤ عن السلوك، من جهة، كما يسمح بتزكيتها أو ارتدادها من جهة أخرى. وقد أشار ابن مسكويه إلى ذلك في كتابه "السعادة" بقوله "أن النفس الناسوتية، هي الأصل في الإنسان. فإن تمت تزكيتها بالذكر والفكر والرياضة صارت روحاً ترتقي إلى أن تكون سراً من أسراره سبحانه وتعالى. وقد تميل النفس إلى الطبيعة الجسدية فتجذب القلب إلى الأسفل، وتأمره بإشباع الشهوات وبالأخلاق السيئة، وقد تتنور وتتيقظ من الغفلة، فتعمل على إصلاح حالها، متقلبة بين حالتي الربوبية والخلقية، فإن صدر عنها فعل سيئ تداركها النور الإلهي، في ضوء فطرتها المجبولة عليها، فتلوم نفسها وتتوب إلى خالقها. وقد تتخلق بالأخلاق الحميدة، وتترفع عن الأخلاق الذميمة فيتنور قلبها بالإيمان وتواظب على فعل الطاعات[1].

وفيما يلي بسط لأحوال النفس أي الشخصية الإنسانية، كما في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والتراث الإسلامي.

1. **النفس السوية الملهمة** الواردة في قوله تعالى (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)[2]، ويفسر ابن كثير هذه الآية الكريمة بأن الله سبحانه خلق النفس سوية مستقيمة على الفطرة القويمة". كما قال تعالى: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ)[3]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "كل مولود يولد على الفطرة"[4]. وفي صحيح مسلم يقول الله عزّ وجل "إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ" [5]. وعليه، فقد ساوى الله تعالى بين الخلق كلهم في الفطرة، فلا تفاوت بين الناس في ذلك، وتمثل النفس السوية الملهمة الحالة الأولى للشخصية، وهي الكيان الذي تتمايز منه الأحوال الأخرى وهي تعكس الحالة الأولى الابتدائية للنفس الإنسانية عند الولادة. وقد ألهم سبحانه النفس السوية طريقي الفجور والتقوى، قال تعالى: (فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)[6]. وقد ورد في مختصر تفسير ابن كثير في تفسير هذه الآية الكريمة، أن

---

(1) انظر: نزار العاني، الشخصية الإنسانية في التراث الإسلامي.

(2) الشمس، 7.

(3) الروم، 30.

(4) رواه مسلم، كتاب القدر، باب معنى كل مولود.

(5) انظر: مختصر تفسير ابن كثير للصابوني، ج3، ص 644.

(6) الشمس، 8.

الله سبحانه وتعالى قد "أرشدها إلى فجورها وتقواها"، أي بيّن لها وهداها إلى ما قدّر لها، قال ابن عباس بيّن لها الخير والشر، وقال سعيد بن جبير ألهمها الخير والشر، وقال ابن زيد، جعل فيها فجورها وتقواها. وفي الحديث "أَنَّ رَجُلاً مِنْ جُهَيْنَةَ أَوْ مِنْ مُزَيْنَةَ أَتَى النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ الْيَوْمَ وَيَكْدَحُونَ فِيهِ شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ أَوْ مَضَى عَلَيْهِمْ فِي قَدَرٍ قَدْ سَبَقَ، أَوْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُونَ مِمَّا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ صلى الله عليه وسلم وَاتُّخِذَتْ عَلَيْهِمْ بِهِ الْحُجَّةُ؟ قَالَ "بَلْ شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى عَلَيْهِمْ، قَالَ فَلِمَ يَعْمَلُونَ إِذًا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ مَنْ كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَهُ لِوَاحِدَةٍ مِنْ الْمَنْزِلَتَيْنِ يُهَيِّئُهُ لِعَمَلِهَا" [1]، وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) [2]. ويفسر ابن جرير الطبري المقصود بالإلهام بأنه "بيان ما ينبغي للنفس أن تأتي أو تذر من طاعة أو معصية أو خير أو شر" [3]. ويفسر ابن الجوزي الإلهام بأنه "إيقاع الشيء في النفس" [4].

وهكذا يمكن القول بأن الإلهام الوارد في قوله تعالى(فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) [5] هو إلهام بالفطرة أو بيان بالوحي. فالله سبحانه وتعالى أوقع في النفس الإنسانية طريقي التقوى والفجور، وهداها بالفطرة إلى التمييز بين الطريقين. فإذا بقيت على أصل الفطرة فإنها لا تأمر إلا بالخير، أما إذا انحرفت عن هذا الأصل فإنها تأمر بالفجور. فَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم "كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ حَتَّى يُعْرِبَ عَنْهُ لِسَانُهُ فَإِذَا أَعْرَبَ عَنْهُ لِسَانُهُ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا" [6]. وَقَالَ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم "مَا بَالُ أَقْوَامٍ جَاوَزَهُمْ الْقَتْلُ الْيَوْمَ حَتَّى قَتَلُوا الذُّرِّيَّةَ، فَقَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا هُمْ أَوْلَادُ الْمُشْرِكِينَ،

---

(1) رواه أحمد، كتاب مسند البصريين، حديث رقم 19089.

(2) الشمس، 7-8؛ مختصر تفسير ابن كثير، ج3، ص 644.

(3) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج3، ص 210.

(4) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، ج8، ص 255.

(5) الشمس، 8.

(6) رواه أحمد في كتاب مسند المكثرين، باب مسند جابر بن عبد الله، حديث رقم 14277.

فَقَالَ أَلاَ إِنَّ خِيَارَكُمْ أَبْنَاءُ الْمُشْرِكِينَ، ثُمَّ قَالَ أَلاَ لاَ تَقْتُلُوا ذُرِّيَّةً، أَلا لا تَقْتُلُوا ذُرِّيَّةً" [1]. كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "كُلُّ نَسَمَةٍ تُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ حَتَّى يُعْرِبَ عَنْهَا لِسَانُهَا فَأَبَوَاهَا يُهَوِّدَانِهَا وَيُنَصِّرَانِهَا" [2].

2. **النفس الأمارة بالسوء**، الواردة في قوله تعالى(إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي)[3]. وتصف حال النفس المذمومة التي تنحرف عن النفس السوية الملهمة فتأمر صاحبها بالسوء، وتنساق وراء الشهوات لتحقق اللذة، فتسيطر عليها الغرائز الحيوانية، وتدعو صاحبها إلى ارتكاب المعصية، إلا من ثبتَّها الله وأعانها، قال تعالى(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا) [4]. وقال سبحانه لرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم في سورة الإسراء: (وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا)[5]. فالله سبحانه أيَّد رسوله الكريم وثبَّته وعصمه من شر أعدائه، فلا يكله لأحد من خلقه. فالشر كامن في النفس، فإن وفقها الله وأعانها نجت وإن تخلّى عنها هلكت. وبذا فقد امتحن الله سبحانه وتعالى الإنسان بالنفس الأمارة بالسوء.

وقد نسب الله سبحانه وتعالى الأمر بالسوء إلى النفس عند أول عدوان وقع على الأرض عندما قتل قابيل أخاه هابيل، قال تعالى(فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ) [6]. كما قال سبحانه على لسان يعقوب عليه السلام:(قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ) [7].

وتشير الآيات الكريمة المذكورة إلى أن السوء فعل منسوب إلى النفس. فهي التي تسول وتطوع وتأمر بالسوء، ولذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم يفتتح خطبه بقوله "الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلا مُضِلَّ

---

(1) مسند الإمام أحمد، باب حديث الأسود بن سريع، حديث رقم 15218.

(2) رواه أحمد، كتاب مسند المكيين، باب حديث الأسود بن سريع، حديث رقم 15037.

(3) يوسف، 53.

(4) النور، 21.

(5) الإسراء، 74.

(6)المائدة ،30.

(7) طه، 96.

(8) يوسف، 18.

لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ" [1]. وثمة مواضع أخرى في القرآن الكريم تشير إلى نسبة الأمر بالسوء إلى الشيطان، نذكر منها قوله تعالى (فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ) [2]. وقوله تعالى:(وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي)[3] فالشيطان قرين النفس الأمارة بالسوء. فهو الذي يقذف فيها الباطل ويزينه لها، ويعدها ويمنّيها ويستعين عليها بإرادتها وهواها. فهو الذي يوسوس للنفس وهي التي تستجيب وتنفذ. قال تعالى، مخبراً عمّا يقولُه الشيطان لأوليائه(وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ)[4]. لذلك يتحمل الإنسان مسؤولية الاستجابة للشيطان يوم القيامة. وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعيذ بالله من شر النفس وشر الشيطان، فيقول "أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ"[5].

3. **النفس اللوامة**، الواردة في قوله تعالى:(وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ)[6]، وفي قوله تعالى: (أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ)[7]. وهي حال النفس التي أقسم الله بها. ويلخص ابن القيم في كتابه "الروح" اختلاف المفسرين فيها، "فمنهم من رأى أنها تصف حال النفس المترددة المتقلبة التي تنيب وتجفو، وتفرح وتحزن، وتتقي وتفجر، وترضى وتغضب، وتذكر وتغفل، وتقبل وتعرض... ومنهم من رأى أنها تصف حال نفس المؤمن وصفتها المجردة، ومنهم من رأى أنها نفس المؤمن توقعه في الشر ثم تلومه عليه، وهذا اللوم دليل الإيمان، ومنهم من رأى أنها نفس السعيد تلوم صاحبها على ارتكاب الذنب، ونفس الشقي تلوم صاحبها على فوات حظها. وقد ذهب بعضهم أبعد من ذلك، فرأى أن اللوم يكون يوم القيامة، عندما تلوم النفس صاحبها على الذنـب إن كان مذنباً، وعلى التقصير إن كان محسناً" [8]. وهذه الأقوال في النفس اللوامة لا تتضارب مع بعضها. فالنفس موصوفة بكل هذه الأوصاف، ولذلك سميت حالها باللوامة، وقد امتحن الله

---

(1) الدارمي، كتاب النكاح، باب في خطبة النكاح، حديث رقم 2105.

(2) القصص، 15.

(3) يوسف، 100.

(4) إبراهيم، 22.

(5) رواه الترمذي، الدعوات عن رسول الله، حديث رقم 3314.

(6) القيامة، 2.

(7) الزمر، 56.

(8) ابن قيم الجوزية، الروح، ص 304-305.

سبحانه النفس بها، وهي من أعظم آياته.

ويورد ابن الجوزي في تفسيره "زاد المسير في علم التفسير" ثلاثة أقوال في النفس اللوامة "أحدهما النفس المذمومة (أي اللوامة الملومة) لأنها نفس جاهلة، ظالمة يلومها الله وملائكته. والثانية هي النفس المؤمنة (أي اللوامة غير الملومة) التي تلوم صاحبها على التقصير في طاعة الله أو على ارتكاب الأخطاء، فتحاسب نفسها وتنيب إلى الله. والثالثة هي النفس الإنسانية (أي جميع النفوس) "[1].

ويرى الفخر الرازي أن النفس اللوامة هي "النفس الشريفة التي لا تزال تلوم نفسها وإن اجتهدت في الطاعة، وإن المؤمن لا تراه إلا لائماً نفسه، أما الجاهل فيكون راضياً بما هو فيه من أحوال خسيسة"[2]. فهي السلطة الداخلية التي تحاسب النفس على ما يصدر عنها من أخطاء في الحياة الدنيا، وتؤنبها على الأفعال السيئة التي ترتكبها أو تنوي ارتكابها. فهي بذلك نفس رادعة للنفس الأمارة بالسوء، غير راضية عن أفعالها، منكرة لها. وهي نفس فيها صلاح، تسعى إلى إعادة التوازن المعنوي الذي فقدته الشخصية عندما انحرفت عن مسارها القويم وانساقت وراء شهواتها.

وكما يكون اللوم على أفعال السوء التي تم ارتكابها، يكون على الأفعال التي ينوي الإنسان ارتكابها. وفي هذه الحال يكون اللوم عاصماً للشخصية من الانسياق وراء الشهوات التي تزينها لها النفس الأمارة بالسوء. هذا ومن الملاحظ أن صيغة "اللوامة" (الفعالة) تشير إلى أن اللوم عملية مستمرة مع الإنسان. فالنفس اللوامة هي مكوّن من مكونات الشخصية ما تفتأ تناقشها الحساب في الحياة الدنيا.

واللوم عملية عقلية تعكس حال التفكير والحوار الداخلي الذاتي التي تمارسه النفس بقصد التمييز بين الخير والشر، أو التحول من الأمر بالمنكر إلى الأمر بالمعروف، أي لتزكية النفس وجهادها. قال مجاهد بن جبير في كتابه "التفسير" "إن

(1) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، ج8، ص 133.

(2) نقلاً عن: عز الدين إسماعيل، نصوص قرآنية في النفس الإنسانية، ص 180.

النفس اللوامة هي التي تلوم صاحبها على ما فات وتندم، وتلوم صاحبها على الشر لِمَ تفعله، وعلى الخيرِ لِمَ لَمْ تستكثر منه". وروى شداد بن أوْس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ (أي حاسبها) وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ" [1]. وقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قوله "حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة، فإن من حاسب نفسه في الرخاء قبل الشدة عاد أمره إلى الرضا والغبطة، ومن ألهته حياته وشغلته أهواؤه، عاد أمره إلى الندامة والحسرة" [2].

4. **النفس المطمئنة**، أي المطمئنة إلى الحق والراضية المرضية يوم القيامة، الواردة في قوله تعالى:(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً 28) (فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (29)وَادْخُلِي جَنَّتِي)[3]. وهي حال النفس المؤمنة الصالحة، المنيبة المخبتة التي أيقنت أن الله ربها فأطاعت أوامره وذكرته في أعمالها، وسكنت إلى ربها دون سواه. وأنست بقربه فاطمأنت إلى عبوديته ومحبته وذكره، قال تعالى(الَّذِينَ آَمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)[4]. كما اطمأنت إلى لقائه ووعده، فرضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً ورسولاً. لذلك تشعر بالسعادة والرضا في الحياة الدنيا عن الدين الذي اختارته وعن السلوك الذي اتبعته، فاطمأنت للنتيجة وهي السعادة في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

ويورد ابن القيم في كتابه "الروح" أقوال المفسرين في النفس المطمئنة. فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما المطمئنة المصدقة، وقال قتادة هي المؤمنة التي اطمأنت إلى ما وعد الله، وقال الحسن المصدقة بما قال الله تعالى، وقال مجاهد هي النفس التي أيقنت بأن الله ربها، المسلِّمة لأمره فيما هو فاعل بها. وروى منصور عنه قال: النفس التي أيقنت أن الله ربها وربطت جأشاً لأمره وطاعته... فكلام السلف في النفس المطمئنة يدور على طمأنينة العلم والإيمان وطمأنينة الإرادة والعمل" [5].

(1) رواه الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، حديث رقم 2383.

(2) انظر: معروف زريق، علم النفس الإسلامي.

(3) الفجر، 27-30.

(4) الرعد، 28.

(5) ابن قيم الجوزية، الروح، ص 301-302.

وكي تتحقق طمأنينة النفس، أي سعادتها لا بد أن تبنى على قاعدة صلبة ثابتة هي الإيمان بالله والتصديق بما جاء به رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم من هدى وآيات بينات، ولا بد للإيمان من أن يكون مشفوعاً بالعمل. فالإيمان والعمل وجهان متكاملان للنفس الإنسانية، وبمقدار صدق إيمانها بالله وعملها بما يرضيه سبحانه تكون سعادتها واطمئنانها في الفوز برحمته وثوابه في الآخرة. وطمأنينة النفس مرهونة بتقوى الله ونهي النفس عن الهوى. فخشية الله تحمل النفس على إتيان الصالح من الأعمال. ومن يعمل صالحاً يرضى عن نفسه ويرضي ربه. ومن يرضي ربه يطمئن إلى وعده، فيقف يوم القيامة مطمئناً بما وعده الله من ثواب في الآخرة، قال تعالى(جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ)[1].

هذا ومن الجدير بالذكر أن أحوال النفس (الشخصية) لا تعمل بوصفها أربعة قطاعات مختلفة مستقلة تحرك الشخصية، بل تعمل ككل متكامل بصورة معقدة، فهي نفس واحدة تكون أمارة تارة ولوامة أخرى ومطمئنة ثالثة.

ويصف ابن القيم في كتابه "الروح" فصل "في أن النفس الأمارة في مقابل النفس المطمئنة" الصراع الداخلي بين النفس الأمارة بالسوء و المطمئنة، بصورة ديناميكية، بقوله"وقد انتصبت الأمارة في مقابل المطمئنة، فكلما جاءت به تلك من خير ضاهتها هذه وجاءت من الشر بما يقابله حتى تفسده عليها. فإذا جاءت بالإيمان والتوحيد جاءت هذه بما يقدح في الإيمان من الشك والنفاق وما يقدح في التوحيد من الشرك ومحبة غير الله وخوفه ورجائه، ولا ترضى حتى تقدم محبة غيره وخوفه ورجائه، على محبته سبحانه وخوفه ورجائه فيكون ما له عندها هو المؤخّر وما للخلق هو المقدَّم. فتقوم الحرب بين هاتين النفسين والمنصور من نصره الله. وهذا حال أكثر هذا الخلق... ومن أعجب أمرها أنها تسحر العقل والقلب، فتأتي إلى أشرف الأشياء وأجلّها فتخرجه في صورة مذمومة... والأفعال تصدر عن الإرادات وتظهر على الأركان من النفسين الأمارة والمطمئنة، فيتباين العقلان في الباطن ويشتبهان في الظاهر، ولذلك أمثلة كثيرة منها المداراة (من المطمئنة) والمداهنة (من الأمارة بالسوء)، وخشوع الإيمان وخشوع النفاق، والتواضع والمهانة،

(1) البينة، 8.

والاقتصاد والشح... فالشيء الواحد تكون صورته واحدة وهو منقسم إلى محمود ومذموم"[1].

وحتى تتضح معالم الصورة المعرفية للشخصية في إطارها الإسلامي، ارتأينا توضيح المفاهيم الأساسية التي لا تنفصل عن مفهوم النفس أو قد تكون جزءاً منها أو مرادفة لها، وهي: القلب والروح والعقل والعمل (السلوك).

- **مفاهيم تتداخل مع مفهوم النفس:**

1. القلب:

كما هو معلوم، فإن القلب هو عضو عضلي مجوف له شكل صنوبري مودع في جوف الإنسان من الجانب الأيسر، وهو مسؤول عن النشاط الفسيولوجي لجسم الإنسان. فهو أول عضو يتحرك في الجسد وآخر عضو يسكن فيه. وهو مسؤول عن النشاط المعنوي له كذلك. والقلب "لطيفة ربانية روحية وأشرف ما في الإنسان؛ فهو العالم بالله، الساعي إليه، المحب له. وهو محل الإيمان، والعرفان وهو المخاطب المبعوث إليه الرسل، المخصوص بأشرف العطايا عن الإيمان والعمل"[2]، ولا يستقيم أمر النشاطين الفسيولوجي والمعنوي للقلب إلا بوجود مصدر واحد للتوجيه، قال تعالى: (مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ)[3].

والقلب هو جوهر الإنسان المتحمل لأمانة الله، الناطق بالتوحيد بالفطرة، والذي يعني صلاحه صلاح الإنسان، قال رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم "إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ"[4]. والله سبحانه وتعالى ينظر في القلوب، عند الحساب، لا في الصور والأجسام، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم "إِنَّ اللَّهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ، وَلاَ إِلَى صُوَرِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ"[5].

وقد وردت كلمة "قلب" ومشتقاتها في القرآن الكريم بمعانٍ مختلفة، لعل أبرزها التالية:

---

(1) ابن قيم الجوزية، الروح، ص 308-309.

(2) ابن القيم، التبيان في أقسام القرآن، ص 524-525.

(3) الأحزاب، 4.

(4) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب من استبرأ لدينه، حديث رقم 50.

(5) رواه مسلم، كتاب الصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره، حديث رقم 4650.

أ- القلب محل النية السليمة، كما في قوله تعالى:

(إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)[1].

(وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (83) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)[2].

(مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ)[3].

ب- القلب محل العواطف والانفعال، ويتضح ذلك في الآيات الكريمة التالية:

(ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً)[4].

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ)[5].

(وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً)[6].

(لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ)[7].

ج- القلب محل الإيمان والهداية، ويتضح ذلك في قوله تعالى:

(وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ)[8].

(وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ)[9].

(إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ)[10].

د- القلب محل الإثم والمعصية، ويتضح ذلك في قوله تعالى:

(وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ)[11].

(كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ)[12].

(وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا)[13].

---

(1) الشعراء، 89.
(2) الصافات، 83-84.
(3) ق، 33.
(4) البقرة، 74.
(5) آل عمران، 151.
(6) الحديد، 27.
(7) آل عمران، 156.
(8) الحجرات، 7.
(9) التغابن، 11.
(10) النحل، 106.
(11) البقرة، 283.
(12) الحجر، 12.
(13) الفتح، 12.

هـ- القلب محل التدبر والوعي، ويتضح ذلك في قوله تعالى:

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآَنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)[1].

(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)[2].

(لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا)[3].

وبالرجوع إلى معاني النفس الإنسانية ومدلولاتها، كما وردت في القرآن الكريم، وبمقارنتها بمعاني "القلب"، يمكن القول بأن مفهوم "النفس" بمعناها العام أشمل من القلب وأكثر عمومية، وبمعناها الخاص ترادفه (فالقلب والنفس محل الفطرة السليمة). وإذا وردتا معاً، عندها يكون القلب محل الإرادة والنفس محل الشهوة. وإذا ذكرت إحدهما دون الأخرى، فيتضح المعنى من سياق الآية الكريمة" [4].

هذا وقد وردت ثلاثة أحوال للقلب في القرآن الكريم، هي:

أ. **القلب السليم**، الذي لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به، كما في قوله تعالى: (يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)[5]، وقوله تعالى: (وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (83) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)[6]. والقلب السليم هو قلب المؤمن الذي أخلص عبوديته لله تعالى وسلم من أن يكون فيه شرك لغير الله.

ب. **القلب المريض**، كما في قوله تعالى(فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا) [7]. وهو قلب المنافق الذي يتذبذب بين الكفر والإيمان، قال تعالى(وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ) [8]، وقال تعالى: (يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ) [9]. فهو قلب فيه من محبة الله وعبادته وفيه من محبة الشهوات والحرص على تحصيلها، وهو لما غلب عليه منهما.

---

(1) محمد، 24.
(2) ق، 37.
(3) الأعراف، 179.

(4) عز الدين توفيق، التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية، ص 205.

(5) الشعراء، 88-89.

(6) الصافات، 83-84.

(7) البقرة، 10.

(8) التوبة، 45.

(9) التوبة، 8.

القلب الميت، وهو قلب الكافر المنفتح للشهوات والمحصن ضد الإيمان. ويتضح ذلك في قوله تعالى:(وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ)[1]، وفي قوله تعالى:(وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ)[2]، وفي قوله تعالى:(أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ)[3] فهو قلب لا حياة فيه، يسعى وراء الشهوات ولو كان فيها سخط الله وغضبه.

وقد جمع الله سبحانه وتعالى هذه القلوب الثلاثة في قوله: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (52) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (53) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [4].

وتعرض الفتن على القلب فيقبلها أو يردَّها، فإن ردّها، كان ذاك القلب السليم، وإن قبلها فذاك القلب الميت، وإن كان مذبدباً بين قبولها وردّها فذاك القلب المريض، قَالَ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم "تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا، فَلا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ، وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا (أي غلب عليه السواد)، كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا (أي منكوساً)، لا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلاَّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ" [5]. وفي حديث آخر رواه أَبو سَعِيدٍ الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قَالَ "الْقُلُوبُ أَرْبَعَةٌ: قَلْبٌ أَجْرَدُ فِيهِ مِثْلُ السِّرَاجِ يُزْهِرُ، وَقَلْبٌ أَغْلَفُ مَرْبُوطٌ عَلَى غِلافِهِ، وَقَلْبٌ مَنْكُوسٌ، وَقَلْبٌ مُصْفَحٌ. فَأَمَّا الْقَلْبُ الأَجْرَدُ فَقَلْبُ الْمُؤْمِنِ سِرَاجُهُ فِيهِ نُورُهُ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الأَغْلَفُ فَقَلْبُ الْكَافِرِ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمَنْكُوسُ فَقَلْبُ الْمُنَافِقِ عَرَفَ ثُمَّ أَنْكَرَ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمُصْفَحُ فَقَلْبٌ فِيهِ إِيمَانٌ وَنِفَاقٌ. فَمَثَلُ الإِيمَانِ فِيهِ كَمَثَلِ الْبَقْلَةِ يَمُدُّهَا

(1) البقرة، 88.

(2) التوبة، 87.

(3) محمد، 16.

(4) الحج، 52-54.

(5) رواه مسلم عن حذيفة بن اليمان، كتاب الإيمان، باب إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً وإنه يأرز، حديث رقم 207.

الْمَاءُ الطَّيِّبُ وَمَثَلُ النِّفَاقِ فِيهِ كَمَثَلِ الْقُرْحَةِ يَمُدُّهَا الْقَيْحُ وَالدَّمُ، فَأَيُّ الْمَدَّتَيْنِ غَلَبَتْ عَلَى الأُخْرَى غَلَبَتْ عَلَيْهِ"[1].

ويصنّف ابن القيم القلوب في كتابه "الروح" ثلاثة أنواع هي: "قلب قاس غليظ بمنزلة اليد اليابسة لا بل بمنزلة الحجر، وقلب مائع رقيق جداً بمنزلة الماء، وكلا القلبين ناقص. أما النوع الثالث فالقلب الرقيق الصافي الصلب الذي يميز الحق من الباطل، فيقبل الحق ويؤثره ويحفظه برقته ويحارب عدوه بصلابته". وفي الأثر "القلوب آنية الله في أرضه فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفاها". وهذا هو القلب الزجاجي، فإن الزجاجة جمعت الأوصاف الثلاثة، وأبغض القلوب إلى الله القلب القاسي، قال تعالى : (فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ)[2]، وقال تعالى: (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً)[3]، وقال تعالى: (لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ)[4]. فذكر القلبين المنحرفين عن الاعتدال، هذا بمرضه وهذا بقسوته، وجعل إلقاء الشيطان فتنة لأصحاب هذين القلبين، ورحمة لأصحاب القلب الثالث وهو القلب الصافي الذي ميز بين إلقاء الشيطان وإلقاء الملك بصفائه، وقبل الحق بإخباته ورقته، وحارب النفوس المبطلة بصلابته، وقوته، فقال تعالى : (وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)[5].

ويستدل ابن تيمية، من خلال النصوص الشرعية، على وجود ثلاثة أنواع من القلوب في" مجموع الفتاوي " هي:

أ. **القلب الأغلف** ويستدل عليه بقوله تعالى(وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ)[6] وبقوله تعالى:(وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ)[7]. والغلف، جمع أغلف، وهو ذو الغلاف الذي في غلاف مثله. فكأنهم جعلوا المانع

---

(1) أخرجه أحمد، مسند المكثرين، حديث رقم 10705.

(2) الزمر، 22.

(3) البقرة، 74.

(4) الحج، 53.

(5) الحج، 54؛ ابن قيم الجوزية، الروح، ص 326.

(6) البقرة، 88.

(7) النساء، 155.

خلقة، أي خلقت القلوب وعليها أغطية، فقال الله "بل لعنهم الله بكفرهم" وطبع الله عليها بكفرهم:(فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا) [1]. ومـن سمات هذا القلب: العمى، والصمم والبكم، كما قال تعالى(وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)[2]. فهي نفس قلوبها عميت وصمت وبكمت، كما قال تعالى(فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) [3].

ب. **القلب المريض** كما في قوله تعالى: (وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) [4]. والمرض في القلب كالمرض في الجسد. فكما أن هذا هو إحالة عن الصحة والاعتدال من غير موت، فكذلك قد يكون في القلب مرض يحيله عن الصحة والاعتدال. ومن سمات القلب المريض: فساد إحساس القلب وإدراكه، وفساد عمله وحركته، وضعف الإيمان، والجبن، والفزع، والشهوة المحرمة، والحسد والبخل، والشكوك والشبهات، وإرادة الفجور" [5].

ج. **القلب الحي المنور** وهو قلب فيه نور، به يسمع ويبصر ويعقل، ممتلئ بالخشوع واليقين، والقوة، كما في الأثر "القلوب آنية الله في أرضه، أحبها إلى الله أصلبها وأرقها وأصفاها" [6].

وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فساد القلب فساداً للجسد كله وصلاحه صلاحاً للجسد كله، قال صلى الله عليه وسلم "إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ" [7]. وفي القلب لمَّة من الملك ولَمَّة من الشيطان، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم "إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً بِابْنِ آدَمَ وَلِلْمَلَكِ لَمَّةً فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ فَإِيعَادٌ بِالشَّرِّ وَتَكْذِيبٌ بِالْحَقِّ وَأَمَّا لَمَّةُ الْمَلَكِ فَإِيعَادٌ بِالْخَيْرِ وَتَصْدِيقٌ بِالْحَقِّ فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنْ اللَّهِ فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ الْأُخْرَى فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ" [8]. والشيطان يجري

---

(1) النساء، 155.

(2) البقرة، 171.

(3) الحج، 46.

(4) الأنفال، 49.

(5) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج28، ص 448-450.

(6) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج7، ص 29-30.

(7) سبق تخريجه.

(8) رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب من سورة البقرة، حديث رقم 2914.

من ابن آدم مجرى الدم في القلب، قالت صَفِيَّةُ زَوْجُ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهَا جَاءَتْ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم تَزُورُهُ وَهُوَ مُعْتَكِفٌ فِي الْمَسْجِدِ فِي الْعَشْرِ الْغَوَابِرِ مِنْ رَمَضَانَ فَتَحَدَّثَتْ عِنْدَهُ سَاعَةً مِنْ الْعِشَاءِ، ثُمَّ قَامَتْ تَنْقَلِبُ فَقَامَ مَعَهَا النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يَقْلِبُهَا (أي يوِّدعها)، فمَرَّ بِهِمَا رَجُلانِ مِنْ الأَنْصَارِ فَسَلَّمَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ثُمَّ نَفَذَا فَقَالَ لَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى رِسْلِكُمَا إِنَّمَا هِيَ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ، قَالا سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَبُرَ عَلَيْهِمَا مَا قَالَ فَقَالَ "إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ مَبْلَغَ الدَّمِ وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شراً" [1].

- **القلب وعلاقته بالنفس:**

يوضح الغزالي في "إحياء علوم الدين" مفهوم القلب وعلاقته بالنفس والروح والعقل. فللقلب عنده معنيان معنى مادي ومعنى روحي. وقد اكتفى بالإشارة إلى المعنى المادي للقلب بقوله " إنه اللحم الصنوبري الشكل، المودع في الجانب الأيسر من الصدر، وفي باطنه تجويف فيه دم أسود هو منبع الروح ومعدنه" [2]. أما المعنى الروحي للقلب فيتعلق بالروح. "فالقلب يتحمل أمانة الله، ويتحلى بالمعرفة، ويرتكز فيه العلم بالفطرة، وينطق بالتوحيد. فهو أصل الإنسان وحقيقته، قال تعالى : (أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) [3]. لذا فهو لطيفة ربانية روحانية لها بالقلب المادي الجسمي تعلق، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان وهو المدرك العالم العارِف من الإنسان، وهو المخاطَب والمعاقَب والمعاتَب والمطالَب... وهكذا فإن حقيقة القلب، عند الغزالي، غيبية، من عالم الغيب لا يدركها إلا من كشفت له الحجب من خلال مجاهدة النفس" [4].

وفي كتابه "معارج القدس في مدارج معرفة النفس"، يرى الغزالي "أن القلب هو جوهر الإنسان بكليته، وهو محل الإرادة والقدرة والحواس. وللقلب عسكران: عسكر ظاهر هو الشهوة والغضب ومنازلهم في اليدين والرجلين والعينين والأذنين وسائر الأعضاء الأخرى، وعسكر باطن هو قوى الفكر والحفظ والتذكر والوهم والخيال ومنازلهم في الدماغ. والقلب أمير هذين العسكرين. والقلوب ثلاثة أنواع هي قلب مخذول مشحون بالهوى المدنس بالخبائث، الذي أشار الله إليه في قوله تعالى:(أَرَأَيْتَ مَنِ

---

(1) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب التكبير والتسبيح عند التعجب، حديث رقم 5751.

(2) الغزالي، إحياء علوم الدين، ج3، ص 4.

(3) الرعد، 28.

(4) عز الدين توفيق، التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية، ص 368.

اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا)[1]. وقلب مطمئن معمر بالتقوى وتنقدح فيه خواطر الخير، وقلب متأرجح بين الخير والشر، المشار إليه في قوله تعالى: (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ) [2].

وفي كتابه "سر العالمين"، يقول الغزالي "اعلم أن القلب مدينة وساكنها الملك وهي النفس اللطيفة المدركة العالمة الطاهرة الربانية الخارجة عن صفة النفخة المشار بها إلى الروح". وهكذا يكون أحد معاني القلب هو النفس. وفي كتابه "مشكاة الأنوار" يقول الغزالي عن القلب "فنعني به الذي يتميز به العاقل عن الطفل الرضيع، وعن البهيمة وعن المجنون، ولنسمه عقلاً". وهكذا يكون أحد معاني القلب هو العقل. ويقول في القلب في موقع آخر "واعلم أن في الإنسان عيناً هذه صفة كمالها، وهي التي يعبر عنها تارة بالعقل وتارة بالروح وتارة بالنفس" [3].

ويشبّه ابن القيم علاقة القلب بأعضاء الجسم بعلاقة الملك برعيته فيقول "ثم انفذ من ساحة الصدر إلى مشاهدة القلب تجد ملكاً عظيماً جالساً على سرير مملكته يأمر وينهي ويعزل، وقد حفّ به الأمراء والوزراء والجند كلهم في خدمته... وهو محل نظر الرب تعالى ومحل معرفته، ومحبته وخشيته، والتوكل عليه والإنابة إليه" [4]. ويرى أن الجوارح اتباع للقلب يستخدمها استخدام الملوك للعبيد، يقول "والذي يسري إلى الجوارح من الطاعات والمعاصي إنما هي آثاره، فإن أظلم أظلمت الجوارح، وإن استنار استنارت، ومع هذا فهو بين اصبعين من أصابع الرحمن عز وجل" [5]. وعليه، فإن القلب فيه كمال الإنسانية إذا ما عرف ربه وعبده بأسمائه وصفاته.

ويرى ابن القيم [6] أن للقلب جندين:

أ. جند يرى بالأبصار.

ب. جند يرى بالبصائر.

---

(1) الفرقان، 43.

(2) الأنعام، 125؛ الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفة النفس.

(3) عز الدين توفيق، التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية، ص 372.

(4) ابن القيم، التبيان في أقسام القرآن، ص 523.

(5) المرجع السابق، ص 524.

(6) المرجع السابق، ص 525.

فالذي يرى بالأبصار هي أعضاء الجسد وهي مطيعة له، يقول في ذلك "فإذا أمر العين بالانفتاح انفتحت، وإذا أمر اللسان بالكلام تكلم". أما الجند التي ترى بالبصائر فهي ما ركب بالقلب من الإرادة والغضب والشهوة. وهو يرى أن "القلب ما دام خلق للسفر إلى الله والدار الآخرة فإنه يفتقر إلى جندين[1]:

1. باطن وهو الإرادة والشهوة والقوى.
2. ظاهر وهو الأعضاء.

فخلق في القلب من الإرادة والشهوات ما احتاج إليه. وخلقت له الأعضاء التي هي آلة الإرادة، واحتاج في دفع المضار إلى جندين: باطن وهو الغضب الذي يدفع المهلكات، وينتقم من الأعداء، وظاهر وهو الأعضاء التي ينفذ بها غضبه كالأسلحة للقتال.

كما يكشف ابن تيمية علاقة القلب بالبدن بقوله " والقلب هو الملك، والأعضاء جنوده، وإذا صلح صلح سائر الجسد، وإذا فسد فسد سائر الجسد، فيبقى يسمع بالأذن الصوت كما تسمع البهائم، والمعنى لا يفقهه، وإن فقه بعض الفقه لم يفقهه فقهاً تاماً، فإن الفقه التام يستلزم تأثيره في القلب محبة المحبوب، وبغض المكروه". ويقول أيضاً "وخشوع الجسد تبع لخشوع القلب". وعليه، فالقلب" هو الأصل، فإذا كان فيه معرفة وإرادة سرى ذلك إلى البدن بالضرورة، لا يمكن أن يتخلف البدن عما يريده القلب، فإذا كان القلب صالحاً بما فيه من الإيمان علماً وعملاً قلبياً صلح الجسد بالقول الظاهر والعمل، والظاهر تابع للباطن [2].

مما سبق، يمكن القول بأن مفهوم النفس بالمعنى العام أعم وأشمل من مفهوم القلب، وبالمعنى الخاص فإنها ترادفه.

2. العقــل:

أكد سبحانه وتعالى شرف العقل في كتابه العزيز، في قوله تعالى: (وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)[3]. فالعقل يعي الأمثال ويدرك بدائع مصنوعات الخالق. وقد روي عن

---

(1) المرجع السابق، ص 525.

(2) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج7، ص 27-28.

(3) النحل، 12

رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال "أول ما خلق الله تعالى العقل فقال له: أقبل، فأقبل، ثم قال له: أدبر، فأدبر. فقال عزّ من قائل: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أعزّ عليّ منك، بك آخذ وبك أعطي، وبك أحاسب، وبك أعاقب". وقال أهل المعرفة والعمل: العقل جوهر مضيء خلقه الله سبحانه في الدماغ وجعل نوره في القلب، يدرك به المعلومات بالوسائط والمحسوسات بالمشاهدة" [1].

ولم يرد لفظ "العقل" كمصدر في القرآن الكريم مطلقاً، ولكن ورد فعل العقل بمختلف اشتقاقاته ليدل على الجانب المعرفي في الشخصية (المتعلق بالفهم والتفكير والإدراك والتمييز بين الخير والشر...) كما في قوله تعالى: (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ) [2].

فالعقل آلة التمييز بين الحق والباطل؛ يعرف الحق ويهدي صاحبه إليه فيقوده إلى النجاة، ويعرف الباطل ويهدي صاحبه إلى الابتعاد عنه، فيعصمه من الهلاك. والعقل آلة الإدراك التي على أساسها حمل الإنسان أمانة الخلافة وخوطب بالوحي ليدرك ما جاء به ويطبقه. فهو مناط التكليف، ولولاه لما وجد منهج للخلافة أصلاً، فهو مؤسس على العقل في تنزيله على الأرض.

غير أن ثمة مفردات كثيرة [3] وردت في القرآن الكريم لتشير إلى العقل كمصدر للمعرفة الإنسانية، لعل أبرزها التالية:

1.اللب كما في قوله تعالى:(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)[4] ويشير اللب إلى المستوى الرفيع للعقل.

2.القلب كما في قوله تعالى:(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ)[5] ويشير القلب إلى مركز العقل.

---

(1) الإبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، ص 27.

(2) الملك، 10.

(3) لمزيد من التوضيح لمعاني هذه المفردات، انظر:

http://www.amiralmomenin .net/books/arabic/nafahat/no8html.

(4) البقرة، 179.

(5) الحج، 46.

3.**الصدر** كما في قوله تعالى:(بَلْ هُوَ آَيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآَيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ)[1]. ويشير إلى أن العقل يقع في صدر البدن أي في جزئه العلوي.

4.**الفؤاد** كما في قوله تعالى: (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)[2]. ويشير إلى أن العقل هو القلب مع زيادة وهي الإنارة واللمعان.

5.**النهى** كما في قوله تعالى:(كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى)[3] ويشير إلى أن العقل ينهى صاحبه عن الأفعال المشينة.

هذا وقد سميّ العقل عقلاً لأنه يعقل، أي يمنع صاحبه من التورط في المهالك. فهو ليس عقلاً نظرياً، بل عقل عملي يدفع صاحبه إلى فعل الخيرات، ويمنعه من فعل المنكرات. وعليه، فلا يسمى بالعقل مجرد العلم الذي لم يعمل به صاحبه. وبما أنه في حال تحوّل وتقلب، قيل له "قلب". ولما كان يقع في الجزء العلوي من الجسم قيل له "صدر". وعندما يصل مرحلة الإخلاص ويصفو من الشوائب يقال له" لب". وعندما تنضج أفكاره يقال له "فؤاد". والعقل يزيد وينقص. وهو معنوي لا يمكن مشاهدته، ويستدل عليه بما يوجد منه أو يصدر عنه. ويستدل على عقل الإنسان بأمور منها: ميله إلى محاسن الأخلاق، وحسن مداراة الناس، وبقلة سقطه في الكلام.

وقد قيل "بأيدي العقول تمسك أعنة النفوس، وكل شيء إذا كثر رخص، إلا العقل فإنه كلما كثر غلا". كما قيل "لكل شيء غاية وحدّ، والعقل لا غاية له ولا حدّ، ولكن الناس يتفاوتون فيه تفاوت الأزهار في المروج". وقد اختلف علماء المسلمين حول محل العقل؛ فقال أبو حنيفة: محل العقل الدماغ، وذهب الشافعي إلى أن محله القلب، واستدل بقوله تعالى:(فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا)[4]. غير أن ابن القيم يرى أن أصله ومادته من القلب، وينتهي إلى الدماغ"[5].

---

(1) العنكبوت، 49.

(2) النحل، 78.

(3) طه، 54.

(4) الحج، 46.

(5) ابن القيم، التبيان في أقسام القرآن، ص 511.

وفي الوقت التي اتسم به مفهوم العقل بالضبابية في الفكر الإسلامي، امتازت صورة العقل عند ابن تيمية بالوضوح والشمولية. فهو يرى أن العقل في لغة المسلمين عرض من الأعراض، قائم بغيره، وهو غريزة وقوة في النفس، أو هو علم، أو عمل بالعلم، ليس العقل في لغتهم قائماً بنفسه فيمتنع أن يكون أول المخلوقات عرضاً قائماً بغيره، فإن العرض لا يقوم إلا بمحل (وهذا ردّ على القائلين بذلك) فيمتنع وجوده قبل وجود شيء من الأعيان. وأما أولئك المتفلسفة ففي اصطلاحهم، أنه جوهر قائم بنفسه، وليس هذا المعنى هو معنى العقل في لغة المسلمين، والنبي صلى الله عليه وسلم خاطب المسلمين بلغة العرب، لا بلغة اليونان" [1].

ويقول في موضع آخر، مدعماً كلامه بنصوص الشرع وآراء بعض الأئمة "العقل في كتاب الله وسنة رسوله وكلام الصحابة والتابعين وسائر أئمة المسلمين، هو أمر يقوم بالعاقل سواء سمي عرضاً أو صفة، وليس هو عيناً قائمة بنفسها، سواء سمي جوهراً أو جسماً أو غير ذلك. وإنما يوجد التعبير باسم "العقل" عن الذات العاقلة التي هي جوهر قائم بنفسه في كلام طائفة من المتفلسفة الذين يتكلمون في العقل والنفس" [2].

ويضيف "إن اسم العقل عند المسلمين وجمهور العقلاء إنما هو صفة، وهو الذي يسمى عرضاً قائماً بالعاقل. وعلى هذا دلّ القرآن في قوله تعالى(لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) [3]، وقوله: (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا) [4]، وقوله:(قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآَيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) [5]، ونحو ذلك مما يدل على أن العقل مصدر عقل يعقل عقلاً. وإذا كان كذلك فالعقل لا يسمى به مجرد العلم الذي لم يعمل به صاحبه. ولا العمل بلا علم، بل إنما يسمى به العلم الذي يعمل به والعمل بالعلم، ولهذا قال أهل النار: (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ) [6]، وقال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) [7].

---

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج18، ص 238.

(2) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج9، ص 271.

(3) البقرة، 73.

(4) الحج، 46.

(5) الحديد، 17.

(6) الملك، 10.

(7) الحجرات، 4.

والعقل المشروط في التكليف لا بد أن يكون علوماً يميز بها الإنسان بين ما ينفعه وما يضره، ثم من الناس من يقول: العقل هو علوم ضرورية، ومنهم من يقول: العقل هو العمل بموجب تلك العلوم. والصحيح أن اسم العقل يتناول هذا وهذا، وقد يراد بالعقل نفس الغريزة التي في الإنسان التي بها يعلم ويميز ويقصد المنافع دون المضار، كما قال أحمد بن حنبل والحارث المحاسبي وغيرهما: "أن العقل غريزة وهذه الغريزة ثابتة عند جمهور العقلاء. كما أن العين قوة بها يبصر، وفي اللسان قوة بها يذوق، وفي الجلد بها يلمس" [1].

وللعقل أفعال [2] وردت في القرآن الكريم بتعبيرات مختلفة، لعل أبرزها التالية:

1. **التذكر** كما في قوله تعالى: (وَيُبَيِّنُ آَيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)[3]. ويشير إلى استحضار الذهن لما تم إدراكه وحفظه.
2. **الفقه** كما في قوله تعالى: (انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآَيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ) [4]. ويشير إلى الإطلاع على أمر خفي بالاستعانة بأمر ظاهر وجلي.
3. **التفكر** كما في قوله تعالى (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ)[5]. وتعني التحليل العقلي الذي يسوق العلم إلى المعلومات.
4. **الشعور** كما في قوله تعالى:(وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ) [6]. والشعور يعني الإحساس (الإحساس الباطني).
5. **البصيرة** كما في قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ)[7]. وتشير إلى قوة الإدراك والعلم.
6. **الدراية**، كما في قوله تعالى: (وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ) [8]. وتشير إلى العلم والخبرة في الأمور الخفية والمستترة.

---

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج9، ص 286-287.

(2) تم الرجوع إلى مفردات الراغب في تفسير الأفعال.

(3) البقرة، 221.

(4) الأنعام، 65.

(5) الأنعام، 50.

(6) البقرة، 154.

(7) الأعراف، 201.

(8) لقمان، 34.

ويشير ابن تيمية إلى دور العقل في تحصيل المعرفة وصلاح العمل بقوله "العقل شرط في معرفة العلوم، وكمال وصلاح الأعمال. وبه يكمل العمل والعلم، لكنه ليس مستقلاً بذلك، لكنه غريزة في النفس، وقوة فيها، بمنزلة قوة البصر التي في العين، فإن اتصل به نور الإيمان والقرآن، كان كنور العين إذا اتصل به نور الشمس والنار. وإن انفرد بنفسه لم يبصر الأمور التي يعجز وحده عن دركها، وإن عزل بالكلية كانت الأقوال والأفعال في عدمه أموراً حيوانية، فقد يكون فيها محبة ووجد، كما قد يحصل للبهيمة. فالأحوال الحاصلة مع عدم العقل ناقصة، والأقوال المخالفة للعقل باطلة. والرسل جاءت بما يعجز العقل عن دركه، لم تأت بما يعلم العقل امتناعه. وعن علاقة العقل بحصول الهداية، يقول ابن تيمية: "فحق على كل أحد بذل جهده واستطاعته في معرفة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وطاعته، إذ هذا طريق النجاة من العذاب الأليم والسعادة في دار النعيم. والطريق إلى ذلك الرواية والنقل، إذ لا يكفي مجرد العقل، بل كما أن نور العين لا يرى إلا مع ظهور نور قدامه، فكذلك نور العقل لا يهتدي إلا إذا طلعت عليه شمس الرسالة" [1].

ويوضح الماوردي في كتابه "أدب الدنيا والدين" علاقة العقل بالقلب، بقوله "العقل نور في القلب يفرِّق بين الحق والباطل"، ويستشهد بقوله تعالى: (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا) [2]. ويرى أن هذه الآية الكريمة تشير إلى أن العقل علم، وأن العقل محله القلب. كما يرى أن صحة المرء تكون باكتمال عقله، مسترشداً بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن الأحمق يصيب بحمقه أعظم من فجور الفاجر" [3]. وللعقل جانبان جانب فطري بالطبع أي ذكاء غريزي وجانب مكتسب أي ذكاء بالخبرة" [4].

ويورد الإمام الترمذي علاقة العقل بالقلب والنفس في "بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب" بقوله "الصدر أو المقام الخارجي مرتبط بنور الإسلام، والقلب وهو داخل الصدر مرتبط بنور الإيمان، والفؤاد وهو المقام الثالث مرتبط بنور المعرفة. واللب وهو آخر المقامات مرتبط بنور التوحيد. ويشير ذلك إلى تدرج المقامات بعلاقاتها مع الحالة الإيمانية من الإسلام (مقام داخلي مرتبط بنطق اللسان بالشهادة) إلى الإيمان

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج1، ص 8.

(2) الحج، 46.

(3) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال للمتقي الهندي، حديث رقم 7048، ج3، ص 381.

(4) الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص 4.

(إيمـان داخـلي مـرتبط بالاعتقـاد بالغيـب) ثـم المعرفـة (شروق الإيمـان) وأخـيراً التوحيد (استقرار الإيمان وتجليه). ويربط هذه المقامات الأربعة بأحوال النفس الأربعة: النفس الأمارة (مرتبطة بالصـدر) والـنفس اللوامـة (مرتبطـة بالقلـب) والـنفس الملهمـة (مرتبطة بالمعرفة) والنفس المطمئنة (مرتبطة بالتوحيد) "[1].

ويؤكد ابن القيم أن "العقل غريزي ومكتسب. فالعقل الغريزي أب العلم ومربيه. أما العقل المكتسب فهو ولد العلم وثمرته ونتيجته. فإذا اجتمعا معاً في العبد، فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء"... ويضيف "ومن الناس من يرجح صاحب العقل المكتسب. والتحقيق أن صاحب العقل الغريزي الذي لا علم ولا تجربة عنده آفته التي يؤتى منها الإحجام وترك انتهاز الفرص، لأن عقله يعقله عن انتهاز الفرص لعدم علمه بها. وهو صاحب العقل المكتسب يؤتى من أقدامه، فإن علمه بالفرص وطرقها يلقيه إلى المبادرة إليها"[2].

كما يقسم الإبشيهي العقل إلى قسمين: قسم لا يقبل الزيادة والنقصان، وهو العقل الغريزي المشترك بين العقلاء. أما القسم الثاني فيقبل الزيادة والنقصان وهو العقل المكتسب وتكون زيادته بكثرة التجارب والوقائع. وعليه، فصاحب التجارب أكثر فهماً وأرجح عقلاً، ولذلك قيل من بيضّت الحوادث سواد لمته، وأخلقت التجارب لباس جدته وأراه الله تعالى لكثرة ممارسته تصاريف أقداره وأقضيته، كان جديراً برزانة العقل[3].

وقد يخص سبحانه من يشاء من عباده فيفيض عليه بألطافه رزانة عقل وزيادة معرفة، تخرجه عن حدّ الاكتساب، ويرجح على ذوي التجارب والخبرة، فقد آتى سبحانه الحكم ليحيى عليه السلام وهو صبي، قال تعالى: (يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا)[4]. كما كان سليمان صبياً قليل التجربة حين ردّ حكم أبيه داود عليه السلام في قصة الغنم والحرث، التي نزل فيها قوله سبحانه(وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (78) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آَتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ

---

(1) انظر: العاني، الشخصية الإنسانية في التراث الإسلامي، ص 30-31.

(2) ابن القيم، التبيان في أقسام القرآن، ص 511.

(3) الإبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، ص 27.

(4) مريم، 12.

وَكُنَّا فَاعِلِينَ) [1]. فقد نقل ابن أبي حاتم عن مسروق، قال: إن رجلين دخلا على داود عليه السلام أحدهما: صاحب غنم والآخر صاحب حرث، فقال أحدهما إن هذا دخلت غنمه بالليل إلى حرثي فأهلكته ولم تدع فيه ورقة ولا عنقوداً من عنب إلا أكلته، فقضى داود بالغنم لصاحب الحرث، فقال سليمان: لا، بل تؤخذ الغنم فيعطاها صاحب الكرم فيكون له لبنها ونفعها، ويعطى صاحب الغنم الكرم فيعمره ويصلحه حتى يعود كالذي كان ليلة نفشت فيه الغنم، ثم يعطى صاحب الغنم غنمه ويعطى صاحب الكرم كرمه" [2]. فهذه المعرفة لم تحصل لسليمان بكثرة التجارب بل بعناية الله.

3. الـروح:

الروح سرّ الحياة واستمرارها، بها يبدأ الإنسان وبها ينتهي. وقد وردت كلمة "روح" ومشتقاتها في القرآن الكريم (21) مرة [3]. والروح، كما هو معلوم هي الشطر الغيبي من الإنسان، وهي سرّ من أسرار الله سبحانه وتعالى، أودعها مخلوقاته، ولكننا لا نعرف عنها سوى القليل، قال تعالى: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)[4]. فلا يدري أحد مكانها أو ماهيتها أو كيفية حلولها في الجسد ومفارقتها له. ومع ذلك "فليس في الكتاب والسنة أن المسلمين قد نهوا أن يتكلموا في الروح بما دل عليه الكتاب والسنة لا في ذاتها ولا في صفاتها" [5]. ولا يعني القول بمفهوم الروح عند ابن تيمية، تقديم تعريف جامع مانع لها، يعبّر عن حقيقتها، بل ولا محاولة ذلك، فالروح سرّ إلهي. وقد قدمت لنا الرسالة الإلهية معلومات محددة عنها وبالقدر الذي نحتاجه، والعقل الإنساني وإن وقف على بعض صفات الروح، بإخبار الوحي، إلا إنه قاصر عن إدراك كنهها أو تكييفها لأنه لم يشهد لها نظيراً ولم يدرك حقيقتها بالمشاهدة.

هذا وقد وردت كلمة "روح" ومشتقاتها في القـرآن الكـريم بمعـانٍ مختلفـة، لعـل أبرزها التالية:

---

(1) الأنبياء، 78-79.

(2) مختصر تفسير ابن كثير للصابوني، ج2، ص 516.

(3) محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

(4) الإسراء، 85.

(5) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج4، ص 231.

1. **الروح بمعنى جبريل عليه السلام**، ويتضح ذلك في الآيات الكريمة التالية:

(نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ) [1].

(قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ)[2].

2. **الروح بمعنى القرآن الكريم**، ويتضح ذلك في قوله تعالى:

(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا)[3].

3. **الروح بمعنى الوحي الذي يوحيه الله سبحانه إلى رسله وأنبيائه**، ويتضح ذلك في قوله تعالى: (يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ)[4].

4. **الروح بمعنى إفاضة الحياة من الله على الإنسان**، ويتضح ذلك في قوله تعالى:

(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ)[5].

(ثمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ)[6].

5. **الروح بمعنى التأييد والنصرة التي يؤيد الله بها من يشاء من عباده**، ويتضح ذلك في قوله تعالى: (أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ) [7].

6- **الروح بمعنى المسيح ابن مريم عليه السلام**، ويتضح ذلك في قوله تعالى: : (إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ) [8]، وقد أضيفت هنا الروح إلى الله على سبيل التشريف.

---

(1) الشعراء، 193-194.

(2) النحل، 102.

(3) الشورى، 52.

(4) غافر، 15.

(5)الحجر، 29.

(6) السجدة، 9.

(7) المجادلة، 22.

(8) النساء، 171.

وفي "مجموع الفتاوى"، يذكر ابن تيمية أن الروح على نوعين:

أ. **روح الحياة:** وهي اللطيفة الربانية التي هي سرّ الحياة والبقاء. وتكون بها الحركة والنشاط. فهي التي تسبب حركة الدم في الجسد بواسطة النفس ونبض القلب. وهي الروح التي يفقدها الإنسان عند موته. ويشترك فيها المؤمن والكافر.

الروح المدركة: وهي روح جوهرية مجردة من المادة تتعلق بالجسد تعلق تدبير وتصريف أمور، بها يدرك الإنسان الحسن من القبيح، والخير من الشر، فهي مرادفة للعقل، وهي مناط آدمية الإنسان، قال تعالى: (ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ) [1]. فهي نفحة من روح الله تتمثل في الوعي والإرادة وتعكس القيم التي يحملها الإنسان. فالبر والإخاء والعدل والرحمة والإيمان بالمثل العليا، والسعي إلى تحقيقها كلها أمثلة على أنشطة الروح المدركة، التي لا تدركها الحواس بل تدرك آثارها. فمن أوتيها عرف الله فهو الحي حقاً، وهي الروح المشار إليها في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) [2]. وهي الروح التي لا تموت أبداً، بل تفارق الجسد عند الموت وعليها يقع الحساب وما يتبعه من ثواب وعقاب في الآخرة.

وللروح صفات منها: أنها تنفخ في الجسد، كما في قوله تعالى:(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) [3]. والروح (بمعنى النفس) تخرج، كما في قوله تعالى: (وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ)[4]، والروح تُمسك وتُرسل، كما في قوله تعالى(اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) [5]، والروح تصعد وترجع وتقبض. وللروح أصوات لا نسمعها لقصور الأذن البشرية عن إدراكها، رحمة من الله تعالى بالبشر الأحياء حتى لا يصابون

---

(1) السجدة، 9.

(2) الأنفال، 24.

(3) الحجر، 29.

(4) الأنعام، 93.

(5) الزمر، 42.

بالذعر والهلع، فقد روى البخاري في صحيحه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال عن الروح "سمع صوتها كل شيء إلا الإنسان لو سمع الإنسان لصعق".

وهكذا يمكن القول بأن الروح التي تقبض وتنفخ وتمسك وترجع وتصعد... هي روح واحدة وهي جوهر مستقل عن البدن. وهي ترادف النفس بمعناها الخاص. أما الروح التي يؤيد الله بها أولياءه من الأنبياء والرسل فروح أخرى غيرها.

وقد تحدث ابن عباس رضي الله عنهما عن مفهومي النفس والروح، ووضّح العلاقة بينهما في قوله "يوجد في بني آدم نفس وروح بينهما مثل شعاع الشمس؛ فالنفس التي بها العقل والتمييز، والروح التي بها التنفس والتحرّك. فإذا نام الإنسان قبض الله سبحانه نفسه ولم يقبض روحه، وإذا مات قبض الله روحه ونفسه". كما تحدث العلماء المسلمون والفلاسفة عن مفهوم الروح وعلاقتها بالنفس الإنسانية، فقد رأى ابن سينا(1) أن الروح هي النفس دون تفريق بينهما، وأن الروح هي التي تهب الجسم حياته العقلية.

أما ابن القيم، فيرى في كتابه "الروح" أن "الروح جسم نوراني متحرك من العالم العلوي، مخالف بطبعه لهذا الجسم المحسوس. فسار فيه سريان الماء في الورد، والدهن في الزيتون، لا يقبل التبديل والتفريق والتمزيق، يفيد الجسم المحسوس بالحياة وتوابعها ما دام صالحاً لقبول الفيض وعدم حدوث ما يمنع السريان وإلا حدث الموت" (2).

ويرى ابن القيم أن للروح معانٍ متعددة، فتطلق على القرآن الكريم وعلى الوحي الذي أوحاه إلى أنبيائه ورسله، مستشهداً بالآيات الكريمة المذكورة سابقاً. "وسميت الروح روحاً، في رأيه، لأن بها حياة البدن. ثم يضيف معنى آخر للروح فيقول: "الروح تطلق على أخصّ من هذا كله وهو قوة المعرفة بالله والإنابة إليه ومحبته وانبعاث الهمة إلى طلبه وإرادته. وهي الروح التي يؤيد بها أهل ولايته وطاعته. فللعلم روح وللإحسان روح وللإخلاص روح وللتوكل روح وللصدق روح... والناس متفاوتون في هذه الأرواح أعظم تفاوت، فمنهم من تغلب عليه هذه الأرواح فيصير روحانياً ومنهم من يفقدها أو أكثرها فيصير أرضياً بهيمياً". ويضيف "وسميت النفس روحاً لحصول الحياة بها، وسميت نفساً إما من الشيء النفيس لنفاستها وشرفها، وإما من تنفس الشيء إذا خرج، فلكثرة خروجها ودخولها في البدن سميت نفساً، ومنه النَفَس بالتحريك، فإن العبد كلما نام خرجت منه، فإذا استيقظ رجعت إليه، فإذا مات خرجت خروجاً كلياً، فإذا دفن عادت

---

(1) ابن سينا، نظرية المعرفة.

(2) ابن القيم، الروح، ص 349.

إليه، فإذا سئل خرجت، فإذا بُعث رجعت إليه. فالفرق بين النفس والروح فرق بالصفات لا فرق بالذات، وإنما سمي الدم نَفْساً لأن خروجه الذي يكون معه الموت يلازم خروج النفس، وأن الحياة لا تتم إلا به كما لا تتم إلا بالنفس" [1]. وقد قدَّم ابن القيم مئة دليل على أن "الروح جوهر مستقل عن البدن" [2] فلا تطلق على البدن لا بانفراده ولا مع النفس. كما ساق اثني عشر دليلاً من أدلة خلق الروح. فالروح مخلوقة[3].

ويرى ابن حزم في كتابه "الفصل في الملل والنحل" أن "النفس والروح اسمان لمسمى واحد، ومعناهما واحد" [4]. أما الغزالي فيرى في كتابه "معارج القدس في مدارج معرفة النفس" أن الروح هي "البخار اللطيف الذي يصعد من منبع القلب، ويتصاعد إلى الدماغ بواسطة العروق أيضاً إلى جميع البدن، فيعمل في كل موضوع بحسب مزاجه واستعداده عملاً. وهو مركب الحياة. فهي البخار كالسراج، والحياة التي قامت به كالضوء. وكيفية تأثيره في البدن ككيفية تنوير السراج أجزاء البيت. ويطلق ويراد به المبدع والصادر من أمر الله تعالى الذي هو محل العلوم والوحي والإلهام. وهو من جنس الملائكة مفارق للعالم الجسماني، قائم بذاته. ويطلق أيضاً ويراد به الروح الذي في مقابله جميع الملائكة، وهو روح القدس، ويراد به القرآن على الجملة" [5].

ويمكن استخلاص المعنى التالي للروح عند ابن تيمية: الروح مخلوقة ومبدعة وليست قديمة. وهي عين قائمة بذاتها، ليست من جنس البدن ولا العناصر والمولدات منها، وليست جزءاً من الذات الإلهية، ولها صفاتها الثبوتية والسلبية المخبر بها شرعاً. وهي لا تعدم ولا تفنى بموتها ولكن موتها مفارقة الأبدان. وعند النفخة الثانية تعاد الأرواح إلى الأبدان. وفي ذلك يقول ابن تيمية "الروح الآدمي مخلوقة، مبدعة باتفاق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة". واستدل على ذلك بجملة من الأدلة منها أنها "لو لم تكن مخلوقة لما أقرّت بالربوبية، فقد قال لهم حين أخذ الميثاق – وهم أرواح في أشباح- كالذر: "ألست بربكم؟(قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا)[6]. ولأنها لو لم تكن مخلوقة ما كان على

(1) ابن القيم، الروح، ص 295.

(2) ابن القيم، الروح، ص 285.

(3) ابن القيم، الروح، ص 235.

(4) انظر: الغنيمي، ابن قيم الجوزية، ص 271.

(5) الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، ص 16.

(6) الأعراف، 172.

النصارى لوم في عبادتهم عيسى عليه السلام، ولا حين قالوا: أنه ابن الله، وقالوا: هو الله. ولأنه لو كانت الروح غير مخلوقة ما دخلت النار، ولأنها لو لم تكن مخلوقة لما حجبت عن الله، ولا غيبت في البدن، ولا ملكها ملك الموت. ولما كانت صورة توصف. ولأنها لو لم تكن مخلوقة لم تحاسب ولم تعذب، ولم تتعبد ولم تخف، ولم ترجُ، ولا أن أرواح المؤمنين تتلألأ وأرواح الكفار سود مثل الحمم" [(1)].

ويضيف ابن تيمية في بيان صفاتها "الروح التي فينا فإنها قد وصفت بصفات ثبوتية، وقد أخبرت النصوص أنها تعرج وتصعد من سماء إلى سماء، وأنها تقبض من البدن وتسلّ منه كما تسلّ الشعرة من العجينة" [(2)]. وهذه الروح "ليست هي من جنس هذا البدن، ولا من جنس العناصر والمولدات منها، بل هي من جنس آخر مخالف لهذه الأجناس لكنه وقوفاً عند حدّ الشرع لا يتكلف في بيان هذا الجنس كما تكلفه آخرون بلا علم" [(3)].

وينفي أن تكون الروح هي الجسم. فالجسم هو الجسد أو البدن، وبهذا الاعتبار "فالروح ليست جسماً" [(4)]. وبما أن الروح مخلوقة، فهي ليست جزءاً من الذات الإلهية، كما ذهب إلى ذلك من ذهب، وهو قول شدّد ابن تيمية النكير على أصحابه، فقال "وصنف من زنادقة هذه الأمة وضلاّلها – من المتصوفة والمتكلمة والمحدثة يزعمون أنها (أي الروح) من ذات الله، فهؤلاء قد جعلوا الآدمي بذلك نصفين: نصف لاهوت، وهو روحه، ونصف ناسوت، وهو جسده، نصفه رب ونصفه عبد [(5)].

ويكشف ابن تيمية الفهم الخاطئ للأدلة لمن ذهب إلى هذا القول ويرده إلى الصواب، فيقول: وقالت "غلاة الشيعة، والصوفية ومن اتبعهم ممن يقول بقدم الروح – أرواح العباد: إضافة الروح على الله كإضافة الكلام والقدرة، والكلام والقدرة صفاته فكذلك الروح. وقالوا في قوله:(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي)[(6)] دليل على أن روح العبد صفة لله قديمة". ورد على ذلك بقوله: "أن الفارق بين المضافين: أن المضاف

---

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج4، ص 220-221.

(2) المرجع السابق، ج3، ص 31.

(3) المرجع السابق، ص 32.

(4) المرجع السابق، ص 32.

(5) المرجع السابق، ج4، ص 222.

(6) الحجر، 29.

إن كان شيئاً قائماً بنفسه أو حالاً في ذلك القائم بنفسه فهذا لا يكون صفة لله، لأن الصفة قائمة بالموصوف. فالأعيان التي خلقها الله قائمة بأنفسها، وصفاتها القائمة بها تمتنع أن تكون صفات لله، فإضافتها إليه تتضمن كونها مخلوقة مملوكة، لكن أضيفت لنوع من الاختصاص المقتضي للإضافة لا لكونها صفة. والروح الذي هو جبريل من هذا الباب. وروح بني آدم من هذا وذلك كقوله تعالى:(فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا)[1].

مما سبق، يمكن القول بأن الروح روحان؛ روح بمعنى مركب الحياة (وهي التي تقبض وتنفخ وتمسك وترجع... وهي روح واحدة) وروح يؤيد الله سبحانه بها أولياءه أو من يشاء من عباده. وبالعودة إلى معنى النفس الإنسانية ومدلولاتها، كما وردت في القرآن الكريم ومقارنتها بمعاني الروح الواردة سابقا، يمكن القول بأن النفس بمعناها العام أعم من الروح وأشمل، وبمعناها الخاص ترادفه.

4. العمل (السـلوك):

يشكل العمل جوهر الإسلام، فالدين المعاملة، وعندما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أي المسلمين أفضل؟ قال: "من سلم المسلمون من لسانه ويده". ويُعبَّر عن السلوك الإنساني في القرآن الكريم بمصطلح "العمل"، ويقصد به جميع الأفعال أو الاستجابات أو ردود الفعل التي تصدر عن الإنسان (النفس بمعناها العام)، سواء كانت الأعمال صالحة أو غير صالحة. ويقابل مفهوم "العمل الصالح" في الإسلام مفهوم "السلوك المرغوب فيه" في علم النفس المعاصر، فيما يقابل "العمل غير الصالح" "السلوك غير المرغوب فيه".

وقد وصف القرآن الكريم الذين يعملون الصالحات بأنهم خير البشر، قال تعالى:(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ)[2]، كما كشف القرآن الكريم الآثار المترتبة على العمل الصالح، ومنها أنه سبحانه سيكفر عن الذين يعملون الصالحات سيئاتهم، قال تعالى(وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآَمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ)[3]، وسيمنّ الله عليهم بالمغفرة والأجر العظيم، قال تعالى: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ

---

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج17، ص 150-151.

(2) البينة، 7.

(3) محمد، 2.

عَظِيمٌ) [1]، ويدخلهم جنته، قال تعالى: (مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ) [2]، ويرفعهم الله الدرجات العليا، قال تعالى:(وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَا)[3]. ويضاعف لهم الجزاء بما عملوا، قال تعالى: (وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آَمِنُونَ)[4]، وسيحظون بلقاء ربهم، قال تعالى(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)[5].

وبالمقابل، فقد وصف القرآن الكريم الذين يعملون السيئات بقسوة القلب وضعف الإرادة والانقياد وراء وساوس الشيطان، قال تعالى:(وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [6]، وعليه، فلن يوجههم الله إلى طريق الهداية، قال تعالى: (زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)[7].

كما كشف القرآن الكريم الآثار المترتبة على العمل السيئ ومنها أن الذين يعملون السيئات سيتعرضون إلى العذاب الشديد، قال تعالى: (أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)[8]. وستحبط أعمالهم يوم القيامة، قال تعالى: (حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)[9]، وفي الآخرة ستشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، قال تعالى:(يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [10].

---

(1) المائدة، 9.

(2) غافر، 40.

(3) طه، 75.

(4) سبأ، 37.

(5) الكهف، 110.

(6) الأنعام، 43.

(7) التوبة، 37.

(8) المجادلة، 15.

(9) الأعراف، 147.

(10) النور، 24.

ويقتضي وجود مصدرين للمعرفة في الإسلام (المصدر الإلهي والمصدر البشري، أو الوحي والعقل) وجود نظامين متناغمين لوصف السلوك الإنساني وتفسيره، يتعلق أحدهما بالجانب الروحي والآخر بالجانب المادي. ولتوضيح ما نذهب إليه، نسوق المثال التالي: يتوقف عمل الجهاز العصبي الإرادي (وهو الجانب المادي) عند النوم، كما تقبض الروح كذلك (الجانب الروحي). وعندما تفارق الروح جسد الإنسان، بطريقة لا يعلمها إلا الله سبحانه، يفقد الجسد القدرات التي تضفيها عليه الروح عند اليقظة، من مثل الإدراك والتعلم والبصر والسمع والقدرة على الاختيار...الخ، فيما تعود هذه القدرات بعودة الروح إلى الجسد حال يقظته. وينسحب الحديث نفسه على كافة أشكال السلوك الإنساني، بدءاً من السلوكات اللاإرادية كإغلاق الجفن عند النفخ على العين بالهواء أو سحب الساق عند وخزه بالإبرة، وحتى أكثر أشكال السلوكات الإنسانية تعقيداً.

وتتعدد السلوكات الإنسانية وتتنوع وتتعقد داخل كل نظام، بحيث يصعب النظر إليها على أنها تقع في مستوى واحد من حيث درجة التعقيد. وقد كشف ذلك بوضوح ابن خلدون في مقدمته، إذ يرى أن السلوكات الإنسانية ترتب هرمياً، بحيث يكون بعضها متطلباً سابقاً للآخر. ففي قاع الهرم تكون السلوكات الخاصة بعالم الحس (أي التي تقود إلى الإدراك الحسي)، تعلوها السلوكات الخاصة بعالم الفكر (أي التي تقود إلى الإدراك العقلي). أما قمة الهرم فتحتله السلوكات الخاصة بالإرادة (أي التي تأتي من عالم الحق وقد تؤدي إلى الرؤيا الصادقة، وقد يستدل عليها بالنبوة). يقول ابن خلدون مبيناً ذلك "إننا نشهد في أنفسنا بالوجدان الصحيح وجود ثلاثة عوالم: أولها عالم الحس ونعتبره بمدارك الحس التي شاركنا فيها الحيوانات بالإدراك. ثم نعتبر الفكر الذي اختص به البشر، فنعلم عنه وجود النفس الإنسانية علماً ضرورياً بما بين جنبينا من مداركها العلمية التي هي فوق مدارك الحس فنراه عالماً فوق عالم الحس. ثم نستدل على عالم ثالث فوقنا بما نجد فينا من آثاره التي تلقى في أفئدتنا كالإرادات والوجهات نحو الحركات الفعلية. فنعلم أن هناك فاعلاً يبعثنا عليها من عالم فوق عالمنا هو عالم الأرواح والملائكة. وفيه من الأمور التي نحن في غفلة عنها في اليقظة، وتطابق الواقع في الصحيحة منها. فنعلم أنها حق ومن عالم الحق"[1].

(1) ابن خلدون، المقدمة، ص 113.

وهكذا يمكن القول بأن تفسير السلوك الإنساني لا يتم إلا من خلال النظامين المادي والروحي، وأن السلوكات الإنسانية تتباين في مستويات تعقيدها، وتتدرج هرمياً بحيث تبدأ بالأفعال (السلوكات) المنعكسة الطبيعية (اللاإرادية)، تعلوها السلوكات الناتجة عن الإدراك الحسي، فالسلوكات الناتجة عن الإدراك العقلي وهكذا...

ويرد في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والتراث الإسلامي أكثر من تصنيف للسلوك الإنساني، لعل أبرزها التالية:

أ- **السلوك الفطري مقابل السلوك المكتسب**، ويتضح ذلك في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم "كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ حَتَّى يُعْرِبَ عَنْهُ لِسَانُهُ، فَإِذَا أَعْرَبَ عَنْهُ لِسَانُهُ، إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا" [1]. كما روى أحمد في مسنده قول رسول صلى الله عليه وسلم "لَيْسَتْ نَسَمَةٌ تُولَدُ إِلاَّ وُلِدَتْ عَلَى الْفِطْرَةِ فَمَا تَزَالُ عَلَيْهَا حَتَّى يُبِينَ عَنْهَا لِسَانُهَا، فَأَبَوَاهَا يُهَوِّدَانِهَا أَوْ يُنَصِّرَانِهَا" [2].

ب- **السلوك السوي مقابل السلوك المنحرف** (أي السلوك غير السوي)، كما يتضح في قوله تعالى(وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ) [3] مبيناً السلوك المنحرف بتعدي حدود الله سبحانه، وقوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ)[4] مبيناً السلوك السوي للمتقين، وقوله تعالى: (أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ) [5] مبيناً السلوك المنحرف عن الفطرة. وفي سورة المائدة، يقول تعالى(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آَدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآَخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (27) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ28) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (29) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ)[6] مبيناً السلوك السوي لهابيل والسلوك المنحرف لقابيل. وقال تعالى على لسان

---

(1) رواه جابر بن عبد الله في مسند أحمد، المكثرين، باب جابر بن عبد الله، حديث رقم 14277.

(2) مسند المدنيين أجمعين، باب حديث الأسود بن سريع، حديث رقم 15713.

(3) الطلاق، 1.

(4) الأعراف، 201.

(5) الفرقان، 43.

(6) المائدة، 27-30.

السامري الذي صنع العجل ودعا بني إسرائيل لعبادته:(وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي)[1]، مبيناً السلوك المنحرف عن الفطرة للسامري. و يزخر القرآن الكريم بالأمثلة على هذين النوعين من السلوك. وجدير بالذكر أن معيار السواء للسلوك هو المعيار العقائدي وليست المعايير الاجتماعية، كما هو الحال في الفكر النفسي التربوي الغربي.

ج- **السلوك الظاهري مقابل السلوك الباطني**، ويتضح ذلك في قوله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ)[2]. فالسلوك الظاهري لهؤلاء الناس يدل على الطيبة والمودة، فيما يخفى باطنهم سلوكاً عدوانياً. كما يتضح هذا التصنيف في قوله تعالى: (يَحْسَبُهُمُ لْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا)[3]، أي أنهم فقراء تظنهم ميسورين؛ فعزة نفوسهم تجعلهم لا يطلبون الصدقة. وقال تعالى في سورة آل عمران : (يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ) [4]، أي أنهم منافقون يتظاهرون بالإيمان ويبطنون الكفر.

ويسمي ابن تيمية[5] السلوكات الباطنية أحوالاً ومقامات، ويعدّها من أصول الإيمان وقواعد الدين، ومن الأعمال الباطنية محبة الله والتوكل عليه والإخلاص له. أما السلوكات الظاهرية، فيرى أن قوامها العبادات الظاهرة من صلاة أو صيام أو حج أو زكاة. والسلوكات الباطنية لا يعلم حقيقتها إلا الله سبحانه، ولكننا نستدل عليها من السلوكات الظاهرية، ومرشدنا في ذلك الاقتران بين الإيمان والعمل الصالح، فالعمل الصالح يخضع للملاحظة المباشرة، أما الإيمان فلا يخضع لها، ولكننا نستنتجه من العمل الصالح، والله سبحانه هو الذي يعلم السرائر.

هذا ومن الجدير بالذكر أن الإسلام يجري أحكام الناس على أساس سلوكهم الظاهري، وسرائرهم إلى الله سبحانه، قال تعالى:(فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا

---

(1) طه، 96.

(2) البقرة، 204.

(3) البقرة، 273.

(4) آل عمران، 167.

(5) ابن تيمية، مجموع الفتاوى.

الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ) [1]. وَعَنْ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُتْبَةَ بن مسعود قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه يَقُولُ" إِنَّ أُنَاسًا كَانُوا يُؤْخَذُونَ بِالْوَحْيِ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، وَإِنَّ الْوَحْيَ قَدْ انْقَطَعَ، وَإِنَّمَا نَأْخُذُكُمْ الآنَ بِمَا ظَهَرَ لَنَا مِنْ أَعْمَالِكُمْ. فَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا خَيْرًا أَمِنَّاهُ وَقَرَّبْنَاهُ وَلَيْسَ إِلَيْنَا مِنْ سَرِيرَتِهِ شَيْءٌ. اللَّهُ يُحَاسِبُهُ فِي سَرِيرَتِهِ. وَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا سُوءاً لَمْ نَأْمَنْهُ وَلَمْ نُصَدِّقْهُ، وَإِنْ قَالَ إِنَّ سَرِيرَتَهُ حَسَنَةٌ" [2]. وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ "أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ. فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلاَّ بِحَقِّ الإِسْلاَمِ. وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ" [3]. وَعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رضي الله عنهما قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فِي سَرِيَّةٍ إلى الْحُرَقَةِ مِنْ جُهَيْنَةَ فَصَبَّحْنَا القوم على مياههم، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رَجُلاً منهم، فلما غشيناه قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ فكفّ عنهُ الأنصاري وَطَعَنْتُهُ برمحي حتى قتلته. فلما قدمنا المدينة بلغَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم ذلك فَقَالَ لِي: أَقَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَقَتَلْتَهُ؟ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا قَالَهَا خَوْفًا مِنْ السِّلاحِ، قَالَ: أَفَلاَ شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لاَ؟ فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي أَسْلَمْتُ يَوْمَئِذٍ [4].

أما قبول الله تعالى للسلوك فيرتبط بالنيَّة، مصداقاً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم "إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى" [5]. وقد بيّن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم أن من كانت نيته من العمل خالصة لله سبحانه فقد وقع الأجر على الله، ومن كانت نيَّته من العمل متجهة لغير مرضاة الله سبحانه فقد حبط عمله، فعن أبي هريرة قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ "إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا، قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا، قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي

---

(1) التوبة، 11.

(2) رواه البخاري، كتاب الشهادات، باب الشهداء والعدول، حديث رقم 2447.

(3) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم، حديث رقم 24.

(4) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله، حديث رقم 140.

(5) رواه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي، حديث رقم 1.

النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا، قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلاَّ أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ"[1]. وهكذا يمكن القول بأن الله سبحانه لا يحكم على السلوك الظاهري للمرء فحسب، بل ينظر في النيَّة. فقد يتوافق السلوك الظاهري مع النية الحسنة، وقد تخالف النية السلوك الظاهري فتحبط السلوك وتفسده. وعليه، فالإنسان محاسب على سلوكه الظاهري والباطني. فالله سبحانه لا ينظر إلى صور البشر وأموالهم، ولكن ينظر إلى قلوبهم وأعمالهم.

وكما ذكرنا سابقاً، فإن المفهوم الإسلامي للشخصية وتحديد معالمها وما يصدر عنها من سلوكات تنبثق من النظرة الإسلامية إلى الطبيعة الإنسانية، فإن المقام يقتضي بيان التصوّر الإسلامي للإنسان وعلاقته بالكون والحياة للتعرّف على بنيته وخصائصه وطرق تكيفه مع البيئة وغاية وجوده.

- **التصور الإسلامي للإنسان:**

من المعلوم أن صورة الإنسان عن نفسه وصورة الآخرين عنه تعدّ حاسمة في تكوين شخصيته وتنعكس على سلوكه، لذا لا بد من تحديد نظرة الإسلام إلى الإنسان، حتى ننطلق مها إلى رسم معالم الشخصية من منظور نفسي إسلامي. وفيما يلي عرض لأبرز ملامح هذه النظرة الشمولية المتكاملة:

1. **نظر الإسلام إلى الإنسان على أنه مخلوق مكرَّم**، كرّمه الله سبحانه وميّزه بالرفعة وأحلّه المكانة اللائقة به على سلّم التفاضل القيمي للمخلوقات، قال تعالى: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا)[2]. وقد كشفت قصة خلق آدم عليه السلام وأحداثها هذا التفضيل للإنسان فقد أحدث وجوده تغييراً جذرياً في النسب بين المخلوقات بحيث اصبح المخلوق الذي ترنو إليه المخلوقات جميعاً. فقد أمر سبحانه الملائكة التي كانت أشرف المخلوقات بالسجود له، قال تعالى:(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ)[3]. وبسجودهم نالوا رضا الله، وبامتناع إبليس من السجود نال اللعنة من الله. وما ذلك إلا دليل على تحوّل النسب بين المخلوقات لتكون في صالح الإنسان.

والإنسان مكرَّم بنعمة العقل، فقد أنعم الله عليه بأدوات العلم والمعرفة، ومنها السمع والبصر والفؤاد، قال تعالى:(وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ

(1)الإسراء، 70.

(2)البقرة، 34.

شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)[1]. كما أنعم الله على الإنسان بأدوات العلم الأخرى كالنطق واستخدام اللغة في التعلم والتعليم والتفكير والاتصال الاجتماعي، قال تعالـى:(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) [2]، وقال تعالى(ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ) [3]، وقال تعالى: (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (31)قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)[4].

ولم ينعم الله على الإنسان بأدوات العلم والمعرفة بدون غاية، بل لتعلم شريعة الله وتعليمها للآخرين. فالإنسان موضوع الرسالات السماوية ودعوات الإصلاح، قال تعالى (رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آَيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) [5]، وحثهم علـى التفكر في آيات الله في النفس، قال تعالى:(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)[6] وفي مخلوقاته الأخرى، قال تعالى(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (20) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ)[7].

وتكريماً للإنسان وحفاظاً على حقه في الحياة، حرّم الله سبحانه قتل النفس إلا بالحق، وجعل قتلها كقتل الناس جميعاً، قال تعالى: (مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا)[8]. وقال تعالى: (وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ)[9].

---

(1) النحل، 78.

(2) الرحمن، 1-4.

(3) القلم، 1.

(4) البقرة، 31-32.

(5) البقرة، 129.

(6) الذاريات، 21.

(7) الغاشية، 17-22.

(8) المائدة، 32.

(9) الإسراء، 33.

2. **نظر الإسلام إلى الخلق الأول للنفس الإنسانية على أنها قبضة من طين ونفخة من روح الله**، وبهذه الطبيعة الثنائية انفرد الإنسان عن بقية المخلوقات، ثم خلق الله منها زوجها، ثم خلق منها جميع البشر عن طريق التزاوج، قال تعالى:(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً)[1]. إن هذه الطبيعة الثنائية للإنسان لا تعني أن مكوني الجسم والروح يعمل كل منهما على نحو مستقل عن الآخر، بل متفاعلان؛ فأداء الصلاة مثلاً يقتضي السجود والركوع... (الجانب الجسمي)، كما يقتضي الخشوع والابتهال (الجانب الروحي). ويقتضي توافق الشخصية تحقيق الانسجام والتكامل بين متطلبات الجسم والروح، فلا يجوز أن يولي المرء اهتمامه بالجسم ويهمل الروح، قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم "إِنَّ لِنَفْسِكَ عليك حَقًّا"[2]. كما لا يجوز أن يولي اهتمامه بالروح ويهمل الجسم، قال تعالى: (وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ)[3]. وهكذا لا بد من التوازن بين مطالب الجسم والروح دون أن يطغى أحدهما على الآخر، قال تعالى(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا)[4].

3. **نظر الإسلام إلى الإنسان على أنه مولود على الفطرة القويمة السوّية**، قال تعالى: (فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ)[5]. وجاء في مختصر تفسير ابن كثير لهذه الآية الكريمة، "أن على الإنسان اتباع الدين الذي شرعه الله له من الحنيفية وملازمة الفطرة السليمة القائمة على معرفة الله وتوحيده"[6].

وقال سبحانه: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ)[7]. فقد استخرج الله ذرية بني آدم من أصلابهم وأشهدهم على أنفسهم أن الله ربهم وفطرهم وجبلهم على ذلك. وقد جاء في تفسير الجلالين لهذه الآية الكريمة "واذكر إذ حين أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم بأن أخرج بعضهم من صلب بعض من صلب آدم، نسلاً

---

(1) النساء، 1.

(2) رواه البخاري في كتاب الجمعة، باب من ترك قيام الليل لمن كان يقومه، حديث رقم 1085.

(3) الحديد، 27.

(4) القصص، 77.

(5) الروم، 30.

(6) مختصر تفسير ابن كثير للصابوني، ج3، ص 53-54.

(7) الأعراف، 172.

بعد نسل كنحو ما يتوالدون كالذر بنعمان يوم عرفة، ونصب لهم دلائل على ربوبيته وركّب فيهم عقلاً، وأشهدهم على أنفسهم، قال: ألست بربكم؟ قالوا: بلى أنت ربنا، شهدنا بذلك، والإشهاد له أن لا يقولوا، أي الكفار، يوم القيامة، إنّا كنا عن هذا التوحيد غافلين لا نعرفه"[1].

ويعرّف الراغب الأصفهاني كلمة "الفطرة" بقوله "وفطر الله الخلق وهو إيجاده الشيء أو إبداعه على هيئة مترشحة لفعل من الأفعال. فقوله (فطرة الله التي فطر الناس عليها) إشارة منه تعالى إلى ما فطر أي أبدع وركز في الناس من معرفته تعالى. وفطرة الله هي ما ركز من قوته على معرفة الإيمان وهو المشار إليه بقوله (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله)[2].

وقد حفظ الله الفطرة من تأثير الوالدين أو شركهم. فالصفة المكتسبة لا تنتقل إلى الذرية. وقد أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مثل ذلك عند حديثه صلى الله عليه وسلم عن البهيمة الجدعاء أو كاملة الخلقة، فهي لا تلد بهيمة جدعاء. وعليه، يمكن القول بأن كل مولود يولد متهيئاً للإسلام، فإذا بقيت نفسه على أصل الفطرة، فإنها لا تأمر إلا بالخير، ولكن عندما تطرأ عليها وساوس الشيطان فإنها تتحول عن السواء.

وَقَالَ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم "يَقول الله عزّ وجل إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا"[3]. وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ "مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلاَّ وَالشَّيْطَانُ يَمَسُّهُ حِينَ يُولَدُ فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ إِيَّاهُ إِلاَّ مَرْيَمَ وَابْنَهَا"[4]، انظر في قوله تعالى: (وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)[5]. وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ "مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلاَّ نَخَسَهُ الشَّيْطَانُ، فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا مِنْ نَخْسَةِ الشَّيْطَانِ، إِلاَّ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ"[6].

وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "

---

(1) تفسير الجلالين، ص 225.

(2) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص 384.

(3) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرفها بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، حديث رقم 5109.

(4) رواه والبخاري، كتاب تفسير القرآن، باب وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان، حديث رقم 4184.

(5) آل عمران، 36.

(6) رواه مسلم في كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى، حديث رقم 4363.

كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ حَتَّى يُعْرِبَ عَنْهُ لِسَانُهُ، فَإِذَا أَعْرَبَ عَنْهُ لِسَانُهُ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا" [1].

4. **ألهم الله سبحانه وتعالى الإنسان، بالفطرة، طريق التقوى وطريق الفجور وأوقعها في القلب**، قال تعالى:(فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) [2] وجعله قادراً، بنعمة العقل، على التمييز بين الطريقين أي على التمييز بين ما عليه أن يأتي من خير يؤدي به إلى السعادة وما يذر من شر يؤدي إلى الألم والخيبة، وأرشده إلى ما قدّر له. كما منحه حرية الإرادة ليختار طريقه، قال تعالى:(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)[3]، وقال تعالى:(وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)[4]، وقال تعالى: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ)[5]. ومن المعلوم أن مغزى الحياة الدنيا في الإسلام هو امتحان لإرادة الإنسان في خلافة الأرض. كما أن الحياة الآخرة محصلة لتلك الإرادة إن خيراً فخير وإن شراً فشرّ.

وقد نفى الإسلام الإكراه في الاعتقاد، قال تعالى: (إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَايَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ) [6]، وقال سبحانه: (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) [7]. ويزخر التاريخ الإسلامي بشواهد لتأصيل الحرية لدى البشر وتجنب الإكراه في الأمور الدينية؛ فسعد بن عبادة، مثلاً، وهو صحابي جليل عاش في عهد أبي بكر رضي الله عنه ولم يبايعه على الخلافة وتوفي دون أن يبايع عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

هذا وقد منح الإسلام الحرية، ولكنه لم يتركها فوضى، لذلك رتّب المسؤولية الفردية مقابل الحرية الفردية، فالإنسان مسؤول عن أعماله (من قرارات واختيارات

---

(1) رواه أحمد في مسند المكثرين، باب جابر بن عبد الله، حديث رقم 14277.

(2) الشمس، 8.

(3) الإنسان، 3.

(4) يونس، 108.

(5) الزمر، 7.

(6) البقرة، 256.

(7) يونس، 99.

والتزامات)، الصالحة منها والسيئة، أمام الله والقانون وضميره (أي ضمير الإنسان) والمجتمع، قال تعالى:(أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)[1]، وقال تعالى: (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ) [2]، ويقصد بالمسؤولية هنا المحاسبة والاستجواب، قال تعالى(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) [3]. وعلاوة على المسؤولية الفردية، فالإنسان مسؤول عما يتسبب فيه ومسؤول عن تصويب سلوكات غيره (بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، قال تعالى: (فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ) [4]، وقال رسول صلى الله عليه وسلم "مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً حَسَنَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا وَلاَ يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا وَلاَ يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ" [5]، كما قال صلى الله عليه وسلم "مَا مِنْ عَبْدٍ اسْتَرْعَاهُ اللَّهُ رَعِيَّةً فَلَمْ يَحُطْهَا بِنَصِيحَةٍ إِلاَّ لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ" [6].

وفي الوقت الذي تعدّ فيه النصرانية واليهودية الإنسان مسؤولاً عن الذنب الذي اقترفه آدم عليه السلام وهو في الجنة، أو من سبقوه في الحياة منذ آدم، فإن الإنسان في الإسلام يولد بريئاً من الذنوب ولا يسأل عن ذنوب من سبقوه في الحياة، قال تعالى: (لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ)[7]. وقال سبحانه(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [8]. فالإنسان يحاسب على ما يعمله هو ولا يثاب أو يعاقب على ما يعمله سواه ولو كان والده أو ابنه، قال تعالى: (مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا)[9].

وفي ضوء اختيار الإنسان بين طريقي الخير والشر، يتحدد مصيره في الدنيا والآخرة، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ)[10].

---

(1) التوبة، 105.

(2) الزلزلة، 7-8.

(3) الأعراف، 6.

(4) النحل، 25.

(5) رواه مسلم، كتاب العلم، باب من سنّ سنة حسنة أو سيئة ومن عاد على الهدى، حديث رقم 4830.

(6) رواه البخاري، كتاب الاحكام، باب من استرعي رعية فلم ينصح، حديث رقم 6617.

(7) البقرة، 134.

(8) الإسراء، 15.

(9) لقمان، 33.

كما جعل الله الإنسان مسؤولاً ليس فقط عن أعماله، بل حتى عن سمعه وبصره وفؤاده، فلا ينبغي استخدامها إلا بالخير، قال تعالى: (فَأَمَّا مَنْ طَغَى (37) وَآَثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (38) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (39 وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)(1). كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لاَ تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ فيه وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْـلاهُ" (2).

ومن الجدير بالذكر أن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي كرَّمه الله بحرية الاختيار. أما المخلوقات الأخرى فتؤدي واجبها دون اختيار، لذلك لم يرِّتب الله تعالى عليها المسؤولية. فالسماوات والأرض تقومان بعملها طوعاً وكرهاً، قال تعالى: (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا) (3). والإنسان مفضَّل على الملائكة بحرية الاختيار. فالملائكة تؤدي واجبها دون اختيار. وما سجودهم لسيدنا آدم عليه السلام إلا نوع من التكريم له بفضل التخيير، قال تعالى(ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ)(4).

5. **الناس متساوون أمام الله والمفاضلة بينهم لا تكون إلا على أساس التقوى**، قـال تعالى: (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)(5)، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لاَ فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ إِلاَّ بِالتَّقْوَى" (6)، وقال صلى الله عليه وسلم "إِنَّ اللَّهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ" (7).

---

(1) النازعات، 37-41.

(2) الإسراء، 36.

(3) أخرجه الترمذي عن أبي برزة، كتاب صفة القيامة والرقائق، والورع، باب مـا جـاء في شـأن الحسـاب والقصـاص، وهـو حـديث حسن صحيح.

(4) فصلت، 11.

(5) البقرة، 34.

(6) الحجرات، 13.

(7) رواه أحمد في مسند الأنصار، باب حديث رجل من أصحـاب النبي، حديث رقم 22391.

(8) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب،باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره، حديث رقم4561.

6. **الهدف من خلق الإنسان وغاية وجوده هو عبادة الله،** قال تعالى:(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)[1]، وقال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)[2]. ويقصد بالعبادة هنا إسلام النفس في كل ما يصدر عنها من فعل وما تذر، بالالتزام التام بفعل ما أمر سبحانه به وترك ما نهى عنه، حتى يتحقق في الكون مظهر من الخضوع لله، والتسليم له، صادرة عن إرادة حرة. فهي عبودية لله يتأسس عليها تفضيل إلهي بالنعمة. وتشمل العبادة كافة أعمال الدنيا والآخرة شريطة إخلاص النية لله تعالى، والعمل وفق شرعه والتصديق بالغيب. ولعلّ أبرز هذه الأعمال ما يتعلق بأركان الإسلام والإيمان.

أما وظيفة الإنسان في الحياة فهي الخلافة في الأرض وعمارتها بطاعة الله وتطبيق شريعته، قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)[3]. والخلافة هي مهمة الوجود الإنساني، وتشير إلى الخلافة عن الله لتحقيق مراده بتنفيذ أوامره في الأرض والابتعاد عما نهى عنه.

وتعدُّ هذه الخلافة تشريفاً للإنسان وتكريماً له، كما قال تعالى(قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)[4]، أي أن الله سبحانه وتعالى مكَّنكم من طلب العمارة وسخَّر لكم ما في الكون للانتفاع به وإعماره والسعي فيه بالإصلاح. ويتحقق ذلك عن طريق اكتشاف القوانين التي تحكم عناصر الكون والعلاقات بينها وضبطها واستخدامها بما يمكّن الإنسان من أداء رسالته. هذا إضافة إلى نشر القيم والمبادئ الإنسانية التي تكفل هداية البشرية، والتي من شأنها تحسين نوعية الحياة (بلغتنا المعاصرة).

فالإنسان مطالب بدفع عجلة الحياة إلى الأمام لترقيتها وإدارة جودتها، بطلب العلم النافع واستغلال طاقات ما فوق الأرض، والتعامل الأمثل مع سنن الكون. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فهو مطالب بإقامة علاقات إنسانية واجتماعية سامية، ابتداء من الأسرة الصغيرة وانتهاء بالمجتمع الإنساني، فالخلق كلهم عيال الله.

---

(1) الذاريات، 56.

(2) الأنبياء، 25.

(3) البقرة، 30.

(4) هود، 61.

وحتى يتمكن الإنسان من القيام بمهمتي الخلافة وعمارة الأرض هيأ الله له الكون لاستقباله، وسخّر له كل ما فيه لخدمته، وبما يضمن له الحفاظ على حياته وتطويرها، وبما يكفل له أداء دوره فيها، قال تعالى: (وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)[1]. فقد بسط الله الأرض لتسهيل الانتقال فيها، قال تعالى: (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (19) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا)[2]. كما خلق الليل للراحة والنهار للحركة والاعتياش، قال تعالى(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (10) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا)[3]، وسخرّ البحر لتسهيل التنقل، قال تعالى: •(اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)[4]. وخصّب التربة لتوفير الغذاء، قال تعالى: (يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)[5]. كما خلق الأنعام لتأمين الغذاء والدفء، قال تعالى: (وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ)[6]، وإن نعدّ نعم الله علينا لا نحصيها. كل ذلك سخّره سبحانه للإنسان ليقبل على الكون باستثماره واكتشاف أسراره وإقامة العمران فيه أداء لرسالته.

وعند تقويم أداء البشر عبر التاريخ للامتحان الذي انطوى عليه الخلق، وهو تحقيق الغاية من وجوده، يتبين أن معظمهم أخفقوا في تحقيق أهداف وجودهم، وتبقى القلّة من البشر الذين آمنوا وسلكوا طريق التقوى، وشكروا النعمة، قال تعالى: (وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)[7]، وقال تعالى: (اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ)[8]، وقال تعالى: وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ)[9]، وقال تعالى: (قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ

---

(1) الجاثية، 13.

(2) نوح، 19-20.

(3) النبأ، 10-11.

(4) الجاثية، 12.

(5) النحل، 11.

(6) النحل، 5.

(7) سبأ، 20.

(8) سبأ، 13.

(9) الأعراف، 102.

الْمُسْتَقِيمَ (16)ثُمَّ لَآَتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ)[1].

ولما كان مفهوم الشخصية الإنسانية وتحديد معالمها تختلف باختلاف النظرة إلى الطبيعة الإنسانية، ولما اختلف الفكر الغربي عن الفكر الإسلامي في النظرة إلى الطبيعة الإنسانية وأهداف الإنسان وغاياته، ارتأينا أن نوضح مفهوم الشخصية في علم النفس الغربي.

- **مفهوم الشخصية في علم النفس الغربي:**

كلمة الشخصية (Personality) كلمة حديثة الاستعمال في اللغة الإنجليزية، وهي مشتقة من الأصل اللاتيني (Persona) أي القناع الذي كان يرتديه الممثل في العصور القديمة عندما كان يريد أن يمثل دوراً ما. وقد أصبحت هذه الكلمة تشير فيما بعد إلى المظهر الذي يظهر فيه الفرد.

ورغم حداثة كلمة الشخصية، إلا أن علماء النفس اختلفوا حول مفهومها؛ فالشخصية عند روجرز (Rogers) تعني الذات، أي الكيان الموضوعي المستقر نسبياً، الذي يمكن إدراكه والذي يعدّ قلب الخبرة، أما البورت (Allport) فيعرّف الشخصية على أنها حقيقة الفرد الداخلية التي تحدد طريقته الخاصة في التفاعل مع البيئة، كما يرى كيللي (Kelly) أن الشخصية هي النمط الذي يميز طريقة الفرد في الانتفاع من الخبرة الحياتية، فيما يرى باندورا (Bandura) الشخصية على أنها نمط معقد من التفاعل المستمر بين الفرد والسلوك والبيئة [2]. فالبيئة تحدد سلوك الفرد، كما يعمل الفرد على تغيير البيئة. كذلك فإن العوامل المعرفية للفرد يمكن أن تؤثر في سلوكه وأن تتأثر به.

هذا ويمكن القول بوجود حوالي (150) منظراً في الشخصية، كل له تعريفه الخاص لها. ومع ذلك فثمة قواسم مشتركة في النظرة المعاصرة إلى مفهوم الشخصية. فيعرّف مايرز (Myers)[3] الشخصية على أنها النمط المتسق للأفكار والمشاعر

---

(1) الأعراف، 16-17.

(2) Hjelle & Ziegler, Personality Theories: Basic Assumption, Research, and Applications.

(3) Myers, Psychology.

(4) Santrock, Psychology.

والسلوك التي تميز الفرد عن غيره من البشر. ويعرفـها سـانتروك (Santrock)[1] على أنها الأفكار والمشاعر والسلوك الدائمة نسبياً التـي تميـز الطريقـة التـي يتكيـف بهـا الفـرد مـع البيئـة. كـما يعرفهـا كـوزلين وروزنـبرغ (Kosslyn & Rosenberg)[2] بأنهـا مجموعة متسقة من الخصائص السلوكية التي يظهرهـا الفـرد في المواقـف المختلفـة وفي الأوقات المختلفة، والتي تميزه عن غيره من البشر.

وعليه، فإن النظرة المعاصرة لمفهوم الشخصية تنطوي على أمرين هامين هما:

1. أن لكل فرد نمطاً خاصاً من التفكير والمشاعر والسلوك يميزه عن غيره.
2. أن الشخصية تتسم بالثبات النسبي خلال الزمن، الأمر الذي يسمح بتعديل السلوك.

ويعزى تعدد تعريفات الشخصية في علم النفس الغـربي إلى الاخـتلاف في التصـوّر الغربي إلى الإنسان؛ فهناك مـن يـرى أن الإنسـان أنـاني فـردي يسـعى إلى تحقيـق ذاتـه، بمقابل من يرى أن الإنسان كائن اجتماعي يسعى إلى تحقيـق المصـلحة العامـة. وهنـاك من يرى أن الإنسان كائن عقلاني في سلوكه، بمقابل من يرى أنه شهواني جنسي وعـدواني. وثمة من يؤكد حرية الإرادة الإنسانية، بمقابل من يؤكد حتمية السلوك وجبريته. وهنـاك من يؤكد الطبيعة المحايدة للإنسان وأن السلوك الإنساني ناتج عـن الـتعلم؛ خـيراً أو شراً، سواء أو انحرافاً، توافقاً أو اضطراباً، فيما يرى آخرون أن الإنسان خـيّر بطبعـه وينظـرون إليه نظرة متفائلة ويرون أن الظروف البيئية هي المسؤولة عن اضـطراب سـلوكه. وثمـة فئـة ثالثـة تـرى أن الطبيعـة الإنسـانية شريـرة . وفي ظـل هـذا الاخـتلاف في النظـرة إلى الطبيعة الإنسانية، سيبقى الإنسان يدّرس كحيوان بيولوجي تارة. وكقائد حرّ مخـيّر تـارة أخرى، وككائن إجتماعي ثالثة، وكعبد مسير رابعة..الخ.

وهكذا يمكن القول بتعدد الصياغات الفرضـية حـول تحديـد مفهـوم الشخصـية. وعلى الرغم من وجـود بعـض القواسـم المشـتركة بينهـا، إلا أن أوجـه الاخـتلاف لا تـزال صارخة. وبالتالي فإن تبنـي موقـف نظـري موحـد يسـمح بالمزيـد مـن الاستبصـار بهـذا المفهوم ويحظى بقبول واسع لدى علماء النفس، لا يـزال أمـراً غـير يسـير، نظـراً لوجـود خلافات صريحة لم يتم حسمها، ولم تحظ بعد بدراسة وافية.

---

(1) Kosslyn & Rosenberg, Psychology. The Brian, The Person, the World.

خلاصة

لم ترد كلمة "الشخصية" في القرآن الكريم، ولكن وردت مرادفات لها، لعل أبرزها: النفس والإنسان والذات والمرء والفرد، ولعل مفهوم النفس بمعناها العام أقرب هذه المرادفات إلى مفهوم الشخصية. ويشمل مفهوم الشخصية في الإسلام كل ما يختص به الإنسان (بالمفهوم العام) من خلق وجبلة ونمو وفكر ومعتقد ومشاعر ودوافع وسلوك وعلاقات متبادلة مع البيئة، وبما يميزه عن غيره من البشر. والشخصية وحدة متكاملة ناتجة عن تفاعل شديد التعقيد بين الجسد والروح.

وقد تعرض الفصل إلى توضيح المفاهيم التي ترادف مفهوم الشخصية وهي: الإنسان والمرء والفرد والذات والنفس. وتناول الفصل مفهوم النفس بمعناها العام (الذي يشمل الإنسان بكليته من جسد وروح) وبمعناها الخاص (كالروح مثلاً). وللنفس أحوال في القرآن الكريم هي: النفس السوية الملهمة والنفس الأمارة بالسوء والنفس اللوامة والنفس المطمئنة. والنفس بالمعنى العام أعم من القلب وبالمعنى الخاص ترادفه. والقلب أعم من العقل، والعقل نور في القلب وفعل من أفعاله. والروح مخلوقة وجوهر مستقل عن الجسد، والروح تقبض وتمسك وتنفخ وترجع ... والنفس بمعناها العام أعم من الروح وبمعناها الخاص ترادفه. ويقصد بالسلوك الإنساني جميع الأعمال أو الأفعال أو الاستجابات التي تصدر عن الإنسان؛ ظاهرية كانت أم باطنية؛ فطرية أم مكتسبة؛ سوية أم منحرفة. وتتعدد السلوكات الإنسانية وتتنوع وتتعقد بحيث يصعب وضعها في مستوى واحد.

وينظر الإسلام إلى الإنسان على أنه مخلوق مكرّم بنعمة العقل، وأنه قبضة من طين ونفخة من روح. وهو مولود على الفطرة القويمة السوية، وألهمه الله بالفطرة طريقي التقوى والفجور، ومنحه الإرادة وحرية الاختيار. ولم يخلق الله الإنسان عبثاً بل لغاية سامية هي عبادته عز وجل. أما مهمة الإنسان فتتلخص في عمارة الأرض والخلافة عن الله فيها.

وفي نهاية الفصل، تم الحديث عن مفهوم الشخصية في الفكر الغربي وعن تعدد تعريفاتها في ضوء اختلاف النظرة إلى الطبيعة الإنسانية، إلا أنه يمكن القول بأن المفهوم المعاصر للشخصية يشير إلى النمط الدائم نسبياً للأفكار والمشاعر والسلوك، الذي يميز الفرد عن غيره من البشر.





الفصل الثاني

الشخصية: بنيتها، وقواها، وتصنيفاتها

- مقدمـة
- بنية الشخصية وديناميكيتها
- قوى الشخصية وتفاعلاتها
- تصنيف الشخصية الإنسانية



الفصل الثاني
الشخصية: بنيتها، وقواها، وتصنيفاتها

مقدمـة

يتشابه كل فرد منّا مع جميع البشر في بعض السمات، ومـع بعضـهم فقـط في سـمات أخرى، ويفترق عنهم جميعاً في مجموعة ثالثة من السمات. وفي داخل شخصـية كـل فـرد منّـا تتفاعل وتتناغم هذه المجموعات الثلاث من السمات. وقد توصل علماؤنا المسلمون إلى هـذه الحقيقة منذ القدم، وتمكنوا من تحديد تلك السمات، وتوضيح طبيعة التوافق بينها، وتحديـد دلالة كل منها، والأهمية النسبية لها.

وتتكامل الشخصية الإنسانية في الإسلام، حيث تجد كل قوة من قواها النفسـية مجـالاً يتناغم مع مجالات قواها الأخرى؛ فلا تهدر قوة منها هـذه القـوى ولا تتعـاظم عليهـا، وهـذا دليل صدق على وحـدة المصـدر. والإسـلام لا يخاطـب في الإنسـان قـوة دون غيرهـا، فيقـع في التناقض مع القوة التي يهملها، بل يتوجه إلى الإنسان بكليته.

هذا ويتوقـع أن يجيـب الفصـل الحـالي عـن تسـاؤلات هامـة مـن مثـل: مـا مكونـات الشخصية الإنسانية؟ وكيف تتفاعل معاً بحيث تحقق التكامل والتوازن للشخصية؟ ومـا هـي القوى النفسية التي وهبهـا الله سـبحانه للإنسـان ليشـبع حاجاتـه ويـدفع الأذى عـن نفسـه، وبالتالي ليحافظ على بقائه؟ وكيف تحدد هذه القوى السلوك الإنساني؟ وهل ثمـة علاقـة بـين جبلّة الإنسان وسلوكه؟ وما هي السمات الكبرى للشخصية؟ وهل ترتبط هذه السمات بقـوى الشخصية؟

- **بنية الشخصية وديناميكيتها:**

يشير مفهوم الشخصية (أي النفس بمعناها العام) إلى مكونين أساسيين؛ مكون مادي ومكون روحي. أو بعبارة أخرى جسد وروح، ويتضح ذلك في الآيات الكريمة التالية:

-(وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ)[1].

- (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا) [2].

---

(1) الأنبياء، 30.

(2) الفرقان، 54.

-(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا)[1].
-(وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ)[2].
-(الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ)[3].
-(إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ) [4].
-(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ) [5].
-(خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ) [6].

تحدد الآيات الكريمة المذكورة العناصر المادية التي تكوّن منها جسد سيدنا آدم عليه السلام ومراحل خلق ذلك الجسد. فالماء والتراب عنصران أساسيان في تكوين جسده. ومن اختلاط الماء والتراب يتكون الطين. أما الطين الذي بدئ به خلق الإنسان فطين لازب؛ أي لزج متماسك قابل للتشكيل. وبعد مرحلة تكوين الطين اللازب تأتي مرحلة الحمأ المسنون؛ أي الطين الذي اسوّد لونه بتأثير الهواء. وأخيراً، تأتي مرحلة جفاف الطين ليصبح صلصالاً جافاً شبيهاً بالفخار.

ولا فرق في ذلك بين عربي وأعجمي، ولا بين مؤمن وكافر. وهكذا يعود الإنسان إلى الأرض. وما من شك بأن خلق الإنسان من تراب الأرض يجعله أقرب إلى طبيعتها، فيقدر على تسخيرها والتجارب معها وعمارتها ما دامت هي مسرح مهمة الاستخلاف. ويتكون جسد الإنسان من العناصر ذاتها المكونة لمادة الأرض، والمختلطة بترابها (ومنها: الأكسجين والهيدروجين والنيتروجين والكالسيوم والبوتاسيوم والنحاس واليود والسيلكون والصوديوم والكلور والذهب.. الخ).

وبعد تكوين الجسد، نفخ الله فيه الروح، وبهذه النفخة الروحية استحق الإنسان – في شخص آدم- أن تنحني له الملائكة استجابة لأمر الله سبحانه، سجود تحية وتشريف وتكريم، قال تعالى: (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ)[7]. هذا فيما

---

(1) فاطر، 11.
(2) الروم، 20.
(3) السجدة، 7.
(4) الصافات، 11.
(5) الحجر، 26.
(6) الرحمن، 14.
(7) ص، 72.

يتعلق بخلق سيدنا آدم عليه السلام. فالقيمة إذن لم تنشأ من قبضة الطين، أي لم تنشأ من المكون المادي، فالإنسان لا يتميز عن غيره من الكائنات الحية بقدراته الجسدية، ولكن بما فيه من روح. فجسده محدود القدرات؛ فهو لا يرى، مثلاً، إلا في حدود مكونات الضوء الأبيض وما ينتج عن اختلاطها من ألوان متعددة، أما ما تعدى ذلك من موجات ضوئية (كالأشعة تحت الحمراء والأشعة فوق البنفسجية...)، فلا تدركها العين البشرية. كما أن الآذان البشرية لا تستطيع تمييز الأصوات التي يقل ترددها عن حوالي عشرين ذبذبة في الثانية أو تلك التي يزيد ترددها على حوالي عشرين ألف ذبذبة في الثانية. والإنسان ليس من بين أقوى المخلوقات ولا من أكثرها تكيفاً للظروف البيئية من جوع وعطش... ورغم ذلك كله، فقد تميّز وتفرّد عنها جميعاً بما أتاه الله سبحانه من روح إنسانية منحته القدرة على المعرفة والإدراك والاختيار والإرادة، وتقرير الغاية العليا في الحياة، ورسم منهاج لتحقيقها. فالروح أساس الحياة الإنسانية، وأساس إنسانية الإنسان، وأساس إقامة المجتمع الإنساني على مبادئ الحق الإلهي. وبذا أصبح الإنسان مهيأ لدور الخلافة والقيام بأعبائها. كما أصبح قادراً على الإنشاء والإبداع والتطوير. فالله سبحانه لم يخلق الإنسان بيده، وينفخ فيه من روحه ويسخر له ما في السموات والأرض من غير هدف عال. فللإنسان رسالة هي الخلافة عن الله في الأرض، وقد كلّف بواجباتها، وهو مسؤول عنها أمام الله.

وجدير بالذكر أن التكوين الذاتي للإنسان يضم العناصر التي تتأسس منها جميع مخلوقات الكون. وتعبيراً عن هذه الثنائية في التكوين، يوصف الإنسان بأنه العالَمُ الصغير، وأنه صفوة العالَمِ وخلاصته.

أما فيما يتعلق بخلق النفس البشرية على الأرض، فيتضح في قوله تعالى: (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (6يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ [1]، وفي قوله سبحانه وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (13)ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)[2]. وتشير الآيات الكريمة إلى خلق السلالات البشرية بعد خلق آدم وحواء، أي الخلق الناتج عن التزاوج، وتدل

(1) الطارق، 5-7.

(2) المؤمنون، 12-14.

على أن النفس تتكون من ماء، يتحول إلى نطفة ثم إلى علقة، ثم إلى مضغة ثم تكسى النطفة عظاماً، فلحماً، مكونة بذلك الجانب المادي للنفس، ثم تنفخ فيه الروح فينشأ خلقاً آخر. فلم تكن نفخة الروح خاصة بآدم عليه السلام، فقد نال نسله حظاً منها، ولهذا أعلن القرآن الكريم كرامة البشر كافة حين قال:(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا)

والجسد لا يعدّ، في الإسلام، محتقراً ولا شريراً. ولم يخلقه الله سبحانه عبثاً، بل لحكمة اقتضاها. فهو وعاء الطاقة الحيوية في الشخصية، التي تعمر الأرض، وتبني، وتنشئ، وتستخرج كنوزها، وتكتشف آيات الله فيها، فتسمح للشخصية الإنسانية بالوجود والبقاء والتطور، بما يسهم في تحقيق الخلافة في الأرض.

وقد كانت القوة الجسمية إحدى أبعاد شخصية طالوت التي ميّزه الله بها عندما اختاره لقيادة قومه بني إسرائيل. كما جمعت شخصية موسى عليه السلام إلى الأمانة القوة بمعناها الشامل، بما فيها القوة الجسمية، فكانت مقوماً ميّز شخصيته عليه السلام. كما يقرّ الله سبحانه بأن شكل الجسم يكون أحياناً مدعاة لإعجاب الآخرين، فَإِذَا رَأَيْتَهُمْ (أي المنافقون) تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ.

وقد أشار القرآن الكريم في غير آية إلى أهمية رعاية الجسد وإشباع حاجاته باعتدال، حتى يتمكن الإنسان من عمارة الأرض. فقد منّ الله سبحانه على أهل مكة بأن أطعمهم من جوع. فالجوع أحد الحاجات الجسمية التي لابد من إشباعها. ويدعو الله سبحانه البشر، بعد أداء الصلاة، إلى أن ينتشروا في الأرض لكسب الرزق، وبالتالي إشباع الحاجات الجسدية.

ويرى ابن تيمية أن الإنسان – أي الشخصية - عبارة عن الروح والبدن معاً. ويفصّل في الجزء الثامن عشر من "مجموع الفتاوى" الحديث عن أعضاء البدن، أي مكوناته، يقول في ذلك "وكذلك الإنسان الكامل يدخل في مسماه أعضاؤه كلها، ثم لو قطعت يداه ورجلاه لم يخرج عن اسم الإنسان، وإن كان قد زال منه بعض ما يدخل في الاسم الكامل" [1]. أما أهم مكونات البدن وأكثرها تأثيراً في تحديد السلوك الإنساني، عند ابن تيمية، فهي العين واللسان والشفة والقلب، مصداقاً لقوله تعالى: (أَلَمْ نَجْعَلْ

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج18، ص 277.

لَهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (9) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)[1]. والهداية محلها القلب. وهذه الأعضاء الثلاثة هي دائمة الحركة والكسب إما للإنسان أو عليه، بخلاف ما يتحرك من الداخل، فإنه لا يتعلق به ثواب ولا عقاب. وبخلاف بقية الأعضاء، فإن السكون أغلب وحركاتها قليلة بالنسبة إلى هذه. وقد ذكر الله تعالى اللسان والشفتين لأنهما العضوان الناطقان"[2].

ويذهب ابن القيم إلى ما ذهب إليه ابن تيمية، فالنفس بمعناها العام – أي الشخصية – تتكون من البدن والروح. والبدن آلة الروح، والقلب هو الملك المتصرف بأعضاء البدن، فإذا أظلم أظلم البدن، وإذا استنار استنار البدن. وبالقلب كمال الإنسانية، إذا ما عرف ربه وعرف حقه وعبده بأسمائه وصفاته. وهو أشرف ما في الإنسان. وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن عزّ وجلّ[3].

والجسد هو الجانب المادي، وله صفاته الخاصة به، وللروح صفاتها كذلك. فهما جوهران مختلفان عن بعضهما تماماً. كما أن للشخصية صفات جديدة مغايرة للصفات الأصلية لكل منهما. فصفات الكل "الشخصية" لا تساوي مجموع صفات المكونين (الجسم والروح)، ذلك أن هذين المكونين ليسا كيانين منفصلين أو مستقلين عن بعضهما البعض، بل متمازجين ومتفاعلين معاً ليشكلا وحدة متكاملة، تمثل الكيان الكلي للشخصية الإنسانية. فالقرآن الكريم ينظر إلى النفس البشرية نظرة كلية متكاملة وشاملة. والوجود الإنساني في الإسلام يمثل حقيقة منهجية تتلخص في أن هذا الوجود يتميز بالثنائية المتكاملة في كيان إنساني موحد. فالمكونان المادي والروحي يتفاعلان، فلا يعود هناك انفصال بينهما، ولا يوجد أيهما بمفرده على الحال التي كان عليها قبل التفاعل. فالروح لم تتوطن في حيز معين من الجسد، بل سرت فيه كله وشملت كيانه أجمع، فأصبح بذلك كياناً جسدياً وروحياً في الوقت ذاته. وفي ضوء هذه الحقيقة، يمكن تفسير كافة سلوكات الإنسان. فالإسلام يجعل لكل سوك بعدين: مادي وروحي. فالصلاة مثلاً، ليست حركات جسمية فحسب، بل حركة روحية أيضاً تتطلع في خشوعها إلى الله، ولا تصحّ الصلاة إلا بالحركتين معاً. والصيام ليس مجرد امتناع الجسم عن الطعام والشراب، بل صبر وجلد وتقوى المشاعر وانطلاقة الروح...

---

(1) البلد، 8-10.

(2) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج16، ص 221.

(3) ابن القيم، الروح، مرجع سابق.

كما تظهر العلاقة المتداخلة بين المكونين واضحة عند حدوث الأمراض النفسية الجسدية (أي ما نسميها حديثاً بالأمراض السيكوسوماتية) وهي الأمراض الجسدية ذات المنشأ النفسي، ومن أمثلتها: أمراض الحساسية والذبحة الصدرية وقرحة المعدة وغيرها. كما ينعكس التعب الجسمي على نفسياتنا كذلك. فالعلاقة متبادلة التأثير بين المكونين.

ويشير ابن تيمية إلى العلاقة المتداخلة بين مكوني الشخصية بقوله "فإن الله عزّ وجلّ خلق أعمال الأبدان بأعمال القلوب، ويكون لأحد الكسبين تأثير في الكسب الآخر بهذا الاعتبار. ويكون ذلك الكسب من جملة القدرة المعتبرة في الكسب الثاني. فإن القدرة هنا ليست إلا عبارة عما يكون الفعل به محالة: من قصد وإرادة وسلامة الأعضاء والقوى المخلوقة في الجوارح وغير ذلك"[1]. فالجسد تابع للقلب، فلا يستقر شيء في القلب إلا ظهر بموجبه وبمقتضاه على البدن ولو بوجه من الوجوه"[2].

ويحتل المكون الروحي أو المكون الباطني المركز المحوري الأكثر أهمية في بنية الشخصية، وفي ذلك يقول ابن تيمية "فإن حقيقة العبد قلبه وروحه. وهي لا صلاح لها إلا بإلهها الذي لا إله إلا هو، فلا تطمئن في الدنيا إلا بذكره"... ويضيف "بل هو بالروح أخص منه بالبدن، إنما البدن مطيّة للروح"[3].

وتتضح ديناميكية النفس البشرية في كتابات ابن سينا، فهو يرى أن الإنسان يتكون من جوهرين متفاعلين: جوهر مادي وجوهر روحي. فالجسد يؤثر في النفس (ويقصد بها الروح) ويتأثر بها. وكذا الحال فيما يتعلق بالنفس. فالجسد هو المادة والنفس هي الصورة... وأنه لا وجود للنفس قبل وجود البدن... ويضيف بأن الجوهر، الذي هو الروح، لا يفنى بعد الموت، ولا يبلى بعد مفارقة البدن، بل هو باقٍ لبقاء خالقه تعالى؛ ذلك أن جوهر الروح أقوى من جوهر البدن، ولأنه يحرك البدن ويدبره ويتصرف فيه، فالبدن تابع للروح. ويذهب ابن رشد إلى ما ذهب إليه ابن سينا حول علاقة الجسد بالروح. فهو (أي ابن رشد) يرى أن "النفس (ويقصد بها الروح) متصلة اتصال الصورة بالمادة"[4].

---

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج8، ص 390.

(2) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج14، ص 121.

(3) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج1، ص 23.

(4) محمد جمعة، تاريخ فلاسفة الإسلام في المشرق والمغرب، ص 166.

ويرى الخطيب البغدادي أن "النفس (ويقصد بها الروح) مرتبطة بالجسد، ولها من قواها ما لا تستطيع ممارسته بدون حلولها في البدن. كما أنها جوهر من طبيعته أن يفارق البدن، إذا وصل إلى درجة عليا من الكمال، حيث الحياة الفاضلة في العالم الأعلى إلى جوار الملائكة والأشخاص الروحانية. وحيث تنعم بمشاهدة الله ومعرفة الأمور الإلهية"[1].

كما يرى الغزالي في كتابه "معارج القدس في مدارج معرفة النفس" أن النفس (ويقصد بها الروح) جوهر قائم مستقل عن البدن، إلا أنه على صلة قوية به. فهي تؤثر فيه وتتأثر به. فالبدن لا يوجد إلا بالنفس (الروح)، لكنه يرى أن النفس (الروح) توجد بعد فناء البدن. فالموت لا يمتد إلى النفس (الروح) بل يصيب البدن وحده[2].

ويصف ابن تيمية العلاقة الديناميكية الفاعلة بين مكوني الشخصية الإنسانية بصورة حيّة بقوله "وكذلك قولهم إن تعلقها – أي الروح – بالبدن، ليس إلا تعلق التدبير والتصريف، وقدرته إن لم يتحركوا هم بإرادتهم وقدرتهم. والملك لا يلتذّ بلذّة أحدهم، ولا يتألم بألمه. وليس كذلك الروح والبدن، بل قد جعل بينهما من الاتحاد والائتلاف ما لا يعرف له نظير يقاس به، ولكن دخول الروح فيه ليس هو مماثلاً لدخول شيء من الأجسام المشهودة. فليس دخولها فيه كدخول الماء ونحوه من المائعات في الأوعية، فإن هذه إنما تلاقي السطح الداخلي من الأوعية، لا بطونها ولا ظهورها، وإنما يلاقي الأوعية منها أطرافها دون أوساطها، وليس كذلك الروح والبدن. بل الروح متعلقة بجميع أجزاء البدن باطنة وظاهرة، وكذلك دخولها فيها ليس كدخول الطعام والشراب في بدن الآكل، فإن ذلك له مجال معروف، وهو مستحيل، إلى غير ذلك من صفاته، ولا جريانها في البدن كجريان الدم، فإن الدم يكون في بعض البدن دون بعض"[3]. كما قال أبو الدرداء "إنما بدني مطيتي، فإن رفقت بها بلّغتني، وإن لم أرفق بها لم تبلّغني"[4].

وهكذا يمكن القول بأن علماء المسلمين أكدوا الطبيعة الديناميكية للشخصية الإنسانية. وما من شك بأن النظرة الثنائية المزدوجة للشخصية تقتضي فهم طبيعتها (وما يصدر عنها من أفعال، أي سلوكات إنسانية) من جانبين متفاعلين ومتناغمين؛ يتعلق

(1) محمد أبو ريان، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، ص 533-534.

(2) الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفة النفس.

(3) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج17، ص 348-349.

(4) انظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج4، ص 222.

أحدهما بالجانب المادي فيما يتعلق الآخر بالجانب الروحي. وبدون هذه النظرة الديناميكية لبنية الشخصية، يبقى فهم الشخصية الإنسانية مبتوراً وعاجزاً عن تفسير جميع أشكال السلوك الإنساني. إذ أن الاقتصار في تفسير السلوك على الجانب المادي (القابل للملاحظة والقياس المباشرين) وإقصاء الجانب الروحي (بحجة أنه جانب ميتافيزيقي يقع خارج إطار علم النفس)، يعدّ تفسيراً قاصراً، لأنه يُخرج الشخصية على فطرتها ويقطع صلتها بخالقها. كما يعدّ تفسيراً مبتوراً للسلوك الإنساني الذي يتسم بالتعقيد، ذلك أنه سيدرس ظاهر السلوك الإنساني ولا يسبر حقيقته وجوهر إنسانيته. وكما هو معلوم فإن مصادر المعرفة الإسلامية تضيف إلى مصادر المعرفة الغربية مصدراً آخر هو مصدر الوحي، وهو مصدر العلم الثابت الذي له الكلمة الفاصلة. وبهذه الإضافة، يقدم الإسلام تفسيراً شاملاً للسلوك، يتناغم مع الطبيعة الثنائية للشخصية الإنسانية. فالسلوك محصلة التفاعل بين المكونين المادي والروحي للشخصية، ولا يُفهم إلا في ضوئهما معاً.

هذا وتجدر الإشارة مجدداً إلى أن البشر جميعاً (مؤمنون وكافرون ومنافقون) يشتركون في البعد المادي للشخصية، كما يشتركون في روح الحياة التي تمثل سرّ الحياة وبقاءها، وتكون بها الحركة والنشاط. غير أنهم يختلفون فيما بينهم في الروح الجوهرية المدركة للخير والشر؛ فمن أوتيها عرف الله وعمل بهديه. وعليه، فإن التفاوت في السلوك بين البشر ينشأ نتيجة التفاوت بينهم في المعتقد أو الفكر الذي يغذي ثنائية الجسد والروح، ويوجهها نحو الخير أو الشر.

- **قوى الشخصية وتفاعلاتها:**

لمّا خلق سبحانه الإنسان من جسد وروح، علم أنه يحتاج إلى أشياء تقيمه من غذاء وغيره؛ فلا قوام لحياة إلا بمادة. والإنسان لا يصل إلى تلك المادة إلا بحركة وسعي. ولكن الموانع والعوائق عنها كثيرة، لذلك أعطاه الله سبحانه قوة يصل بها إلى حاجته، ويدفع بها أضدادها عن نفسه ليحافظ على بقائه. وقد عني علماؤنا المسلمون بتحديد طبيعة تلك القوى وتفاعلاتها.

فيرى ابن مسكويه في "تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق" أن الإنسان مركب من ثلاث قوى نفسية هي: القوة الشهوية، والغضبية، والناطقة. فالقوة الشهوية هي التي بها تكون الشهوة وطلب الغذاء والشوق إلى الملاذ التي في المأكل والمشارب والمناكح وضروب اللذات الحسية. فهو بالشهوية يتحرك نحو الشهوات التي يتناول بها اللذات البدنية كلها، ويظهر أثرها من الكبد. أما القوة الغضبية فهي التي يكون بها الغضب والنجدة، والإقدام

على الأهـوال، والشـوق إلى التسـلط والترفـع وضروب الكرامـات. وبالغضـبية يتحـرك (الإنسان) إلى طلب الرئاسات وتعرض لـه الحميـة والأنفـة، ويلـتمس العـزّ والمراتـب الجليلـة العالية. ويظهر أثرها من القلب. والقوة الناطقة هي التي بها يكون الفكر والتمييز والنظر في حقائق الأمور. وهي القوة المميزة العاقلة التي تنتظم القوى الأخرى" [1].

وتحدد هذه القوى النفسية – عند ابن مسكويه – السلوك الإنساني، فهو كالواقف تجذبه القوى الثلاث؛ هذه مرة وهذه مرة، وبحسب قوة إحداها على الأخرى يميل بفعله، "فربما غلبت عليه القوة الغضبية، فإذا انصبغ بها، ومال بفعله إليها ظهرت قوته كلها كأنها غضب وخفيت القوى الأخرى، حتى كأنها لم توجد له، وكذلك إذا هاجت به القوة الشهوية خفيت آثار القوى الأخرى. وأحصف ما يكون الإنسان وأحسنه إذا غلبت عليه القوة الناطقة. فهي القوة الإلهية العاقلة التي ينبغي أن تستولي وتكون لها الرئاسة على البقية، فترتبها حتى تظهر أفعالها بحسب ما تجده وترسمه. والإنسان حينئذ نازل بالمنزلة الكريمة بحيث هيأه الله تعالى، وكما أراده. فإذا كان الأمر كذلك فغير منكر أن تهيج بالإنسان بعض تلك القوى منه عند التواء أمر عليه أو انسداد باب دون مطلب له، فيظهر منه فعل لا توجبه رويّة، ولا يقتضيه تمييز، لخفاء أثر القوة الناطقة واستيلاء القوى الأخرى... " ويضيف "وأنت تجد ذلك عياناً عند الأحوال المختلفة بك، فإنك تجد نفسك في أوقات على أحوال مؤثرة لها قاصدة إليها، غير مصغية إلى نصيح، ولا قابلة أمر سديد، حتى إذا أفقت من تلك السكرة التي غلبت عليك في تلك الأحوال، عجبت من الأفعال التي ظهرت منك، وأنكرت نفسك فيها وكأن غيرك الذي آثرها، وقصد إليها. فلا تزال كذلك حتى تهيج بك تلك القوة الأولى مرة أخرى، فلا يمنعك ما جربته من نفسك ووعظتها به، أن تقع في مثله. وسبب ذلك التركيب من القوى النفسية الثلاث، وليس يمكن الإنسان أن يخلص بقوة واحدة. ويصدر الأفعال الباقية بحسب التي هي أفضل وأشرف إلا بعد معالجة شديدة وتقويم كثير وإدمان طويل. فإن العادة إذا استمرت والعزيمة إذا أنفذت في زمان متصل طويل، حصل منها خلق، فكان الحكم له وصار هو الغالب" [2].

(1) ابن مسكويه، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، ص 37.

(2) ابن مسكويه، الهوامل والشوامل، ص 186-188.

وربما خرجت قوى النفس عن الاعتدال فيها إلى جانب الزيادة والإفراط، أو إلى جانب النقص والتفريط، فيجب على الإنسان حينئذ أن يعدّلها ويقوّمها "فيقوّم القوة الشهوية حتى لا تنازع إلى ما لا ينبغي، وتكون حركتها إلى ما يجب وكما يجب وعلى الحال التي تجب. كما عليه أن يقوّم القوة الغضبية حتى تعتدل في حركتها، فيستعملها كما ينبغي وعلى من ينبغي وفي الحال التي تنبغي، ويعدّلها في طلب الكرامة واحتمال الأذى والصبر على الهوان، والنزاع إلى الكرامة على القدر الذي ينبغي، وعلى الشرائط التي وصفت في كتب الأخلاق. وإذا أعدلت هاتان القوتان في الإنسان فكانت حركتها على ما يجب، معتدلة من غير إفراط ولا تقصير، حصلت له العدالة التي هي ثمرة الفضائل كلها. وبحصول هذه الفضائل تقوى النفس الناطقة، وتستمر للإنسان الصورة الكمالية التي يستحق بها الرئاسة، ومتى لم تحصل له فينبغي أن يكون مسوساً بغيره"[1].

كما يرى ابن تيمية، أن "قوى الإنسان ثلاث: قوة العقل وقوة الشهوة والقوة الغضبية، وأعلاها قوة العقل التي يختص بها الإنسان دون سائر الدواب وتشاركه فيها الملائكة، كما قال أبو بكر عبد العزيز وغيره: خُلق للملائكة عقول بلا شهوة، وخلق للبهائم شهوة بلا عقل، وخلق للإنسان عقل وشهوة... ثم القوة الغضبية التي فيها دفع المضرة، ثم القوة الشهوية التي فيها جلب المنفعة"[2]. ولمّا كانت قوى النفس ثلاث، كانت الفضائل ثلاث هي: فضيلة العقل والعلم والإيمان التي هي كمال القوة العقلية (المنطقية)، وفضيلة العفة التي هي كمال القوة الشهوية، وفضيلة الشجاعة التي هي كمال القوة الغضبية ... والقوة الغضبية هي قوة النصر، والقوة الشهوية هي قوة الرزق، وهما المذكوران في قوله تعالى: (الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)[3]. والنصر والرزق مقترنان في الكتاب والسنة. وتنتظم القوى الثلاث باعتدالها"[4].

ويرى ابن تيمية أنه "باعتبار القوى الثلاث للنفس الإنسانية انقسمت الأمم التي هي أفضل الجنس الإنساني، وهم العرب والروم والفرس. فهم سكان الأرض طولاً وعرضاً، الذين ظهرت فيهم الفضائل الإنسانية ... فغلب على العرب القوة العقلية المنطقية، واشتق اسمها من وضعها، فقيل لهم: عرب من الإعراب، وهو البيان والإظهار،

---

(1) المرجع السابق، ص 374.

(2) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج15، ص 428-429.

(3) قريش، 4.

(4) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج15، ص 432-433.

وذلك خاصة القوة المنطقية. وغلب على الروم القوة الشهوية من الطعام والنكاح ونحوها واشتق اسمها من ذلك، فقيل لهم "الروم"، فإنه يقال: رمت هذا أرومه إذا طلبته واشتهيته. وغلب على الفرس القوة الغضبية من الدفع والمنع والاستعلاء والرياسة. واشتق اسمها من ذلك، فقيل "فرس"، كما يقال فرسه يفرسه إذا قهره وغلبه ... ولهذا توجد هذه القوى الثلاث غالبة على الأمم الثلاث حاضرتها وباديتها. ولهذا كانت العرب أفضل الأمم، وتليها الفرس، لأن القوة الدفعية أرفع، وتليها الروم" ... ويضيف " وباعتبار القوى الثلاث للنفس، كانت الأمم الثلاث: المسلمون واليهود والنصارى. فإن المسلمين فيهم العقل والعلم والاعتدال في الأمور، فإن معجزة نبيّهم هي علم الله وكلامه، وهم الأمة الوسط. وأما اليهود فأضعفت القوة الشهوية فيهم" حتى حرم عليهم من المطاعم والملابس ما لم يحرم على غيرهم وأمروا من الشدة والقوة بما أمروا، ومعاصيهم غالبها من باب القسوة والشدة لا من باب الشهوة. والنصارى أضعفت فيهم القوة الغضبية، فنهوا عن الانتقام والانتصار، ولم تضعف فيهم القوة الشهوية. فلم يحرم عليهم من المطاعم ما حرّم على من قبلهم، بل أحلّ لهم بعض الذي حرّم عليهم. ويظهر فيهم من الأكل والشرب والشهوات ما لم يظهر في اليهود، وفيهم من الرقة والرأفة والرحمة ما ليس في اليهود، فغالب معاصيهم من باب الشهوات لا من باب الغضب" [1].

ويضيف الغزالي إلى التصنيف الثلاثي لقوى النفس الإنسانية، القوة العادلة؛ يقول في ذلك "وكما أن حسن الصورة الظاهرة مطلقاً لا يتم إلا بحسن العينين ودقة الأنف والفم والخدّ، بل لا بد من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر، فكذلك في الباطن أربعة أركان لا بد من الحسن في جميعها حتى يتم حسن الخلق، وهي: قوة العلم وقوة الغضب وقوة الشهوة وقوة العدل بين هذه القوى الثلاث". كما وصف الغزالي كل قوة بما يقابلها من أوصاف الكائنات. فأشار إلى أن الطبيعة الإنسانية تحتوي على أمزجة أربعة هي: الربانية والسبعية والشيطانية والبهيمية". فهو في نفسه يحب الربوبية والاستعلاء والتفرد بالرياسة والتواضع والتحرر من العبودية، وهو من حيث سلط عليه الغضب يتعاطى أفعال السباع من البغضاء والعداوة والتهجم على الناس. ومن حيث يختص من البهائم بالتمييز مع اشتراكه معها في الغضب والشهوة حصلت منه شيطانية. ومن حيث سلطت عليه الشهوة يتعاطى أفعال البهائم من الشر والحرص والشبق وغيره. ويضيف بأن الخلق

---

(1) المرجع السابق، ص 431-433.

يكون بالاعتدال والتوازن بين قوى النفس جميعاً وسيطرة العقل أو الصفة الربوبية عليها"[1].

ويزيد ابن حزم الأندلسي في عدد القوى النفسية لتصل إلى سبع قوى هي: العدل والغضب والشهوة والفهم والجهل والتمييز والعقل، فهو يقول "إن الله عزّ وجلّ ركّب في النفس الإنسانية قوى مختلفة؛ فمنها عدل يزيّن لها الإنصاف ويحبّب إليها موافقة الحق، قال تعالى:(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ)، وقال تعالى:(وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ). وقال تعالى :(كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)فالفاضل يسرّ لمعرفته بمقدار ما منحه الله تعالى، والجاهل يسرّ لما لا يدري حقيقة وجهه ولما فيه وباله في أخراه وهلاكه في معاده. ومنها فهم يليح لها الحق من قريب، وينير لها في ظلمات المشكلات، فترى به الصواب ظاهراً جلياً، ومنها جهل يطمس عليها الطرق ويساوي عندها بين السبل، فتبقى النفس في حيرة تتردد، وفي ريب تتلذذ، ويهجم بها على أحد الطرق المجانبة للحق، المنكبة عن الصواب تهوراً وإقداماً، أو جنباً وإحجاماً، أو إلفاً وسوء اختيار، قال تعالى: (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)... ومنها قوة التمييز، فجعل لها خالقها بهذه القوة سبيلاً إلى فهم خطابه عزّ وجل، وإلى معرفة الأشياء على ما هي عليه، وإلى إمكان التفهم الذي به ترتقي درجة الفهم ويتخلص من ظلمة الجهل، فبها تكون معرفة الحق من الباطل، قال تعالى: (فَبَشِّرْ عِبَادِ17) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ)

ومنها قوة العقل التي تعين النفس المميزة على نصر العدل وعلى إيثار ما دلّت عليه صحة الفهم، وعلى اعتقاد ذلك علماً، وعلى إظهاره باللسان وحركات الجسم فعلاً. وبهذه القوة التي هي العقل تتأيد الموافقة للنفس لطاعته على كراهية الحود عن الحق، وعلى رفض ما قاد إليه الجهل والشهوة والغضب المولد للعصبية" [2].

ويصنف ابن حزم في "طوق الحمامة" هذه القوى النفسية في قوتين رئيسيتين هما: قوة التمييز وقوة الهوى، يقول "وخلق الله في النفس قوتين متعاديتين متضادتين في التأثير هما: التمييز والهوىـ كل واحدة منهما تريد الغلبة على آفاق النفس. فالتمييز هو الذي

(1) الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفة النفس.

(2) ابن حزم، رسالة البيان عن حقيقة الإيمان، ج3، ص 200.

خصّت به نفس الإنسان والجن والملائكة ... والهوى هو الذي يشاركها في نفوس الجن والحيوان ... فإذا عصم الله تعالى العبد غلب التمييز بقوة من عنده هي له مدد وعون، فجرت أفعال النفس على ما رتب الله تعالى فيها تمييزها من فعل الطاعات. وهذا هو الذي يسمى العقل. وإذا خذل الله تعالى النفس أمدّ الهوى بقوة هي الإضلال، هجرت أفعال النفس على ما رتب الله تعالى في هواها من الشهوات وحب الغلبة والحرص والبغي والحسد وسائر الأخلاق الرذيلة والمعاصي" [1].

مما سبق، يمكن القول بأن علماء المسلمين يميلون، عموماً، إلى التصنيف الثلاثي لقوى النفس: القوة الناطقة والغضبية والشهوية، وأن أحد هذه القوى يمكن أن تسيطر عليها فتحرفها عن الاعتدال. هذا ويعدّ الغزالي القوة الشهوية أصعب قوى النفس تربية وتهذيباً[2]. كما قال: أفضل الجهاد أن تجاهد نفسك. فالقوة الشهوية أعدى أعداء النفس الإنسانية، وليس كبح جماحها بالأمر اليسير. وقد أشار سبحانه وتعالى إلى أن الذين ينساقون وراء القوة الشهوية يعطلّون بذلك قوتهم العقلية، فيصبحون كالبهائم، قال تعالى: (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)[3]. وتتصل القوة الشهوية بالنفس الأمارة بالسوء. فهي تنتهز غفلة القوة العاقلة وتهاون القوة الغاضبة، وقد تحتال عليهما، فتنشط وتدفع صاحبها تحت الضغط والإلحاح إلى فعل السوء. وكلمة "أمارة" (على وزن فعّالة) تدل على الإلحاح المستمر، ولا ينجو من الاستجابة إلى النفس الأمارة بالسوء إلا من رحمه ربه، وثاب إلى عقله، واستمع إلى ضميره.

- **تكامل الشخصية وتوازنها:**

الشخصية الإنسانية في الإسلام شخصية متكاملة، تتكامل قواها النفسية وتتسق معاً، فلا تقوى إحداها بحيث تضر بالأخرى، ولا تبطل إحداها فعل الأخرى، ولا تعمل أي منها بمعزل عن الأخرى. فمع أنها قوى متباينة في ماهيتها، إلا أن كلاً منها يؤدي وظيفته في نطاق التكامل الروحي والجسدي معاً. فجوهر الشخصية يظل واحداً على

---

(1) ابن حزم، طوق الحمامة، ص 122-123.

(2) الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفة النفس.

(3) الأعراف، 179.

الرغم من تعدد تلك الوظائف. فلا بد للقوى المدركة والشهوية والغضبية من رباط يجمعها ويلم شعثها، بحيث تعمل على نحو متكامل متناغم، يعكس وحدة الشخصية ويضمن لها السعادة. وهذا دليل صدق وحدة المصدر. فالله سبحانه واضع الشريعة وهو خالق الشخصية، يعرف طبيعتها وقواها الأساسية وأبعادها ووسعها. والخطاب القرآني موجه إلى الإنسان بكليته، فلا يخاطب قوة دون أخرى، فيقع في التناقض مع القوة التي يهملها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنه – أي الخطاب القرآني – لا يخاطب مكوناً للشخصية دون المكون الآخر، وإنما يخاطب الشخصية ككل، يقول سبحانه: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾[1]. ويعني قوله تعالى أن الدين فطرة الله وأن الإنسان فطرة الله، لذا كان لا بد من التلاقي بين الدين والإنسان. وقد قيل "إن الله عزّ وجلّ أسّس دينه على مثال خلقه"[2]. أي أن الإسلام يلتقي مع الإنسان؛ فيتعامل مع مكوناته جميعاً ومع قواه جميعاً. فالعقائد الإسلامية لا تُعنى بمكون دون غيره ولا بقوة دون أخرى، بل تتصل بها جميعاً اتصالاً وثيقاً. فلا تضارب بين القوى أو بين المكونات حول عقيدة من عقائده، بل هو التناغم والوئام الذي يفضي إلى قبول العقل وطمأنينة القلب والتقاء مع الإرادة، وهذا هو كمال الشخصية.

ويرى ابن حزم أن تكامل الشخصية واعتدالها لا يتحقق إلا من خلال التوازن بين قوى النفس المختلفة، يقول في ذلك "إن قوله سبحانه: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[3]، جامع لكل فضيلة. لأن نهي النفس عن الهوى هو ردعها عن الطبع الغضبي وعن الطبع الشهواني، لأن كليهما واقع تحت موجب الهوى، فلم يبق إلا استعمــال النفس للنطق الموضوع فيها، الذي به بانت عن البهائم والحشرات والسباع" ... ويقول في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم للذي استوصاه "لا تغضب"، وأمره، عليه السلام، أن يحب المرء لغيره ما يحب لنفسه، جامعان لكل فضيلة، لأن في نهيه عن الغضب ردع النفس ذات القوى الغضبية عن هواها. وفي أمره عليه السلام أن يحب المرء لغيره ما يحب لنفسه ردع النفوس عن القــوى الشهوانية، وجمع لأزمَّة العدل الذي هو فائدة النطق الموضوع في النفس الناطقة"[4].

(1) الروم، 30.

(2) الشهرستاني، الملل والنحل، ج1، ص 45.

(3) النازعات، 40.

(4) ابن حزم، الأخلاق والسير في مداواة النفوس، ص 19.

كما لا تستقيم الشخصية ولا يتحقق لها التوازن والتناغم، ولا تتمكن من أداء رسالتها في الحياة إلا بتوازن مكوناتها. فهناك توازن بين الجسد والروح، وهناك توازن بين العقل والوجدان والإرادة. فقد أقرّ الإسلام دور الجسد في شخصية المسلم، وكفّ عنه الوجدان في حال مغالاته وانحرافه؛ فحرّم إشباع الشهوة إلى شرب الخمر، مثلاً، لأن فيه اعتداء على الجسد. كما كفّ الجسد عن الوجدان في أحوال ضعف المسلم، فعالج الإسلام ثورة الغضب بالجلوس إن كان قائماً، وبالاضطجاع إن كان قاعداً.

ويحقق الإسلام توازناً بين المكون الجسدي والمكون الروحي، فلا يهمل الجسد على حساب الروح، ولا يهمل الروح على حساب الجسد. وقد أكد الإسلام ضرورة الاهتمام بالجسد حتى يتمكن المسلم من أداء العبادات، لا بل قدّم صحة الجسد على صحة الدين، فقد أقر سقوط فرض الوضوء والتعويض عنه بالتيمم عندما يكون استعمال الماء مضراً بصحة المتوضئ، أو عندما يؤدي استعماله إلى تأخر شفاء المريض أو حدوث مضاعفات لديه. كما يسقط فرض الوضوء أو الاغتسال إذا كان المسلم في حاجة إلى الماء لشربه أو طبخ طعامه. ويسقط فرض الصوم عن المريض، وعليه أن يقضي بعد الشفاء. ويتوجب قطع الصلاة على من يداهمه الخطر وهو في الصلاة. وقد أقر الفقهاء بأن صحة الأبدان مقدمة على صحة الأديان.

وينهى الإسلام عن التطرف في العبادة حتى لا يرهق الإنسان نفسه ويؤذي بدنه، فلا يتمكن من تحقيق أهدافه العليا. ويتضح ذلك جلياً في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله ابن عمرو رضي الله عنه فقد قال: كُنْتُ أَصُومُ الدَّهْرَ وَأَقْرَأُ الْقُرْآنَ كُلَّ لَيْلَةٍ. فلما ذُكِرْتُ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَإِمَّا أَرْسَلَ إِلَيَّ، فَأَتَيْتُهُ. فَقَالَ لِي "أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ الدَّهْرَ وَتَقْرَأُ الْقُرْآنَ كُلَّ لَيْلَةٍ؟ فَقُلْتُ: بَلَى. يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَلَمْ أُرِدْ بِذَلِكَ إِلاَّ الخَيْرَ. قَالَ: فَإِنَّ بِحَسْبِكَ أَنْ تَصُومَ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ، قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ. قَالَ: فَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقّاً. وَلِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقّاً. وَلِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقّاً. فَصُمْ صَوْمَ دَاوُدَ نَبِيِّ اللَّهِ فَإِنَّهُ كَانَ أَعْبَدَ النَّاسِ، قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَمَا صَوْمُ دَاوُدَ؟ قَالَ كَانَ يَصُومُ يَوْماً وَيُفْطِرُ يَوْماً، قَالَ: وَاقْرَأِ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ شَهْرٍ، قَالَ قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِك. قَالَ: فَاقْرَأْهُ فِي كُلِّ عِشْرِينَ، قَالَ قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِك. قَالَ فَاقْرَأْهُ فِي كُلِّ عَشْرٍ، قَالَ قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ. قَال: فَاقْرَأْهُ فِي كُلِّ سَبْعٍ، وَلاَ تَزِدْ عَلَى ذَلِكَ. فَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقّاً. وَلِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقّاً. وَلِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقّاً. قَالَ فَشَدَّدْت علي،

وقالَ لِي النبي صلى الله عليه وسلم إنك لا تَدْرِي لَعَلَّكَ يَطولُ بِكَ عمر قَالَ: فَصِرْتُ إِلَى الَّذِي قَالَ لِي النَّبِيُّ . فَلَمَّا كَبِرْتُ وَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ قَبِلْتُ رُخْصَةَ نَبِيِّ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم" [1].

وقد نهى الإسلام عن التشدد في العبادة نحو المغالاة فيها، فنهى عن الرهبانية بقوله تعالى:(وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ)[2]. كما نهى عن التبتل"، فقد روي عن سعد بن أبي وقاص أن عثمان بن مظعون، استأذن الرسول صلى الله عليه وسلم في أن يتبتل "فنهاه عن ذلك". وقالت عائشة رضي الله عنها " أَنَّ النبيِّ صلى الله عليه وسلم نَهَى عَنِ التَّبَتُّلِ" [3]. كما نهى عن مواصلة الصيام، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لاَ صَامَ مَنْ صَامَ الأَبَدَ مَرَتَيْنِ" [4]. ونهى عن مواصلة الصلاة أيضاً، فيروى أن ثلاثة رجال جاءوا إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادته، فلما أخبروا عنها كأنهم تقالّوها فقالوا: وأين نحن من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. فقال أحدهم: أما أنا فإنني أصلي الليل أبداً. وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال "أنتُم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما واللهِ إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصومُ وأُفطر، وأصلِّي وأرقُد، وأتزوجُ النساء، فمن رغِبَ عن سُنَّتي فليسَ مني" [5]. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: دَخَلَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم المسجد فإذا حَبلٌ مَمدودٌ بينَ الساريتَينِ، فقال: ما هذا الحبلُ؟ قالوا: هذا حبلٌ لزينبَ، فإذا فَتَرَتْ تَعلَّقَتْ. فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم لا، حُلُّوهُ، ليُصلِّ أحدُكم نشاطَهُ، فإذا فترَ فليَقعُدْ" [6].

وبالمقابل فإن الإسلام ينهى عن التطرف في إشباع حاجات البدن على حساب الروح. فطالب الدنيا، مقطوعة عن الآخرة، يعيش في صراع مع نفسه ومع الآخرين؛ فهو يحاول إشباع شهوة الدنيا على حساب ما أودعه الله في نفسه من حاجات روحية تتعلق بالآخرة. فيقع فريسة القلق والصراع، فيستحق بذلك العقاب، قال تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ)[7]، وقال سبحانه: (فَأَمَّا مَنْ

---

(1) رواه البخاري في الصحيح، باب البر والصلة، حديث رقم 5992.

(2) الحديد، 27.

(3) أخرجه النسائي في كتاب النكاح، باب النهي عن التيتل، حديث رقم 3161.

(4) فتح الباري بشرح البخاري، كتاب الصوم، باب حق الأهل في الصوم، حديث رقم 1840.

(5) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب ترغيب في النكاح، حديث رقم 4675.

(6) أخرجه الشيخان - النووي، رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب النعاس في الصلاة، حديث رقم 1117.

(7) محمد، 12.

طَغَى (37) وَآَثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (38) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى)[1]. وقال تعالى بشأن الانحراف الجنسي الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي
دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ [2].

فالحياة الدنيا – في الإسلام – لا قيمة لها، إن كانت مقطوعة عن الآخرة. ولكن هذا لا يعني، بحال من الأحوال، أن الحياة الدنيا لا قيمة لها على الإطلاق، فهذا غير جائز في الإسلام. فقد خلق الله سبحانه الحياة لغاية عمارة الأرض والخلافة فيها ولم يخلقها عبثاً. والحياة الدنيا هي الطريق الأوحد إلى الآخرة. فهي تستمد قيمتها من ما تؤدي إليه من هدف سام هي الحياة الآخرة. ومن هنا يشعر المسلم بأن عمارة الأرض والخلافة فيها هي مسؤوليته. فلا يكون الزهد في الدنيا بصرف النظر عنها وتحريم زينتها، قال تعالى: قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ[3]، وقال سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ(87))
وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ[4]. بل يكون الزهد بإعطائها القيمة التي تستحق باعتبارها الطريق المؤدية إلى الحياة الآخرة. فهي تابعة للآخرة وليست متبوعة لها، قال تعالى: (وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا) [5].

ويصف الحكيم الترمذي التوازن والتناغم بين عمل المكونين المادي والروحي، في أداء الصلاة التي تؤدى بالجوارح، يقول "فبالوقوف يخرج – المصلي – من الآباق ... وبالتوجه إلى القبلة يخرج من التولي والإعراض .. وبالتكبير يخرج من الكبر ... وبالثناء يخرج من الغفلة ... وبالتلاوة يجدد تسليماً للنفس وقبولاً للعهد ... وبالركوع يخرج من الخطر العظيم" [6].

ولا شك في أن التوازن بين الجانب الانفعالي والعقلي هام أيضاً في توازن الشخصية. فالإسلام لا يقمع هذا الجانب ولا يكبته باسم القوة الناطقة (أي العقلية)، بل

(1) النازعات، 37-39.

(2) النور، 2.

(3) الأعراف، 32.

(4) المائدة، 87-88.

(5) القصص، 77.

(6) نقلاً عن يحيى هاشم فرغل، معالم شخصية المسلم، ص 68.

يعدّله بالتأديب – إن زاد أو نقص – ليتحرك كما ينبغي وعلى ما ينبغي وفي الوقت الذي ينبغي.

كما أن الجانب الاجتماعي حاسم في توازن الشخصية وتكاملها، فلا يستطيع الإنسان أن يعيش بمعزل عن الآخرين، ولا يتمكن من أداء دوره في الحياة من خلافة وعمارة إلا بالتفاعل مع المجتمع تأثراً وتأثيراً. فالعبادات ما شرعت إلا لإصلاح الجماعة، ولا يتم ذلك إلا بمخالطتهم، لذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للصحابة عندما أثنوا على كثرة عبادة رجل وانقطاعه لها في المسجد "من يكفيه طعامه وشرابه؟ فقالوا: كلنا، قال: كلكم خير منه".

ولا يستقيم مفهوم الشخصية المتكاملة المتوازنة في الإسلام إلا بالتوازن بين مفهومي "أنا" و "نحن" – أي أنا والأمة – وبالتوازن بين ما له وما عليه للآخرين. فالمسلم عضو فاعل ومسؤول في المجتمع الإسلامي؛ فهو مسؤول عن الإنفاق على أسرته ... وعن إماطة الأذى عن الطريق... كما هو مطالب بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لإقامة العدل في الأرض التي استخلفه الله فيها.

وثمة توازن بين الجانب الإرادي والإيماني في الشخصية، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم أصحابه الاستخارة في جميع أمورهم. فقد روي عن جابر بن عبد الله أنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلّمنا الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول "إذا همَّ أحدُكم بالأمرِ فلْيَركعْ رَكعتَيْنِ من غيرِ الفريضةِ، ثمَّ لِيَقُلْ: اللَّهمَّ إني أستخيرُكَ بعلمك، وأستَقدِرُكَ بقُدرَتِكَ، وأسألُكَ من فضلكَ العظيمِ، فإنَّكَ تَقدِرُ ولا أقدِرُ، وتَعلمُ ولا أعلَمُ وأنتَ علاَّمُ الغُيوب. اللَّهمَّ إن كنتَ تَعلمُ أنَّ هذا الأمرَ خيرٌ لي في دِيني ومَعاشي وعاقبةِ أمري - أو قال: عاجِل أمري وآجلِهِ- فاقدُرْهُ لي، ويَسِّرْهُ لي، ثمَّ بارِكْ لي فيه. وإن كنتَ تَعلمُ أنَّ هذا الأمرَ شرٌّ لي في دِيني ومَعاشي وعاقبةِ أمري - أو قال: في عاجل أمري وآجله- فاصرِفهُ عَنّي واصرفني عنهُ، واقدُر لي الخيرَ حيثُ كان، ثمَّ أرضني به قال: ويُسمِّي حاجَتَهُ" [(1)]. وهكذا بالنسبة للأدعية والأذكار التي يقولها المسلم حين يصيبه هم أو حزن، أو إذا غلبه أمر، أو أصابته مصيبة ... الخ.

والتوازن هو هدف الشخصية الإسلامية، والاستقامة تعبير عن هذا التوازن. وقد تحقق توازن الشخصية في عصر النبوة، عندما كانت العقيدة الإسلامية في أوج توازنها مع

(1) المرجع السابق.

القوى والجوانب المختلفة للشخصية. ومن الجدير بالذكر أن التوازن الذي نعنيه هنا ليس التوازن الكيماوي الذي يحسب بالأرقام والرموز، بل هو واقع نفسي يتعرض لما تتعرض له الشخصية الإنسانية من مدّ وجزر، أو صعود وهبوط، أو من خطأ وخطيئة. فالإنسان ليس ملاكاً مبرءاً من العيوب، منزّهاً عن النقائص، بل الخطأ شأنه والنقص سمته. وقد وقع الخطأ الأول من آدم عليه السلام، عندما عصى ربه فغوى. فلا يعدّ الخطأ شذوذاً في الشخصية، فكل ابن آدم خطاء، ولكن خير الخطائين التوابون. فالخطأ يكشف الحالة الديناميكية للشخصية. وضرورة الخطأ في الشخصية هي ضرورة التركيب الديناميكي لها، فلو لم يخطئ البشر لذهب الله بهم، وأتى بغيرهم يخطئون فيغفر لهم. كما أن ضرورة التوبة وإصلاح الخطأ هي ضرورة العودة إلى حال التوازن النفسي التي كانت تتمتع بها الشخصية قبل الخطأ. وتجدر الإشارة إلى أن الخطأ القابل للمغفرة هو الخطأ الناتج عن فقد التوازن السطحي المؤقت بين قوى الشخصية أو بين مكوناتها. أما إذا فقد التوازن بصورة جوهرية بين قوى الشخصية أو بين مكوناتها، عندها تكون الخطيئة التي قد لا تقبل المغفرة.

- **تصنيف الشخصية الإنسانية:**

تتنوع طرق تصنيف الشخصية الإنسانية في الفكر الإسلامي. فمنها تصنيف الشخصية على أساس المعيار العقائدي، ومنها تصنيف الشخصية في ضوء جبلّتها، ومنها تصنيف الشخصية في ضوء سماتها الكبرى وتفرعاتها. وفيما يلي توضيح لكل طريقة منها على حدة:

– **التصنيف على أساس المعيار العقائدي:**

يصنف القرآن الكريم البشر على أساس المعيار العقائدي، نظراً لأهميته الحاسمة في تكوين الشخصية وتوجيهها، في ثلاث فئات هي: المؤمنون والكافرون والمنافقون. وقد أفرد لكل منهم سورة في القرآن الكريم؛ فهناك سورة "المؤمنون"، وسورة "الكافرون"، وسورة "المنافقون". كما تكرر ذكرهم مع بيان صفاتهم في مواضع عديدة في القرآن الكريم. ويشترك أفراد كل فئة بصفات ثابتة نسبياً تميزهم عن غيرهم، وتمكّن من تفسير سلوكاتهم والتنبؤ بها في المواقف الجديدة. وفيما يأتي توضيح لفئات الشخصية كما وردت في القرآن الكريم:

أ- **المؤمنون**: وهم الذي عرفوا الحق فاتبعوه، وأبطنوا الإيمان وأظهروه على سلوكاتهم وأعمالهم، فتطابق سلوكهم الباطني مع سلوكهم الظاهري، قال تعالى(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)[(1)] . والمؤمنون ليسوا في منزلة واحدة في الجنة، بل يتفاوتون في المنازل حسب درجة التقوى؛ فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات، مصداقاً لقوله تعالى: (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ)[2]. وقد ورد في مختصر تفسير ابن كثير أن "الظالم لنفسه هو الذي يفرّط في فعل بعض الواجبات ويرتكب بعض المحرمات. أما المقتصد فهو الذي يؤدي الواجبات ويترك المحرمات، وقد يفعل بعض المكروهات ويترك بعض المستحبات. والسابق بالخيرات هو الذي يفعل الواجبات والمستحبات ويترك المحرمات والمكروهات وبعض المباحات. والمقتصدون والسابقون بالخيرات هم أولياء الله المتقون الذين لا خوف عليهم ولا يحزنون، ذلك أنهم آمنوا وكانوا يتقون، وإن كان السابقون أعلى درجة من المقتصدين" [(3)]. ويطابق ابن تيمية بين مراتب الشخصية المؤمنة (الظالم لنفسه والمقتصد والسابق بالخيرات) مع المراتب الثلاثة الواردة في حديث جبريل عليه السلام وهي: الإسلام والإيمان والإحسان) على الترتيب[(4)].

وللمؤمنين صفات وردت في القرآن الكريم، تميزهم عن غيرهم من البشر. وتتكامل هذه الصفات فيما بينها، وتوجه سلوكاتهم. وقد أجملها نجاتي[(5)] في تسعة مجالات[(6)] رئيسة هي:

1. **صفات تتعلق بالعقيدة** كالإيمان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر والبعث والقضاء والقدر والجنة والنار ...

---

(1) العصر، 1-3.

(2) فاطر، 32.

(3) مختصر ابن كثير للصابوني، ج3، ص 147.

(4) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج7، ص 485.

(5) محمد عثمان نجاتي، القرآن وعلم النفس، ص 213-217.

(6) ثمة تداخل بين الصفات كما وردت في تصنيف نجاتي.

2. **صفات تتعلق بالعبادات** كأداء الصلاة والزكاة والصيام والحج، والتقوى وقراءة القرآن والتوكل على الله ومداومة ذكره واستغفاره ...
3. **صفات عاطفية انفعالية** كالرحمة ولوم النفس عند ارتكاب الذنب وكظم الغيظ وضبط انفعال الغضب وحب الناس وعدم إيذائهم والأمل في رحمة الله ...
4. **صفات جسمية** كالنظافة والطهارة والقوة والصحة ...
5. **صفات عقلية معرفية** كالتفكير والتفكر وطلب المعرفة وعدم اتباع الظن والهوى وعدم التقليد الأعمى ...
6. **صفات اجتماعية** كالكرم والتعاون والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيثار والتكافل والعفو والإحسان ...
7. **صفات خلقية** كالصدق والأمانة والعدل والوفاء والصبر والعفة والتواضع والحلم وعزة النفس ...
8. **صفات أسرية** كالإنفاق على الأسرة وحسن المعاشرة الزوجية وبرّ الوالدين ...
9. **صفات تتعلق بالحياة العملية والمهنية** كالإخلاص في العمل وإتقانه والسعي لكسب العيش.

ويزخر القرآن الكريم بالآيات التي تبين صفات المؤمنين، لذلك يصعب الاستشهاد على كل صفة منها بالآيات الكريمة، ونكتفي بمثال توضيحي لبعض هذه الصفات، كما وردت في الآيات الكريمة التالية من سورة البقرة: (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ) (4أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)[1]. وعليه، فمن صفات المؤمنين: الإيمان بالغيب وأداء الصلاة وإيتاء الزكاة والإيمان بالكتب السماوية والإيمان باليوم الآخر. وهكذا يمكن تصوير شخصية المؤمن (النموذج) على أنها شخصية تتمسك بالإيمان عقيدة وفكراً، وتترجمها إلى منهج في حياتها الشخصية والاجتماعية والمهنية. وهذه الصورة النمطية للمؤمن صورة متكاملة وشاملة لجميع صفاته، فلا يصحّ وجود بعض منها دون الأخرى. فالإيمان بالغيب لا يصحّ وحده دون الإيمان بالله وملائكته ورسله ...

---

(1) البقرة، 3-5.

ولمّا كانت قابلية التطبيق من أهم خصائص الإسلام، فإن إمكانية تحويل هذا النموذج إلى واقع حي أمر مؤكد. فشخصية سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم هي النموذج الأكمل للإيمان. فهو قدوة المؤمنين وأسوتهم الحسنة، قال سبحانه: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا)[1]. وكانت سيرة حياته العطرة نموذجاً يهتدى به، فقد جاء رحمة للعالمين، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحلّ الطيبات ويحرّم الخبائث ... ومن اتبع سنته ونصره كان من المفلحين، قال تعالى: (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) [2].

ب- **الكافرون:** وهم الذين عرفوا الحق فجحدوه وأظهروا الكفر، قال تعالى(قُلْ يَا أَيُّهَاالْكَافِرُونَ (1) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (2) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ(3) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (4) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (5) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) [3]. وللكافرين صفات وردت في القرآن الكريم تميزهم عن غيرهم، أجملها نجاتي[4] في سبعة مجالات رئيسة هي:

1. **صفات تتعلق بالعقيدة** كعدم الإيمان بالله والرسل واليوم الآخر والقضاء والقدر والجنة والنار...
2. **صفات تتعلق بالعبادات** كعبادة غير الله ...
3. **صفات خلقية** كالفجور والغرور واتباع الشهوات ونقض العهد ...
4. **صفات عاطفية انفعالية** كالحقد والحسد والكراهية ...
5. **صفات اجتماعية** كالعدوان والظلم والأمر بالمنكر والسخرية بالمسلمين ...
6. **صفات أسرية** كقطع الرحم وعقوق الوالدين ...
7. **صفات عقلية معرفية** كالتقليد الأعمى والختم على القلب وجمود التفكير ...

---

(1) الأحزاب، 21.

(2) الأعراف، 157.

(3) الكافرون، 1-6.

(4) نجاتي، القرآن وعلم النفس، ص 218-219.

وتوجه هذه الصفات سلوك الكافرين. ويزخر القرآن الكريم بالآيات التي تكشف صفاتهم، لذا سنكتفي بتوضيح بعضها، كما وردت في قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (6) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) [1]. فمن صفاتهم: عدم الإيمان بالله والختم على القلب والسمع والبصر. وهكذا يمكن تصوير شخصية الكافر على أنها شخصية لا تؤمن بعقيدة التوحيد، مما يفقدها القوة الموجهة للسلوك، فيختلّ التوازن في الشخصية، وتنحرف نحو إشباع الملذات واتباع الشهوات. فتملكها الحقد على المسلمين والرغبة في إيذائهم، والتكبر عن الاستماع لدعوة الحق، لذلك يطبع الله على قلبها وعلى سمعها وبصرها غشاوة، فلا تبصر هدى ولا تسمع ولا تفقه. والكفر حال تخرج صاحبها كلياً عن دائرة الإسلام.

جـ- **المنافقون**: وهم الذين عرفوا الحق فجحدوه وأظهروا خلافه، أي أنهم أبطنوا الكفر وأظهروا الإيمان، قال تعالى:(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آَمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (8) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) (9فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ▪ [2]. وقال تعالى: وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا قَالُوا آَمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ) [3]. وقد وصف القرآن الكريم المنافقين في ثلاث عشرة آية من سورة البقرة، فيما وصف المؤمنين بأربع آيات، والكافرين بآيتين فقط في السورة ذاتها، لكثرة المنافقين وعموم الابتلاء بهم وشدة فتنتهم على الإسلام وأهله. كما أن أمرهم قد يُشتبه على كثير من الناس، لذلك نبّه سبحانه إلى صفاتهم حتى لا يغترّ المؤمن بظاهر أمرهم. وقد بيّن حالهم في سورة المنافقين والنور وبراءة وغيرها.

أما صفات المنافقين التي تميزهم عن غيرهم كما وردت في القرآن الكريم، فقد صنفها نجاتي[4] في ستة مجالات رئيسة هي:

1. **صفات تتعلق بالعقيدة** كالتردد في عقيدة التوحيد بإظهار الإيمان عندما يكون المنافق بين المؤمنين، وإظهار الكفر عندما يكون بين الكافرين ...

---

(1) البقرة، 6-7.

(2) البقرة، 8-10.

(3) البقرة، 14.

(4) نجاتي، القرآن وعلم النفس، ص 220-221.

2. **صفات تتعلق بالعبادات** كأداء الصلاة بكسل، وأداء العبادات رياء الناس ...

3. **صفات خلقية** كالجبن والبخل والانتهازية وضعف الثقة بالنفس ونقض العهد واتباع الهوى...

4. **صفات عقلية معرفية** كالتردد والريبة وعدم القدرة على التفكير السليم وتبرير الأفعال...

5. **صفات عاطفية انفعالية** كالخوف من المشركين ومن المؤمنين والخوف من الموت وكراهية المسلمين والحقد عليهم ...

6. **صفات اجتماعية** كخداع الناس والتأثير في السامعين باصطناع الحديث وحسن المظهر لجلب الانتباه والتأثير في الآخرين وإثارة الفتن ...

وهكذا يمكن تصوير شخصية المنافق على أنها شخصية متناقضة مع نفسها ومع المجتمع، فقدت إنسانيتها. وهي ضعيفة الثقة بالنفس؛ تخاف من المؤمنين ومن الكافرين. ومترددة بين الإيمان والكفر، لا تستطيع أن تصدر حكماً أو تتخذ قراراً. والمنافق انتهازي ومرائي وخبيث القلب وفاسد النية ومخادع، يحاول التأثير على الآخرين بتنميق الكلام وحسن المظهر. والمنافق يخالف قوله فعله، وسرّه علانيته. كما يفسد في الأرض بعمل المعصية. والمنافقون ليسوا بمنزلة واحدة، بل يتفاوتون فيما بينهم في شعب النفاق؛ فمن النفاق ما هو كبير يهوي بصاحبه إلى الدرك الأسفل من النار، ومنه ما هو صغير كالنفاق في الأعمال ونحوها.

وهكذا فقد رسم القرآن الكريم صورة حيّة لكل من المنافق والكافر والمؤمن،بحيث يسهل التعرف عليهم في ضوء الصفات التي تميز كلاً منهم. ويلخص الجدول رقم (1) هذه الصفات.

جدول رقم (1)

يلخص صفات المؤمنين والكافرين والمنافقين في المجالات المختلفة للشخصية

المجال	المؤمنون	الكافرون	المنافقون
العقيدة	إيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر ...	عدم الإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر ...	إظهار الإيمان مع المؤمنين والكفر مع الكافرين ...
العبادات	أداء الصلاة والصيام والحج وقراءة القرآن ...	عبادة غير الله ...	أداء العبادات رياء وكسلاً
العاطفي الانفعالي	الرحمة وحب الناس وكظم الغيظ وضبط الغضب ...	الحقد والحسد والكراهية ...	الخوف من المسلمين ومن الكافرين والخوف من الموت ...
الجسمي	النظافة والطهارة والقوة والصحة ...	عدم الطهارة، والاهتمام بالمظهر الخارجي للتأثير في الآخرين ...	حسن المظهر للتأثير في الآخرين وجلب الانتباه ...
العقلي	التفكير والتفكر وطلب العلم وعدم التقليد الأعمى ...	التقليد الأعمى وجمود التفكير ...	التردد والريبة والتبرير وعدم التفكير السليم ...
الاجتماعي (العام)	الكرم والتعاون والإحسان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ...	العدوان والظلم والأمر بالمنكر والنهي عن المعروف ...	الخداع واصطناع الحديث، وإثارة الفتن ...
الأسري	برّ الوالدين وحسن المعاشرة الزوجية والإنفاق على الأسرة ...	قطع الرحم وعقوق الوالدين ..	البخل على الأسرة، والريبة والشكوك بأفرادها..
الخلقي	الصدق والعدل والوفاء والحلم والأمانة والصبر ...	الفجور والغرور واتباع الشهوات ...	الجبن والبخل والكذب وضعف الثقة بالنفس ...
المهني	إتقان العمل والإخلاص فيه والسعي لكسب العيش ...	الغش والخيانة والتهرب من المسؤولية	أداء العمل إرضاء للمسؤول وعدم الإخلاص فيه ...

ويضيف ابن حزم في كتابه "الفصل في الملل والنحل" فئة رابعة للشخصية الإنسانية، فهو يقول "الناس أربعة: فإنسان استدلّ فأداه استدلاله إلى حق مأجور مرتين، وآخر استدلّ وبحث ونظر، فأداه ذلك إلى دهرية أو تبرهم أو منانية أو بعض أنواع الكفر. فهذا كافر مخلد في النار إن مات على ذلك. أو أداه إلى قول الأزارقة أو أصحاب الأصلح أو بعض البدع المهلكة، فهو فاسق. وآخر قلّد فاتفق له الحق، فهو من أهل الحق، وهكذا عوام أهل الإسلام كلهم, وآخر قلّد فأداه ذلك إلى الباطل فهو كافر وإما فاسق"[1].

ويضيف ابن تيمية[2] إلى ما ذهب إليه ابن حزم من وجود شخصية رابعة تجمع بين الشخصية المؤمنة والشخصية المنافقة، مستشهداً بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم "القلوب أربعة قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مصفح، فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن سراجه فيه نوره، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق؛ عرف ثم أنكر، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق، فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والدم، فأي المدتين غلبت على الأخرى غلبت عليه" [3].

وهكذا يمكن القول بأن الشخصية الرابعة (الخليط) يجتمع فيها شعب من الإيمان وشعب من النفاق، كما يتضح أيضاً في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم "أربعٌ مَنْ كُنَّ فيهِ كان مُنافِقاً خالصاً، وَمَنْ كانتْ فيهِ خَصْلةٌ مِنهنَّ كانتْ فيهِ خَصْلةٌ مِنَ النفاقِ حتى يَدَعَها: إذا اؤْتُمِنَ خان، وإذا حدَّثَ كَذَبَ، وإذا عاهَدَ غدرَ، وإذا خاصمَ فَجَرَ" [4]. وفي الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِغَزْوٍ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ" [5]. فالشخصية الرابعة تخلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً. ويتفاوت أفراد هذه الفئة فيما بينهم من حيث قربهم أو بعدهم عن الإيمان في ضوء خصل النفاق التي يتسمون بها.

ويرى ابن حزم أن الشخصية المؤمنة ليست فئة متجانسة في درجة إيمانها. وكذا الحال بالنسبة إلى الشخصية الكافرة. فالإيمان مراتب، والكفر مراتب، وفي ذلك يقول

---

(1) ابن حزم، الفصل في الملل والنحل، الكلام في الأضلال، ج3، ص 74.

(2) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج28، ص 433-435.

(3) سبق تخريجه.

(4) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، حديث رقم 33.

(5) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب ذم من مات ولم يغزو، حديث رقم 3533.

"والله يخلق الإيمان والكفر في قلوب عباده وهم في ذلك طبقات: فمنهم من يخلق الإيمان في قلبه ضرورة بداءة، كما خلق الله في قلوبنا معرفة أن الكل أكثر من الجزء، وأن الحلو حلو والمر مر، وهذا أرفع درجات الإيمان، وهذا إيمان الملائكة والأنبياء عليهم السلام. ومنهم من خلق الإيمان في قلبه ضرورة عن تصديق مخبر كإسلام الصحابة رضي الله عنهم الذين صدقوا رسول الله في خبره. ومنهم من خلق الإيمان في قلبه ضرورة عن استدلال وبرهان برؤية معجزات أو نقلها إليه، وهذه صفة إيمان المستدلين منّا. ومنهم من خلق الإيمان في قلبه بغير سبب، وهذه صفة إيمان المحققين من العوام، ولا إيمان لمن خرج من هذه الطباق. وكذلك خلق الله الكفر في قلوب عباده؛ فمنهم من خلقه في قلبه حسداً للعرب وللنبي صلى الله عليه وسلم، ومنهم من خلق في قلبه اتباعاً لهوى وقع له أو سكوناً إلى الشك. ومنهم من خلقه في قلبه استدلالاً ببعض الأدلة الفاسدة. ومنهم من حكم الله عليه بالكفر وإن اعتقد الإيمان وعمل به وأعلنه، لكنه خرق الإجماع في بعض أقواله كمن أقرّ بنبي بعد محمد صلى الله عليه وسلم، أو كذّب بآية من القرآن الكريم أو بشريعة مجتمع عليها، أو عمل عملاً يكون به كافراً" [1].

والسؤال الذي يتبادر إلى الأذهان هو: هل هذه شخصيات نمطية؟ وهل الصفات الشخصية لكل فئة من الفئات المذكورة ثابتة كلياً في شخصياتهم، بحيث لا تقبل التعديل أو التزكية أو الارتداد؟ يشير حديث الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم "مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ. فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ. فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ. وَذلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ" [2]. إلى أن النمط السلوكي للشخصية قابل للتغير. وإذا قارنا صفات شخصية عمر بن الخطاب أو خالد بن الوليد رضي الله عنهما قبل الإسلام وبعده، لوجدنا أنها تغيرت تغيراً واضحاً. فقد كانا أشد الناس عداء للإسلام، فلما أسلما تقدما على من سبقهما إلى الإسلام. وقد ثبت في الصحيح أن هند امرأة أبي سفيان أم معاوية قالت: والله يا رسول الله، ما كان على وجه الأرض أهل خباء أحب إليّ أن يذلوا من أهل خبائك، وقد أصبحت وما على وجه الأرض أهل خباء أحبّ إليّ من أهل خبائك"[3].

وهكذا فقد جعل الله بين من عادوا الله ورسوله قبل الإسلام مودة ورحمة بفضل الإيمان. فأوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله. وهذا يشير إلى قابلية تعديل السلوك، وبالتالي إلى إمكانية تحول الشخصية من فئة إلى أخرى. فقلوب العباد بين يدي

---

(1) ابن حزم، الرسائل، رسالة البيان عن حقيقة الإيمان، ج3، ص 202-203.

(2) رواه ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، حديث رقم 70.

(3) نقلاً عن ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج10، ص 306.

الرحمن يقلبها كيف يشاء. والرجل قد يمسي كافراً ويصبح مؤمناً، مصداقاً لقوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آَمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُواكُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا)[1]. ويمكن للمنافق أن يتوب ويخلص دينه لله فيتحول من منافق إلى مؤمن، مصداقاً لقوله تعالى(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا) (145إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا)[2].

كما يمكن تحول الشخصية من مرتبة إلى أخرى ضمن الفئة الواحدة. فالإيمان مراتب، فهو بضع وسبعون شعبة، والناس يتفاوتون في شعب الإيمان كما هو معلوم. ومع ذلك فيمكن للإيمان أن يزيد وينقص. فالإيمان يزيد بالممارسات العملية حتى يصل إلى الإحسان الذي يمثل مرتبة الكمال. والأدلة كثيرة بهذا الشأن، نذكر منها على سبيل المثال، لا الحصر، قوله تعالى: (وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آَيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا)[3] وقوله سبحانه: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا)[4] وقوله أيضاً : (لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آَمَنُوا إِيمَانًا)[5].

وبالمقابل، تكشف بعض الآيات الكريمة أن بعض البشر لن تتغير شخصياتهم، ونذكر من هذه الآيات قوله تعالى:(سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ) لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)[6]، وقوله تعالى: (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آَنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ)[7]. ويمكن القول بأن نمط الشخصية يتسم، عموماً، بالثبات النسبي، الأمر الذي يسمح بالتنبؤ عن السلوك بدرجة كافية من الدقة، ويسمح في الوقت ذاته بتعديل السلوك وتزكية النفس. كما يفسّر تقلبها بين الإيمان والنفاق والكفر. فهناك ثبات في الشخصية يتمثل في ثبات الهوية، والغاية والقيم والمبادئ وأسلوب الحياة وسمات الشخصية واللغة ... والثبات في الشخصية أساس هام ودعامة لها. كما أنها

---

(1) النساء، 137.

(2) النساء، 145-146.

(3) الأنفال، 2.

(4) الفتح، 4.

(5) المدثر، 31.

(6) المنافقون، 6.

(7) محمد، 16.

ضرورة من ضرورات حماية الشخصية من الانحراف لتتمكن من حمل الرسالة وأداء الأمانة. والثبات يبعث الطمأنينة في الشخصية، بحيث تصل الأمس باليوم واليوم بالغد وفق المنهج الذي رسمه لها الله سبحانه.

غير أن الثبات لا يعني السكون والجمود، بل هو ثبات نسبي يسمح بالحركة حول محور ثابت. وتعدّ هذه الحركة استجابة للنزعة الفطرية لتغيير الواقع على الأرض وتطويره. وتتنوع أشكال الحركة وتتطور بتطور الحياة وتجددها وفق مقتضيات العصر ويزخر التاريخ الإسلامي بأمثلة توضّح ما نذهب إليه. فقد طوّر الإمام الشافعي في مذهبه القديم (الذي كوّنه عندما كان في الحجاز) عندما انتهى به المقام في مصر.

- **التصنيف في ضوء جبلة الإنسان:**

يميل فلاسفة المسلمين إلى تصنيف الشخصية في عدد من الأنماط في ضوء علاقة الارتباط بين الفطرة الجبلية، والسلوك الإنساني. ويبدو أنهم تأثروا في تصنيفهم هذا بتصنيف هيبوقراط للشخصية في أربعة أمزجة هي: الدموي والصفراوي والبلغمي والسوداوي. وينشأ كل مزاج منها عن تغلب أحد الأخلاط الأربعة: الدم والصفراء والبلغم والسوداء.

ويذكر ابن مسكويه في كتابه "الفوز الأصغر" أن الماء والهواء والنار والتراب هي مركب أخلاط الإنسان، يقول في ذلك "أما ما يجري مجرى النار منه فالمرارة المعلقة بالكبد لأنها حارة يابسة، وهي مستقر هذا الخلق ومفيضه من جميع البدن. أما ما يجري مجرى الأرض فالطحال لأنه بارد يابس. وهذا أيضاً مستقر هذا النوع من الأخلاط ومفيضه من البدن. وأما ما يجري مجرى الهواء فالدم الذي في العروق لأنه حار رطب. وأما ما يجري مجرى الماء فالبلغم، ولم يفرد له وعاء يخصه كما عمل في الأركان الثلاثة من أجل أنه مستعد لينهضم، فإذا انهضم صار غذاء تاماً ولم يكن له فضلة وليس كذلك الآخر" [1].

وقد تأثر ابن حزم بتصنيف هيبوقراط للشخصية في أربعة أنماط مزاجية، فهو يقول في كتابه "الفصل في الملل والنحل" منها ما يكون من قبل الطبع كرؤية من غلب عليه الدم للأنوار والزهر والحمرة والسرور، ورؤية من غلبت عليه الصفراء للنيران، ورؤية صاحب البلغم للثلوج والمياه، وكرؤية من غلبت عليه السوداء للكهوف والظلام

---

(1) ابن مسكويه، الفوز الأصغر، ص 93.

والمخاوف"[1]. وفي هذا إشارة إلى الصفات الشخصية المرتبطة بكل مزاج من الأمزجة الأربعة. فالمزاج الدموي يرتبط بصفات الحيوية والنشاط والمرح، فيما يرتبط المزاج الصفرواي بالحدة وسرعة الغضب، كما يرتبط المزاج البلغمي بالوقار والسكون والحلم. أما المزاج السوداوي فيرتبط بالحزن والاكتئاب.

كما أشار ابن سينا في كتاباته المتعددة إلى التصنيف الرباعي لأمزجة الشخصية وما يقابل كل منها من سلوكات؛ فالمزاج الدموي يرتبط بالحماس والدافعية والتفاؤل، فيما يرتبط المزاج السوداوي بالاكتئاب. أما المزاج البلغمي فيرتبط بالوقار والحلم. ويرتبط المزاج الصفراوي بالحدة والغضب.

ويرى الجاحظ في كتابه "التاج في أخلاق الملوك" أن المزاج الدموي يفضي إلى الطاقة والنشاط والمرح والانطلاق، وهو أنسب الأمزجة لدماء الملوك. أما المزاج السوداوي فيفضي إلى الحزن وفساد المزاج. ويفضي المزاج البلغمي إلى الكسل والنوم، فيما يؤدي المزاج الصفراوي إلى كثرة الحركة وسرعة القلق"[2]. هذا ويوضح الشكل رقم (1) ما ذهب إليه فلاسفة الإسلام من علاقة بين الأمزجة وما ينطوي عليها من سلوكات.

الشكل رقم (1)

الأمزجة وما ينطوي عليها من سلوكات كما في الفكر الإسلامي

الدموي	الصفراوي	البلغمي	السوداوي
- حيوية	- حدة	- وقار	- اكتئاب
- نشاط	- غضب	- سكون	- حزن
- مرح	- قلق	- حلم	- فساد المزاج
- دافعية	- حركة	- كسل	
- تفاؤل		- نوم	
- انطلاق			

(1) ابن حزم، الفصل في الملل والنحل، الكلام في الرؤيا، ج5، ص 123.

(2) انظر: العاني، الشخصية الإنسانية في التراث الإسلامي، ص 80-82.

وهكذا يمكن القول باتفاق المفكرين المسلمين حول وجود أربعة أمزجة للشخصية هي: المزاج الدموي، والصفراوي، والبلغمي، والسوداوي. ويرتبط كل مزاج منها بعدد من الأنماط السلوكية، فإذا غلب أحد هذه الأمزجة على الشخصية، فإنها تميل إلى أداء نمط ثابت نسبياً من السلوك، يمكن أن يشكل أسلوب حياة مميزة لصاحبها عن غيره من البشر.

ويذهب ابن مسكويه في كتابه "الهوامل والشوامل" إلى منحى آخر في تصنيف الشخصية الإنسانية. فقد ربط بين الطراز البدني والسلوك الإنساني (كما تعكسه الصفات الشخصية). فالنجابة تكون في النحاف أكثر، فيما تكون الفسولة[1] في السمان أكثر. ويعلل ابن مسكويه أسباب نجابة النحاف وفسولة السمان - عندما سأله أبو حيان التوحيدي عنها – بقوله "هذه المسألة كأنها عن حال الأغلب والوجود الأكثر. والسبب فيه أنه لما كانت الحرارة الغريزية سبب الحياة وسبب الفضائل التابعة للحياة، أعني الذكاء والحركة والشجاعة وما أشبهها، كانت الأبدان التي حظها منها أكثر أفضل. والحكم الصحيح في هذا أن الأبدان المعتدلة في النحافة والسمن والطول والقصر وسائر الكيفيات الأخرى أفضل الأبدان. ولما كانت المسألة مخصوصة بالنحافة والسمن خصصنا الجواب أيضاً فنقول "إن الحرارة إذا قاومت أخلاط البدن أذابت فضول الرطوبات ونفت البرد الغالب عليه الذي هو ضده، كان ذلك سبباً للحركة واليقظة، وسبباً للإقدام والنجدة. ويتبع هذه الأشياء سائر الفضائل اللازمة لها، وذكو[2] الحرارة التي في القلب"[3].

ويضيف "وهي أول هذه الفضائل كلها. فإذا غلبت الرطوبات عليها أطفأتها وغمرتها، وحالت بينها وبين أفعالها وعاقتها عنها، فكان ذلك سبباً للفسولة ولواحقها من الكسل والبلادة والجبن وسائر الرذائل التي تتبعها. والنحافة والسمن، وإن كانا جميعاً قد خرجا عن الاعتدال، فأحدهما – وهو النحافة- خروجه عن الاعتدال بإفراط الحرارة التي هي سبب الفضائل، وهي أولى بها من الطرف الآخر الذي هو ضدها – أعني السمن – الذي هو خروج عن الاعتدال إلى جانب البرد وعدم الحرارة المؤدي إلى بطلانها وزوالها"[4]. وعليه، فالنحيف أكثر ذكاء ونشاطاً وشجاعة من السمين.

---

(1) الرذيلة والنذالة والحمق.

(2) ذكو: شدة.

(3) ابن مسكويه، الهوامل والشوامل، ص 106-107.

(4) المرجع السابق.

كما يربط ابن مسكويه بين الطول والهوج، وبين القصر والخبث، ويعلل هذا بقوله: "هذا أيضاً طرفان لموضع الفضيلة، وذلك أن الاعتدال من الطول والقصر هو المحمود، ولكن الطول بالتفاوت في الخلق أقرب إلى الذم لبعد الأعضاء الرئيسة بعضها من بعض، لاسيما العضوان اللذان هما أظهر الأعضاء رئاسة، أعني القلب والدماغ. فإن هذين يجب أن يكون بينهما مسافة معتدلة لتتمكن الحرارة التي في القلب من تعديل الدماغ، وحفظ اعتداله وبقاء الروح النفساني الذي يتهذب به في بطون الدماغ، وتتمكن أيضاً برودة الدماغ من تعديل حرارة القلب وحفظ اعتداله عليه. وهذا الاعتدال إذا بعد أحد العضوين عن الآخر تفاوت واضطرب نظامه وفسد التركيب وفسدت الأفعال الصادرة عن الإنسان ونقصت فضائله" [1].

وبناءً على العلاقة بين الطراز البدني والسلوك الإنساني، في فكر ابن مسكويه، يمكن استنتاج السلوكات الإنسانية في ضوء متغيري الطول والسمنة، فالسمين الطويل أحمق وأهوج، أما النحيف الطويل فذكي وأهوج. والقصير السمين أحمق وخبيث، أما القصير النحيف فذكي وخبيث، كما يتضح في الشكل رقم (2).

الشكل رقم (2)

يبيّن السلوكات الإنسانية في ضوء متغيري الطول والسمنة (كما في فكر ابن مسكويه)

	طويل	**قصير**
سمين	أحمق وأهوج	أحمق وخبيث
نحيف	ذكي وأهوج	ذكي وخبيث

(1) المرجع السابق.

- **التصنيف في ضوء سمات الشخصية:**

ثمة منحى آخر لتصنيف الشخصية في الفكر الإسلامي يستند إلى تحديد السمات التي يشترك فيها البشر عموماً، ولكنهم يختلفون في مواقعهم عليها. ويقصد بالسمات: الصفات الثابتة نسبياً في الشخصية، وقد وصف القرآن الكريم الشخصية الإنسانية بعدد من الصفات التي فطرت عليها، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، التالية:

- **العجلة**: كما في قوله تعالى: (خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آَيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ)[1].

-**لهلع والجزع ومنع الخير**: كما في قوله تعالى: (وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا)[2].

-**الجهل**: كما في قوله تعالى: (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (20)وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ)[3].

-**الضعف**: كما في قوله تعالى: (يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا)[4].

-**اليأس والقنوط**: كما في قوله تعالى(لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ)[5].

-**الكفر**: كما في قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ)[6].

-**الظلم**: كما في قوله تعالى: (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)[7].

---

(1) الإسراء، 11.

(2) المعارج، 19-22.

(3) الأحزاب، 72.

(4) النساء، 28.

(5) فصلت، 49.

(6) الحج، 66.

(7) إبراهيم، 34.

- **حب الخير**: كما في قوله تعالى:(وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ) [1].

الكدح: كما في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ) [2].

- **التقتير**: كما في قوله تعالى: (إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا) [3].
- **المجادلة**: كما في قوله تعالى:(وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا)[4].
- **البصيرة**: كما في قوله تعالى:(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)[5].
- **الجحود**: كما في قوله تعالى(إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ)[6].

وهذه السمات ثابتة نسبياً في الشخصية، لذا فهي تقبل التعديل بمجاهدة النفس بالإيمان والعمل الصالح بدليل قوله تعالى:(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ)[7]. فالإنسان مجبول على خلق الهلع، فإذا مسه الضر جزع ويئس من حصول الخير، وإذا حصلت له النعمة، بخل ومنع حق الله فيها، إلا من تمكن من مجاهدة نفسه وهداه الله إلى الخير ويسّر له أسبابه، وهم المصلون، الذين وصفهم الله سبحانه بقوله(الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (23) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (24) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (25) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (26) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (27) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (28) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (29) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30)فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (31) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (32) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (33) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (34) أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ)[8]. هذا وقد أسهب ابن تيمية بالحديث عن سمات الشخصية، كما في القرآن الكريم.

---

(1) العاديات، 8.

(2) الانشقاق، 6.

(3) الإسراء، 100.

(4) الكهف، 54.

(5) القيامة، 14-15.

(6) العاديات، 6.

(7) المعارج، 19-22.

(8) المعارج، 23-35.

وثمة سمات خصّها القرآن الكريم لشخصيات الأنبياء والمرسلين، فهي سمات تميزهم عن غيرهم، نذكر منها على سبيل المثال، لا الحصر، السمات التالية:

الرأفة والرحمة لمحمد صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)• [1].

– **الفهم** لسليمان عليه السلام، قال تعالى (فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا) [2].

تفسير الأحلام ليوسف عليه السلام، قال تعالى(يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ) [3].

الصبر لأيوب عليه السلام، قال تعالى(إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)• [4].

الحكمة وفصل الخطاب لداود عليه السلام، قال تعالى (وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ) [5].

– **الحجة** لإبراهيم عليه السلام، قال تعالى (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ)[6].

– **الحلم** لإبراهيم عليه السلام، قال تعالى (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ) [7].

العلم لداود وسليمان عليهما السلام، قال تعالى (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا) [8].

هذا وقد تم تصنيف سمات الشخصية، الخاصة بكل فئة من فئات البشر، كما وردت في القرآن الكريم، وكنا قد تحدثنا عن ذلك بشيء من التفصيل عند الحديث عن التصنيف العقائدي للشخصية: المؤمنة، والكافرة، والمنافقة.

---

(1) التوبة، 128.

(2) الأنبياء، 79.

(3) يوسف، 46.

(4) ص، 44.

(5) ص، 20.

(6) الأنعام، 83.

(7) التوبة، 114.

(8) النمل، 15.

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمى "الصادق الأمين" حتى عند الكفار، فعن ناجية بن كعب عن علي رضي الله عنه أن أبا جهل قال للنبي صلى الله عليه وسلم "إِنَّا لا نُكَذِّبُكَ وَلَكِنْ نكَذِّبُ بِمَا جِئْتَ بِهِ، فأَنْزَلَ الله تَعَالَى: (فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ) [1]. وقد ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم سمتين اختص بهما أشج عبد القيس هما: الحلم والأناة، فقد قال صلى الله عليه وسلم لأشج عبد القيس "إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا الله: الْحِلْمُ وَالأَنَاةُ" [2]. كما وسم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه بسمة تميز كلاً منهم وعلى النحو التالي:

- سمة الرحمة لأبي بكر الصديق.
- سمة الشدة في أمر الله لعمر بن الخطاب.
- سمة الحياء لعثمان بن عفان.
- سمة القراءة لأبيّ بن كعب
- سمة إتقان المواريث لزيد بن ثابت.
- سمة الأمانة لأبي عبيدة عامر بن الجراح.
- سمة المعرفة بالحلال والحرام لمعاذ بن جبل.

فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أرحمُ أُمتي بأُمتي أبو بكر، وأشدهم في أمر الله عُمَرُ، وأصدقهم حياءً عثمان، وأقرؤهم لكتاب الله أُبيُّ بن كعب، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، ألا وإن لكل أمةٍ أميناً، وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح" [3].

هذا ومن المعلوم أنه إذا ذُكر عمر بن الخطاب ذُكر العدل، وإذا ذُكر عثمان بن عفان ذُكر الكرم والحياء، وإذا ذُكر خالد بن الوليد ذُكرت القوة والجهاد في سبيل الله. وبالمقابل إذا ذُكر قارون ذُكر البغي، وإذا ذُكر فرعون ذُكر الطغيان. وفي الأمثال العربية، ارتبطت بعض السمات بشخصيات بعينها، فارتبط الكرم بحاتم الطائي، والزهد برابعة العدوية، والشجاعة بعنترة بن شداد، والبلاهة بجحا، والحمق بهبنقة، والدهاء بمعاوية بن أبي سفيان، والحلم بمعن بن زائدة...

---

(1) الأنعام، 33.

(2) مسند الإمام أحمد، كتاب باقي مسند المكثرين، باب مسند أبي سعيد الخدري، حديث رقم 10746.

(3) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب مناقب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب مناقب معاذ بن جبل وزيد بن حارثة، وأبيّ بن كعب، حديث رقم 3723.

وقد عني علماء المسلمين بالبحث عن السمات الكبرى المشتركة في الشخصية الإنسانية، وتوصلوا إلى وجودها، غير أنهم اختلفوا حول عددها وماهيتها. فمنهم من يرى أنها أربع سمات كبرى تتفرع عنها سمات ثانوية، ومنهم من يرى أنها خمس، ومنهم من رفع عددها إلى ما يزيد على عشرين سمة. كما تعددت تسميات السمات الكبرى؛ فمنهم من سماها "فضائل"، ومنهم من سماها "أخلاقاً". وتتخذ السمات اتجاهين؛ فهناك سمات إيجابية وأخرى سلبية، وبعبارة أخرى، فهناك أخلاق حميدة، وأخلاق غير حميدة، أو أن هناك فضائل ورذائل. وعلى الرغم من تعدد التسميات، إلا أن المدلول واحد.

ويتناول ابن مسكويه في كتابه "تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق" السمات الكبرى للشخصية تحت عنوان "الفضائل الأربع ومبدؤها" وهي: الحكمة والعفة والشجاعة والعدالة. ويرى أن كل فضيلة منها تقع بين رذيلتين. فالحكمة تتوسط رذيلتي السفه والبله. والشجاعة تتوسط رذيلتي التهور والجبن. والعفة تتوسط رذيلتي الشره وخمود الشهوة، والعدالة تتوسط رذيلتي الظلام والانظلام[1] كما في الشكل رقم (3). والعدالة عند ابن مسكويه "فضيلة للنفس تحدث لها من اجتماع الفضائل الثلاث (الحكمة والشجاعة والعفة) عند مسالمة القوى المرتبطة بها (قوة النفس الناطقة المرتبطة بالحكمة، وقوة النفس الغضبية المرتبطة بالشجاعة، وقوة الحس الشهواني المرتبطة بالعفة) بعضها ببعض، واستسلامها للقوة المميزة، حتى لا تتغالب ولا تتحرك لنحو مطلوباتها على سوم طبائعها، ويحدث للإنسان بها سمة يختار بها أبداً الإنصاف من نفسه على نفسه أولاً، ثم الإنصاف والانتصاف من غيره وله" [2].

ويندرج تحت كل فضيلة أو رذيلة عدد من الفضائل أو الرذائل الفرعية فمثلاً: يندرج تحت فضيلة "الحكمة"، الفضائل الفرعية التالية: الذكاء والذُكر[3] والتعقل وسرعة الفهم، وصفاء الذهن وسهولة التعلم. كما تتفرع عن فضيلة "العفة" الفضائل الفرعية التالية: الحياء والدعة، والصبر والسخاء والحرية والقناعة والدماثة والانتظام وحسن الهدي والمسالمة والوقار والورع. فيما تتفرع عن رذيلة "التهور" الرذائل الفرعية التالية: العجب والغدر والضيم والانتحار والمزاح والاستهزاء والتيه واقتناء الجواهر. وهكذا بالنسبة إلى بقية الفضائل والرذائل.

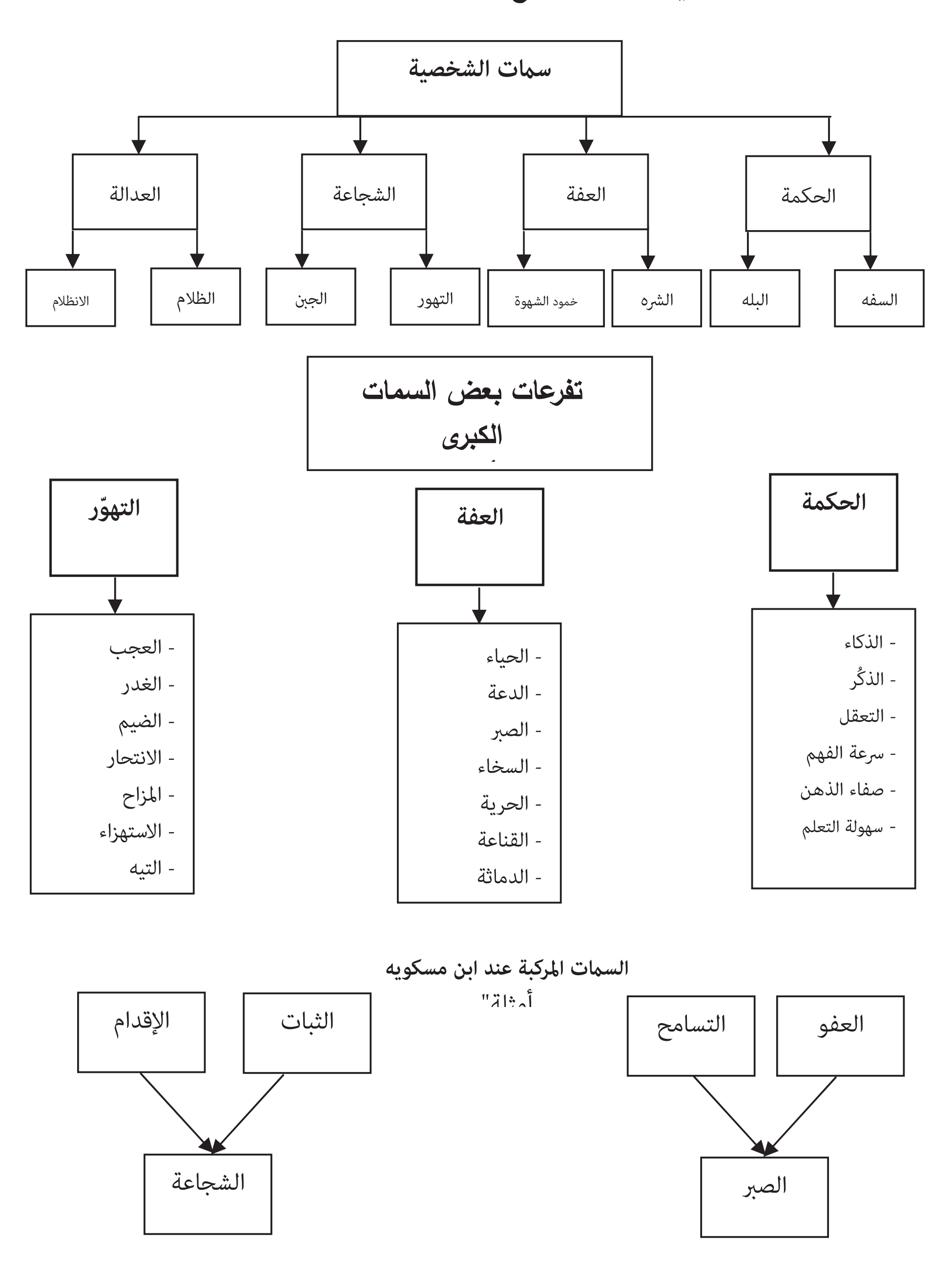
(1) تحمل الظلم.

(2) ابن مسكويه، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، ص 40-49.

(3) الذكر بضم الذال: يعني ثبات صورة ما يخلصه العقل أو الوهم من الأمور.

الشكل رقم (3)

يبين السمات الأربع الكبرى عند ابن مسكويه



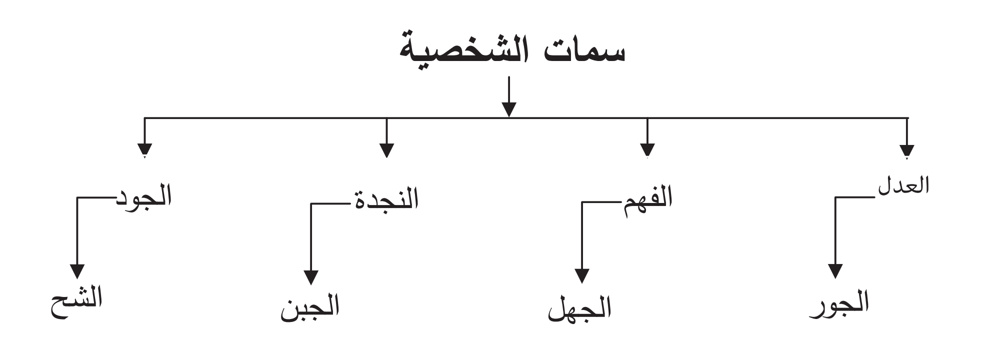
هذا ومن الجدير بالذكر أن السمات الثانوية (الفرعية) التي تندرج تحت الفضائل ليست منفصلة عن بعضها البعض تماماً، بل ترتبط مع بعضها. فعلى سبيل المثال، يرتبط الشره (رذيلة العفة) بالغضب (رذيلة الشجاعة)، فإن لم يتمكن الشَرِه من الحصول على ما يشتهيه غَضِبَ[1]. كما أن بعض السمات مركبة من أكثر من سمة فرعية، فالصبر مثلاً سمة مركبة من العفو والتسامح، وكذلك فالشجاعة سمة مركبة من سمتي الثبات والإقدام..الخ.

أما ابن حزم فيرى أن أصول الفضائل كلها أربعة وهي: العدل والفهم والنجدة والجود، ويضيف ما يقابلها من رذائل فيقول "وأصول الرذائل كلها أربعة، عنها تتركب كل رذيلة، وهي أضداد الذي ذكرنا وهي: الجور والجهل والجبن والشح" ، انظر الشكل رقم (4). ويمكن القول بأن الفضائل الأربع هي سمات رئيسة أو سمات كبرى، تتفرع عنها سمات ثانوية أو سمات صغرى".

الشكل رقم (4)

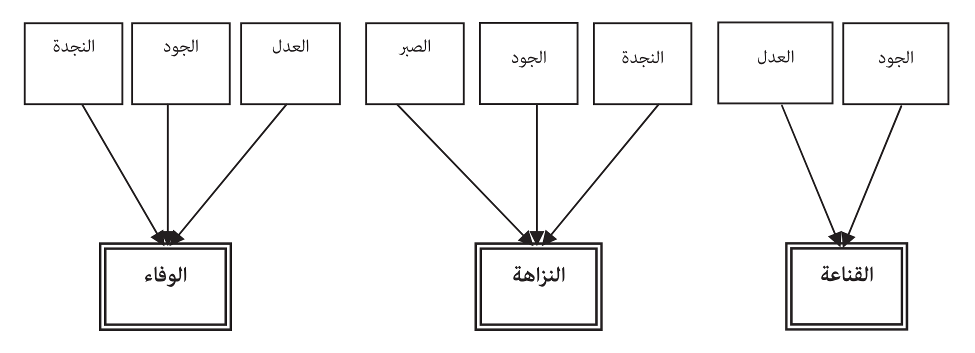
يبين السمات الأربع الكبرى عند ابن حزم

(الفضائل الأربعة وما يقابلها من رذائل)



(1) المرجع السابق، ص 40-49.

السمات المركبة عند ابن حزم
(أمثلة)



فالحلم نوع من أنواع النجدة. والأمانة والعفة نوعان من أنواع العدل والجود. والحسد متولد عن الرغبة، والطمع متولد عن الحسد. والحرص متولد عن الطمع. كما يتولد من الحرص رذائل كثيرة منها: الذل والسرقة والزنا والقتل...الخ.

ويتحدث ابن حزم عن السمات المركبة ويسميها "الفضائل المركبة". "فالقناعة فضيلة مركبة من الجود والعدل. والنزاهة فضيلة مركبة من النجدة والجود والصبر. والوفاء مركب من العدل والجود والنجدة، لأن الوفي رأى أن من الجور أن لا يقارض من وثق به، أو من أحسن إليه، فعدل في ذلك. ورأى أن يسمح بعاجل يقتضيه له عدم الوفاء من الحظ، فجاد في ذلك، ورأى أن يتجلد لما يتوقع من عاقبة الوفاء، فشجع في ذلك. والصدق مركب من العدل والنجدة، فمن جاء إليك بباطل رجع من عندك بحق، وذلك أن من نقل إليك كذباً عن إنسان حرّك طبعك فأجبته، فرجع عنك بحق، فتحفظ من هذا، ولا تجب إلا عن كلام صحّ عندك قائله. وبالمقابل، فالرغبة رذيلة مركبة من الجور والشح والجهل. والكذب متولد من الجور والجبن والجهل، لأن الجبن يولد مهانة النفس، والكذاب مهين النفس، بعيد عن عزّتها المحمودة"[1].

هذا ويرى ابن حزم أن السمات الكبرى ثابتة في الشخصية، وفي ذلك يقول "وهذه الطبائع – ويقصد بها السمات الكبرى – والعادات مخلوقة، خلقها الله عز وجل فرتب الطبيعة على أنها لا تستحيل أبداً، ولا يمكن تبدلها عند كل ذي عقل كطبيعة بأن يكون له

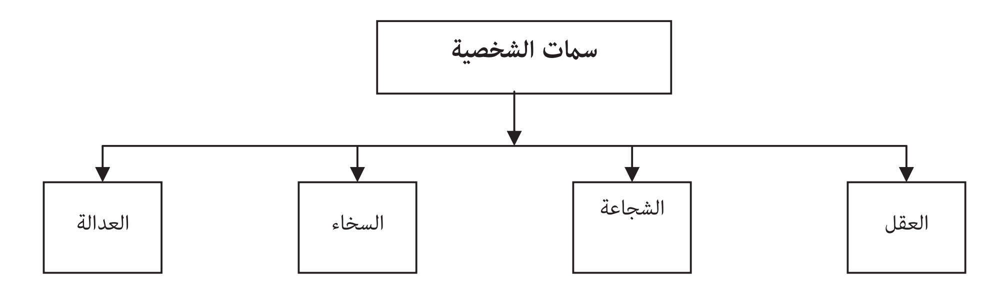
(1) ابن حزم، الأخلاق والسير، ص 60-61.

التصرف في العلوم والصناعات إن لم تعترضه آفة... وكطبيعة البر لا ينبت شعيراً ولا جوزاً، وهكذا كل ما في العالم مقرون بالصفات. وسقوط الاسم عنها كصفات الخمر التي إن زالت عنها صارت خلاً وبطل اسم الخمر عنها... وهكذا كل شيء له صفة ذاتية فهذه هي الطبيعة" [1].

ويرى ابن تيمية في "مجموع الفتاوى" وجود أربع فضائل، أي سمات كبرى هي: فضيلة العقل التي هي كمال القوة المنطقية، وفضيلة الشجاعة التي هي كمال القوة الغضبية، وفضيلة السخاء التي هي كمال القوة الطلبية، وفضيلة العدالة التي تنتظم الفضائل الثلاث وهي الاعتدال فيها" [2]. كما يتضح ذلك في الشكل رقم (5).

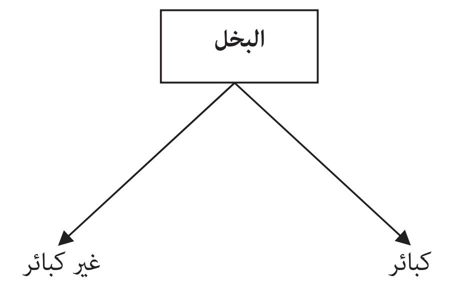
الشكل رقم (5)

يبين السمات الكبرى عند ابن تيمية



السمات الثانوية وتفرعاتها

(مثال)



(1) ابن حزم، الفصل في الملل والنحل، ج5، ص 117.

(2) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج15، ص 432-433.

ويبيّن ابن تيمية أهمية فضيلتي الشجاعة والسخاء بقوله "ولما كان صلاح بني آدم لا يتم في دينهم إلا بالشجاعة والكرم، بيّن الله سبحانه أنه من تولى عنه بترك الجهاد بنفسه أبدل الله به من يقوم بذلك، ومن تولى عنه بإنفاق ماله أبدل الله به من يقوم بذلك، فقال تعالى:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآَخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (38) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [1]. وقال سبحانه: (لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)[2]. وقد ذكر الجهاد بالنفس والمال في سبيل الله ومدحه في غير آية من كتابه العزيز... والشجاعة ليست هي قوة البدن، فقد يكون الرجل القوي البدن ضعيف القلب، إنما هي قوة القلب وثباته، فإن القتال مداره على قوة البدن وصنعته للقتال، وعلى قوة القلب وخبرته". ويضيف "والمحمود منهما ما كان بعلم ومعرفة، دون التهوّر الذي لا يفكر صاحبه ولا يميز المحمود والمذموم. ولهذا كان القوي الشديد هو الذي يملك نفسه عند الغضب حتى يفعل ما يصلح دون ما لا يصلح. فأما المغلوب حين غضبه فليس هو بشجاع ولا شديد" [3]. وهكذا فقد أكدّ ابن تيمية الاعتدال في السمة وعدم التطرّف فيها.

كما تحدث ابن تيمية عن السمات السلبية الكبرى في الشخصية –الرذائل- وأبرزها الشح والحسد وما يندرج تحتها من سمات ثانوية صغرى. فالشح مفسدة عائدة إلى منع الخير وتحقيق معنى الشح أنه شدة المنع التي تقوم في النفس، كما يقال "شحيح بدينه" فهو خلق في النفس. والبخل من فروعه، كما في الصحيحين، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال "إِيَّاكُم وَالشُّحَّ فإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم بالشُّحِّ، أَمَرَهُمْ بالْبُخْلِ فَبَخِلُوا، وَأَمَرَهُمْ بالْقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا، وَأَمَرَهُمْ بالْفُجُورِ فَفَجَرُوا" [4]. وكان عبد الرحمن بن عوف يقول في طوافه "رب قني شح نفسي، فقيل له: ما أكثر ما تستعيذ من ذلك، فقال: إذا وقيت شح نفسي وقيت الظلم والبخل والقطيعة". أو كما قال: ولهذا بيّن الكتاب

---

(1) التوبة، 38-39.

(2) الحديد، 10.

(3) ابن تيمية، الاستقامة، ج2، ص 269-271.

(4) رواه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، حديث رقم 4675.

والسنة أن الشح والحسد من جنس واحد. فإن الحاسد يكره عطاء غيره، والبخيل لا يحب عطاء نفسه، فقد قال تعالى: (وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) [1]. فإن الشح أصل البخل وأصل الحسد... ويضيف "فحصر الله المفلحين في الآية الكريمة فيمن يوق شح نفسه، والشحيح هو الذي لا يحب فعل الخير والذي يضر نفسه ويكره النعمة على غيره" [2].
كما يرى ابن تيمية أن البخل سمة ثانوية تتفرع عنها سمات أخرى، يقول في ذلك "والبخل جنس تحته أنواع: كبائر وغير كبائر". ويستشهد على الكبائر بقوله تعالى: (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) [3]. كما يستشهد على غير الكبائر بقوله تعالى: (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (4) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ(5) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (6) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ)[4].
وعليه، فقد أقر ابن تيمية وجود سمات كبرى للشخصية: إيجابية (فضائل) وسلبية (رذائل). وكل سمة منها تتفرع إلى سمات فرعية (ثانوية) تتفرع بدورها إلى سمات أخرى وهكذا ضمن ترتيب هرمي.

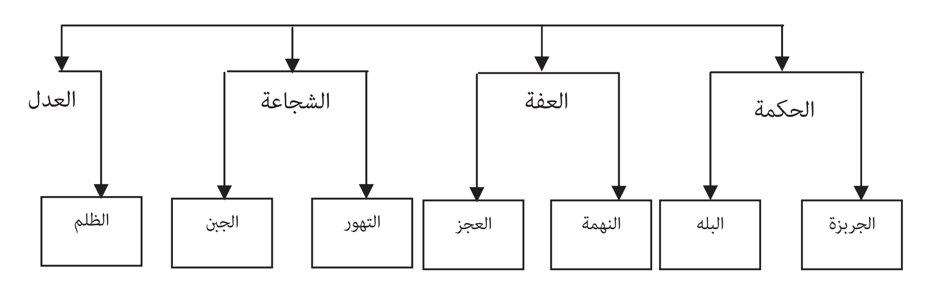
ويرى ابن القيم في كتابه "تهذيب مدارج السالكين" وجود أربع سمات كبرى للشخصية أسماها "أخلاقاً" هي: الحكمة، والعفة والشجاعة والعدل، ويرى أن سمة العدل تحمل الإنسان على اعتدال أخلاقه وتوسطه فيها بين الإفراط والتفريط. وتقابل هذه الأخلاق الحميدة (أي الفضائل) الأربعة، أربعة أخلاق ذميمة (أي رذائل) هي: الجهل، والشهوة، والغضب، والظلم. و"ملاك هذه الأربعة أصلان: إفراط النفس في الضعف وإفراطها في القوة. فيتولد عن إفراطها في الضعف: المهانة والبخل والخسة واللؤم والذل. ويتولد عن إفراطها في القوة: الظلم والغضب والحدّة، والفحش والطيش.. " ويضيف "الأخلاق الذميمة، ويقصد بها الرذائل، يولد بعضها بعضاً. كما أن الأخلاق الحميدة – ويقصد بها الفضائل – يولد بعضها بعضاً. وكل خلق محمود مكتنف بخلقين ذميمين وهو وسط بينهما، وطرفاه خلقان ذميمان.. وصاحب الخلق الوسط مهيب محبوب عزيز جانبه" [5].

(1) التغابن، 16.
(2) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج28، ص 335.
(3) آل عمران، 180.
(4) الماعون، 4-7.
(5) ابن القيم، تهذيب مدارج السالكين، ص 659-661.

وللأخلاق حدّ عند ابن القيم، إن تجاوزته صارت عدواناً، وإن قصرت عند صارت مهانة. "فللشجاعة حدّ إن تجاوزته صارت تهوراً، وإن نقصت عنه صارت جبناً وخوراً، وحدّها الإقدام في مواضع الإقدام والإحجام في مواضع الإحجام... وللعفّة حدّ وهو راحة القلب والعقل من كدّ الطاعة واكتساب الفضائل والاستعانة بقضائها على ذلك، فإن زادت صارت نهمة وشبقاً، وإن نقصت كانت ضعفاً وعجزاً ومهانة (إن كان النقص ناتجاً عن غير الفراغ في طلب الكمال والفضل) "[1]. هذا ويبين الشكل رقم (6) الفضائل (السمات) الأربع الكبرى للشخصية وانحرافاتها زيادة ونقصاً، كما عند ابن القيم، باستثناء سمة العدل التي تنحرف زيادة فقط.

الشكل رقم (6)

يبيّن السمات الأربع الكبرى للشخصية وحدودها العليا والسفلى (عند ابن القيم)



أما النراقي فيحدد في كتابه "جامع السعادات" قائمة تضم (26) سمة؛ ستة منها إيجابية وعشرين منها سلبية، والسمات الإيجابية هي: الإخلاص والإصلاح وستر العيوب والصدق والسعاية والعدل. أما السمات السلبية فهي: الظلم والإفساد بين الناس والسحر والحسد والغيبة والمدح والتهاون والبهتان والكذب والمداهنة والمراء وحب الجاه وإفشاء السر والمزاح والنميمة والشماتة وحب الخمول وحب المدح والنفاق والرياء[2].

كما يحدد يحيى ابن عدي في كتابه "تهذيب الأخلاق" قائمة تضم (23) سمة إيجابية (أو كما يسميها أخلاقاً حسنة) بمقابل عشرين خلقاً سيئاً. ومن أمثلة السمات الإيجابية: العفة، والرحمة، والصدق، وسلامة النية، والعدل، والشجاعة، والوقار، والصبر، والوفاء.

---

(1) ابن القيم، الفوائد، ص 176-177.

(2) انظر العاني؛ الشخصية الإنسانية في التراث الإسلامي ، ص 95-97.

ومن أمثلة السمات السلبية: القساوة، والعبوس، والخبث، والحقد، والجبن، والفجور، والتبذل، والسفه والخيانة[1].

ويحدد الغزالي في "إحياء علوم الدين" قائمة تضم (21) سمة شخصية هي: الرضا والحياء، وعدم الحقد، وصدق اللسان، والعمل، والبر، والصبر، والحلم، وكثرة الصلاح، وقلة أذى الغير، والوقار، والشكر، والعفة، وعدم النميمة، وعدم الحسد، والرفق، وعدم البخل، وحسن الإنصات، وعدم الغيبة، واحتمال الأذى، والتماس المعذرة. كما يحدد عشر سمات يسميها "المنجيات العشرة" بمقابل "المهلكات العشرة". والمنجيات العشرة هي: اعتدال الخوف، وحسن الخُلق مع الخَلق، والندم على الذنوب، والخشوع، والزهد في الدنيا، والرضا بالعطاء، والإخلاص في الأعمال، والشكر على النعماء، وحب الله تعالى، والصبر على البلاء. أما المهلكات العشرة فهي: حب المال، والعجب، والحسد، والبخل، وشدة الغضب، وشره الطعام، وحب الجاه، والكبر، وشره الوقاع، والرياء.

ويحدد الغزالي السمات الكبرى للشخصية ويسميها "الفضائل الأساسية" في أربع هي" الحكمة والشجاعة والعفة والعدالة. والعدالة سمة تجمع الفضائل في السمات الثلاث الأخرى. ويتفق بهذا التصنيف مع ابن القيم وابن مسكويه. ويحدد لكل سمة منها حال اعتدال (فضيلة) وحال تطرف (رذيلة). يقول الغزالي في "الإحياء" فمن استوت فيه هذه الخصال (ويقصد بها الحكمة والشجاعة والعفة والعدالة)، واعتدلت فهو حسن الخلق مطلقاً. ومن اعتدل فيه بعضها دون بعض فهو حسن الخلق، بالإضافة إلى ذلك المعنى خاصة، كالذي يحسّن بعض أجزاء وجهه دون البعض. وحسن القوة الغضبية يعبر عنه بالشجاعة. وحسن قوة الشهوة واعتدالها يعبر عنه بالعفة، فإن مالت قوة الغضب عن الاعتدال إلى طرف الزيادة تسمى تهوراً، وإن مالت قوة الغضب إلى طرف النقصان تسمى جنباً وخوراً. وإن مالت قوة الشهوة إلى طرف الزيادة تسمى شرهاً، وإن مالت إلى طرف النقصان تسمى جموداً، والمحمود هو الوسط، والطرفان رذيلتان مذمومتان. والعدل إذا فات فليس له طرف زيادة ونقصان بل له ضد واحد ومقابل وهو الجور. وأما الحكمة فيسمى إفراطها عند استخدامها في الأغراض الفاسدة خبثاً، ويسمى تفريطها بلهاً. والوسط هو الذي يختص بالحكمة, فإذن أمهات الأخلاق وأصولها أربعة: الحكمة والشجاعة والعفة والعدل. ونعني بالحكمة حال للنفس بها يدرك الصواب من الخطأ في

(1) المرجع السابق.

جميع الأفعال الاختيارية. ونعني بالشجاعة كون قوة الغضب منقادة للعقل في إقدامها وإحجامها، ونعني بالعفة تأدب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع. ونعني بالعدل حال للنفس وقوة بها تسوس الغضب والشهوة وتحملهما على مقتضى الحكمة وتضبطهما من الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاها. فمن اعتدال هذه الأصول تصدر هذه الأخلاق الجميلة كلها" [1].

كما تحدّث الغزالي[2] عن السمات الثانوية (الفرعية) التي تتفرع عن السمات الرئيسة (الفضائل) والتي بدورها تتفرع إلى سمات فرعية أدنى وهكذا... ولتوضيح ذلك، فإن سمة العفة مثلاً تتوسط رذيلتي الشره والجمود، ويتفرع عنها عدد من السمات الثانوية أو الفرعية، منها: الحياء والمسامحة والقناعة والطلاقة والمساعدة وحسن التقدير... الخ. فيما يؤدي الإفراط فيها إلى رذيلة الشره، وتتفرع عنها سمات ثانوية منها" الوقاحة والمجانة والرياء والعبث والكزازة... كما يؤدي التفريط فيها إلى رذيلة الجمود. وتتفرع عنها سمات ثانوية منها: التقتير، والحسد، والشماتة، والتحاشي، والشكاسة...الخ. هذا ويبيــن الشكل رقم (7) السمات الكبرى عند الغزالي وانحرافاتها وتفرعاتها.

وبناءً على ما سبق، يمكن القول بتعدد النظرة إلى عدد السمات الكبرى للشخصية وماهية هذه السمات، وما يتفرع عنها من سمات ثانوية تضم فضائل ورذائل فرعية، غير أن ثمة توجاً واضحاً لدى علماء المسلمين نحو اعتماد سمات أربع كبرى للشخصية هي: الحكمة والشجاعة والعفة والعدالة. وترتبط هذه السمات الكبرى بقوى النفس؛ فالحكمة هي فضيلة النفس الناطقة المميزة المنطقية. والعفة فضيلة الحس الشهواني، والشجاعة فضيلة النفس الغضبية، والعدالة فضيلة تنتظم الفضائل الثلاث وتمثل حال الاعتدال فيها.

---

(1) الغزالي، الإحياء، ج3، ص 53.

(2) الغزالي، ميزان العمل.

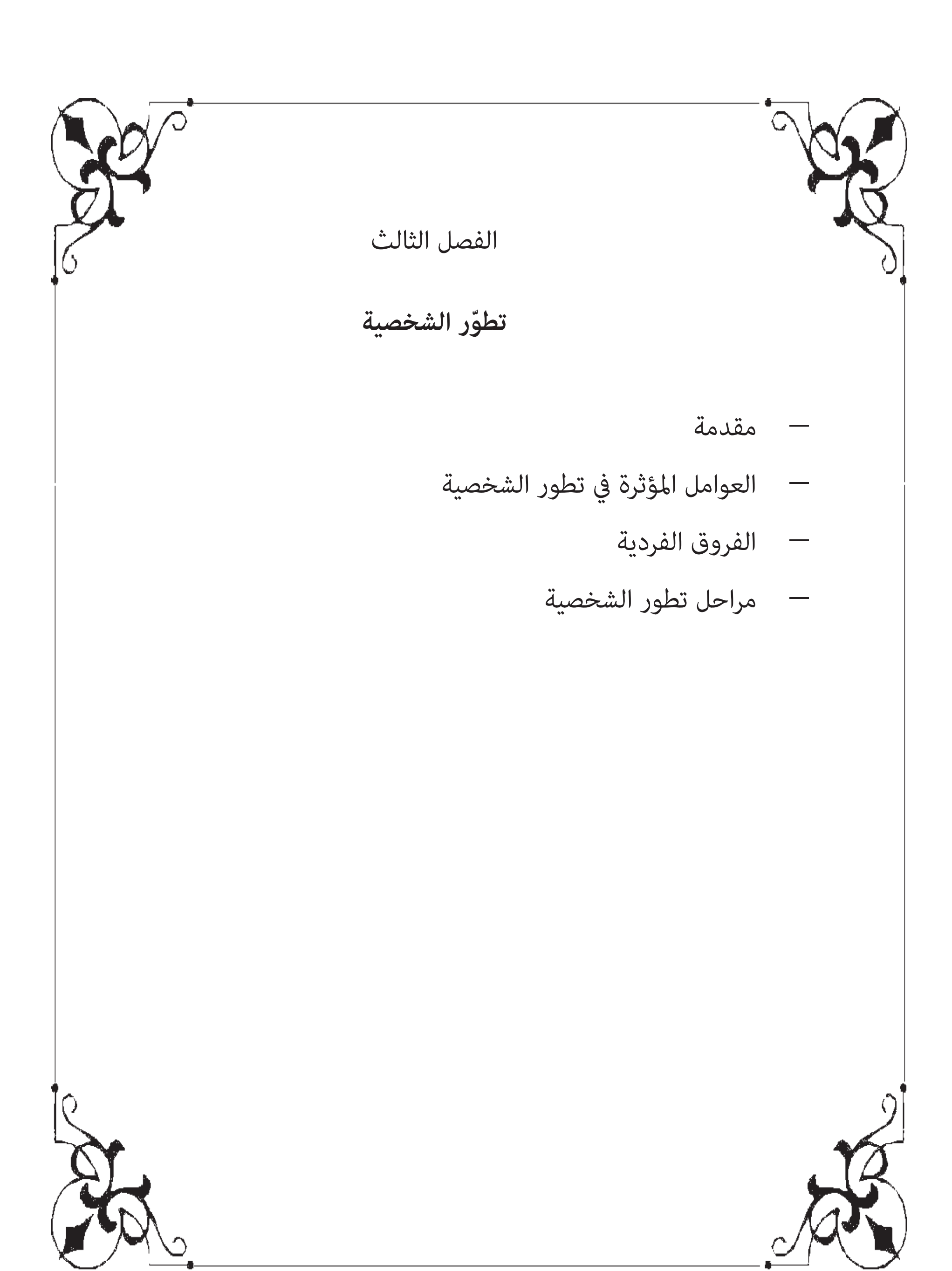
خلاصة

للشخصية الإنسانية مكونان: مادي وروحي، ولكل منهما صفاته الخاصة به. وهما ليسا مستقلين عن بعضهما البعض، بل متفاعلين معاً ليشكلا وحدة واحدة متكاملة تمثل كيان الشخصية. وبدون هذه النظرة الديناميكية لبنية الشخصية يصعب تفسير جميع أشكال السلوك الإنساني، الذي يتسم بالتعقيد.

وقد منح الله سبحانه الإنسان قوة يصل بها إلى حاجته ويدفع بها أضدادها عن نفسه ليحافظ على بقائه. واهتم علماء المسلمون بتحديد هذه القوة وتفاعلاتها. ويذهب معظمهم إلى وجود ثلاث قوى نفسية تحدد سلوك الإنسان وهي: القوة الشهوية والغضبية والناطقة. ويكون بالقوة الشهوية طلب الغذاء والشوق إلى الملذات الحسية. أما القوة الغضبية فيكون بها الغضب والنجدة والإقدام على الأهوال والترفع والتسلط والعزة والأنفة والحميّة. فيما يكون بالقوة الناطقة الفكر والتمييز والنظر في حقائق الأمور. ومن الممكن أن تسيطر إحدى هذه القوى على الشخصية فتحرفها عن الاعتدال. ويعدّ الغزالي القوة الشهوية أصعب قوى النفس تربية وتهذيباً، وهي أعدى أعداء النفس. وتؤدي كل قوة وظيفتها في نطاق التكامل الروحي والجسدي معاً، وبذا يبقى جوهر الشخصية متكاملاً على الرغم من تعدد الوظائف.

وتتنوع طرق تصنيف الشخصية في الفكر الإسلامي، فيمكن تصنيفها على أساس المعيار العقائدي إلى ثلاث فئات: المؤمنون والكافرون والمنافقون، ولكل منهم صفاته التي تميزه عن غيره. كما يمكن تصنيف الشخصية في ضوء جبلّة الإنسان إلى أربعة أمزجة هي: المزاج الدموي، والسوداوي، والبلغمي، والصفراوي. وينطوي كل مزاج منها على سلوكات معينة؛ فيرتبط المزاج الدموي بالنشاط والحيوية والانطلاق. فيما يرتبط المزاج الصفراوي بالغضب والحدّة والقلق. ويرتبط المزاج البلغمي بالوقار والسكون والكسل والنوم. أما المزاج السوداوي فيرتبط بالحزن والاكتئاب وفساد المزاج. ويربط ابن مسكويه بين الطراز البدني والسلوك الإنساني بطريقة فريدة. فالنجابة تكون في النحاف أكثر، فيما تكون الفسولة في السمان أكثر. كما يرتبط الطول بالهوج، فيما يرتبط القصر بالخبث.

وثمة منحى آخر لتصنيف الشخصية في الفكر الإسلامي يستند إلى تحديد السمات التي يشترك فيها البشر عموماً. وقد أسهب علماؤنا المسلمون في الحديث عن سمات الشخصية وتفرعاتها. ويمكن القول عموماً بوجود أربع سمات كبرى للشخصية (يسمونها فضائل) هي: الحكمة، والشجاعة، والعفة والعدالة. وتقع كل سمة كبرى منها (وهي سمات إيجابية) بين رذيلتين. كما تتفرع عنها سمات فرعية، وقد تجتمع سمتان أو أكثر لتكوّن سمة مركبة.



الفصل الثالث

تطوّر الشخصية

- مقدمة
- العوامل المؤثرة في تطور الشخصية
- الفروق الفردية
- مراحل تطور الشخصية

الفصل الثالث

تطوّر الشخصية

مقدمة

يخرج الإنسان إلى الحياة ضعيفاً وينتهي به المطاف ضعيفاً، قال تعالى:(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ)[1]. وبين هاتين المرحلتين، يحيا الإنسان حياة مفعمة بالنشاط والحيوية. وعلى الرغم من أن تطوّر الشخصية الإنسانية عملية مستمرة، إلا أنه مرحلي أيضا. ففي سلسلة التطوّر، يمر الإنسان بمراحل متعددة تتباين في خصائصها ومتطلباتها. وتتضح هذه المراحل في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا)[2].

ويقصد بتطور الشخصية تلك التغيرات الكمية والنوعية التي تطرأ على مظاهر الشخصية الإنسانية من النواحي الجسمية والعقلية والاجتماعية والانفعالية والروحية، والتي تمتد من الولادة حتى ينضج. والهدف من تطور الشخصية في الإسلام تحقيق الغاية من الوجود وهي عبودية الله وطاعته وتطبيق شريعته في الحياة الفردية والاجتماعية. هذا فضلاً عن أداء وظائفه في الحياة من خلافة وعمارة الأرض.

ولا شك أن تطوّر الشخصية في مظاهرها الجسمية والعقلية والاجتماعية والانفعالية والروحية، وانتقال الفرد من مرحلة إلى أخرى أمر يهم الناس جميعاً، سواء أكانوا آباء وأمهات أم مربين أم باحثين نفسيين أم تربويين أم أطباء وغيرهم، بغية التعرف إلى خصائص كل مرحلة وسرعة التطوّر فيها من أجل توفير الرعاية الملائمة لأبنائهم في كل مرحلة منها، والتعامل معهم بفاعلية، وبما يكفل تنمية شخصيات متكاملة سوية لهم، تتمتع بالصحة النفسية والعقلية.

---

(1) الروم، 54.

(2) الحج، 5.

وجدير بالذكر أن التربية الحديثة بمفهومها الشمولي لم تختلف عما كانت عليه في الماضي، إلا أن التربية في الماضي لم تكن معقدة، نظراً لأن مطالب الحياة لم تكن معقدة أيضاً. أما في عصرنا الحالي الذي يشهد تفجراً معرفياً لم يشهد له العالم مثيلاً من قبل، فقد تعقدت الحياة وأصبحت تربية الأبناء مهمة شاقة. فكثيراً ما ينتاب الآباء والأمهات قلق شديد إزاء تربية أبنائهم تربية سليمة حتى غدت هذه المهمة الشغل الشاغل لديهم. لذا يتوقع أن يسهم هذا الفصل بتخفيض حالة القلق هذه، بتوضيح أبرز المظاهر التطوّرية الجسمية والعقلية والاجتماعية والانفعالية والروحية في كل مرحلة من مراحل التطوّر الإنساني في إطارها الإسلامي متمثلة بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وتراث السلف الصالح. كما يهدف إلى استخلاص أبرز الجوانب التطبيقية المرتبطة بالتربية الإسلامية للأبناء في مراحل التطوّر المختلفة.

هذا ومن المؤمّل أن يدرك النظام التربوي في العقود القليلة القادمة دور التربية في إعداد الأبناء – أطفالاً – وشباباً – إعداداً سليماً، على الرغم من أن الأسرة ستبقى المسؤول الأول عن تربيتهم ورعايتهم، مصداقا لقول رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم "كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فالإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ"[1].

- **العوامل المؤثرة في تطوّر الشخصية:**

يؤثر في تطوّر الشخصية عاملا الوراثة والبيئة (أو عوامل النضج وعوامل التعلم والخبرة). ويصعب تحديد أوزان نسبية لكل منهما، إذ تتفاوت الأهمية النسبية بتفاوت الخاصية المدروسة، باستثناء بعض الخصائص الجسمية من طول ولون عيون مثلا، فهي خصائص موروثة. كما أن بعض الخصائص الاجتماعية ناتجة عن البيئة ولا دخل للوراثة فيها. أما الخصائص الأخرى فلكل من الوراثة والبيئة حظ فيها. ومن الجدير بالذكر أن كثيراً من الخصائص البيئية يكون للوراثة فيها نصيب وإن قلّ، وكذا الحال بالنسبة للخصائص الوراثية. فالخصائص الجسمية لا تحدد معالمها الوراثة فقط، كما أن التطوّر الأخلاقي لا تحدده العوامل البيئية فحسب. لذلك كان من الأجدر القول بأن التطوّر

(1) رواه البخاري في كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن، حديث رقم 844.

الإنساني محصلة التفاعل بين عاملي الوراثة والبيئة (النضج والتعلم). ويقال "السلوك الإنساني ثمرة، بذرها الوراثة، وتربتها البيئة، وسقياها التربية".

وقد شبَّه الله سبحانه الطفل بالنبتة عندما قال بشأن مريم(وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا) [1] فأثمرت ثمرة طيبة هي عيسى عليه السلام. وعليه فإن أردنا أن ننبت نبتة حسنة لابد من اختيار بذرة حسنة وتربة صالحة للزراعة ثم لابد من العناية بها. وبقدر صلاح البذرة والتربة وبقدر العناية بها تكون الثمرة. والطفل كذلك لابد أن يكون أبواه خاليين من العيوب الوراثية، وأن يكونا من ذوي الأخلاق الحميدة، وأن يوليا الطفل العناية الكافية حتى ينشأ ولداً صالحاً. وبعبارة أخرى، فان تطوّر الطفل يقتضي التفاعل بين عاملي الوراثة والبيئة.

ويوضح الماوردي التفاعل بين الوراثة والبيئة في التطوّر العقلي بقوله "واعلم أن العقل المكتسب لا ينفك عن العقل الغريزي، لأنه نتيجة منه". ويشير إلى حالة الاضطراب جراء عدم تكامل عمل هذين العاملين، فيقول "وقد ينفك العقل الغريزي عن العقل المكتسب، فيكون صاحبه مسلوب الفضائل، موفور الرذائل، كالأَنْوَك الأحمق الذي لا تجد له فضيلة". ويستشهد بالأبيات التالية من الشعر [2]

رأيت العقل نوعين	**فمسموع ومطبوع**
ولا ينفع مسموع	**إذا لم يك مطبوع**
كما لا تنفع الشمس	**وضوء العين ممنوع**

كما يشير الغزالي إلى تفاعل الوراثة والبيئة في التطوّر الأخلاقي بقوله "فاعلم أن الأخلاق الحميدة تكون بالطبع (أي الوراثة) والفطرة، وتارة تكون باعتماد الأفعال الجميلة، وتارة بمشاهدة أرباب الأفعال الجميلة ومصاحبتهم وهم قرناء الخير وإخوان الصلاح، إذ الطبع يسرق من الطبع الشر والخير جميعاً" [3]. وفيما يلي توضيح لدور عاملي الوراثة والبيئة في تطوّر الشخصية كل على حدة .

- **الوراثة:**

أشار الإسلام إلى دور الوراثة في تطوّر الشخصية. ويقصد بالوراثة نقل الصفات من الآباء إلى الأبناء عن طريق الجينات، قال تعالى: (إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ

(1) آل عمران، 37.

(2) الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص 14.

(3) الغزالي، إحياء علوم الدين، ج3، ص 85.

نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ)[1]، وَقَالَ ابن عباس في تفسير كلمة "أمشاج" يعني ماء الرجل وماء المرأة إذا اجتمعا واختلطا[2]. وقد بيّن الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الدور، فقد أتى رجلُ إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يَا رَسُولَ اللَّهِ "وُلِدَ لِي غُلامٌ أَسْوَدُ، فَقَالَ هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟ قَالَ نَعَمْ، قَالَ مَا أَلْوَانُهَا؟ قَالَ حُمْرٌ، قَالَ هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَق *؟ قَالَ نَعَمْ، قَالَ فَأَنَّى ذَلِكَ؟ قَالَ لَعَلَّهُ نَزَعَهُ عِرْقٌ، قَالَ فَلَعَلَّ ابْنَكَ هَذَا نَزَعَهُ"[3]. وفي رواية أخرى، قال أحد رجال الأنصار لرسول الله صلى الله عليه وسلم هذه ابنة عمي وامرأتي لا أعلم منها إلا خيراً، وقد أتتني بولد شديد السواد، منتشر المنخزين، جعد القطط، أفطس الأنف، لا أعرف في أخوالي ولا في أجدادي هذا أو مثله... فقال لامرأته ما تقولين؟ قالت لا والذي بعثك بالحق نبياً ما أقعدت مقعده مني منذ ملكني، أحداً غيره. فنكس رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه ملياً، ثم رفع بصره إلى السماء، ثم أقبل على الرجل، فقال يا هذا إنه ليس من أحد إلا بينه وبين آدم تسعة وتسعون عرقاً كلها تضرب في النسب، فإذا وقعت النطفة في الرحم اضطربت تلك العروق تسال الله الشبه لها، فهذا من تلك العروق التي لم تدركها أجدادك ولا أجداد أجدادك... خذ إليك ابنك، فقالت المرأة فرّجت عني يا رسول الله. وفي رواية ثالثة، قال صلى الله عليه وسلم "....قم فإنه ولدك، ولم يأتك إلا من عرق منك أو من عرق منها". ويشير حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن مفهوم الوراثة لا يقتصر على نقل الصفات من الآباء إلى الأبناء، بل يتعدى ذلك ليشمل صفات الأجداد السابقين وحتى آدم عليه السلام. وقال صلى الله عليه وسلم "إن النطفة إذا استقرت في الرحم أحضرها الله كل نسب بينها وبين آدم"[4].

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم "تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس"[5]، ويقول صلى الله عليه وسلم "تَخَيَّرُوا لِنُطَفِكُمْ وَانْكِحُوا الأَكْفَاءَ وَأَنْكِحُوا إِلَيْهِمْ"[6]. فالناكح مغترس، لذا ينبغي أن ينظر المرء حيث يضع غرسه. وفي هذا الحديث إشارة إلى أن الأخلاق تورث. وكلمة "عرق" تعني

---

(1) الإنسان، 2.

(2) انظر: مختصر تفسير ابن كثير للصابوني، ج3، ص580.

* أورق: رمادي.

(3) أخرجه البخاري في كتاب الطلاق، باب إذا عرض في نفي الولد، حديث رقم 4893.

(4) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير،196/3؛ انظر أيضاً كنز العمال للمتقي الهندي، حديث رقم 4695، ج2، ص 547-548.

(5) رواه ابن ماجة والحاكم والبيهقي عن حديث عائشة رضي الله عنها، المغني عن حمل الأسفار للعراقي، كتاب أدب النكاح، باب فيما يراعى حالة العقد، ج1، حديث رقم 1457، ص387.

(6) أخرجه ابن ماجة في النكاح، باب الأكفاء، حديث رقم، 1958.

"جين" في علم الوراثة. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه "حسن الأخلاق برهان كرم الأعراق" [1].

وقد حث الإسلام على تغريب النكاح، ذلك أن الزواج من الأقارب فيه ضعف للنسل، ولهذا قال عمر بن الخطاب لجماعة من بني السائب لاحظ ضعف ذريتهم "يا بني السائب قد أضويتم وضعفتم فانكحوا في الغرائب" [2]. ويشير الماوردي إلى تغريب النكاح بقوله "وكان العرب يختارون نكاح البعداء الأجانب (غير الأقارب) ويرون أن ذلك أنجب للولد وأبهى للخلقة، ويتجنبون نكاح الأهل والأقارب، ويرونه مضراً بخلق الولد، بعيداً عن نجابته ويستشهد بقول الرسول صلى الله عليه وسلم "اغتربوا لا تضووا" [3]. وقد ورد في القرآن الكريم ما يحرِّم الزواج من القرابة اللصيقة وما أخذ حكمها بالرضاع، قال تعالى: (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ) [4].

هذا وقد وردت مشتقات لفظ "ورث" في القرآن الكريم والحديث الشريف، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن الودّ والعداوة يتوارثان" [5]. ومن قبل يحكي القرآن الكريم قصة النبيين داود وسليمان عليهما السلام، قال تعالى: (وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ) [6]. وفي ذلك إشارة إلى وراثة الملك والنبوة. كما قال تعالى على لسان زكريا عليه السلام: (وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا) [7]. ويفسر الفخر الرازي كلمة "الوراثة" في الآية الكريمة على أنها وراثة الملك والنبوة والسيرة الحسنة والعلم والمنصب النافع. فقد خشي سيدنا زكريا أن يتصرف الناس من بعده تصرفاً سيئاً، فسأل الله ولداً يكون نبياً من بعده ليسوسهم بنبوته كما كان آباؤه [8].

---

(1) منهج التربية في الإسلام، على شبكة الإنترنت 2002/10/15، ص1) www.Balagh.com/mtboat/arbc/mfh/23/3. htmil
(2) نقلاً عن الماوردي، أدب الدنيا والدين، وقد صححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، ص137.
(3) المرجع السابق، ص 142-143.
(4) النساء، 23.
(5) أخرجه الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ج4، ص176، وقال صحيح ولم يخرجه.
(6) النمل، 16.
(7) مريم، 5-6.
(8) الرازي، التفسير الكبير، ج11، ص 185.

ويمكن تقسيم الصفات الوراثية وما يترتب عليها من سلوكات إلى نوعين، يكون الأول منها حتمي المصير وغالباً ما يتعلق بالمظاهر الجسمية التكوينية للشخصية، ومن أمثلة ذلك لون العيون ولون البشرة والطول، فهي لا تقبل التغيير مدى الحياة. أما النوع الثاني فيشير إلى الاستعدادات الموروثة، والتي تكون احتمالية المصير، إذ تظهر في حال توفر البيئة المناسبة لظهورها، ومن أمثلتها الصفات الوراثية ذات الدلالة الاجتماعية أو الأخلاقية.

ومن الجلي أن التكوين الوراثي للإنسان يؤثر في شخصيته، فهو يؤثر في علاقاته الاجتماعية وفي توقعاته عن ذاته وفي توقعات الآخرين منه. وتكشف الفروق في وظائف الغدد الصماء الفروق الفردية في الشخصية. ويؤكد علماء المسلمين دور العوامل البيولوجية الوراثية في تحديد الشخصية. وقد صنفوا الشخصية في ضوء تلك العوامل إلى صفراوية وسوداوية ودموية وبلغمية. كما ألفوا كتباً في علم الفراسة لعل من أهمها كتاب السياسة في علم الفراسة للدمشقي، وكتاب الفراسة للإمام فخر الدين الرازي. ومن المعلوم أن علم الفراسة يتعلق بدراسة العلاقة بين الخصائص الجسمية والنفسية والاجتماعية.

- **البيئـــة:**

يقصد بالبيئة جميع العوامل الخارجية التي تؤثر تأثيراً مباشراً أو غير مباشر على الإنسان منذ لحظة الإخصاب وتحديد العوامل الوراثية. وتشمل العوامل المادية والاجتماعية والثقافية والحضارية. وقد كشف الإسلام دور البيئة في تطوّر الشخصية وتشكيل السلوك بالمعنى الشامل، منذ لحظة الإخصاب. لذلك حرص الإسلام على توفير البيئة الاجتماعية الصالحة لتطوّر الطفل، فعني باختيار الزوج الصالح والزوجة الصالحة ابتداء، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لأَرْبَعٍ لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ" [1]. كما عني الإسلام باختيار الزوج الصالح ابتداء، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم "إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ، إِلاَّ تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ" [2]. والتكافؤ بين الزوجين شرط صحة في عقد الزواج في الإسلام الأمر الذي يضمن التوافق الزواجي في أمور منها الدين والخلق

---

(1) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين، حديث رقم4700.

(2) رواه الترمذي، كتاب النكاح، باب إذا جاءكم من ترضون دينه فزوجوه، حديث رقم 1004.

والطباع والأوضاع الاجتماعية والعمر. كل ذلك من أجل تحقيق التكوين النفسي السوي للأبناء.

ويحذر الرسول صلى الله عليه وسلم من اختيار الزوجة التي نشأت في بيئة سيئة، وإن كانت جميلة، قال صلى الله عليه وسلم "إياكم وخضراءَ الدِّمن، قيل يا رسول الله وما خضراء الدمن ؟ قال المرأة الحسناء في المنبت السوء"[1].

ومن العوامل البيئية التي تؤثر في تطوّر الشخصية عمر الأم الحامل. وفي ذلك يقول الماوردي " أنجب الأولاد خُلقاً وخَلقا من كان سن أمه بين العشرين والثلاثين وسن أبيه بين الثلاثين والخمسين"[2]. وقد حث الإسلام على الزواج من الأبكار لأنهن أكثر حملاً وإخصاباً، قَالَ صلى الله عليه وسلم "عَلَيْكُمْ بِالأَبْكَارِ، فَإِنَّهُنَّ أَعْذَبُ أَفْوَاهًا، وَأَنْتَقُ أَرْحَامًا"[3]. ويتأثر الجنين ببيئة رحم الأم فقد قَالَ صلى الله عليه وسلم "أَلا أَنَّمَا الشَّقِيُّ مَنْ شَقِيَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ وَالسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ"[4]، ويستدل فلسفي في كتابه "الطفل بين الوراثة والتربية" من هذا الحديث الشريف (على أن الجنين تكتب له أمور قدرية تتعلق بسعادته أو شقائه)، وأن جميع ما يؤثر على الأم الحامل من مؤثرات جسمية أو انفعالية تؤثر على الجنين أيضاً، فتبنى في ضوئها سعادته أو شقاؤه.

كما أشار الإسلام إلى دور البيئة النفسية والاجتماعية والطبيعية، فأكدَّ أهمية غذاء الأم في التطوّر العقلي للجنين. فقد أسقط الله الصوم عن الحامل إذا خافت على نفسها أو على جنينها الضرر لِسُوءِ التغذية، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن الله تعالى وضع شطر الصلاة عن المسافر وأرخص له في الإفطار وأرخص فيه للمرضع والحبلى إذا خافتا على ولديهما"[5].

وبعد خروج المولود إلى الحياة، تؤثر البيئة الطبيعية والاجتماعية والنفسية في تطوّره. ففي مجال البيئة الطبيعية، يتأثر المولود بمثيرات الحرارة والضوء والهواء والمنطقة الجغرافية بما تشمله من أنهار وبحار وجبال وسهول وغيرها. فتنعكس هذه المتغيرات على

---

(1) المغني عن حمل الأسفار للعراقي، كتاب أدب النكاح، باب فيما يراعى حالة العقد، ج1، ص387؛ انظر أيضا كنز العمال للمتقي الهندي، حديث رقم44587، ج16، ص300.

(2) الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص 198.

(3) رواه ابن ماجة، كتاب النكاح، باب تزويج الأبكار، حديث رقم1851.

(4) رواه مسلم، كتاب القدر، باب كيفية خلق آدم في بطن أمه، حديث رقم1851.

(5) سنن أبي داود، كتاب الصيام، باب اختيار الفطر، حديث رقم 2408، ج1، ص732.

طباعه وعاداته وأسلوب حياته وأخلاقه. فلسكان المناطق الصحراوية طبائعهم وأخلاقهم وهكذا... ويورد الشيباني في كتابه "فلسفة التربية الإسلامية" روايات عن جفوة الأعراب، أي البدو وفظاظتهم وغلظتهم، لذلك ذكرهم الله سبحانه وتعالى في قوله: (الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)[1]. وقد روى ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال" مَنْ سَكَنَ الْبَادِيَةَ جَفَا..."[2]. وفي حديث لعائشة رضي الله عنها قالت "قدم أناس من الأعراب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فَقَالُوا أَتُقَبِّلُونَ صِبْيَانَكُمْ، قَالُوا نَعَمْ، فَقَالُوا لَكِنَّا وَاللَّهِ مَا نُقَبِّلُ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم وما أَمْلِكُ إِنْ كَانَ اللَّهُ نَزَعَ مِنْكُمْ الرَّحْمَةَ"[3].

وقد عني العلماء المسلمون بدراسة أثر البيئة الطبيعية في الأخلاق والطبائع، فضلا عن الخصائص الجسمية، ومنهم إخوان الصفا وابن خلدون الذي تحدث في مقدمته عن أثر البيئة الطبيعية في ألوان الناس وأجسامهم وشعورهم وأسنانهم وعظامهم وأخلاقهم وسلوكاتهم عموماً.

ويكون تأثير البيئة كبيراً بعد الولادة، ويتضح ذلك في قَولِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم "كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ كَمَا تَنَاتَجُ الإِبِلُ مِنْ بَهِيمَةٍ جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّ مِنْ جَدْعَاءَ"[4]. فالوالدان قد يحرفان الطفل عن الفطرة التي فطر عليها. ومن هنا كانت أهمية توفير الأسرة الصالحة التي تنمي لدى أبنائها القيم الإسلامية ومكارم الأخلاق.

ويقول سبحانه وتعالى على لسان قوم مريم عندما عاتبوها على الفعل الذي يخالف، في رأيهم، ما تربَّت عليه في أسرتها من فضائل، قال تعالى: (فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (27) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا)[5]. ويفسر ابن كثير هذه الآية بقوله " أي أنت من بيت طاهر معروف بالصلاح والعبادة والزهادة، فكيف صدر هذا منك"؟[6] مما يؤكد أثر البيئة في السلوك وإلا لما عاتبوها على فعلها.

(1) التوبة، 97.

(2) رواه الترمذي، كتاب الفتن، باب ما جاء في النهي عن سب الرياح، حديث رقم212.

(3) رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب رحمته الصبيان والعيال وتواضعه، حديث رقم4281.

(4) أخرجه الشيخان وأبو داود والترمذي، كتاب السنة، باب في ذراري المشركين، حديث رقم4091.

(5) مريم، 27-28.

(6) انظر مختصر تفسير ابن كثير للصابوني، ج2، ص 450.

وقد كان الناس قديماً يرسلون أبناءهم إلى البادية لتعلم الشعر واللغة وفنون القتال، فقد قامت آمنة بنت وهب بإرسال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قبيلة بني سعد بن بكر، وأرضعته حليمة السعدية، فأمضى طفولته في بادية بني سعد.

ويبين الغزالي دور البيئة في التطوّر من خلال تبيان دور الوالدين في تنشئة الأبناء بقوله " والصبي أمانة عند والديه وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة. وهو قابل لكل ما نقش ومائل إلى كل ما يحال به إليه، فإن عوِّد الخير وعلِّمه نشأ عليه، وسعد في الدنيا والآخرة، وشاركه في ثوابه أبوه وكل معلم له ومؤدب، وإن عوّد الشر وأهمل إهمال البهائم شقي وهلك وكان الوزر في رقبة القيمِّ عليه والوالي له"[1]. ويستشهد بقوله تعالى:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا)[2]. وجاء عن الأمام علي بن أبي طالب رضـى الله عنه قوله "إنما قلب الحدث كالأرض الخالية، ما ألقي فيها من شئ إلا قبلته"[3]. وقال تعالى على لسان نوح عليه السلام: (رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا(26) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا)[4]. وهكذا يمكن القول بأن الطفل يكتسب من بيئته طباعه وعاداته وقيمه وحتى اهتمامه. ولعل المستعرض للتاريخ الإسلامي يلمس صحة ما ذهبنا إليه، فقد عيَّن علي رضى الله عنه محمد ابن أبي بكر أميراً على مصر في عهده وهو ابن أول خليفة للمسلمين. كما تم ترشيح عبد الله بن عمر للخلافة من بعد والده وهو في ساعاته الأخيرة. ولكن يرفض الفاروق بقوله المشهور "إن كانت الخلافة خيراً فقد أخذنا حظنا منها آل الخطاب، وإن كانت الخلافة شراً فيكفي أن يعذب بالنار واحد من آل الخطاب يوم القيامة".

وعلى الرغم من أهمية دور البيئة في انحراف المولود عن الفطرة السليمة، إلا أن ذلك لا يمنع من أن يكون للفرد دور في تشكيل البيئة وتغييرها. فموسى عليه السلام تربي في بيت فرعون وخرج عليه وقوّض حكمه. كما أن المؤمنين من آل فرعون خرجوا على الواقع ودعوا إلى التغيير.

---

(1) الغزالي، الإحياء، ج3، ص 72.

(2) التحريم،6.

(3) سجع الحمام في حكم الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، 1967.

(4) نوح، 26-27.

ويؤكد الماوردي دور البيئة في التطوّر الأخلاقي، بقوله "إعلم أن النفس مجبولة على شيم مهملة وأخلاق مرسلة، لا يستغني محمودها عن التأديب ولا يكتفي بالمرضي عن التهذيب، لأن لمحمودها أضداداً مقابلة، يسعدها هوى مطاع وشهوة غالبة، فان أغفل تأديتها تفويضاً إلى العقل، أو توكلاً على أن تنقاد إلى الأحسن بالطبع، أعدمه التفويض درك المجتهدين وأعقبه التوكل ندم الخائبين، فصار من الأدب عاطلا، وفي صورة الجهل داخلاً، لان الأدب مكتسب بالتجربة، أو مستحسن بالعادة، ولكل قوم مواصفة، وكل ذلك لا ينال بتوقيف العقل، ولا بالانقياد للطبع، حتى يكتسب بالتجربة والمعاناة، ويستفاد بالدربة والمعاطاة [1]..." ويستشهد بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم "ولا تنكحوا الحمقاء، فإن صحبتها بلاء، وولدها ضياع". كما يستشهد بقول المنصور للمسيب بن زهير "ما مادة العقل؟ فقال مجالسة العقلاء " [2].

ويحرص الإسلام على اختيار الصحبة الصالحة لما لها من تأثير على الأبناء من حيث اكتساب القيم والعادات والأخلاق، قَالَ النبي صلى الله عليه وسلم "مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الْمِسْكِ إِنْ لَمْ يُصِبْكَ مِنْهُ شَيْءٌ أَصَابَكَ مِنْ رِيحِهِ وَمَثَلُ جَلِيسِ السُّوءِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الْكِيرِ إِنْ لَمْ يُصِبْكَ مِنْ سَوَادِهِ أَصَابَكَ مِنْ دُخَانِهِ" [3]، وقال أيضا "لا تُصَاحِبْ إِلاَّ مُؤْمِنًا، وَلا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلاَّ تَقِيٌّ" [4]، وَقَالَ صلى الله عليه وسلم "الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ" [5].

ومن المعلوم أن أكثر العوامل الاجتماعية التي تسهم في تشابه شخصيات جماعة ما هو انتماؤهم إلى ثقافة مشتركة. فالثقافة تحدد دافعية أعضائها وسلوكاتهم إزاء المواقف المختلفة. كما تحدد المهارات والمعارف والقيم وغيرها من سمات الشخصية. فمن خلال التفاعل الاجتماعي يمتص الفرد القيم والأنماط الثقافية السائدة في تلك الجماعة، والتي بدورها تطبع شخصيته بسمات يشترك بها مع أعضاء تلك الجماعة.

---

(1) الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص 210.

(2) المرجع السابق، ص 152.

(3) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس، حديث رقم 4191.

(4) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس، حديث رقم 4192.

(5) اخرجه أبو داود والترمذي عن أبي هريرة، النووي، كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس، حديث رقم 4193.

وتحدد عضوية الجماعة الدور الـذي ستشـغله الشخصـية في الحيـاة الاجتماعيـة، ومـا يترتب عليها من حقوق وواجبات، وبالتالي فهي تحدد سمات الشخصية وقدرتها على التكيـف الاجتماعي؛ فمصاحبة الفرد لأصدقاء منحرفين مثلاً سيؤدي إلى انحرافه في أغلب الأحوال.

ومن الجدير بالتذكير أن أول عمل قام به رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم كان يتعلق بإصلاح البيئة الاجتماعية عن طريق غرس العقيدة الإسلامية وإصلاح الفساد والعادات الاجتماعية غير المقبولة شرعاً (كعادة وأد البنات مثلا) وتنمية القيم الاجتماعية الإسلامية (كبرِّ الوالدين والكرم والشجاعة) وتعزيزها. وحظيت الأسرة بالعناية، فحرص الإسلام على أهمية التعليم وطلب العلم وحث عليه. فمن خلال التعلم يكتسب الناشئة المعارف والعلوم ويكتسبون الاتجاهات والعادات ويتعلمون المهارات الحركية المختلفة. وفي مدرسة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم تعلم أصحابه مبادئ التوحيد وقوة الإيمان واتقاد الفكر وصفاء الذهن وسمو النفس وكرم الأخلاق، وكانوا حماة الإسلام.

وتؤثر البيئة النفسية للفرد في تطوّره وتشكيل سلوكه، وتعدّ مسؤولة عن الفروق بين الأفراد. فالطفل الذي ينشأ في بيئة صالحة تشبع له – باعتدال - حاجاته الفسيولوجية (كالطعام والشراب) وحاجته إلى الأمن (كالتحرر من المخاوف) وحاجته إلى الانتماء والحب وحاجته إلى الاحترام والتقدير وحاجته إلى التعلم والمعرفة وحاجاته الإيمانية، لابد وأن تكون شخصيته متكاملة، وأخلاقه وسلوكاته عموماً تختلف عنها لدى الطفل المحروم الذي لا تشبع له حاجاته المذكورة. هذا وسيتم عرض موضوع الدوافع وطرق إشباعها بصورة مفصَّلة في الفصل الرابع، لذلك سنكتفي بالإشارة إلى بعض الأمثلة التوضيحية عن إشباع الحاجة إلى الأمن مع ذكر بعض الأدلة والشواهد الإسلامية.

فالأمن مطلب إنساني يرتبط بالإيمان بعناصره الستة (الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره). والأمن منَّة ونعمة لابد من شكر الله عليها، قال تعالى: (فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (3) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)[1]. وإذا لم يتحقق الشكر تفقد النعمة، قال سبحانه:(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آَمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا

(1) قريش، 3-4.

اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)[1]. وفي فقدان نعمة الأمن ابتلاء شديد للنفس، قال تعالى(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ)[2]. لذلك حرص الإسلام على تلبية حاجة الطفل إلى الأمن النفسي وتحريره من المخاوف والقلق والتوتر، لتحقيق الصحة النفسية له. فقد أكَّد رسول الله صلى الله عليه وسلم قيمة حنان الأم، فأثنى على نساء قريش لحنانهن على أبنائهن، قَالَ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم "خَيْرُ نِسَاءٍ رَكِبْنَ الإِبِلَ صَالِحُ نِسَاءِ قُرَيْشٍ، أَحْنَاهُ عَلَى وَلَدٍ فِي صِغَرِهِ، وَأَرْعَاهُ عَلَى زَوْجٍ فِي ذَاتِ يَدِهِ"[3].

كما حرص الإسلام على عدم حرمان الطفل من أمه، لتحقيق الصحة النفسية للطفل، فقد "لَعَنَ صلى الله عليه وسلم مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الْوَالِدَةِ وَوَلَدِهَا"[4]. وفي حال إخفاق العلاقة الزوجية وانتهائها بالانفصال، يوجب الإسلام للأم حق حضانة الطفل. فقد جاءت امْرَأَةً إلى النبي صلى الله عليه وسلم فَقَالَت يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ ابْنِي هَذَا كَانَ بَطْنِي لَهُ وِعَاءً، وَثَدْيِي لَهُ سِقَاءً، وحِجْرِي لَهُ حِوَاءً، وَإِنَّ أَبَاهُ طَلَّقَنِي وَأَرَادَ أَنْ يَنْتَزِعَهُ مِنِّي، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَنْتِ أَحَقُّ بِه"[5]. كما منح الإسلام الولد، الذي يميِّز بين الأبوين، في حال انفصالهما، حقَّ الاختيار بينهما، فيروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه شكا طليقته في ابنها إلى أبي بكر رضي الله عنه، فقال أبو بكر "هي أحق ما لم تتزوج أو يشب الصبي... فريحها وشمها ولطفها خير له منك"[6].

ويحتاج الطفل اليتيم إلى بيئة نفسية تشعره بالأمن بعد فقدان أحد والديه أو كليهما، لذلك عني الإسلام بتوفير الظروف الملائمة لتربيته، قال تعالى في سورة الضحى (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ)[7] وقال تعالى(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ)[8].

ولتحقيق الأمن من النقد الاجتماعي غير البنّاء، حرَّم الإسلام السخرية من الآخرين بالقول والعمل، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ

(1) النحل، 112.

(2) البقرة، 155.

(3) رواه البخاري في كتاب النكاح، باب إلى من ينكح وأي النساء خير، حديث رقم 4692.

(4) رواه ابن ماجة، كتاب التجارات، باب النهي عن التفريق، حديث رقم 2241، الترغيب والترهيب.

(5) رواه أبو داود، كتاب الطلاق، باب من أحق بالولد، حديث رقم1938.

(6) مشكل الآثار للطحاوي181/4، نقلاً عن محمد عقلة، تربية الأولاد في الإسلام، 1990.

(7) الضحى، 9.

(8) البقرة، 220.

يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)[1].

وختاماً، يمكن القول بأن القرآن الكريم يزخر بأمثلة تشير إلى أهمية عاملي الوراثة والبيئة في تطوّر الشخصية الإنسانية، فذكر مثلا السلوك العدواني الأول على الأرض عندما قتل قابيل أخاه هابيل، وكذا الحال بالنسبة لسلوك إخوة يوسف عليه السلام عندما قرروا طرحه في غيابة الجب. وينسحب الحديث نفسه على ابن نوح عليه السلام الذي أصرّ على الكفر، وقال عنه الله تعالى إنه عملٌ غيرُ صالحٍ:(قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ)[2]. فكيف يمكن تفسير سلوك أولئك المذكورين وقد كان آباؤهم أطهاراً؟ وفي المقابل فقد تربي موسى عليه السلام في بيت فرعون، وصار كليم الله، كما عاش إبراهيم عليه السلام وأهل الكهف وامرأة فرعون في بيئة الكفر والفساد، ومع ذلك اختاروا طريق الإيمان لهم. وهذا يشير إلى أن أثر البيئة على السلوك ليس حاسماً. وهكذا يمكن القول بأن تفسير تطوّر الشخصية يحب أن يتم في ضوء التفاعل بين عاملي الورثة والبيئة.

- **الفروق الفرديـة:**

– **مفهوم الفروق الفردية:**

على الرغم من وجود تشابه في كثير من الخصائص التطوّريـة للشخصـية، إلا أن هنـاك فروقاً واضحة بينها. فقلّ أن يُرى اثنان متشابهان من كل الوجوه، وذلك من أندر ما في العـالم. فلا يكاد اثنان منهم يجتمعان في صفة واحدة وخلقة واحدة، بل ولا صوت واحـد ولا حنجـرة واحدة. وتعود الفروق الفردية في التطوّر إلى عاملي الوراثة والبيئة أو عوامل النضـج والخـبرة. وتتضح الفروق الفردية في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم "إِنَّ اللَّهَ خَلَـقَ آدَمَ مِـنْ قَبْضَـةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الْأَرْضِ جَـاءَ مِـنْهُمْ الْأَحْمَـرُ وَالْأَبْـيَضُ وَالْأَسْـوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ وَالسَّهْلُ وَالْحَزْنُ وَالْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ"[3]. ويشير الحديث الشريف إلى أن الناس ليسوا صورة طبق الأصل عن بعضهم بعضاً، فهم مختلفون فيما بينهم في كثير من الخصـائص، لـذلك جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود، والسهل

(1) الحجرات، 11.

(2) هود،46.

(3) رواه أبو داود والترمذي، كتاب السنة، باب في القدر، حديث رقم4073.

والحَزْن، والخبيث والطيب. وكثير من الناس تتوسط خصائصهم بين الخصائص المذكورة. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "النَّاسُ مَعَادِنُ كَمَعَادِنِ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلامِ إِذَا فَقُهُوا" [1]. فكما أن المعادن تختلف فيما بينها في خصائصها الطبيعية (كاللون والصورة وقابلية الطرق والسحب ونقل الحرارة والكهرباء وقابلية المغنطة) والكيميائية (المتعلقة بتفاعلاتها الكيماوية)، كذلك الناس يتباينون في خصائصهم الجسمية والعقلية والانفعالية والاجتماعية والعقائدية... وقد أشارَ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الفروق الفردية في سمات الشخصية في قوله "أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ، وَأَشَدُّهُمْ فِي أَمْرِ اللَّهِ عُمَرُ، وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءً عُثْمَانُ، وَأَعْلَمُهُمْ بِالْحَلالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأَفْرَضُهُمْ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَأَقْرَؤُهُمْ أُبَيٌّ، وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ وَأَمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ" [2]. ولا تقتصر الفروق الفردية على عامة الناس، بل تشمل الرسل كذلك، قال تعالى: (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ) [3].

ولم يوجد الله سبحانه الفروق بين الناس عبثاً، بل لحكمة، لأنه لو شاء خلقهم متساوين في الخصائص كلها كما قال تعالى: (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)[4]، ولكنه أوجد الفروق الفردية لحكمة قدّرها سبحانه، فقد خلق الله البشر متفاوتين في قدراتهم الشخصية وإمكاناتهم وفي فضل الله عليهم من مال وجاه... ولكنه لم يفضل أحداً على غيره إكراماً له، كما أنه لم يضيق على أحد إهانة له، بل شاءت حكمته أن يؤدي كل واحد دوره في المجتمع، ويخدم الآخرين من موقعه وفي مجال اختصاصه ومعرفته. وبذا تتكامل الأدوار الاجتماعية وتستقيم الحياة الإنسانية، قال تعالى: (أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا)[5]. ويقول الأصمعي "لا يزال الناس

(1) أخرجه الشيخان وأبو داود، كتاب البر والصلة والآداب، باب الأرواح جنود مجندة، حديث رقم4774.

(2) أخرجه الترمذي، كتاب مناقب عن رسول الله، باب مناقب معاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبي بن كعب، حديث رقم 3723.

(3) البقرة، 253.

(4) هود، 118-119.

(5) الزخرف، 32.

بخير ما تباينوا، فإذا تساووا هلكوا"، وقال عثمان بن عفّان رضي الله عنه "ما سرني أن أصحاب رسول الله لم يختلفوا لأنهم لو لم يختلفوا لوقع الناس في الحرج"[1].

ويبين ابن القيم في "مفتاح دار السعادة" الحكمة من وجود الفروق الفردية بقوله "والحكمة البالغة في ذلك أن الناس يحتاجون إلى أن يتعارفوا بأعيانهم وحلاهم لما يجري بينهم من المعاملات. فلولا الفرق والاختلاف في الصور لفسدت أحوالهم وتشتت نظامهم، ولم يعرف الشاهد من المشهود عليه، ولا المدين من رب الدين، ولا البائع من المشتري، ولا كان الرجل يعرف عِرْسَه من غيرها للاختلاط، ولا هي تعرف بعلها من غيره. وفي ذلك أعظم الفساد والخلل... وربما وقع في النوع الإنساني تشابه بين اثنين لا يكاد يميز بينهما، فتعظم عليهم المؤنة في معاملتهم، وتشتد الحاجة إلى تمييز المستحق منهما، والمؤاخذ بذنبه ومن عليه الحق. وإذا يعرض هذا في التشابه في الأسماء كثيراً، ويلقى الشاهد والحاكم من ذلك ما يلقى، فما الظن لو وضع التشابه في الخلقة والصورة"[2]؟!

والفروق الفردية مهمة أيضاً في إظهار قدرة الله تعالى، قال سبحانه(وَمِنْ آَيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ)[3]. وهي مهمة في تحقيق العدالة في الثواب والعقاب، مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم "ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالأُجُورِ يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ، قَالَ أَوَ لَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيَأتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ، قَال أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلالِ كَانَ لَهُ أَجْرًا"[4].

والفروق الفردية ضرورية لتوجيه الناس حسب ما يناسبهم من أعمال وفق طاقاتهم وقدراتهم، مصداقاً لقوله تعالى: (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا)[5]،

---

(1) الشيباني، فلسفة التربية الإسلامية، ص 374.

(2) ابن القيم، مفتاح دار السعادة، ص 374.

(3) الروم، 22.

(4) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة قد يقع على كل نوع من المعروف، حديث رقم1674.

(5) البقرة، 286.

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم "اعْمَلُوا فَكُلُّ ميسّر"، وفي رواية "كُلُّ ميسّر لِعَمَلَهُ" [1].
فعلى الإنسان أن ينطلق إلى العمل وسييسر الله له العمل الذي يحسنه ويتقنه حسب قدراته.
كما تتضح الفروق الفردية في العمل في قول رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم" مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ وَاخْتِلافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ" [2]. وهي مهمة في ابتلاء الإنسان بالمعاصي أو بالنعم، قال تعالى: (وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً)[3]، وَقال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آَتَاكُمْ) [4].

ويؤكد الماوردي أهمية وجود الفروق الفردية، بقوله "واعلم أن الدنيا لم تكن قط لجميع أهلها مسعدة، ولا عن كافة ذويها معرضة، لأن إعراضها عن جميعهم عطب، وإسعادها لكافتهم فساد، لاختلافهم بالاختلاف والتباين، واتفاقهم بالمساعدة والتعاون، فإذا تساوى حينئذ جميعهم، ولم يجد أحدهم إلى الاستعانة بغيره سبيلاً، وبهم من الحاجة والعجز ما وصفنا، فيذهبوا ضيعة، ويهلكوا عجزاً، وإذا ما تباينوا واختلفوا، صاروا مؤتلفين بالمعونة، متواصلين بالحاجة، لأن ذا الحاجة وصول، والمحتاج إليه موصول. وقد قال الله تعال(وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ(118) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ) [5].

ويشير أبو حيّان التوحيدي إلى ضرورة وجود فروق بين الأفراد بقوله "وإني لأعجب من ناس يقولون كان ينبغي أن يكون على رأي واحد ومنهاج واحد وهذا مالا يستقيم ولا يقع به نظام".

ويشير الماوردي إلى ضرورة مراعاة الفروق الفردية بين المتعلمين في التدريس، فما يصلح لفرد قد لا يصلح لآخر؛ وفي ذلك يقول "وينبغي للعالم فراسة يتوسم بها المتعلم، ليعرف مبلغ طاقته، وقدر استحقاقه، ليعطيه ما يتحمله بذكائه، أو يضعف عنه ببلادته، فإنه أروح للعالم وأنجح للمتعلم" [6].

---

(1) رواه مسلم في القدر، حديث رقم 2648، ج 4، ص 2040-2041.

(2) رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب توقيره وترك إكثار سؤاله، حديث رقم4348.

(3) الأنبياء، 35.

(4) الأنعام، 165.

(5) الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص 119.

(6) المرجع السابق، ص 73-74.

وقد تحدث ابن رشد عن ضرورة ملاءمة طريقة التدريس لخصائص المتعلمين، وبالتالي مراعاة الفروق الفردية بينهم، ذلك أن أكثر الناس تناسبهم الخطابية، فيما تناسب الجدلية فئة أخرى، والبرهانية للقليل من المتعلمين.

- **أنواع الفروق الفردية:**

أشار الإسلام إلى الأنواع التالية للفروق الفردية :

1. **فروق في الجنس،** فخصائص الذكور تختلف عن خصائص الإناث، قال تعالى: (وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى) [1]. وفي حديث عائشة رضي الله عنها، أنها قالت "يا رسول الله نرى الجهاد أفضل عمل، أفلا نجاهد؟ قال لكن أفضل الجهاد حج مبرور"[2]، وعليه، فقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحج الذي فيه شيء من المشقة جهاداً للمرأة لأنه يتناسب مع طبيعة المرأة، وذلك بخلاف الرجل الذي يعد الجهاد في سبيل الله مهمة له. والفروق بين الرجل والمرأة في الإسلام فروق في الاختصاص ليس فيه انتقاص؛ وما بينهما من تفاضل فإن الهدف منه هو التكامل والتوازن لتحقيق عمارة الأرض وترقية الحياة فيها. فقد أكرم الله سبحانه المرأة بغريزة الأمومة لأنها مفطورة على العطف والحنان، فيما جعل أمر القوامة للرجل على المرأة.

2. **فروق جسمية**؛ منها ما يتعلق باختلاف اللون، قال تعالى:(وَمِنْ آَيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ) [3]. وقال تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ) [4]. وكما في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم "إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الأَرْضِ جَاءَ مِنْهُمْ الأَحْمَرُ وَالأَبْيَضُ وَالأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ وَالسَّهْلُ وَالْحَزْنُ وَالْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ" [5]. ومن الفروق الجسمية ما يتعلق بالصحة الجسمية مقابل وجود عيوب جسمية، قال تعالى: (مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا

---

(1) آل عمران، 36.

(2) رواه البخاري في الحج، باب فضل الحج المبرور، حديث رقم 1520، ج3، ص 446.

(3) الروم، 22.

(4) فاطر، 28.

(5) سبق تخريجه.

تَذَكَّرُونَ)[1]، أو بتميز القوة الجسمية، كما قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ) [2].

3. **فروق عقلية،** قال تعالى(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)[3]، وقال تعالى: (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)[4]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم، إلا كان لبعضهم فتنة" [5]. وقال صلى الله عليه وسلم "مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَاللَّهُ يُعْطِي وَلَنْ تَزَالَ هَذِهِ الأُمَّةُ قَائِمَةً عَلَى أَمْرِ اللَّهِ، لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ [6]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنْ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتْ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتْ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرِ. وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتْ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لاَ تُمْسِكُ مَاءً وَلا تُنْبِتُ كَلأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْت به" [7]. وقال صلى الله عليه وسلم "رُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ" [8]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أُمِرْتُ أَنْ أُخَاطِب النَاس عَلَى قَدَرِ عُقُولِهِم" [9]. وقد كشف رسول الله صلى الله عليه وسلم فروقاً بين الأفراد في الحجة والبيان، فعن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَأَنَكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيّ، وَلَعَلَ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُون أَلْحَن بِحجَتِهِ مِنْ بَعْض، فَأَقْضِي لَهُ عَلَى نَحْو مَا أَسْمَع، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقّ أَخِيهِ شَيْئاً، فَلاَ يَأْخُذُهُ فَإِنَما أَقْطَع لَهُ قِطْعَة مِنَ النَارِ" [10].

---

(1) هود، 24.

(2) البقرة، 247.

(3) البقرة، 269.

(4) المجادلة، 11.

(5) أخرجه مسلم في صحيحه، المقدمة، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع، حديث رقم5.

(6) رواه البخاري، كتاب العلم، باب من يرد الله به خيراً، حديث رقم69.

(7) رواه البخاري، كتاب العلم، باب فضل من علم وعلم، حديث رقم77.

(8) رواه البخاري، كتاب العلم، باب قول النبي رب مبلغ.

(9) كشف الخفاء ومزيل الإلباس للعجلوني، حديث رقم592، ص96.

(10) رواه البخاري في المظالم، باب إثم من خاصم في باطل وهو يعلمه، حديث رقم 2458، ج5، ص 128.

4. **فروق اجتماعية**، قال تعالى: (وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا) [1]. ومن الناس من يخالط الناس ومنهم من يميل إلى الانطواء والعزلة، تجنباً لأذى الآخرين، لذلك حث رسول الله صلى الله عليه وسلم على مخالطة الناس والصبر على أذاهم قال صلى الله عليه وسلم "المَؤْمِنْ الذَي يُخَالِطِ النَاس، وَيَصْبِرْ عَلَى أَذَاهُمْ أَعْظَم مِنْ المُؤْمِنْ الذَي لاَ يُخَالِطِ النَاسِ وَلاَ يَصْبِر عَلَى أَذَاهُمْ" [2].

5. **فروق في اللغة**، قال تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ) [3].

6. **فروق اقتصادية**، قال تعالى: (وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ) [4]، وقال سبحانه: (يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ) [5].

7. **فروق انفعالية**، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الأَرْضِ جَاءَ مِنْهُمْ الأَحْمَرُ وَالأَبْيَضُ وَالأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ وَالسَّهْلُ وَالْحَزْنُ وَالْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ" [6]. وقَالَ صلى الله عليه وسلم "أَلا وَإِنَّ مِنْهُمْ الْبَطِيءَ الْغَضَبِ سَرِيعَ الْفَيْءِ، وَمِنْهُمْ سَرِيعُ الْغَضَبِ سَرِيعُ الْفَيْءِ، فَتِلْكَ بِتِلْكَ، أَلا وَإِنَّ مِنْهُمْ سَرِيعَ الْغَضَبِ بَطِيءَ الْفَيْءِ، أَلا وَخَيْرُهُمْ بَطِيءُ الْغَضَبِ سَرِيعُ الْفَيْءِ، أَلا وَشَرُّهُمْ سَرِيعُ الْغَضَبِ بَطِيءُ الْفَيْءِ" [7]. وقال تعالى: (فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ) [8].

8. **فروق عقائدية (إيمانية)**، قال تعالى: (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) [9]، وقال سبحانه: (أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) [10]. وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم "الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ

---

(1) الزخرف، 32.

(2)رواه الترمذي في القيامة، باب رقم 20، حديث رقم 2625.

(3) الروم، 22.

(4) النحل، 71.

(5) سبأ، 36.

(6) سبق تخريجه.

(7) أخرجه الترمذي، كتاب الفتن، باب ما جاء عن أمر النبي، حديث رقم2117.

(8) هود، 105.

(9) التغابن، 2.

(10) القلم، 35-36.

الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ"[1]، وقال تعالى(فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ)[2]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "مَا مِنْ مَوْلُودٍ إلاَّ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أو يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ"[3]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أَلا إِنَّ بَنِي آدَمَ خُلِقُوا عَلَى طَبَقَاتٍ شَتَّى، فَمِنْهُمْ مَنْ يُولَدُ مُؤْمِنًا وَيَحْيَا مُؤْمِنًا وَيَمُوتُ مُؤْمِنًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يُولَدُ كَافِرًا وَيَحْيَا كَافِرًا وَيَمُوتُ كَافِرًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يُولَدُ مُؤْمِنًا وَيَحْيَا مُؤْمِنًا وَيَمُـوتُ كَافِرًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يُولَدُ كَافِرًا وَيَحْيَـا كَافِرًا وَيَمُوتُ مُؤْمِنًا"[4]. وقد فرّق سبحانه بين القاعدين من المؤمنين والمجاهدين في سبيله؛ بقوله تعالى(لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً)[5].

9. **فروق أخلاقية**، قال تعالى: (وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا)[6].

10. **فروق في الأهداف والغايات**، قال تعالى:(إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)[7]، وقال سبحانـه:(مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ)[8].

- **مراحل تطوّر الشخصية**

ينظر الإسلام إلى تطوّر الشخصية على أنه لا يحدث فجأة، بل تدريجياً وبصورة مستمرة. ومع ذلك فيمكن تمييز مراحل في تطوّرها، ويتضح ذلك في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم "الولد سيد سبع سنين وعبد سبع سنين ووزير سبع سنين"[9]. وقال أيضاً "دع ابنك يلعب سبع سنين ويؤدب سبع سنين، وألزمه نفسك سبع سنين، فإن فلح وإلا فلا خير فيـــه"[10].

---

(1) رواه مسلم في كتاب القدر، باب الأمر بالقوة وترك العجز، حديث رقم 4816.

(2) الأنعام، 125.

(3) سبق تخريجه.

(4) رواه الترمذي، كتاب الفتن، باب ما أخبر النبي أصحابه، حديث رقم 2117.

(5) النساء، 95.

(6) آل عمران، 75.

(7) الليل، 4.

(8) آل عمران، 152.

(9) الوسائل، باب 83، حديث رقم 7، أحكام الأولاد.

(10) الوسائل، باب 83، حديث رقم 4، أحكام الأولاد.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه "يرخى الصبي سبعاً ويستخدم سبعاً وينتهي طوله في ثلاث وعشرين وعقله في خمس وثلاثين وما كان بعد ذلك فبالتجارب" [1].

وعلى الرغم من وجود تشابه في الإطار العام لمراحل تطوّر الشخصية لدى علماء المسلمين، إلا أن ثمة تبايناً في تصنيفاتهم لها. وقد استعرض العاني (في كتابه الشخصية الإنسانية في التراث الإسلامي) تصنيفات عدد منهم لمراحل الحياة. فقد صنّف الفخر الرازي مراحل الحياة في أربعة أطوار هي: سن النمو وسن الوقوف وسن الكهولة، وسن الشيخوخة.

فيما ينحو ابن القيم في كتابه "تحفة المودود بأحكام المولود" منحى جديداً في تسمية مراحل حياة الإنسان؛ فيكون "أولا نطفة ثم علقة ثم مضغة، ثم جنيناً ما دام في البطن، فإذا خرج فهو وليد، فما لم يتمم سبعة أيام فهو صديغ- بالغين المعجمة – لأنه لم يشتد صدغه، ثم ما دام يرضع فهو رضيع، فإذا قطع عنه اللبن فهو فطيم، فإذا ذب ودرج فهو دارج. فإذا بلغ طوله خمسة أشبار فهو خماسي، فإذا سقطت أسنانه فهو مثغور، وقد ثغر. فإذا نبتت بعد سقوطها فهو مثغّرِ، فإذا بلغ السبع وما قاربها فهو مميز. فإذا بلغ العشر فهو مترعرع وناشئ. فإذا قارب الحلم فهو يافع ومراهق ومناهز للحلم. فإذا بلغ فهو بالغ. فإذا اجتمعت قوته فهو حَزَوَّر؛ واسمه في جميع ذلك غلام ما لم يخضر شاربه. فإذا أخضرّ شاربه وأخذ عذاره في الطلوع فهو باقل، وقد بقل وجهه بالتخفيف. ثم هو ما بين ذلك وبين تكامل لحيته فتى وشارخ بحصول شرخ الشباب له. فإذا اجتمعت لحيته فهو شاب إلى الأربعين. ثم يأخذ في الكهولة إلى الستين. ثم يأخذ في الشيخوخة. فإذا انحط قواه فهو هرم. فإذا تغيرت أحواله وظهر نقصه فقد رُدَّ إلى أرذل العمر" [2].

وقد توصل العاني إلى وجود ثلاثة أطوار في حياة الإنسان هي: طور ما قبل الولادة (ويشمل الماء المهين، والنطفة، والعلقة، والمضغة غير المخلقة، والمضغة المخلقة)، وطور ما قبل التكليف (ويشمل الوليد، والرضيع، والفصيل- أي الفطيم-والصبي)، وطور ما بعد التكليف (ويشمل الشباب، والأشد-أي الكهولة-والشيخوخة، والوهن- وهو أرذل العمر، وينتهي بالوفاة).

---

(1) نقلاً عن أحمد تفاحة، المرأة في الإسلام.

(2) ابن القيم، تحفة المودود بأحكام المولود، ص 260-261.

وبعد استعراض مراحل الحياة كما في الفكر الإسلامي، يمكن استخلاص ثلاث مراحل لتطوّر الشخصية هي: مرحلة الطفولة، ومرحلة البلوغ، ومرحلة الأشد (الرشد). هذا وسيتم عرض خصائص كل مرحلة منها على حدة. وقبل الشروع بالحديث عن مراحل تطوّر الشخصية الإنسانية، تجدر الإشارة إلى حقيقة هامة، ينفرد القرآن الكريم في تبيانها، في حين يغفلها علماء النفس، هي مراحل خلق الإنسان. فقد وجد الإنسان في العلم الإلهي قبل وجوده العياني، ووجوده في العلم الإلهي يتضمن تفصيلات كيانه الشخصي، كما يتضمن مهمته المستقبلية في الكون وهي مهمة الخلافة، كما في قوله تعالى:(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)[1]. ولهذا الاعتبار فإن الوجود العياني للإنسان ما هو إلا تحقيق لوجوده في العلم الإلهي فيما يتعلق بمهمة الخلافة في الأرض. وتتمثل نقطة البداية للوجود العياني للإنسان في خلق آدم عليه السلام من طين، قال تعالى:(إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (71) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ)[2]. وعليه، فإن خلق سيدنا آدم عليه السلام تمّ من غير زواج سابق. كما أن خلقه لم يتضمن انتقاله من مرحلة تطوّرية إلى أخرى، بل تمّ الخلق دفعة واحدة، فهو خلق متكامل الصورة، فكان الأب الأول للإنسانية جمعاء. وكذا الحال بالنسبة إلى خلق حواء، فقد خلقها الله عزّ وجلّ من ضلع من أضلاع آدم، ولم يمر خلقها بمراحل التطوّر التي سيأتي ذكرها، قال تعالى: (خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا)[3]. أما المرحلة الثانية للخلق فهي الخلق الناتج عن التزاوج، قال تعالى: (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (6يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ)[4]. وقد عبّر سبحانه وتعالى عن الخصية بالصلب لوجود النخاع الشوكي المرتبط بوظيفة الخصية، وعبّر عن المبيض بالترائب أي الثديين لعلاقتهما بوظيفة المبيض.

ويمكن القول بوجود أربعة اضرب للخلق الإنساني هي :

1. خلق لا من ذكر ولا من أنثى كخلق آدم عليه السلام.
2. خلق من ذكر بلا أنثى كخلق حواء عليها السلام.

---

(1) البقرة، 30.

(2) ص، 71- 72.

(3) الزمر، 6.

(4) الطارق، 5-7.

3. خلق من أنثى بلا ذكر كخلق عيسى عليه السلام.
4. خلق من ذكر وأنثى كخلق سائر البشر.

وفيما يلي عرض لمراحل تطوّر الشخصية للخلق الناتج عن التزاوج :

أولاً- مرحلة الطفولـة:

تبدأ هذه المرحلة مـن الميلاد حتـى البلـوغ، وتسـمى الصـغر. ويمكـن تمييـز مـرحلتين فرعيتين لها هما: مرحلة الطفولة المبكرة، ومرحلة الطفولة المتوسطة والمتأخرة.

أ. مرحلة الطفولة المبكرة:

تمتد هذه المرحلة من الميلاد حتى سن السابعة من العمر، يقول ابن قدامة "وقيدناه بالسبع لأنها أول حال أمر الشارع فيها بمخاطبته بالأمر بالصلاة" [1]. ويمكن النظر إليها على أنها تضم مرحلتين فرعيتين: مرحلة الرضاعة (المهد) وتبدأ من الولادة حتى سن الثانية، ومرحلة الحضانة كما يسميها معظم أهل الفقه (أو ما نسميها عرفاً بمرحلة رياض الأطفال أو مرحلة ما قبل المدرسة) وتبدأ من السنة الثانية حتى السنة السابعة. وينظر الإسلام إلى الطفل على أنه زينة تدخل السعادة والبهجة في النفــس، قال تعالى: (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)[2]. كما ينظر إليه على أنه قرة عين، قال تعالى: (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا)[3]. وقد أقسم الله تعالى بالطفل ووالده، بقوله: (لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (1) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (2) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ) [4].

والطفل هبة من الله سبحانه وبشارة منه، قال تعالى في بشارته لإبراهيم عليه السلام: (فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ)[5]، كما بشّر سبحانه نبيه زكريا عليه السلام، بعد أن تقطعت فيه أسباب الإنجاب، قال تعالى: (يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا) [6]. وبشّر مريم

---

(1) المغني عن حمل الأسفار للعراقي،125/10 كتاب القضاة- باب الحضانة لابن قدامة.

(2) الكهف، 46.

(3) الفرقان، 74.

(4) البلد، 1-3.

(5) الصافات، 101.

(6) مريم، 7.

بكلمة منه هو عيسى عليه السلام، قال تعالى:(إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ) [1].

وبينما كانت أوروبا تعامل الطفل على أنه يولد مذنباً والشر كامن في طبيعته، ينظر الإسلام إلى الطفل على أنه مولود على الفطرة. يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم "مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أوَ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ" [2]. وعليه، فإن مسؤولية جسيمة تقع على الوالدين (الأب والأم وليس أحدهما) في تربية الطفل ورعايته لا سيما في الجانب العقدي للحفـاظ على الفطرة السوية للطفل. فالطفل يأتي إلى الحياة وهو لا يعلم شيئاً، قال تعالى:(وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)[3]. فبعد وضع الطفل، يستحب التأذين والإقامة في أذنيه، عملاً بقوله صلى الله عليه وسلم "افتحوا على صبيانكم أول كلمة بلا إله إلا الله" [4]. ولعل الحكمة في ذلك هو أن تكون الشهادة أول ما يسمعه المولود فتكون الدعوة إلى الله وإلى الإسلام سابقة على دعوة الشيطان. كما يستحب تحنيك المولود بتدليك فمه يميناً ويساراً بالتمرة الممضوغة كي يسهل عليه امتصاص حليب الأم، فضلاً عن فائدة التمر في عملية الهضم. فقد روي عَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه أنه قَال "وُلِدَ لِي غُلَامٌ فَأَتَيْتُ بِهِ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَسَمَّاهُ إِبْرَاهِيمَ فَحَنَّكَهُ بِتَمْرَةٍ وَدَعَا لَهُ بِالْبَرَكَةِ وَدَفَعَهُ إِلَيَّ" [5]. وينبغي أن يعق الوالدان للمولود تقرباً لله، واقتداء بسنة رسوله، قال صلى الله عليه وسلم "الْغُلامُ مُرْتَهَنٌ بِعَقِيقَتِهِ يُذْبَحُ عَنْهُ يَوْمَ السَّابِعِ وَيُسَمَّى وَيُحْلَقُ رَأْسُهُ" [6]. ويستحب حلق شعر المولود في اليوم السابع لولادته والتصدق بوزن شعره ذهباً على الفقراء والمساكين اقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد حرص الإسلام على تنمية الفضائل لدى المولود بأن جعل الاسم الحسن حقاً من حقوق الطفل على أبيه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إِنَّكُمْ تُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَسْمَائِكُمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِكُمْ فَأَحْسِنُوا أَسْمَاءَكُمْ" [7]. فالاسم الحسن ينمي في النفس الفضيلة، ويسهم

---

(1) آل عمران، 45.

(2) سبق تخريجه.

(3) النحل، 78.

(4) رواه البيهقي في شعب الإيمان، 6/397-398 والحاكم في المستدرك وقال غريب. انظر أيضاً كنز العمال للمتقي الهندي، حديث رقم45332، ج16، ص441.

(5) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب من سمى بأسماء الأنبياء، حديث رقم5730.

(6) سنن الترمذي، كتاب الأضاحي عن رسول الله، باب العقيقة بشاة، حديث رقم1442.

(7) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في تغيير الأسماء، حديث رقم4297.

في جعل الطفل يتحلى بأخلاقيات اسمه ومعانيه، ويشعره بالعزة والسمو والرفعة. أما الاسم السيئ فينمي الشعور بالذل والاحتقار والحقد. لذا كان الاسم الحسن حق للولد على والده، مصداقاً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم "حق الولد على والده أن يحسن اسمه ويحسن موضعه ويحسن أدبه" [1]. وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتغيير الأسماء التي تحمل مدلولات سيئة، فعَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ ابْنَةً لِعُمَرَ كَانَتْ يُقَالُ لَهَا "عَاصِيَةُ" فَسَمَّاهَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم "جَمِيلَةَ" [2]. كما غيّر رسول الله صلى الله عليه وسلم اسم حرب فسمّاه سلماً، وشهاب فسماه هشاماً، وغيّر أسماء أخرى مثل غراب والعاص بأسماء حسنة. وقد حرص الإسلام على تقبل الوالدين والآخرين للطفل وعلى حفظ حقوقه وكرامته كي لا ينمو لديه الشعور بالذنب، بأن جعل ثبوت النسب حقاً للطفل، كما جاء في قوله تعالى: (ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ)[3].

كما أمر الإسلام بختان المولود لما له من فوائد صحية كالوقاية من بعض الأمراض، ومن تزكية النفس والبدن وتقويتهما لعبادة الله، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَال "الْفِطْرَةُ خَمْسٌ أَوْ خَمْسٌ مِنْ الْفِطْرَةِ الْخِتَانُ وَالاسْتِحْدَادُ وَتَقْلِيمُ الأَظْفَارِ وَنَتْفُ الإِبِطِ وَقَصُّ الشَّارِبِ" [4]. وقد حرّم الإسلام قتل الأولاد خشية الفقر، قال تعالى: (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ) [5]. كما حرّم الإسلام قتل البنات بقوله: (وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)[6]. وقد أنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل النساء وأطفال المشركين في حال الحرب [7].

ويعدّ الإسلام تغذية الطفل التغذية الصحية حق من حقوق الطفل. إذ بيّن وجوب إرضاع الطفل طبيعياً من الأم، مصداقاً لقوله تعالى: (وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ) [8]. وفي هذا تأكيد على أهمية لبن الأم في صحة

(1) رواه البيهقي في شعب الإيمان عن عائشة رضي الله عنها./ انظر كنز العمال للمتقي الهندي، حديث رقم45193، ج16، ص417.
(2) رواه مسلم، كتاب الآداب، باب استحباب تغيير الاسم القبيح إلى الحسن وتغيير الاسم، حديث رقم3988.
(3) الأحزاب، 5.
(4) رواه مسلم، كتاب الطهارة، باب خصال الفطرة، حديث رقم377.
(5) الإسراء، 31.
(6) التكوير، 8-9.
(7) سنن أبي داود.
(8) البقرة، 233.

الطفل النفسية والجسمية، فليس للطفل خير من حليب أمه. فكما أن الوالدة ترضع ابنها من ثدييها حليباً، فإنها ترضعه من نفسها حباً وعطفاً، وبذا ينمو نموا متكاملاً. ولذلك فإن الأطباء وعلماء النفس والمربين المحدثين يؤكدون أهمية الرضاعة الطبيعية في تشكيل جوانب شخصية الطفل. فمن الناحية الجسمية تتكامل العناصر الغذائية في حليب الأم، كما يعمل على تكوين مناعة عند الأطفال ضد الأمراض. ومن الناحية النفسية تشعر الأم طفلها بالحنان والدفء أثناء الرضاعة الطبيعية، فتزداد ثقة الطفل بالأم والآخرين من حوله. ذلك أن خبرة الرضاعة تمثل فرصة للتفاعل الاجتماعي بين الأم وطفلها. أما إذا تمت الرضاعة في جو من القلق والتوتر والحرمان، عندها يتولد لدى الطفل عدم الثقة بالآخرين فضلاً عن الشعور بالغضب والعدوان.

ويتأثر الطفل بلبن المرضعة وبأخلاقها (عن طريق اللبن)، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا تسترضعوا الورهاء (الحمقاء) فإن اللبن يورث" [1]. وفي رواية أخرى "لا تسترضعوا الحمقاء ولا العمشاء فإن اللبن يعدي" [2]. كما يؤكد الغزالي أثر لبن المرضعة على التطوّر الأخلاقي للطفل بقوله "بل ينبغي أن يراقب من أول أمره فلا يستعمل في حضانته وإرضاعه إلا امرأة صالحة متدينة تأكل الحلال، فإن اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه فإذا وقع عليه نشوء الصبي تعجنت طينته من الخبث فيميل طبعه إلى ما يناسب الخبائث"[3]. ويقول ابن سينا "إن من حق الولد على والده... اختيار ظئر له كيلا تكون ورهاء ولا ذات عاهة فإن اللبن يعدي" [4].

ومن الجدير بالذكر أن على الأم أن تنظم مواعيد رضاعة الطفل وتنظيم مواعيد نومه؛ ليتعلم النظام ويتعود على الصبر وأن تعينه على ضبط الإخراج تدريجياً مع التدريب، كي يتعود على ضبط رغباته وشهواته مستقبلاً. وتنتهي مرحلة الرضاعة بالفطام. ولا يشترط القرآن الكريم أن يكون الفطام في نهاية العامين، بل في خلالهما، حسب مستوى نمو الطفل، قال تعالى:
(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى

---

(1) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي، عن عائشة رضي الله عنها، ج4، كتاب النكاح، باب في الرضاع، ص265.

(2) المستطرف في كل فن مستظرف، الإبشيهي 249/2، نقلاً عن محمد عقلة، تربية الأولاد في الإسلام، ص87.

(3) الغزالي، الإحياء، ج3، ص72.

(4) ابن سينا، نظرية المعرفة، ص12.

وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ)[1]، وقال تعالى: (وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ)[2]. وهكذا يمكن القول بأن الإسلام حدّد فترة العامين (الحولين) الكاملين كأقصى مدة رضاعة بعدها يجب الفطام. وينبغي أن يتم الفطام تدريجياً، بأن تقل عدد الرضعات يومياً، وتستبدل بأكواب من الحليب ثم بالمواد الصلبة شيئاً فشيئاً. كما ينبغي أن تتسم الأم بالهدوء والصبر أثناء فترة الفطام، وأن لا تكون خبرة الفطام خبرة مؤلمة تؤدي إلى صدمة عاطفية تعرقل النمو الطبيعي للطفل. وما أن يصبح الطفل قادراً على تناول المواد الصلبة والاعتماد على نفسه في تناول طعامه، فإنه يتعين على الوالدين أن ينميا لديه العادات المستحبة المتعلقة بآداب الطعام كغسل اليدين قبل الأكل وبعده، والتسمية والأكل مما يليه والمضغ الجيد والأكل باليد اليمنى لقوله صلى الله عليه وسلم "يَا غُلَامُ سَمِّ اللَّهَ وَكُلْ بِيَمِينِكَ وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ" [3] وحمد الله بعد الأكل وعدم الإكثار من الطعام.

كما ينبغي غرس العادات المستحبة في الشراب كالتسمية، والشرب مثنى وثلاث، وحمد الله بعد الشرب، عملاً بقوله صلى الله عليه وسلم "لاَ تَشْرَبُوا وَاحِدًا كَشُرْبِ الْبَعِيرِ، وَلَكِنْ اشْرَبُوا مَثْنَى وَثُلاثَ وَسَمُّوا إِذَا أَنْتُمْ شَرِبْتُمْ وَاحْمَدُوا إِذَا أَنْتُمْ رَفَعْتُمْ" [4]. كما نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الشرب قائماً؛ فعن قتادة عن أنس رضي الله عنه "أن النبي صلى الله عليه وسلم زجر عن الشرب قائماً" [5]. ومن العادات المستحبة التي يتعين على الوالدين غرسها لدى الطفل النوم المبكر والصحو المبكر والخشونة في المأكل والملبس والمفرش وقراءة بعض الأدعية قبل النوم والاستغفار.

ويؤكد علماء المسلمين ضرورة وقاية الطفل من تسرب الأخلاق الرّذلة إليه، وذلك بالإسراع بتربيته على الأخلاق القويمة. يقول ابن سينا في هذا الشأن "فإذا فطم الصبي عن الرضاع بدئ بتأديبه ورياضة أخلاقه قبل أن تهجم عليه الأخلاق اللئيمة وتفاجئه الشيم الذميمة، فإن الصبي تبادر إليه مساوئ الأخلاق وتنثال عليه الضرائب الخبيثة، فما تمكن منه من ذلك غلب عليه فلم يستطع له مفارقة ولا عنه نزوعاً. فينبغي على معلم الصبي أن يجنبه مقابح الأخلاق وينكب عنه معايب العادات بالترهيب

(1) لقمان، 14.

(2) البقرة، 233.

(3) رواه مسلم، كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما، حديث رقم3767.

(4) سنن الترمذي، كتاب الأشربة عن رسول الله، باب ما جاء في التنفس في الإناء، حديث رقم1807.

(5) صحيح مسلم، كتاب الأشربة، باب كراهية الشرب قائماً، حديث رقم 5230، ج2، ص1600.

والترغيب والإيناس والإيحاش وبالإعراض والإقبال وبالحمد مرة وبالتوبيخ مرة أخرى ما كان كافياً"[1].

وقد أوجب الإسلام النفقة على المولود من الأب، مصداقاً لقوله تعالى: (وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ)[2]. وتؤكد السنة النبوية الشريفة أن جزاء الإنفاق على المولود كالإنفاق في سبيل الله تعالى، لا بل يسبقه من حيث الأولوية، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أَفْضَلُ الدِّينَارِ دِينَارٌ ينفقه الرَّجُلُ عَلَى عِيَالِهِ، وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ عَلَى دَابَّتِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ"[3]. ويشمل الإنفاق توفير الغذاء والكساء والمأوى والفراش المناسب والعلاج عند المرض، بما يوفر للمولود أسباب النمو الجسمي والعقلي السليمين.

وكما يؤكد الإسلام الرعاية الجسمية الجيدة، فإنه يؤكد منح الطفل الحب والحنان والبعد عن العنف لأن من شأنه أن يؤدي إلى تقويض البناء النفسي له. فعن السيدة عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال" يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لاَ يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ وَمَا لاَ يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ"[4]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إِنَّ الرِّفْقَ لاَ يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلاَّ زَانَهُ وَلاَ يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ شَانَهُ"[5].

وقد روى ابن عباس، عن رسول الله صلى الله عليه وسلمأنه قال "لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا وَيَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَ عَنْ الْمُنْكَرِ"[6]. وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ قَبَّلَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ وَعِنْدَهُ الأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ جَالِسًا، فَقَالَ الأَقْرَعُ إِنَّ لِي عَشَرَةً مِنْ الْوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا، فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ثُمَّ قَال "مَنْ لاَ يَرْحَمْ لاَ يُرْحَمْ"[7].

وقرر الإسلام أن تكون حضانة الطفل في يد الأم لأنها أكثر عطفاً بالطفل لينشأ رحيماً عطوفاً على الوالدين والآخرين في الكبر. إلا أن الإسلام يؤكد الاعتدال في الحب

(1) ابن سينا، نظرية المعرفة، ص12.

(2) البقرة، 233.

(3) رواه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في النفقة على الأهل، حديث رقم 1889.

(4) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق، حديث رقم4697.

(5) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق، حديث رقم4698.

(6) رواه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة الصبيان،حديث رقم1844.

(7) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، حديث رقم 5538.

والعطـف وعـدم الإسراف فـيهما. فالحمايـة الزائـدة مـن شـأنها أن تعيـق السـلوك الاستقلالي للطفل وتقود إلى صعوبات تكيفية وإلى جنوح الأحداث أحياناً. لذا لابد مـن وجـود حدٍّ من التوازن بين الحب والعطـف مـن جهـة وبـين الضـبط غـير المغـالي مـن جهـة أخـرى،. فالتوازن في المعاملة يعزز النمو النفسي لدى الطفل.

وتشهد مرحلة الطفولة تطوّراً كبـيراً في جميـع المظـاهر الجسـمية والحركيـة والعقليـة واللغوية والاجتماعية والانفعالية. فمن الناحية الجسمية يشهد الطفـل نمـواً مطَّـرداً في طولـه ووزنه. كما تنمو عضلاته وعظامه وأعصابه. وفي بداية هذه المرحلة تتركز النشـاطات الحركيـة على حركة العضلات الكبـيرة وتكـون غـير منسـجمة ومتوازنـة. أمـا في نهايـة المرحلـة، فتنمـو العضلات الدقيقة. وتصبح حركتها أكثر اتزاناً ويغـدو الطفـل أكـثر نشـاطاً ويصـبح قـادراً عـلى الوقوف والجلوس والمشي وصعود الدرج وركوب الدراجة وتسلق الأشجار والجري وغيرها.

هذا ويقضي الطفل معظم أوقاتـه في اللعـب. ويجـب تأكيـد أهميـة اللعـب في تطـور شخصية الطفل من حيـث إشـباع فضـوله، وتمـرين عضـلاته، وتقويـة ذاكرتـه، وزيـادة ثروتـه اللغوية، وتنمية روح التعاون والتفاعل الاجتماعي، والتحرر من التمركز حول الذات، واحـترام أدوار الآخرين وأفكارهم. وقد أشار الإسلام إلى أن اللعب هو المدخل الاجتماعي التربوي لبنـاء شخصية الطفل. فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحـرص عـلى تـرك المجـال لحفيديـه (الحسن والحسين) ليلعبا مع أترابهما من أطفال المسلمين، وكان يشاركهما اللعـب. فقـد روى الطبراني عن جابر قال دخلت على النبيصلى الله عليه وسلم وهو يمشي على أربع وعـلى ظهـره الحسن والحسين، وهو يقول "نعم الجمل جملكـما ونعـم العِـدْل أنـتما" [1]. وكـان رسـول الله صلى الله عليه وسـلم يصـلي، فـإذا سـجد وثـب الحسـن والحسـين عـلى ظهـره فـإذا أرادوا أن يمنعوهما أشار إليهم أن دعوهما، وذلك في المسجد، فلما قضى الصلاة وضعهما في حجره وقـال "من أحبني فليحب هذين" [2]. ولم يكن عطـف الرسـول مقصـوراً عـلى أحفـاده فحسـب، بـل شمل أطفال أمته الإسلامية، فقد كان صلى الله عليه وسلم يصـلي الفـرض وهـو حَامِـلُ أُمَامَـةَ بِنْتَ أَبِي الْعَاصِ بْنِ الرَّبِيع * عَلَى عَاتِقِهِ فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَهِيَ عَلَى عَاتِقِهِ يَضَعُهَا

---

(1) رواه جابر/ كنز العمال للمتقي الهندي، حديث رقم 37687، ج13، ص663.

(2) السنن الكبرى للنسائي، كتاب المناقب، باب فضائل الحسن والحسين، حديث رقم8114، ج7، ص318.

* أمامة بنت أبي العاص بن الربيع هي حفيدة الرسول ﷺ من ابنته زينب رضي الله عنها.

إِذَا رَكَعَ وَيُعِيدُهَا عَلَى عَاتِقِهِ إِذَا قَامَ فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَهِـيَ عَـلَى عَاتِقِهِ حَتَّى قَضَى صَلاتَهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ"[1].

ونظراً لأهمية اللعب في تطور شخصية الطفل، يتعـين عـلى الوالـدين تشـجيع أبنـائهم عليه وتوجيههم إلى الألعاب التي تناسب مستوى نمـوهم العقـلي والجسـمي. كـما ينبغـي أن تناسب الألعاب جنس الطفل؛ كأن تشجع البنات على اللعب بالبنات تدريباً لهـن عـلى حيـاة الأمومة وتأكيداً لدورهن المستقبلي. فعن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَـا قَالَـتْ "كُنْـتُ أَلْعَـبُ بِالْبَنَـاتِ عِنْدَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَكَانَ لِي صَوَاحِبُ يَلْعَبْنَ مَعِي فَكَانَ رَسُـولُ اللَّهِ صـلى الله عليـه وسلم إِذَا دَخَلَ يَتَقَمَّعْن * مِنْهُ فَيُسَرِّبُهُنَّ ** إِلَيَّ فَيَلْعَبْنَ مَعِي"[2].

وقد رأى المربون المسلمون أن اللعب يعدّ متنفسـاً للضـغوط التـي يشـعر بهـا الطفـل ولمخاوفه ورغباته المكبوتـة. كما أكدوا علاقة اللعب بالـذكاء ودوره في تنشـيط الأداء العقـلي[3]. وإن المتتبع للتراث الإسلامي يقف على ألعاب متنوعة في الشكل والمضمون تبعاً للمسـتوى العقلي للطفل واستجابة إلى حاجته، منها الألعاب التمثيليـة التـي تركـز عـلى تقمـص الطفـل لشخصيات الراشدين والألعاب التركيبية كعمل جبال رملية.

وتكون حاسة الإبصار لدى الطفل حديث الولادة ضعيفة، بحيث لا يرى الطفل الأشياء بوضوح إلا في الشهر السادس من العمر، ولكن حاسة السمع تنمو بسرعة أكبر، إذ يستجيب الولد للأصوات العالية، وإن كان لا يستجيب للأصوات الخافتة. أما بالنسبة للإدراك العقلي، فيبدأ بالنمو في مرحلة لاحقة لنمو حاستي السمع والبصر. وهكذا تتضح الحكمة الإلهية في ترتيب حاستي السمع والبصر أينما وردتا في القرآن الكريم، قال تعالى(وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)[4]، وقال تعالى: (وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ

---

(1) رواه أحمد، كتاب باقي مسند الأنصار، باب حديث أبي قتادة الأنصاري، حديث رقم21538.

* يتقمعن: يتغيبن ويدخلن وراء الستار.

** يسربهن: يرسلهن.

(2) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الانبساط إلى الناس وقال ابن مسعود خالط الناس، حديث رقم5665.

(3) الغزالي، الإحياء.

(4) السجدة، 9.

شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآَيَاتِ اللَّهِ) [1]، وقال تعالى: (إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا)[2].

وما أن تبدأ الحواس بالنضج النسبي حتى يبدأ الطفل بالتعرف على الأشياء عن طريق الحواس من سمع وبصر وشم وذوق ولمس، لذا ينبغي رعاية النمو الحسي- الإدراكي للطفل وتوجيهه الوجهة الصحيحة عن طريق الاتصال المباشر بالعالم الخارجي وبمخلوقات الله من شجر وأرض وبحر وسماء. وينبغي تنمية حاسة السمع بتعويد الطفل على سماع القرآن الكريم والأناشيد الإسلامية الهادفة. كما ينبغي تنمية حاستي الشم والذوق عن طريق تعويد الطفل على اختيار الغذاء والأكل النافع الحلال وعدم تناول المواد المحرمة. ويحرص الإسلام على رعاية الحواس؛ فقد ذكر القرآن الكريم حاسة الإبصار في مئة وسبعين آية، وذكر حاسة السمع في مئة وسبعين آية، وذكر حاسة الذوق في ثلاث وستين آية، كما ذكر حاسة الشم مرتين [3].

ومن الناحية اللغوية، يكتسب الطفل اللغة؛ يفهمها ويستخدمها للتعبير عن نفسه وعما يجول في خاطره. ويختلف الأطفال في السن التي يبدأون فيها النطق بالكلمة الأولى إلا أنها تقع، عموماً، في الفترة ما بين الشهر الثامن والشهر العشرين. ويبدأ الطفل بترديد الكلمات التي يسمعها من الراشدين، ثم يبدأ بربطها بأشخاص (كالأم) أو أشياء معينة (كاللعبة). وتكون حصيلة الطفل من اللغة في نهاية السنة الأولى حوالي خمسين كلمة، وتكون جملته مكونة من كلمة واحدة، ومن الأسماء تحديداً. أما الطفل في السنة الثانية فتتكون جملته من كلمتين، وتتكون جملة الطفل في السنة الثالثة من ثلاث كلمات وهكذا. ويبدأ الطفل باستخدام الأسماء ثم الأفعال، ثم الحروف والضمائر. وفي سن الخامسة، يكون الطفل قادراً على النطق السليم والتعبير الواضح عما يجول في خاطره ويحكي قصة طويلة يتخللها الخيال الواسع. وتجدر الإشارة إلى أن القدرة اللغوية ترتبط بالقدرة العقلية (الذكاء) ارتباطاً عالياً. هذا وتتفوق البنات على الأولاد في القدرة اللغوية خلال مرحلة الطفولة.

---

(1) الأحقاف، 26.

(2) الإنسان، 2.

(3) محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

ومن الناحية العقلية، يمكن تسمية مرحلة الطفولة "بمرحلة السؤال" نظراً لكثرة أسئلة الطفل وتنوعها رغبة منه في التعرف على الأشياء المحيطة به. ومن ضمن الأسئلة المتكررة للطفل تلك التي تتعلق بالذات الإلهية... كيف؟ وأين؟ ولماذا؟ فالله سبحانه وتعالى يوقظ الفطرة عند الطفل ويوجهها للبحث عنه، لذلك ينبغي أن يستغل الوالدان هذه الأسئلة لتعريفه بالله وتنمية ضميره وتحبيبه به وبطاعته وشكره على نعمه [1]. ويتسم تفكير الطفل في هذه المرحلة بالتمركز حول الذات، أي أن الطفل لا يأخذ وجهات نظر الآخرين بالاعتبار، ويرى أنه مركز العالم، وأن الآخرين يفكرون بما يفكر به في لحظة ما، وأنهم لا يرون إلا ما يرى. ويطغى الخيال على تفكير الطفل فكثيراً ما نراه يركب على عصا ويتحدث إليها بصوت مرتفع وكأنه يركب حصاناً. ولا شك أن الخيال وحب الاستطلاع وتقليد الكبار تعدّ من أبرز العوامل في تطوّر التفكير عند الأطفال.

وقد حرص الإسلام على تنمية العقل بالإجابة عن أسئلة الطفل واستفساراته بأكثر مما سأل عنه، ولنا في رسول الله أسوة حسنة، فقد كان يجيب السائل إجابة وافية بأكثر مما يتطلبه السؤال، زيادة في الإفادة، فَعَنْ ابْنِ عُمَرَ عَنْ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّ رَجُلاً سَأَلَهُ مَا يَلْبَسُ الْمُحْرِمُ فَقَالَ "لاَ يَلْبَسُ الْقَمِيصَ وَلاَ الْعِمَامَةَ وَلاَ السَّرَاوِيلَ وَلاَ الْبُرْنُسَ وَلاَ ثَوْبًا مَسَّهُ الْوَرْسُ أَوْ الزَّعْفَرَانُ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ النَّعْلَيْنِ فَلْيَلْبَسْ الْخُفَّيْنِ وَلْيَقْطَعْهُمَا حَتَّى يَكُونَا تَحْتَ الْكَعْبَيْنِ" [2]. وقد عدّ الرسول صلى الله عليه وسلم السؤال مفتاح العلم والمعرفة، قال "شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ" [3].

وتتطوّر الانفعالات تدريجياً من الاستثارة العامة نحو التمايز والتخصص. غير أنها تتميز بالمبالغة والتنوع والتذبذب. فكثيراً ما نرى الطفل ينتقل من الغضب الشديد إلى الفرح الشديد، كما نراه يحب كثيراً ويغضب كثيراً. وتظهر المخاوف عند الطفل وتتنوع مثيراتها. فهو يخاف من الظلام ومن الحيوانات ومن الموت ومن الانفصال عن الوالدين، ويكتسب الطفل هذه المخاوف من الراشدين المحيطين به. فهو يقلدهم في مخاوفهم. لذلك يتعين على الأم ألا تروّع طفلها من الظلام أو الجن عن طريق سرد القصص الخيالية المرعبة، بل عليها أن تحرره من هذه المخاوف بأن تروي له قصص بطولة السلف الصالح وشجاعتهم، وأن تغرس في نفسه الخوف من الله ومن عقابه والعمل على طاعته.

---

(1) ليلى عطار، الجانب التطبيقي في التربية الإسلامية.

(2) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب من أجاب السائل بأكثر مما سأله، حديث رقم131.

(3) رواه أبو داود، كتاب الطهارة، باب المجروح اليتيم، حديث رقم284.

وتتأجج الغيرة في هذه المرحلة، لا سيما إذا ولد مولود جديد أو شعر الطفل بتحول محبة الوالدين ورعايتهم نحو غيره من الإخوة، وقد تقود الغيرة إلى العدوان والانتقام، وقد تؤدي إلى سلوكات نكوصية طفلية لاستعادة حب الوالدين واهتمامهم. لذلك يتعين على الوالدين توخي العدل في رعاية الأبناء وحبهم، حتى يتحرر الأبناء من الغيرة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "اعْدِلُوا بَيْنَ أَبْنَائِكُمْ، اعْدِلُوا بَيْنَ أَبْنَائِكُمْ، اعْدِلُوا بَيْنَ أَبْنَائِكُمْ"[1]. ولعلّ تكرار القول جاء من باب التأكيد على أهمية العدل بين الأبناء.وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعدل بين الأبناء في العطايا بقوله "إعدلوا بين أولادكم في النحل"[2]. كما أمر بالعدل بين الأولاد حتى في القبل، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن الله يحب أن تعدلوا بين أولادكم حتى في القبل"[3]. هذا ويستنكر الإسلام تفضيل الآباء للأولاد الذكور على الإناث بقوله تعالى(وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (58)يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)[4]. وقد روي عن أنس أن رجلاً كان جالساً مع النبي صلى الله عليه وسلم فجاء بني له فقبله وأجلسه في حجره ثم جاءت بنته فأخذها وجلست إلى جنبه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم "فما عدلت بينهما"[5].

هذا ومن الجدير بالذكر أن الأبناء الذين يعانون من تمييز إخوانهم عليهم يكونون أكثر ميلاً للعدوان وأكثر حقداً ونقمة على المجتمع. كما يكونون أقل نضجاً اجتماعياً وانفعالياً. وتتجلى كثير من هذه الآثار في غيرة إخوة سيدنا يوسف عليه السلام وانتقامهم عن طريق محاولة قتله بطرحه في قاع الجب، قال تعالى: (إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (8) اقْتُلُوا يُوسُفَ) أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ)[6].

ويدرك الأطفال في نهاية هذه المرحلة دورهم الجنسي، فتتمايز اهتمامات الذكور عن الإناث وميولهم وأنواع ألعابهم وملابسهم. ويغلب عليهم كثرة الأسئلة الجنسية.

---

(1) رواه أحمد، كتاب أول مسند الكوفيين، باب حديث النعمان بن بشير عن النبي، حديث رقم17724.
(2) أخرجه ابن حبان 281/7، الإحسان.
(3) رواه ابن النجار عن النعمان بن بشير، كنز العمال للمتقي الهندي، حديث رقم 45350، ج16، ص445.
(4) النحل، 58-59.
(5) نقلاً عن ابن قيّم الجوزية، تحفة المودود بأحكام المولود.
(6) يوسف، 8-9.

ومن الضروري الإجابة عن أسئلة الأطفال بما يناسب نموهم العقلي وعدم التهرب من الإجابة عنها لئلا يبحثوا عن مصادر أخرى غير مأمونة للإجابة عنها. فكثيراً ما يطرحون سؤالاً من مثل "من أين أتيت"؟ وهنا لا يجوز الحديث عن حيثيات لن يستوعبها الطفل، بل يكتفى بشرح الآية الكريمة: (يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ)[1]. وقد يطرحون سؤالاً آخر من مثل "كيف كبرت"؟ فيكتفى بشرح قوله تعالى:(فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍوَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ)[2].

وأخيراً يؤكد الإسلام أهمية مرحلة الطفولة المبكرة في بناء الشخصية، يقول سيدنا عليّ كرّم الله وجهه "قلب الحدث كالأرض الخالية ما ألقي فيها شيء إلا قبلته"[3]. وفي هذا القول تبيان لدور المربين في بناء شخصية الناشئ. لذا كان لابد أن يكونوا قدوة حسنة له في أقوالهم وأفعالهم، وأن يوفِّروا له البيئة الصالحة التي تمكنه من أداء وظيفته ودوره وتحقيق الغاية من وجوده.

ب. مرحلة الطفولة المتوسطة والمتأخرة:

تقابل هذه المرحلة قوله صلى الله عليه وسلم "ويؤدب سبعاً"، إشارة إلى دخول الطفل المدرسة وتلقيه العلم. وهي مرحلة تمييز ومرحلة تعويد للطفل على الوضوء والصلاة، عملاً بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم "مُرُوا أَوْلادَكُمْ بِالصَّلاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ"[4]. ويلاحظ أن طفل السابعة يؤمر بالتدريب على الصلاة، فيما يؤمر إبن العاشرة بأداء الصلاة ويضرب إذا لم يؤدها. كما أنه يعيد الصلاة الفائتة عليه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "مَا تَرَكَ الْغُلامُ بَعْدَ الْعَشْرِ مِنْ الصَّلاةِ فَإِنَّهُ يُعِيدُ"[5]. كما ينبغي التفريق بين الأطفال في المضاجع، لأن طفل العاشرة يكون قد اقترب من البلوغ وبدأ يدرك الأمور الجنسية، لذا ينبغي البدء بالتربية الجنسية للطفل في هذه المرحلة. ومرحلة التأديب مرحلة تعليم القرآن الكريم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أدبوا أولادكم

(1) الزمر، 6.

(2) الحج، 5.

(3) سجع الحمام في حكم الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، 1967.

(4) رواه الترمذي، كتاب الصلاة، باب متى يؤمر الغلام بالصلاة، حديث رقم418.

(5) رواه الترمذي في كتاب الصلاة، باب متى يؤمر الغلام بالصلاة، حديث رقم372.

على ثلاث خصال حب نبيكم وحب آل بيته وقـراءة القرآن" [1]، وقال صلى الله عليه وسلم "مَنْ كَانَ لَهُ ثَلاثُ بَنَاتٍ أَوْ ثَلاثُ أَخَوَاتٍ أَوْ ابْنَتَانِ أَوْ أُخْتَانِ فَأَحْسَنَ صُحْبَتَهُنَّ وَاتَّقَى اللَّهَ فِيهِنَّ لَهُ الْجَنَّةُ" [2].

ويلاحـظ في هـذه المرحلـة زيـادة وزن الطفـل وطولـه، إلا أن سرعـة النمـو في الطـول والوزن تقلُّ عنها في مرحلة الطفولة، مما يسمح بتوفير طاقة زائـدة للنشـاط الجسـمي الـذي يتميز بالحيوية. وفي بداية هذه المرحلة يكون الولد قادراً على الاعتماد عـلى نفسـه في غذائـه وشرابه ولباسه ونظافته، لذلك يتعين على الوالدين تعويده على آداب الأكل والشراب واللبـاس واستخدام الأدعية المناسبة، فإن لبس شيئاً، فعليه الاقتداء بحـديث رسـول الله صـلى الله عليـه وسلم "مَنْ لَبِسَ ثَوْبًا فَقَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كَسَانِي هَذَا وَرَزَقَنِيهِ مِـنْ غَـيْرِ حَـوْلٍ مِنِّـي وَلا قُـوَّةٍ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِـهِ" [3]، وإن أراد الأكل غسل اليـدين قبـل الطعـام وبعـده وحمـد الله عملاً بقوله صلى الله عليه وسلم "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنِي هَذَا وَرَزَقَنِيهِ مِـنْ غَـيْرِ حَـوْلٍ مِنِّـي وَلا قُوَّةٍ" [4].

وتظهر الفروق الجسمية بين أفراد الجنسين بوضوح بعد سن التاسعة، لذا يتعـين عـلى الوالدين تعويد أبنائهم على ارتداء مـا يناسـبهم مـن الملابـس المحتشـمة وأن لا يرتـدي الولـد ملابس البنات وألا ترتدي البنت ملابس الأولاد. فقد روي عن أبي داود "لَعَـنَ رَسُـولُ اللَّهِ صـلى الله عليه وسلمالرَّجُلَ يَلْبَسُ لِبْسَةَ الْمَرْأَةِ، وَالْمَرْأَةَ تَلْبَسُ لِبْسَةَ الرَّجُلِ" [5].

ويتطوّر الجهاز العضلي تطوّراً ملحوظاً في هذه المرحلة، بحيث تتضاعف قوة العضلات ووزنها عما كانت عليه في نهاية مرحلة الطفولة، لـذا ينبغـي تعويـد الولـد عـلى تـرك التـنعم والاعتماد على النفس، قال عمر بن الخطاب "اخشوشنوا فإن النعم لا تدوم". وَعَـن مُعَـاذِ بْـنِ جَبَلٍ مرفوعاً "إِيَّاكَم وَالتَّنَعُّمَ فَإِنَّ عِبَادَ اللَّهِ لَيْسُوا بِالْمُتَنَعِّمِينَ" [6]. وقال الغزالي "ويحفظ الصبي عن الصبيان الذين عوّدوا التنعم والرفاهية ولبس الثياب الفاخرة،

(1) رواه الديلمي وإبن النجار ورمز له السيوطي في الجامع الصغير. انظر كشف الخفاء ومزيل الإلباس للعجلوني، حديث رقم174، ج1، ص74.

(2) رواه الترمذي وأبو داود، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في النفقة على البنات، حديث رقم1839.

(3) رواه سهل بن معاذ، الدارمي، كتاب الاستئذان، باب ما يقول إذا لبس ثوباً، حديث رقم2574.

(4) رواه الترمذي في كتاب الدعوات، باب ما يقال إذا فرغ من الطعام، حديث رقم3380.

(5) كتاب اللباس، باب لباس المرأة، حديث رقم3575.

(6) رواه أحمد، كتاب مسند الأنصار، باب حديث معاذ بن جبل، حديث رقم21102.

ويمنع الفرش الوطيئة حتى تتصلب أعضاؤه ولا يسمن بدنه، فلا يصبر على التنعم، بل يُعوَّد الخشونة في المفرش والملبس والمطعم" [1].

وفي هذه المرحلة يغدو الولد قادراً على التحكم بعضلاته الدقيقة. ويميل إلى ممارسة الألعاب الرياضية من جري وتسلق ورمي وركض وسباحة. وعلى الوالدين تشجيعه على ممارسة هذه الرياضات، فقد روي عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال "أما بعد، فعلموا أبناءكم السباحة والفروسية" [2]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أَلا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ" [3]. ففي السباحة والرمي وركوب الخيل فوائد عديدة أبرزها تنمية القوة الجسدية واكتساب القيم من تعاون ونظام ومنافسة شريفة وتحمل المسؤولية وصبر واحترام حقوق الآخرين. وقد حضّ الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم على تعليم الكتابة والسباحة والرمي، قال "حق الولد على الوالد أن يعلِّمه الكتابة والسباحة والرمي وأن لا يرزقه إلا طيباً" [4]. وسمح صلى الله عليه وسلم للأحباش باللعب بالحراب وكان يطلُّ عليهم من حجرته هو وعائشة رضي الله عنها. وكان الصحابة رضوان الله عليهم عندما يخرجون من صلاة المغرب يتدربون على رمي السهام، قَالَ رَافِعَ بْنَ خَدِيجٍ "كُنَّا نُصَلِّي الْمَغْرِبَ مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَيَنْصَرِفُ أَحَدُنَا وَإِنَّهُ لَيُبْصِرُ مَوَاقِعَ نَبْلِهِ" [5].

كما أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم سباقاً للخيل، فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ إبْنِ عُمَرَ "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم سَابَقَ بَيْنَ الْخَيْلِ الَّتِي أُضْمِرَتْ * مِنْ الْحَفْيَاء ** ، وَأَمَدُهَا ثَنِيَّةُ الْوَدَاعِ *** ، وَسَابَقَ بَيْنَ الْخَيْلِ الَّتِي لَمْ تُضْمَرْ مِنْ الثَّنِيَّةِ إِلَى مَسْجِدِ بَنِي زُرَيْقٍ" [6]. كما سابق رسول الله صلى الله عليه وسلم السيدة عائشة في الجري. فَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ "خَرَجْتُ مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ وَأَنَا جَارِيَةٌ لَمْ أَحْمِلْ اللَّحْمَ وَلَمْ أَبْدُنْ، فَقَالَ لِلنَّاسِ "تَقَدَّمُوا" فَتَقَدَّمُوا. ثُمَّ

---

(1) الغزالي، الإحياء، ج3، ص53.

(2) انظر الأبراشي، التربية الإسلامية وفلاسفتها.

(3) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه، حديث رقم3541.

(4) رواه السيوطي في الجامع الصغير عن أبي نعيم في الحلية بإشارة الضعيف 149/1. انظر أيضاً كنز العمال للمتقي الهندي، حديث رقم45340، ج16، ص443.

(5) رواه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب وقت المغرب، حديث رقم526.

* أضمرت: تجهزت للجري.

** الحفياء: مكان معروف بالمدينة المنورة.

*** ثنية الوداع: عند المدينة، سميت بذلك لأن الخارج من المدينة المنورة يمشي معه المودعون إليها، وبينها وبين الحفياء (5-7) أميال.

(6) رواه البخاري في كتاب الصلاة، باب هل يقال مسجد بني فلان، حديث رقم403.

قَالَ لِي "تَعَالَيْ حَتَّى أُسَابِقَكِ" فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقْتُهُ، فَسَكَتَ عَنِّي حَتَّى إِذَا حَمَلْتُ اللَّحْمَ وَبَدُنْتُ وَنَسِيتُ خَرَجْتُ مَعَهُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَقَالَ لِلنَّاسِ "تَقَدَّمُوا" فَتَقَدَّمُوا. ثُمَّ قَالَ لِي "تَعَالَيْ حَتَّى أُسَابِقَكِ" فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقَنِي فَجَعَلَ يَضْحَكُ وَهُوَ يَقُولُ "هَذِهِ بِتِلْكَ"[1].

وتتطوّر في هذه المرحلة الثروة اللغوية عند الأولاد، ويبدو حبهم للكلام واضحاً، فيتهافتون على الحديث في البيت. وينتقل حديثهم من الكلام التمركز حول الذات إلى الكلام الاجتماعي. ويكثر استخدام العبارات النابية، لذلك يتعين على الوالدين تعويد أبنائهم على استخدام العبارات اللطيفة وعلى الأخلاق الحميدة كإلقاء تحية الإسلام وآداب التوديع والأدعية الأخرى كدخول المنزل والسوق وغيرها. ونظراً للارتباط الوشيج بين اللغة العربية والإسلام، بات من الضروري تعويد الأبناء على تعلم اللغة العربية الفصحى واستخدامها في الحياة اليومية لتكون لغة مخدومة لا لغة علم فحسب.

ويتطوّر الذكاء تطوّراً مطّرداً، وتزداد مدة الانتباه بتقدم سن الولد، ويدرك المفاهيم المادية المحسوسة. وفي نهاية هذه المرحلة يبدأ بإدراك المفاهيم المجردة. كما تظهر رغبته في التعلم. لذا ينبغي البدء بتعليمه القرآن الكريم. وفي هذا الصدد يقول ابن سينا "ينبغي البدء بتعليم القرآن بمجرد تهيؤ الطفل للتلقين جسمياً وعقلياً. وفي الوقت نفسه يتعلم حروف الهجاء، ويلقن معالم الدين، ثم يروى الشعر مبتدئاً بالرجز ثم بالقصيدة، لأن الرجز حفظه أسهل، إذ أن أبياته أقصر ووزنه أخف، على أن يختار من الشعر ما قيل في فضل الأدب ومدح العلم وذم الجهل وما حثَّ منه على برّ الوالدين واصطناع المعروف وقري الضيف، فإذا فرغ من حفظ القرآن، وألمّ بأصول اللغة نظر بعد ذلك في توجيهه إلى ما يلائم طبيعته واستعداده"[2].

ويتعلم الأولاد بالقدوة. ويعدّها الإسلام أكثر الوسائل التربوية فعالية، قال تعالى(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)[3]. لذا يتعين أن يكون الوالدان والمربون قدوة حسنة لأبنائهم وأن يطابق فعلهم قولهم، عملاً بقوله تعالى:(أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ) (2كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ)[4].

---

(1) رواه أحمد، كتاب باقي المسند الأنصار، باب باقي مسند السابق، حديث رقم25075.

(2) انظر: الأبراشي، التربية الإسلامية وفلاسفتها.

(3) الأحزاب، 21.

(4) الصف، 2-3.

فكما يتعلم الأبناء القيم الحميدة بتقليد آبائهم فإنهم يتعلمون الكذب والنفاق منهم بالطريقة ذاتها.

ويحرز الولد في هذه المرحلة تقدماً ملموساً في نموه الانفعالي. ويصبح أكثر تحكماً وأكثر قدرة على تأجيل تلبية رغباته مما كان عليه في المرحلة السابقة. ومع ذلك فإنه يمر أحياناً بحالات من الغضب والعناد والغيرة وتأكيد الذات. وفي بداية هذه المرحلة، يكون الولد حساساً للنقد الاجتماعي، لذا يتعين على الوالدين تجنيبه العوامل المؤدية إلى الغضب والحساسية والغيرة وتدريبه على المنهج الإسلامي في تهدئة حدة الغضب بالسكوت، عملاً بقوله صلى الله عليه وسلم "إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْكُتْ" [1]، أو بالوضوء عملاً بقوله صلى الله عليه وسلم "إِنَّ الْغَضَبَ مِنْ الشَّيْطَانِ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ خُلِقَ مِنْ النَّارِ، وَإِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ بِالْمَاءِ، فَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ" [2]، أو بتغيير الوضع، عملاً بقوله صلى الله عليه وسلم "إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الْغَضَبُ وَإِلاَّ فَلْيَضْطَجِعْ" [3]، أو بالتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فقد روى البخاري في صحيحه أنه اسْتَبَّ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَنَحْنُ عِنْدَهُ جُلُوسٌ، وَأَحَدُهُمَا يَسُبُّ صَاحِبَهُ مُغْضَبًا قَدْ احْمَرَّ وَجْهُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم إِنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ لَوْ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ" [4] أو بأن تقبح في نفس الولد صورة الغاضب، تطبيقاً لقوله صلى الله عليه وسلم "أَلا إِنَّ الْغَضَبَ جَمْرَةٌ فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ تَتَوَقَّدُ، أَلَمْ تَرَوْا إِلَى حُمْرَةِ عَيْنَيْهِ وَانْتِفَاخِ أَوْدَاجِهِ، فَإِذَا وَجَدَ أَحَدُكُمْ ذَلِكَ فَلْيَجْلِسْ أَوْ قَالَ فَلْيَلْصَقْ بِالأَرْضِ" [5].

وقد يغلب الخجل على سلوك الولد. وعليه، ينبغي تشجيعه على التحرر من الخجل بالسؤال عن رأيه واحترامه وتشجيعه. وقد حرص الإسلام على تنمية الشخصية الإسلامية التي تمتاز بالجرأة والشجاعة في قول الحق. ويروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم سأل الصحابة- وكان بينهم عبد الله بن عمر وكان صغيرهم- إن مِنْ الشَّجَرِ شَجَرَةً لا يَسْقُطُ وَرَقُهَا وَهِيَ مَثَلُ الْمُسْلِمِ، فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبَادِيَةِ، قال عبد الله فَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، فَاسْتَحْيَيْتُ، ثم قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنَا بِهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم هِيَ النَّخْلَةُ،

---

(1) رواه أحمد في مسند بني هاشم، باب بداية مسند عبد الله بن عباس، حديث رقم2029.

(2) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب ما يقال عند الغضب، حديث رقم4152.

(3) رواه أحمد في مسند الأنصار، باب أبي ذر الغفاري، حديث رقم20386.

(4) كتاب الأدب، باب الحد من الغضب، حديث رقم5650.

(5) رواه أحمد في مسند المكثرين، باب أبي سعد الخدري، حديث رقم11158.

فلما قاموا حدث عبد الله أباه بما وَقَعَ فِي نَفْسِهِ، فَقَالَ لأَنْ تَكُونَ قُلْتَهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ حمر النعم" [1].

وتذكر عطار في كتابها "الجانب التطبيقي في التربية الإسلامية" الموقف التالي مثالاً على الجرأة والشجاعة في القول: "دخل على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أول خلافته وفود المهنئين، فتقدم من وفد الحجازيين للكلام غلام صغير لم تبلغ سنه إحدى عشرة سنة. فقال له عمر ارجع أنت وليتقدم من هو أسنّ منك! فقال الغلام أيَّد الله أمير المؤمنين، المرء بأصغريه قلبه ولسانه، فإذا منح الله العبد لساناً لافظاً وقلباً حافظاً فقد استحق الكلام، ولو أن الأمر - يا أمير المؤمنين- بالسِّن لكان في الأمة من هو أحق منك بمجلسك هذا! فتعجب عمر من كلامه وأنشد :

تعلم فليس المرء يولد عالماً وليس أخو علم كمن هو جاهل

وإن كبير القوم لا علم عنده صغير، إذا التفت عليه المحافل

ويزداد في هذه المرحلة احتكاك الولد بالأصدقاء، ويكتسب معاييرهم وقيمهم ويتأثر بهم. ويزداد عدد الأصدقاء بتقدم الولد في السن، لذا ينبغي على الوالدين التعرف إلى أصدقاء أبنائهم ومراقبة سلوكياتهم. فالمرء على دين خليله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلْ" [2]، لذلك أمر صلى الله عليه وسلم بالابتعاد عن قرناء السوء، وعن البيئة السيئة، فقال "لا تصاحب الفاجر فتتعلم من فجوره" [3]، وقال صلى الله عليه وسلم "إياك وقرين السوء" [4]. فيما أمر بمصاحبة المؤمن الصالح، قال صلى الله عليه وسلم "لا تُصَاحِبْ إِلاَّ مُؤْمِنًا، وَلا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلاَّ تَقِيٌّ" [5]. ويشير الغزالي إلى ذات المعنى بقوله "ويمنع الطفل من لغو الكلام وفحشه ومن اللعن والسب ومن مخالطة من يجري على لسانه شيء من ذلك فإن ذلك يسري لا محالة من قرناء السوء. وأصل تأديب الصبيان الحفظ من قرناء السوء" [6]. ويضيف في موقع آخر قائلاً "إذ الطبع يسرق من الطبع الخير والشر جميعاً" [7].

---

(1) رواه البخاري، كتاب العلم، باب الحياء في العلم، حديث رقم128.

(2) رواه أحمد في مسند المكثرين، باب باقي المسند، حديث رقم8065.

(3) كشف الخفاء ومزيل الإلباس للعجلوني، ج2، ص225.

(4) كشف الخفاء ومزيل الإلباس للعجلوني، ج1، ص319.

(5) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب صحبة المؤمن، حديث رقم2318.

(6) الغزالي، الإحياء، ج3، ص73.

(7) المرجع السابق، ج3، ص60.

وتتفاوت الاهتمامات الاجتماعية بين أفراد الجنسين بصورة واضحة، بحيث يُعنى الولد الذكر بمتابعة ما يجري بين أوساط الشباب، فيما تميل البنت إلى ما يجري في أوساط البنات. وهنا يستحب أن يدرب الأب ابنه على مجالسة الرجال ويشجعه على إبداء الرأي بجرأة وشجاعة. ويستحب أن تصحب الأم ابنتها إلى مجالس النساء كي تكتسب الخبرة، وأن تشجعها على قول رأيها، وأن تنمي لديها الثقة بالنفس. كما يستحب أن يشرك الوالدان الابن (أو البنت) في مسؤولية البيت وأن يكلفانه ببعض المسؤوليات المنزلية بالتدريج حتى يتولد لديه الشعور بالمسؤولية والثقة بالنفس وبالآخرين. كما ينبغي تعويده على طاعة الكبار واحترامهم، عملاً بقوله صلى الله عليه وسلم "لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيَعْرِفْ شَرَفَ كَبِيرِنَا" [(1)]، وتعويده على الشفقة على الضعفاء والحيوانات.

وتعدّ هذه المرحلة مرحلة كمون جنسي وتوجُّه نحو أفراد الجنس نفسه، وتجدُّد في طرح الأسئلة الجنسية. وقد يمارس الولد فيها نشاطات جنسية غير مقبولة. ولا شك أن عصرنا الحالي زاخر بالمثيرات المتنوعة التي من شأنها إثارة الأولاد، لذا كان لزاماً على الوالدين مراقبة ما يشاهده أبناؤهم من برامج تلفزيونية وفضائيات ومواقع على الإنترنت، وما يقرأون من قصص ومجلات، وتبصيرهم بالعقوبة المترتبة على العبث بأعضائهم التناسلية. فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولا يجمعهم مع العالمين، يدخلهم النار أول الداخلين إلا أن يتوبوا إلا أن يتوبوا، فمن تاب تاب الله عليه الناكح يده و..." [(2)].

ثانياً- مرحلة البلوغ:

يختلف المربون في تحديد بداية مرحلة البلوغ ونهايتها، نظراً لاختلاف الجنس والعوامل الوراثية وعوامل البيئة الجغرافية الطبيعية. ويقصد بالبلوغ النضج الجنسي الذي ينقل الفرد من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الرشد. ويحدِّد بعض علماء الشريعة بداية البلوغ في بداية سن العاشرة أو في منتصفها للذكور، وفي بداية التاسعة أو في منتصفها للإناث [(3)]. أما بالنسبة للحدِّ الأعلى للبلوغ فقد اختلف فيه. فقد حدده أبو حنفية في تسع عشرة أو ثماني عشرة للذكور وسبع عشرة للإناث. وذهب أكثر المالكية إلى سبع عشرة

---

(1) رواه الترمذي في كتاب الأدب، باب رحمة الصبيان، حديث رقم1843.

(2) كنز العمال للمتقي الهندي، حديث رقم 44040، ج16، ص90.

(3) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، 205/6كتاب الشهادات.

أو ثماني عشرة. أما الشافعي وأحمد والجمهور فقد رأوا الحدَّ في اكتمال البلـوغ خمـس عشرة سنة، واستشهدوا بحديث ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه لما عُرِض على رسول الله وَهُوَ ابْنُ أَرْبَـعَ عَشْرَةَ سَنَةً فَلَمْ يُجِزه، ثُمَّ لَما عَرَضَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ وَهوَ ابْنُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً أَجَازَه" [1].

وتشهد هذه المرحلة تطوّراً كبيراً في جميع مظاهر النمو. فمن الناحية الجسمية والفسيولوجية يزداد طول الجسم ويزداد وزنه زيادة ملحوظة، وتضمر غدتا الطفولة وتنشط الغدة النخامية وتبدأ بإفراز الهرمونات الجنسية. ويصبح البالغ (المراهق) قادراً على إفراز الحيوانات المنوية. وتبدأ لدى البنات العادة الشهرية وتظهر لديهن الخصائص الجنسية الثانوية. وعليه، يتعين على الوالدين حثّ أبنائهم على الاعتناء بنظافة أجسامهم وتعليمهم أحكام الطهارة والحيض. وببلوغ المراهقة تكلَّف البنات بارتداء الزي الإسلامي، عملاً بقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)[2]، وتصديقاً لما روته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وَعَلَيْهَا ثِيَابٌ رِقَاقٌ فَأَعْرَضَ عَنْهَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَقَالَ "يَا أَسْمَاءُ إِنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا بَلَغَتْ الْمَحِيضَ لَمْ تَصْلُحْ أَنْ يُرَى مِنْهَا إِلاَّ هَذَا وَهَذَا وَأَشَارَ إِلَى وَجْهِهِ وَكَفَّيْهِ" [3].

وقد حرص الإسلام على تهذيب الطاقة الجنسية بتحديد العلاقات بين أفراد الجنسين. فمن آداب النظر أن يغض المؤمن نظره، عملاً بقوله تعالى: (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (30) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ)[4]. ومن آداب الدخول إلي المنزل الاستئذان في العورات الثلاث، عملاً بقوله تعالى: (وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) [5]. ومن آداب الإسلام عدم الخلوة

(1) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب بلوغ الصبيان شهاداتهم، حديث رقم2470.

(2) الأحزاب، 59.

(3) رواه أبو داود في كتاب اللباس، باب فيما تبدي المرأة من زينتها، حديث رقم3580.

(4) النور، 03.

(5) النور، 59.

بالنساء، عملاً بقوله صلى الله عليه وسلم "لا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلاَّ وَمَعَهَا ذُو مَحْرَمٍ"[1]، وقال صلى الله عليه وسلم "لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان "[2].

ويميل المراهق نحو أفراد الجنس الآخر. وقد تنشأ جرّاء ذلك ممارسات جنسية محرمة، لذا يتعين على الوالدين توجيه أولادهم نحو الالتزام بتعاليم الدين الحنيف وتجنب حدود الله وتبيان عقوبة الزنا، قال تعالى:(الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) [3]. وقال صلى الله عليه وسلم "إن الزناة يأتون تشتعل وجوههم ناراً"[4]. وقال صلى الله عليه وسلم "مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ"[5]. وفي نهاية هذه المرحلة يستحب أن يوجه الأولاد إلى الصوم لتسكين الشهوة، عملاً بقوله صلى الله عليه وسلم "يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ"[6].

هذا وينبغي اتخاذ كافة التدابير الوقائية لتجنيب الولد الهياج الجنسي للحيلولة دون حدوث الأمراض النفسية والعصبية. ومن هذه التدابير ما ورد في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ)[7]. وعلى المربين توجيه المراهقين إلى الألعاب الرياضية والندوات الثقافية والدينية والعلمية الهادفة وإشغال أوقات فراغهم بالأعمال النافعة.

ونتيجة للنمو الجسمي المفاجئ والتغيرات الجنسية، يتعرض المراهق للصراع النفسي والتذبذب في المزاج بين التدين والكفر، والغيرة والأنانية، والحب والكره. كما تظهر نوبات من الغضب طويلة المدى، وتكثر أحلام اليقظة وتطول. وتظهر بعض المخاوف المتعلقة بالنمو الجسمي والاجتماعي والمهني. وقد تنعكس هذه المخاوف على

---

(1) رواه مسلم في كتاب الحج، باب سفر المرأة مع المحرم، حديث رقم2391.

(2) رواه الترمذي، كتاب الفتن عن رسول الله، باب ما جاء في لزوم الجماعة، حديث رقم 2091، قال أبو عيسى حديث حسن صحيح.

(3) النور، 2.

(4) رواه الطبراني/ كنز العمال للمتقي الهندي، حديث رقم 13004، ج5، ص315.

(5) رواه أبو داود، كتاب الحدود، باب فيمن عمل قوم لوط، حديث رقم3869.

(6) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب من لم يستطع الباءة فليصم، حديث رقم4678.

(7) النور، 58.

شكل قلق وخجل واكتئاب. ولا شك أن عبادة الله تبعث في النفس الطمأنينة، وتحررها من القلق والمخاوف، وتساعد في حل المشكـلات، قال تعالى: (الَّذِينَ آَمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)[1]، وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا)[2]، وقال سبحانه: (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ)[3]، وقال سبحانـه:(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّـهَ يَجْعَـلْ لَـهُ مِـنْ أَمْـرِهِ يُسْـرًا)[4]. وقـال تعالى: (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آَمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) وهكـذا يمكـن القـول بـأن تقوى الله وعبادته طريق الإيمان والأمـن النفسيـ، وهـو هبـة الله تعـين الإنسـان للوصـول إلى السعادة الدنيوية والأخروية.

والحياء شعبة من شعب الإيمان. ويقتضي الحياء من الله الامتناع عن فعل الرذيلة، والحياء من الناس، والحياء من الذات، لذا كان لابد من تنمية الحياء عند البالغ، يقول الغزالي بهذا الشأن "ومهما رأى المربي فيه مخايل التمييز فينبغي أن يحسن مراقبته وأول ذلك ظهوراً أوائل الحياء، فإنه إذا كان يحتشم ويستغني ويترك بعض الأفعال، فليس ذلك إلا لإشراق نور العقل عليه، حتى يرى بعض الأشياء قبيحاً ومخالفاً للبعض، فصار يستحي من شيء دون شيء، وهذه هدية من الله تعالى، وبشارة تدل على اعتدال الأخلاق وصفاء القلب، وهو مبشّر بكمال العقل عند البلوغ. فالصبي المستحي لا ينبغي أن يهمل، بل يستعان على تأديبه بحيائه أو تمييزه"[5].

وينصح المربي بعدم كثرة اللوم لأي فعل بسيط يظهـر مـن البـالغ، فالمبالغـة في اللـوم تجعله لا يبالي بالحياء، لذلك ينبغي الاقتداء بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الذي كان لا يكاشف المخطئ أمام الناس بل يشنع الفعل الخاطئ دون تحديد صاحبه.

ونتيجة للنمو الجسمي المفاجئ والمطّرد، يشعر المراهق بشيء من عدم الاتزان الحركي، لذلك ينبغي تشجيعه على الاشتراك في الأنشطة الرياضـية المختلفـة. وتظهـر في هـذه المرحلـة "أزمة الهوية" حيث يبحث المراهق عن إجابات لأسئلة من مثل "من أنا" "وما

(1) الرعد، 28.

(2) الأنفال، 29.

(3) الطلاق، 2-3.

(4) البقرة، 257.

(5) الغزالي، الإحياء، ج3، ص72.

دوري في المجتمع" وما سأكون عليه في المستقبل"، لذلك ينبغي على الوالدين والمربين توجيه أسئلة للمراهق حول مستقبله وما يجب أن يكون عليه في المستقبل في ضوء قدراته وميوله واستعداداته.

وفي هذه المرحلة، يصبح المراهق قادراً على إدراك المفاهيم المجردة وعلى إدراك مفهوم الفرض، وعلى التفكير العلمي والاستنتاجي والاستقرائي. ويصبح قادراً على وضع الاحتمالات الممكنة لحل المشكلة. كما تطول مدة انتباهه، مما قد يحدو بالبعض إلى السَّرَحان وأحلام اليقظة، لذا ينبغي أن يستخدم المربون الأساليب التعليمية المتنوعة لجلب انتباههم. كما ينبغي تشجيعهم على شراء الكتب الهادفة متنوعة الموضوعات لتسهم في تنمية شخصية متوازنة من كافة الجوانب.

ويغلب على السلوك الاجتماعي للمراهق التأثر بمعايير الجماعة والإعجاب بالبطل والعمل على تقليده، والرغبة في الظهور بصورة جذابة اجتماعياً، والتمرد والعصيان، والرغبة في الاستقلال عن الأسرة، والتمرد على بعض الأنظمة والقيم الاجتماعية. ويتعين على الوالدين مساعدة أبنائهم على تخطي هذه المرحلة بأمان واقتدار -نظراً لأهميتها وخطورتها- وذلك بتقبل نموهم وتكليفهم ببعض المسؤوليات التي تتناسب وقدراتهم، وتجنب معاملتهم على أنهم أطفال، ومساعدتهم على اختيار أصدقاء صالحين، ومناقشتهم بخصوص مستقبلهم في جوّ من المودة والثقة المتبادلة وأن يكونوا هم أنفسهم قدوة صالحة لأبنائهم في أقوالهم وأفعالهم.

هذا ويولي الإسلام عناية خاصة بالأيتام الذين فقدوا مصدر الرعاية الوالدية. فأمر بفحص كفاءتهم وقدرتهم على تحمل المسؤولية الاقتصادية بعد البلوغ، فإن أثبتوا القدرة والكفاءة تدفع إليهم أموالهم بوجود شهود على ذلك، قال تعالى:(وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا)[1].

وفي نهاية هذه المرحلة ينبغي على الوالدين مساعدة أبنائهم على اختيار الزوج المناسب وتقديم المعلومات الكافية عن متطلبات الحياة الزوجية وحقوقها وتربية الأبناء تربية إسلامية. وقد حرص الإسلام على الزواج المبكر لأنه أغض للبصر وأحفظ للفرج.

---

(1) النساء، 6.

هذا ومن الجدير بالذكر أن الإسلام كان قد بيَّن كيفية اختيار الزوجين لبعضهما بعضاً قبل الزواج حتى يكون بناؤه صلباً، ينعم في ظله الزوجان بالمودة والسعادة ويكون من ثماره الذرية الصالحة. ومن هذه الأسس الشرعية ما يتعلق باختيار الزوجة الصالحة والزوج الصالح والرضا الزواجي. فما من شك بأن حسن الاختيار له دور حاسم في مستقبل الحياة الزوجية واستقرارها وأمن الأسرة وسلامة النسل. وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله "تَخَيَّرُوا لِنُطَفِكُمْ وَانْكِحُوا الأَكْفَاءَ وَأَنْكِحُوا إِلَيْهِمْ" [1]. وفي مجال اختيار الزوجة الصالحة، قال تعالى:(وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ) [2]، وقال رسول صلى الله عليه وسلم " تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لأَرْبَعٍ لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَلِجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ" [3]. وفي ذلك توجيه للمقبلين على الزواج لاختيار الزوجة على أساس الدين، دون المعايير الأخرى من مال وحسب وجمال، حتى تبنى الأسرة على أسس متينة.

كما أكدت الشريعة الإسلامية على اختيار الوراثة الجيدة للطفل، فقد قال عمر بن الخطاب لجماعة من بني السائب، لاحظ ضعف ذريتهم "يا بني السائب قد أضويتم فانكحوا في الغرائب" [4]. كما حث الإسلام على اختيار الأبكار، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "عَلَيْكُمْ بِالأَبْكَارِ، فَإِنَّهُنَّ أَعْذَبُ أَفْوَاهًا، وَأَنْتَقُ أَرْحَامًا، وَأَرْضَى بِالْيَسِيرِ" [5]. كما فضل الإسلام الزواج بالمرأة الولود حفاظاً على النسل، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوَلُودَ فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمْ الأُمَمَ" [6].

وقد أولى الإسلام سن كل من الوالدين اهتماماً واضحاً، نظراً للدور الذي يلعبه في تحديد قدرات الطفل وخصائصه، فأشار الماوردي "في كتابه أدب الدنيا والدين" إلى أن أنجب الأولاد خَلقاً وخُلقاً من كان سن أمه بين العشرين والثلاثين وسن أبيه بين الثلاثين والخمسين. وهكذا حرص الإسلام على بناء الأسرة السعيدة، التي يتمتع أبناؤها بشخصيات متكاملة متوازنة، فأصدر رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً من الوصايا والتوجيهات

---

(1) أخرجه ابن ماجة والحاكم وصححه السيوطي في الجامع الصغير، كتاب النكاح، باب الأكفاء، حديث رقم1958.

(2) البقرة، 221.

(3) رواه مسلم، كتاب الرضاع، باب استحباب نكاح ذات الدين، حديث رقم2661.

(4) انظر: الماوردي، أدب الدنيا والدين.

(5) رواه ابن ماجة، كتاب النكاح، باب تزويج الأبكار، حديث رقم1851.

(6) سنن أبي داود، كتاب النكاح، باب النهي عن تزويج من لم يلد من النساء، حديث رقم1754.

للراغبين في الزواج تضمن لهم بناء البيت السعيد والأسرة المتحابة، فمنها قوله صلى الله عليه وسلم "مَا اسْتَفَادَ الْمُؤْمِنُ بَعْدَ تَقْوَى اللَّهِ خَيْرًا لَهُ مِنْ زَوْجَةٍ صَالِحَةٍ، إِنْ أَمَرَهَا أَطَاعَتْهُ، وَإِنْ نَظَرَ إِلَيْهَا سَرَّتْهُ، وَإِنْ أَقْسَمَ عَلَيْهَا أَبَرَّتْهُ، وَإِنْ غَابَ عَنْهَا نَصَحَتْهُ فِي نَفْسِهَا وَمَالِهِ" [1].

ولم يقف الإسلام عند هذا الحدّ، بل واصل رعايته لها، فأوصى كلاً من الزوج والزوجة بحسن المعاشرة وأوصى الزوج بأن يرفق بزوجته، ويحترمها، قال رسول صلى الله عليه وسلم "خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لأَهْلِي" [2]. كما أوصى الإسلام الزوجة باحترام زوجها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حق الزوج على زوجته "لَوْ كُنْتُ آمِرًا بَشَرًا يَسْجُدُ لِبَشَرٍ لأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا"[3]. كل ذلك حتى ينشأ الأبناء على الفطرة السوية القويمة في أسرة متحابة متماسكة، فيسعد الآباء ويسعد الأبناء.

ثالثاً- مرحلة الأشد (الرشد):

تبدأ مرحلة الأشد (الرشد) في الثامنة عشرة، كما حدَّدها ابن عباس [4]، استشهاداً بقوله تعالى: (وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ)[5]. فالأشد يعني بداية بلوغ الرجولة والقوة الجسمية والعقلية. وتنتهي هذه المرحلة في الأربعين، قال تعالى: (شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ)[6]. ويمكن تسمية هذه المرحلة أيضاً بمرحلة الشباب، مصداقاً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم "يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ" [7].

وقد عبَّر سيدنا عمر بن الخطاب عن هذه المرحلة بقوله "وينتهي طوله في ثلاث وعشرين، وعقله في خمس وثلاثين"، وهذا يدل على وصول المرء مرحلة الرجولة وما يترتب عليها من مسؤوليات. وفي بداية مرحلة الأشد يكون النمو الجسمي والجنسي قد اكتمل من كافة الوجوه. ويحقق الراشد (الشاب) الإشباع الجنسي وفق المنهج الإسلامي عن طريق الإنجاب. كما يتمتع بالهدوء والاستقرار النفسي والانفعالي، ويقيم علاقات

---

(1) رواه ابن ماجة، كتاب النكاح، باب أفضل النساء، حديث رقم1847.

(2) رواه الترمذي، كتاب المناقب عن رسول الله، باب فضل أزواج النبي، حديث رقم 3830، قال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب صحيح.

(3) رواه أحمد، مسند الأنصار، حديث معاذ بن جبل، حديث رقم20983.

(4) الجامع لأحكام القرآن 194/16.

(5) النساء، 6.

(6) الأحقاف، 15.

(7) سبق تخريجه.

اجتماعية طيبة مع الأطفال والأهل والأصدقاء والآخرين. فيحترم الوالدين ويبرهما عملاً بقوله تعالى: (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْكِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (23) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا)[1]. وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم "مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُمَدَّ لَهُ فِي عُمْرِهِ وَيُزَادَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، فَلْيَبَرَّ وَالِدَيْهِ وَلْيَصِلْ رَحِمَهُ" [2]. كما أمر الإسلام باحترام الجار، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "وَخَيْرُ الْجِيرَانِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ" [3].

وتتكامل في مرحلة الأشد العمليات العقلية. وقد عني الإسلام بالتربية العقلية وكسب العلوم والمعرفة، فحثّ القرآن الكريم في كثير من المواضع على التأمل والتفكير وإدراك حقائق الكون والنفس، ومن ذلك قوله تعالى: (أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ)[4]، وقوله تعالى:(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) [5]. وقد خاطب القرآن العقل ليدله على وجود الله وأنكر على أولئك الذين لا يستخدمون عقولهم في التفكير والتدبر: (وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ)[6]. وقد وردت كلمتا "يعقلون" و"تعقلون" في القرآن الكريم (46) مرة، وكلمتا "يتفكرون وتتفكرون" (14) مرة، وكلمة "يفقهون" (13) مرة وكلمة "أولي الألباب" (16) مرة [7]، كلها جاءت لإعمال الفكر ومخاطبة العقلاء واستنكار الذي لا يستخدمون العقل في تدبر آيات الله في الكون والنفس، فبالعقل ندرك العبر، قال تعالى(تِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ)[8]. وإعمال العقل يجنِّبنا المهالك وسوء العاقبة، قال تعالى: (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)[9]، وبالعقل نميز طريق الخير والشر، قال تعالى: (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ

---

(1) الإسراء، 23-24.

(2) رواه أحمد في مسند المكثرين، باب باقي المسند، حديث رقم 13309.

(3) رواه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب حق الجوار، حديث رقم1867.

(4) الأعراف، 185.

(5) الذاريات، 21.

(6) الأعراف، 179.

(7) محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

(8) العنكبوت، 43.

(9) الملك، 10.

اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ)[1]. والإسلام لا يعنى بحثّ العقل على التفكير السليم فحسب، بل بالتطبيق العملي كذلك، قال تعالى(أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ)[2]. كما نهى عن استخدام العقل في الوجوه غير المشروعة، قال تعالى: (يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ)[3]. وقد مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم العقل الناقد المتحرر بقوله "إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات"[4]. ويحث الحسن بن علي على النقد الذاتي، بقوله "من لم يتفقد النقصان عن نفسه فهو في نقصانه، ومن كان في نقصانه فالموت خير له"[5].

وفي هذه المرحلة، يميل بعض الشباب إلى مواصلة التعلم، فينبغي تشجيعهم وتوفير الجو المناسب لهم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "الْعُلَمَاءُ هُمْ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ"[6]، وقال صلى الله عليه وسلم "إِنَّ الْمَلائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ"[7]، وقال صلى الله عليه وسلم "مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ"[8]. ويميل بعض الشباب إلى التوجه نحو مهنة معينة. وعليه، ينبغي توجيههم إلى إتقان عملهم، عملاً بقوله رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه"[9]. كما ينبغي الالتزام بالقيم الإسلامية كالصدق والأمانة والإخلاص في العمل وإتقانه والابتعاد عن الربح الفاحش.

---

(1) الأنفال، 22.

(2) البقرة، 44.

(3) البقرة، 75.

(4) انظر ابن تيمية، الفتاوى، أصول الفقه، ج2، ص58.

(5) كنز العمال للمتقي الهندي، ج16، ص214.

(6) رواه الدارمي، كتاب المقدمة، باب في فضل العلم والعالم، حديث رقم346.

(7) رواه الترمذي، كتاب العلم، باب فضل الفقه على العبادة، حديث رقم 2606.

(8) رواه ابن ماجة، كتاب مقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، حديث رقم219.

(9) رواه الطبراني عن عائشة رضي الله عنها/ كنز العمال للمتقي الهندي، حديث رقم 9128، ج3، ص907؛ انظر أيضاً: مجمع الزوائد للهيثمي، كتاب البيوع، باب نصح الأجير وإتقان العمل، ج4، ص101.

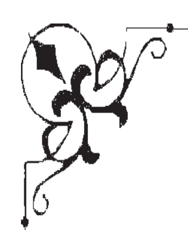
خلاصة

ينظر الإسلام للتطوّر على أنه لا يحدث فجأة؛ بل تدريجياً وبصورة مستمرة. وقبل الحديث عن مراحل تطوّر الشخصية، تعرَّض الفصل إلى حقيقة هامة ينفرد القرآن الكريم في تبيانها هي مراحل خلق الإنسان. فقد كانت أولى مراحل خلق الإنسان هي مرحلة خلق آدم عليه السلام من طين، أي من غير زواج سابق. كما أن خلقه لم يتضمن انتقاله من مرحلة تطوّرية إلى أخرى، بل تمَّ دفعة واحدة، وكذا الحال بالنسبة إلى خلق حواء، فقد خلقها الله من ضلع من أضلاع آدم. أما المرحلة الثانية للخلق فهي مرحلة الخلق الناتج عن التزاوج. بعد ذلك، تم استعراض مراحل تطوّر الشخصية بدءاً من مرحلة الطفولة التي تمتد من الولادة حتى البلوغ. فبعد الولادة، يستحب الأذان والإقامة في أذني المولود، وأن يعق له وأن يختن. وتنتهي فترة الرضاعة بالفطام التدريجي. وتشهد هذه المرحلة تطوّراً ملحوظاً في المظاهر الجسمية؛ فيزيد الطول والوزن، وتنمو العضلات الدقيقة، وتزداد العظام صلابة، وتكثر الأسئلة، لذا يتعين على الوالدين تعريف الطفل بالله وبإطاعته. كما أن عليهم غرس العادات المستحبة في الطعام والشراب والملبس لديه ومنحه العطف والحنان دون الإسراف فيهما.

أما في مرحلة الطفولة المتوسطة والمتأخرة، فيتم التأديب وتلقي العلم. وتشهد تطوّراً جسمياً وعقلياً واجتماعياً وانفعالياً. وتظهر الفروق الجسمية بين الأولاد والبنات واضحة بعد سن التاسعة. لذا يتعين على الوالدين تعويد الأبناء على ارتداء ما يناسبهم من الملابس، وإكسابهم القيم الإسلامية من تعاون واحترام وصبر وعطاء.. كما ينبغي تعليمهم القرآن الكريم والشعر والرمي والسباحة والفروسية، وتكليفهم ببعض المسؤوليات تدريجياً.

وتشهد مرحلة البلوغ تطوّراً واسعاً في جميع مظاهر النمو؛ فيزداد الطول والوزن وتضمر غدتا الطفولة وتنمو الغدد الجنسية وتظهر الخصائص الجنسية الثانوية. وبالبلوغ تكلَّف الفتاة بارتداء الزي الإسلامي وبالصلاة والصوم. وقد حرص الإسلام على اتخاذ كافة التدابير والعوامل الوقائية لتجنيب الأبناء – في هذه المرحلة- الهياج الجنسي. ويصبح الفرد قادراً على التفكير العلمي الاستقرائي والاستنباطي وعلى التفكير المجرد. ويغلب على سلوكه التأثر بمعايير الجماعة(الرفاق). وفي نهاية المرحلة يختار شريك حياته.

وتعدُّ مرحلة الشباب مرحلة العطاء وبناء الأسرة السعيدة والتربية الصالحة للأبناء واختيار المهنة المناسبة للقدرات والميول وإتقان العمل. وهكذا فقد رسم الإسلام الطريق الصحيح لبناء الإنسان الذي يتمتع بشخصية متكاملة من كافة جوانبها بحيث يصبح لبنة قوية متماسكة في المجتمع الإسلامي.



الفصل الرابع

الدافعيــة

- مقدمة
- أنواع الدوافع
- الصراع بين الدوافع
- تنظيم إشباع الدوافع
- الرؤية القرآنية لتفاعل النفس مع زينة الحياة الدنيا





الفصل الرابع

الدافعيــة

مقدمة

تحظى الدوافع بأهمية خاصة في الشخصية الإنسانية، إذ تقتضي دراسة السلوك الإنساني التعرّف إلى الدوافع التي تستثيره وتحديدها. فقد اقتضت حكمة الله سبحانه أن جُعلت في الإنسان دوافع تؤزه أزاً إلى ما فيه بقاؤه وقوامه، وترد عليه دون اختياره أو استدعائه، فجعل سبحانه لكل سلوك محركاً من نفس طبيعته ليحركه؛ فالجوع يستحث الأكل ويطلبه، لما فيه من قوام البدن وحياته ومماته، والنعاس يقتضي النوم ويستحثه، لما فيه من راحة البدن وعودته إلى قوته ... وهكذا فإن السلوك الإنساني مدفوع، وقد أكدّ الإسلام ذلك. فقد روي عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّـابِ رضي الله عنه أنه قَالَ "سَمِعْـتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يقول "إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ" [1]. أي أن كل عمل يقوم به الإنسان يكون مسبوقاً بنيَّة توجهه لتحقيق هدف أو غاية.

ويفرّق توفيق [2] بين النّية والدافع؛ فالنية هي عزم القلب وميلـه وتوجهـه لعمـل مـن الأعمال، أما الدافع فهو المحرِّك الذي يثير النيّة ويبعثها. وهكذا يمكن القول بأن الدافع محـرك (قد يكون داخلياً أو خارجياً) يثير النيَّة، والنية بدورها، توجِّه السلوك الوجهة المطلوبة.

ويشير الماوردي إلى العلاقة بين الحاجة والدافع والسلوك، بقوله "ولما خلق الله الإنسان ماسّ الحاجة، ظاهر العجز، جعل لنيل حاجته أسباباً، ولدفع عجزه حيلاً دلّه عليها بالعقل وأرشده إليها بالفطنة"... ويحدد مفهوم الحاجة بما يدعو إلى خفض الدافع، ويؤكد ضرورة إشباعها حفظاً للذات، يقول "فأما الحاجة فتدعو إلى ما سدّ الجوع، وسكن الظمأ. وهذا مندوب إليه عقلاً وشرعاً لما فيه من حفظ النفس وحراسة الجسد... وليس لمن منع نفسه قدر الحاجة، حظ من برٍّ ولا نصيب من زهد" [3].

(1) رواه البخاري في كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي، حديث رقم1.

(2) محمد عز الدين توفيق، التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية.

(3) الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص116، 319.

وفي كتاب " الصحة النفسية في ضوء علم النفس والإسلام"، يعرّف مرسي ومحمد "الحاجة" على أنها "مفهوم فرضي يدل على حال من عدم الاتزان الداخلي-بسبب نقص مادي أو معنوي- تؤدي إلى توتر وإثارة للإنسان تدفعه إلى النشاط والاستمرار فيه، حتى يحصل على ما ينقصه ويشبع حاجته فيعود إلى توازنه. أما "الدافع" فمفهوم فرضي يدل على حالة الإثارة الملحة الناتجة عن وجود نقص فسيولوجي أو نفسي -تدفع الإنسان إلى النشاط وبذل الجهد حتى يسدّ النقص وتشبع الحاجة- فينخفض التوتر ويعود الاتزان الداخلي" [1]. ففي حال الجوع مثلاً، فإن نقص نسبة السكر في الدم يمثل الحاجة، فيما يكون الجوع دافعاً يحرك السلوك للبحث عن الطعام، ويوجهه الوجهة الصحيحة، ويحافظ على استدامته حتى تشبع الحاجة ويخفض الدافع. وللدوافع صفة دورية؛ فبعد مرور فترة محدودة من الشّبع تعاود الحاجة إلى الظهور فيندفع المرء إلى إشباعها باحثاً عن الطعام من جديد وهكذا.

ويشير ابن مسكويه في كتابه "تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق "إلى أن قوة الدافع ترتبط بزمن ظهوره. فالدوافع التي تظهر في بداية حياة الإنسان تكون أقوى من غيرها"[2]. ويرى الغزالي أن الدافع إلى الطعام أقدم الدوافع وجوداً وأشدها تمكناً في النفس، يليه دافع الجنس. أما بقية الدوافع فتليهما في الأهمية. وفي ذلك يقول "إن الدافع إلى الطعام فيه منفعة وفيه مضرة، وهو أصعب إصلاحاً من غيره من الدوافع لأنه أقدمها وجودا وأشدها تمكناً في النفس" [3]، ويضيف "أعظم المهلكات لابن آدم شهوة البطن، فبها خرج آدم عليه السلام وحواء من دار القرار إلى دار الذل والافتقار، إذ نهيا عن الشجرة فغلبتهما شهواتهما حتى أكلا منها فبدت لهما سؤاتهما. والبطن على التحقيق ينبوع الشهوات ومنبت الأدواء والآفات" [4] ... ثم يظهر دافع الجنس، فهو ألصق ببقاء الحياة، وكل ما سواها فهو تبع لها. وفي مكان آخر من "الإحياء". يقول الغزالي "أما الإنسان فإنه خلق في ابتداء الصبا ناقصاً مثل البهيمة، لم يخلق فيه إلا شهوة الغذاء الذي هو محتاج إليه، ثم تظهر شهوة اللعب والزينة، ثم شهوة النكاح، على الترتيب. ثم يظهر فيه مميزاً عن البهائم العقل والإرادة والقدرة على دفع الشهوات" [5].

---

(1) مرسي ومحمد، الصحة النفسية في ضوء علم النفس والإسلام، ص 67.

(2) ابن مسكويه، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، ص 47.

(3) أبو حامد الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، ص 84.

(4) الغزالي، الإحياء، ج4، ص 77.

(5) الغزالي، الإحياء، ج3، ص 62.

وهكذا يمكن القول بأن الغزالي ينظر إلى أن الدوافع الإنسانية مرتبة ترتيباً هرمياً في ضوء أقدمية وجودها وأولوية إشباعها. ففي قاع الهرم يقع دافع الجوع، يعلوه دافع الجنس، فيما تقع بقية الدوافع الإنسانية في المرتبة الثالثة، وفي ذلك يقول الغزالي في الإحياء "ومهما أحب الإنسان شهوة البطن والفرج وأنس بهما أحب الدنيا ولم يتمكن منها إلا بالمال والجاه. وإذا طلب المال والجاه حدث فيه الكبر والعجب والرياسة. وإذا ظهر ذلك لم تسمح له نفسه بترك الدنيا رأساً وتمسك من الدين بما فيه الرياسة وغلب عليه الغرور"[1]. هذا وسيعرض الفصل الحالي أنواع الدوافع، والصراع بينها، وانحرافها، وتنظيم إشباعها.

- **أنواع الدوافع**

تعددت تصنيفات الدوافع الإنسانية، وقد أجمل الغزالي في "إحياء علوم الدين" [2]. هذه التصنيفات للدوافع على النحو التالي :

1. **التصنيف على أساس الطبيعة الخلقية للإنسان**، وبناء على ذلك تمّ تصنيف الدوافع إلى دوافع ربوبية (وينتج عنها العلم والحكمة واليقين بمقابل حب المدح والكبر والاستعلاء)، ودوافع شيطانية (وتتكون من اجتماع الغضب مع الشهوة، وتتصل بها صفات أخلاقية كالحيلة والمكر والخديعة)، ودوافع بهيمية (كالشره والحرص على قضاء الشهوة، وتتصل بها صفات أخلاقية كالتبذير والتقتير والجشع والمجون والخبث)، ودوافع سبعية أو غضبية (كالعداوة والبغضاء، وتتصل بها صفات أخلاقية كالغضب والتهجم على الآخرين).
2. **التصنيف على أساس القصد أو الهدف الإنساني**، وبناء على ذلك تصنف الدوافع إلى دوافع دينية كتلك التي تقترب من سلوك الملائكة وتبعث على الطاعات والحياة الصالحة (كالخوف من الله والرّجاء في حبه وشكره والتوكل عليه)، ودوافع الهوى كتلك التي تقترب من سلوك الحيوان ويقال لها أحياناً النفس الأمارة بالسوء (كالغضب وحب الشهوات من مال وجنس وخيل وذهب وفضة).
3. **التصنيف على أساس حب البقاء عند الإنسان**، وبناء على ذلك تصنف الدوافع إلى دوافع فردية يقوم عليها البقاء (كالميل إلى الطعام والشراب والجنس وتتفرع عنها

(1) الغزالي، الإحياء، ج3، ص 76.

(2) الغزالي، الإحياء، ج4، ص 16-295؛ ج3، ص 10-85.

دوافع التملك وحب الحياة والجاه)، ودوافع اجتماعية تتصل بالعائلة والعشيرة والأصدقاء والمجتمع الإنساني الواسع (كالانتماء والتعاون والتكافل)، ودوافع عالية (كحب الخير والدوافع الدينية والجمالية) وهي أبعد الدوافع عن حب البقاء لأن الإنسان فيها يميل إلى الشيء بذاته، لا إلى ما يطلب منه.

هذا ويرى زريق في كتابه "علم النفس الإسلامي" وجود دافع أساسي واحد عند الإنسان هو دافع حب الحياة، يتفرع عنه نوعان من الدوافع هما دوافع حفظ الذات (كالدافع إلى الطعام) ودوافع حفظ النوع(كدافع الجنس). وهناك دوافع ثانوية يتفرع عنها نوعان من الدوافع هما دوافع فردية(كالتملك والسيطرة) ودوافع اجتماعية (كالتعاون والتشاور).

أما نجاتي فيصنف في كتابه "القرآن وعلم النفس" الدوافع الإنسانية في ثلاثة أنواع: دوافع فسيولوجية (تتفرع عنها دوافع حفظ الذات ودوافع بقاء النوع) ودوافع نفسية(تتفرع عنها دوافع التملك والعدوان والتنافس والتدين) ودوافع لا شعورية.

ويصنف القاضي ويالجن في كتابهما "علم النفس التربوي في الإسلام" الدوافع حسب مصدرها إلى ثلاثة أنواع هي دوافع بيولوجية مادية (وتضم دوافع التغذي والتناسل وحماية النفس) ودوافع نفسية روحية (وتضم دافع التقديس والدافع الأدبي والأخلاقي، ودافع الاستطلاع والمعرفة) ودوافع بيولوجية ونفسية معاً (وتضم دوافع إنسانية شيطانية كالتعالي والتكبر، ودوافع إنسانية ملائكية كاستعلاء دافع التقديس والتعبد لله، ودوافع إنسانية خاصة كنكران النعمة وكثرة الجدال والخصومة).

وبعد استعراض التصنيفات الأخرى للدوافع، فإننا نرى تصنيف الدوافع في خمسة أنواع هي دوافع فسيولوجية ودوافع دينية ودوافع نفسية ودوافع اجتماعية ودوافع لا شعورية، وفيما يلي عرض لكل نوع منها على حدة :

- **الدوافع الفسيولوجية**

وهي دوافع فطرية، ناشئة عن خلل فسيولوجي (كالخلل في الاتزان العضوي والكيماوي من مثل نقص الأكسجين في الدم أو نقص الماء في أنسجة الجسم) يرافقه توتر داخلي يدفع الإنسان لخفضه (أي التوتر) من خلال القيام بسلوكات تهدف إلى إشباع الحاجة (أي الخلل الفسيولوجي). والدوافع الفسيولوجية ضرورية لحفظ الذات، فهي مستمرة باستمرار حياته. كما أنها ضرورية لحفظ النوع الإنساني من الانقراض. فالدوافع

خلقت لفائدة، وهي ضرورية في الجبلة. فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان، ولو انقطعت شهوة الوقاع لانقطع النسل.

يقول ابن تيمية "والله تعالى خلق في النفوس حب الغذاء وحب النساء لما في ذلك من حفظ الأبدان، وبقاء الإنسان. فإنه لولا حب الغذاء لما أكل الناس ففسدت أبدانهم، ولولا حب النساء لما تزوجوا فانقطع النسل. والمقصود بوجود ذلك بقاء كل منهم ليعبدوا الله وحده؛ ويكون هو المحبوب المعبود لذاته الذي لا يستحق ذلك غيره" [(1)].

ويحمل كل دافع من الدوافع الفطرية قوته الدافعة بطريقة فريدة تضمن التغلب على العوائق التي تقف في طريق الدافع. ويجادل قطب في كتابه "دراسات في النفس الإنسانية" بأن تفسير النفس الإنسانية، بدافع واحد من دوافع الحياة هو تفسير ناقص محدد عاجز عن تفسير السلوك الإنساني. فهو يرى أن الطعام مثلاً ضروري لحفظ الذات، ولابد من ربطه بالألم واللذة. فالجوع يدفع الإنسان بالألم للسعي إلى الطعام لإسكاته (أي لإسكات ألم الجوع الذي لا يهدأ إلا حينما يستجاب له). غير أن الألم لا يكفي فهناك لذة الشبع. وبذا فإن اللذة من الأمام، والألم من الخلف يدفعان إلى طلب الطعام للحفاظ على بقاء الذات.

ويعترف الإسلام بالدوافع الفطرية جميعها ويحث على إشباعها؛ فهو يطالب الإنسان بأن يأكل ويشرب ويتزوج حتى تتحقق له الخلافة في الأرض، فيبني ويعمر الأرض ويمشي في مناكبها ويستغل طاقاتها وينتفع بها.

هذا ويمكن تمييز نوعين من الدوافع الفسيولوجية؛ دوافع حفظ الذات ودوافع حفظ النوع. وفيما يلي توضيح لكل منها على حدة :

أ. **دوافع حفظ الذات** وتشمل دوافع الجوع والعطش والتعب والألم والحر والبرد والنعاس والتنفس...الخ. فقد خلق الله سبحانه وتعالى الطعام، مثلاً، وجعل لدى الإنسان شهوة تدفعه إلى تناوله حفظاً للذات، يقول الغزالي" وإنما خلقت هذه الشهوة لتأكل فيبقى به بدنك" [(2)]. ويعدّ دافع الجوع عند الغزالي "أساس الدوافع الإنسانية الأخرى وأساس آفات النفس الإنسانية؛ فقد يكون أساس المعاصي حين يتحكم في السلوك ويكون غاية في حدّ ذاته" [(3)].

---

(1) مجموع الفتاوى، ص 607.

(2) الغزالي، الإحياء، ج4، ص108.

(3) الغزالي، الإحياء، ج3، ص 77.

ويولي القرآن الكريم أهمية خاصة لدوافع حفظ الذات، لذلك عهد الله تعالى لسيدنا آدم عليه السّلام وهو في الجنة، بإشباع الدوافع اللازمة لبقائه واستمرار حياته، قال تعالى:(فَقُلْنَا يَا آَدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَايُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (117) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى118) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى (119) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آَدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى (120) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآَتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آَدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى) (121ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (122) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (123) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)[(1)]. ففي الجنة لا يشعر آدم وزوجه بالجوع أو العطش، أو العري، ولا تؤذيهما تقلبات الطقس، فلا يشعران بالحرارة أو البرودة، لأنه سبحانه كفل لهما تلبية هذه الحاجات في الجنة، دون سعي من طرفهما.

وقد دلّ الله سبحانه وتعالى آدم وزوجه عليهما السلام على طريقين، يجلب أحدهما (طريق التقوى) لذة الطيبات من نعم الجنة (المذكورة) ورضاءه سبحانه، فيما يجلب الآخر (طريق الفجور) الألم والمعاناة والخروج من الجنة والسعي والكدّ من طرفه وطرف أبنائه لإشباع الحاجات المذكورة لحفظ الذات، وحذره من اتباع طريق الفجور. فوسوس له الشيطان ودله بغرور على أن الأكل من الشجرة (المحرمة) سيشبع لديه دافع حب البقاء ودافع التملك الواردة في قوله تعالى: (هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى)وهي دوافع لها قيمة تعزيزية في النفس الإنسانية، عندها نسي آدم ما حذّره الله تعالى منه، فأكل من الشجرة، وعصى بذلك ربه، مما أدى إلى خروجه من الجنة وهبوطه إلى الأرض. وبالتالي تعيّن عليه وعلى أبنائه السعي والكد لإشباع حاجات حفظ الذات من جوع وعطش وملبس ومسكن يقي الحرارة والبرودة...الخ.

وقد قدَّم القرآن الكريم دافع "الجوع" على دافع "الخوف" في قوله تعالى: (فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (3) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)[(2)]، مما يشير إلى أولوية إشباع دافع الجوع على دافع الخوف. كما أشار إلى نعم الله على الإنسان المتعلقة بإشباع الدوافع الأخرى لحفظ الذات وبقائها حية، ومنها الدافع إلى المسكن

---

(1) طه، 117-124.

(2) قريش، 3-4.

والملبس تجنباً للحرارة والبرودة، وأذى العدو، وجلباً للراحة بعد التعب، قال تعالى: (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ80) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ)[1].

ويكون ابتلاء الإنسان بدوافع حفظ الذات، وبالتحديد بدافعي الجوع والخوف، كما يتضح ذلك في قوله تعالى: (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ)[2]. كما يكون فيها عقاب المجتمع، قال تعالى: (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)[3].

وتشير الآيات الكريمة التالية إلى نعم الله، على الإنسان، المتعلقة بإشباع دافعي النوم والراحة، يقول تعالى: (أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)[4] وإلى تجنب الألم، يقول سبحانه: (فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ)[5] والى أهمية التنفس حفظاً للذات، يقول تعالى: (وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ)[6].

كما يشير الحديث النبوي الشريف إلى ضرورة إشباع الدوافع الفسيولوجية، ولو جزئياً ومنها دوافع الجوع والعطش والمأوى والملبس والتعب والإخراج، قَال النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم "لَيْسَ لابْنِ آدَمَ حَقٌّ فِي سِوَى هَذِهِ الْخِصَالِ بَيْتٌ يَسْكُنُهُ، وَثَوْبٌ يُـوَارِي به عَوْرَتَهُ، وَجِلْفُ[*] الْخُبْزِ وَالْمَاءِ" [1]، وقال صلى الله عليه وسلم "إِذَا اشْتَهَى مَرِيضُ أَحَدِكُمْ شَيْئًا فَلْيُطْعِمَهُ"[2]، وقال

---

(1) لنحل، 80- 81.

(2) البقرة، 155.

(3) النحل، 112.

(4) النمل، 86.

(5) التوبة، 74.

(6) يس، 43.

[*] الجِلف: الخبز وحده لا إدام معه.

(7) أخرجه الترمذي وأحمد والحاكم، كتاب الزهد، حديث رقم 2263.

(7) أخرجه ابن ماجة، كتاب الطب، باب المريض يشتهي شيء، حديث رقم 3431.

في إشباع دوافع الجوع والعطش والتنفس "مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْـنٍ بِحَسْـبِ ابْـنِ آدَمَ أُكُلاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لا مَحَالَةَ، فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ"[3].
دوافع حفظ النوع (من الانقراض) وتشمل دافع الجنس ودافع الأمومة. ويتضح دافع الجنس في قوله تعالى:(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ)[4]، وقوله تعالى: (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً) [5] وقوله سبحانه: (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا)[6] وقوله(فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً)[7]. وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم "حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ الدُّنْيَا النِّسَاءُ وَالطِّيبُ وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاةِ"[8].

ويؤدي دافع الجنس وظيفة هامة في حياة الإنسان وفي الحفاظ على النوع من الانقراض، فتتكون الأسرة ويحدث التناسل وتتعاقب الأجيال. والعلاقة الجنسية في الإسلام لا تهدف إلى الحصول على اللذة الجنسية فحسب، بل هي علاقة سكن ومودة ورحمة، يشعر فيها الزوجان بالأمن والطمأنينة.

وعدّ رسول الله صلى الله عليه وسلم الزواج نصف الدين، يقول "إذا تزوج العبد فقد استكمل نصف دينه، فليتق الله في النصف الباقي" [9]، وجعل فيه أجراً وثواباً، يقول "وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ" [10]، لا بل ارتفع به إلى مستوى العبادة التي تدخل صاحبها الجنة، يَقُولُ صلى الله عليـه وسـلم "مَـنْ أَرَادَ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ طَاهِرًا مُطَهَّرًا فَلْيَتَزَوَّجْ الْحَرَائِرَ" [11]. وحث الرسول الكـريم صـلى الله عليـه وسـلم على إشباع دافع الجنس بالزواج، وعدّ عدم الزواج خروجاً عن السنة، فعَنْ عَائِشَةَ رضي

---

(1) أخرجه الترمذي وأحمد والحاكم، كتاب الزهد، حديث رقم 2263.

(2) أخرجه ابن ماجة، كتاب الطب، باب المريض يشتهي شيء، حديث رقم 3431.

(3) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد عن رسول الله، باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل، حديث رقم2302.

(4) آل عمران، 14.

(5) النحل، 72.

(6) الأعراف، 189.

(7) النساء، 3.

(8) أخرجه النسائي وأحمد والحاكم/ناصف، كتاب عشرة النساء، باب حب النساء، حديث رقم 3787.

(9) كشف الخفاء ومزيل الإلباس للعجلوني، حديث رقم 214، ج1، ص85.

(10) رواه مسلم، الزكاة، باب أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، حديث رقم 1674.

(11) أخرجه ابن ماجة، كتاب النكاح، باب تزويج الحرائر، حديث رقم 1852.

الله عنها قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم "النِّكَاحُ مِنْ سُنَّتِي فَمَنْ لَمْ يَعْمَلْ بِسُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي"[1]. ونظراً لأهمية الدافع الجنسي في حفظ النوع الإنساني، حثّ الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم على الزواج من المرأة الولود، فقد روى مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ عن النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قوله "تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوَلُودَ، فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمْ الْأُمَمَ"[2].

ويستنتج الغزالي من قوله تعالى في سورة آل عمران: (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ)أن "أعظم الشهوات عند الإنسان شهوة النساء، وهي أغلب الشهوات عليه وأعصاها عند الهيجان على العقل، ويقصد بذلك قوة الإحساس باللذة فيها. فإن لذة الوقاع لو دامت لكانت أقوى لذات الأجساد"[3]. وفي كتابه "معارج القدس في مدارج معرفة النفس"، يشير الغزالي إلى أهمية إشباع دافع الجنس حفظاً للنوع، يقول "إن شهوة الجماع خلقت لتكون باعثة للإنسان على الجماع وهو سبب بقاء النوع الإنساني، فيطلب النكاح للولد والتحصن لا للعب والتمتع"[4]. وهكذا يمكن القول بوجود دوافع جنسية تحرك السلوك الإنساني لإشباعها، وهي ضرورية لتكوين الأسرة، التي تتكون منها المجتمعات والشعوب البشرية اللازمة لعمارة الأرض. ويؤدي إشباعها إلى الراحة والأمن والطمأنينة، ويقود إلى نشوء عواطف المحبة والرحمة والتعاون والوفاق بين الأزواج. وقد شاءت حكمة الله في خلقه أن يوجد في الأم دافعاً فطرياً يهيؤها لأداء رسالتها المتعلقة بالإنجاب حفظاً للنوع الإنساني، ففطر فيها دافع الأمومة. فهي التي تحب طفلها وترعاه وتحنو عليه حتى يكبر. ويشير سبحانه إلى حب الأم لطفلها وحزنها لبعده، بقوله تعالى: (وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِي)[5]. كما يشير سبحانه إلى حال الراحة وذهاب الحزن بعودة طفلها، بقوله تعالى: (فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ)[6]. ويوضح سبحانه ما تتحمله الأم من آلام في الحمل والولادة، بقوله تعالى: (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا)[7]. كما كشف الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ما

---

(1) أخرجه ابن ماجة، كتاب النكاح، باب ما جاء في فضل النكاح، حديث رقم 1836.

(2) أخرجه أبو داود،كتاب النكاح، باب النهي عن تزويج من لم يلد من النساء، ج2، حديث رقم1754.

(3) الغزالي، الإحياء، ج3، ص 97.

(4) الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، ص 65.

(5) القصص، 10.

(6) القصص، 13.

(7) الأحقاف، 15.

تعانيه الأم من الآم ومشقة في الحمل والولادة. ففي حديثه للرجل الذي شكا إليه سوء خلق أمه التي حجّ بها على عاتقه، قال صلى الله عليه وسلم "ما جزيتها ولو بطلقة" [1].

— **الدوافـع الدينيـة:**

وهي دوافع تنشأ عن التكوين الروحي للإنسان، الذي يستحثه لمعرفة خالقه وخالق الكون وعبادته واللجوء إليه. والدوافع الدينية فطرية الجذور، مصداقاً لقوله تعالى: (فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) [2]. فالدين فطرة الناس جميعاً، والإنسان مفطور على معرفة الله سبحانه وتوحيده.

وفي موضع آخر، يوضح القرآن الكريم حقيقة النزعة الفطرية للتدين، المركوزة في ضمائر الخلق البشري، ويصورها على هيئة "ميثاق" انعقد منذ الأزل بين أرواح البشر (وهي في الأصلاب، أي قبل خلقها في الدنيا) وبين خالقها عزّ وجلّ. فقد انعقد هذا الميثاق على إيمان البشر بالله عز وجل رباً، وإفراده بالعبودية دون سواه. فهو مخلوق على هيئة تشهد بإقراره سبحانه بالتوحيد، قال تعالى: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آَدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ)[3]. وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم "مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ... " [4]. فالروح تهتدي بفطرتها إلى خالقها، فهي من روح الله التي أودعها قبضة الطين، وهي تهتدي إلى خالقها بفطرتها دون جهد وتعب، فكان أمر تحصيله بالدليل سهلاً، ولا يتوقف أمر تحصيله على فئة من البشر دون أخرى، فالله سبحانه أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

وتحظى الدوافع الدينية بأهمية خاصة في الإسلام، فهي المحرك الرئيسي للسلوك الإنساني الذي يدفعه لتحقيق الهدف من وجوده. ولا يتوقف عمل هذه الدوافع عند حدٍ ولا يمكن إشباعها كلياً، فهي في عملها أشبه بالعملية المستمرة منها بالمرحلية. وكلما زاد الإيمان في القلب، زاد الشوق لطلب المزيد. ويفسر ذلك عبادة رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم وقيامه الذي كان يطول حتى تتفطّر قدماه، وصلاة مريم ابنة عمران، عليها السلام، التي كانت

---

(1) انظر: الزمخشري الخوارزمي، الكشاف في حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج2، ص445.

(2) الروم، 30.

(3) الأعراف، 172.

(4) صحيح مسلم، كتاب تفسير القرآن، باب لا تبديل لخلق الله، حديث رقم 4402.

تطول أيضاً. كما يفسر ذلك سلوك عمير بن الحُمام الذي جلس ليأكل تمرات في يده يوم بدر، فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً، مقبلاً غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة فقال عمير بَخٍ بَخٍ، أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء، ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل"[1]. وقال خالد بن الوليد رضي الله عنه "ما ليلة تهدى إلى بيتي فيها عروس أنا لها محب، أو أبشر فيها بغلام، أحب إليّ من ليلة شديدة الجليد في سريَّة من المهاجرين أصبح بها العدو"[2].

وتنطوي النفس الإنسانية على توق فطري إلى من تنسب إليه صفات الكمال وتنشد عنده الأمن والحماية والطمأنينة، ويحقق لها الخير والسعادة. فالإيمان هو منبع السعادة الحقيقية والأمن والطمأنينة، فأولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.
وتطفو الدوافع الدينية جليّة على السطح، وتسيطر على الشخصية، وتكون المحرك الرئيسي للسلوك، لا سيما في لحظات الضعف والهلع وعند مشارف الهلاك التي تهدد حياة الإنسان المسلم، فيدعو الله بفطرة الدين، ويلتجئ إليه من كل شر، طالباً منه النجاة، قال تعالى: (قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ)[3]، وقال تعالى:(وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ [4]، وقال أيضاً:(وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ)[5]، وقال سبحانه: (وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) [6]. فالإنسان يلجأ إلى الله، بكل مشاعره، ويندفع إليه في ساعات محنته، طلباً للنجاة والحماية والأمن. ويجد في ذلك طمأنينة في النفس، وانشراحاً في الصدر، وكأنه قضى حاجته. وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلجأ إلى الله عند الشدائد، فقد كان "إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى" [7]. وكان يقول لبلال "أَرِحْنَا بِالصَّلاةِ" [8]. وحثّ الرسول صلى الله عليه وسلم على اللجوء إلى الله ودعائه في أيام الرخاء، وليس فقط

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد، حديث رقم 145.

(2) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي، 9، 350- الإصابة، 1، 4014.

(3) الأنعام، 63.

(4) الزمر، 8.

(5) الروم، 33.

(6) لقمان، 32.

(7) رواه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب وقت قيام النبي من الليل، حديث رقم1124.

(8) رواه أحمد، كتاب باقي مسند الأنصار، باب أحاديث رجال من أصحاب النبي، حديث رقم22009.

في الشدائد، قَال "مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ اللَّهُ لَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالْكَرْبِ، فَلْيُكْثِرْ الدُّعَاءَ فِي الرَّخَاءِ" [1].

وتحدد الدوافع الدينية كيفية إشباع الدوافع الإنسانية كافة، وهي التي تهدي الإنسان إلى السلوك السوي وتجنبه الوقوع في الأخطاء. وبغير الإيمان لا تستقيم حياته، ولا يهنـأ باله، ولا تتوفر له أسباب الأمن النفسي، فلا يجد للحياة لذة، يشعر بالضيق ويكون عرضة للصراعات النفسية، ولا يشعر بالانتماء إلى الأمة الإسلامية ولا يتمكن من تحقيق ذاته. ويُذكر أن بعض علماء النفس الغربيين ومنهم يونج مثلاً، يعد نقص الإيمان لدى الفرد سبباً قوياً في جميع الأمراض النفسية التي تصيب الراشدين.

- **الدوافـع النفسيـة:**

وهي دوافع غير فسيولوجية، ذات أساس فطري، تزيد قوتها أو تنقص في ضوء التنشئة الاجتماعية والـتعلم. وتعـدّ هامـة للتطـوّر الإنسـاني مـن الناحيـة النفسـية. ويمكـن أن تكـون الدوافع النفسية ذات طابع إيجابي كالكرم، ويمكن أن تكون ذات طابع سلبي كالبخل والشـح.
وفيما يلي عرض لأبرز هذه الدوافع الواردة في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة :
دافع الأمن: يأتي دافع الأمن في مقدمة الدوافع النفسية وأكثرها أهمية على الإطلاق، لذلك يحرص الإسلام على إشباعه. فهو عنوان الحياة، قال تعالى: (فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (3) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ) [2] . فقد قرن سبحانه دافع الجوع مع دافع الأمن، أي قرن الأمن بالطعام الذي لا حياة للإنسان بدونه. فالطعام والأمن أهم دافعين، لا يفكر الإنسان بسواهما إلا بعد أن يحصل على الحد الأدنى منهما، لذلك منّ سبحانه على قريش بما رزقهم منهما. وقد أنعم الله بهما على عباده كي يشكروه ويخلصوا في عبادته.

ويشير الأمن في الإسلام إلى حالة الطمأنينة والحماية والتوافـق والتـوازن والتحـرر مـن الخوف والقلق والصراع، التـي لا غنـى للمسـلم عنهـا، لاسـتقراره وليـتمكن مـن أداء مهمتـه الحضارية. وهو أمن له أساس في الأصل العقدي التوحيدي هو أمن لا يعرف

(1) رواه الترمذي في كتاب دعوات عن رسول الله، باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة، حديث رقم3304.

(2) قريش، 3-4.

تعصباً في وجهته، فهو بذلك أمن شامل مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالإيمان. فكان الأمن مطلباً فطرياً عبّر عنه سيدنا إبراهيم عليه السلام في دعوته، قال الله تعالى:(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا) [1]. وقد وصف سبحانه وتعالى الأمن الذي يحلّ بالإنسان عند دخوله البيت الحرام، بقوله: (فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا) [2]. والأمن نعمة أنعم الله بها على البشر. فالأمن يعدل في أهميته، للإنسان، الطعام والشراب والصحة والكساء. وبغيابه تصبح حياة الإنسان مهددة بالقلق والخوف والزوال. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم "مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بحذافيرها" [3]. ويشير هذا الحديث الشريف إلى أن قمة سعادة الإنسان في الدنيا تتحقق بتوفر أسبابها وهي: الأمن والصحة البدنية والطعام. فالإنسان السعيد هو الذي يشعر بالأمن فلا يعاني من الخوف، ويجد طعام يومه فلا يشعر بالجوع، ويتمتع بصحة بدنه فلا يشعر بالمرض.

والأمن مناط به الرزق والسعة والازدهار، قال تعالى:(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) [4]. ويؤكد رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرورة وجود مسكن للإنسان، يشعر فيه بالأمن، ويعده حقاً له، قال صلى الله عليه وسلم "لَيْسَ لابْنِ آدَمَ حَقٌّ فِي سِوَى هَذِهِ الْخِصَالِ بَيْتٌ يَسْكُنُهُ، وَثَوْبٌ يُوَارِي به عَوْرَتَهُ، وَجِلْفُ الْخُبْزِ وَالْمَـــاءِ" [5]. والابتلاء يكون بالخوف، قال تعالى: (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ) [6].

ويؤكد الماوردي أهمية إشباع الأمن النفسي في حياة الفرد والمجتمع بقوله "فليس لخائف راحة، ولا لحاذر طمأنينة، فالأمن أهنأ عيش، والعدل أقوى جيش، لأن الخوف يقبض الناس عن مصالحهم ويحجزهم عن تصرفهم، ويكفهم عن أسباب المواد التي بها قوام أودهم... والخوف قد يتنوع بأن يكون تارة على النفس وتارة على الأهل... ومن

(1) البقرة، 126.

(2) آل عمران، 97.

(3) رواه الترمذي في كتاب الزهد عن رسول الله، باب في التوكل على الله، حديث رقم 2268.

(4) النحل، 112.

(5) سبق تخريجه.

(6) البقرة، 155.

عمّه الأمن كمن استولت عليه العافية، فهو لا يعرف قدر النعمة بأمنه حتى يخاف، كما لا يعرف المعافى بعافيته حتى يصاب" [1]. ويعدُّه أمراً ضرورياً لصلاح أحوال الدنيا، يقول "إعلم أن ما تصلح به الدنيا، حتى تصير أحوالها منتظمة وأمورها ملتئمة، ستة أشياء هي قواعدها وإن تفرعت، وهي دين متبع، وسلطان قاهر، وعدل شامل، وأمن عام، وخصب دائم، وأمل فسيح" [2].

ويعدّ الأمن النفسي من أهم مقومات الصحة النفسية التي يحتاجها الإنسان في تكيفه النفسيّ. فيكون الإنسان الآمن في حال توافق وتوازن أمني مع نفسه ومع خالقه في أداء العبادات. كما يعد الأمن النفسي مهماً في التكيف الاجتماعي، فلا يجد الفرد أمنه النفس إلا بالانتماء إلى جماعة، وتكوين علاقات اجتماعية طيبة، يكون فيها فاعلاً ومنتجاً ومؤثراً، فهو لا يشعر بالأمن النفسي إلا عندما يكون قادراً على التفاعل مع الآخرين. فالتوافق الاجتماعي مصدر الأمن النفسيّ والإنسان القلق يجد الراحة بصحبة الآخرين.

ب. **دافع حب التملك:** جعل الله سبحانه وتعالى حب التملك دافعاً ذا أساس فطري، وجعل المال زينة الحياة الدنيا، قال تعالى:(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) [3]، وقد قدّم سبحانه المال، هنا، على البنين، وقال تعالى: (وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا) [4]، وقال سبحانه:(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ) [5]. ويدفع الحرص على التملك بصاحبه إلى البخل، قال تعالى: (قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا) [6]. والنفس موصوفة بالبخل، قال تعالى: (وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ) [7]. ويدفع الحرص على التملك بصاحبه إلى الاستعجال في جمع المزيد من الخيرات، قال تعالى:(وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا)[8]، وقال سبحانه: (كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ

---

(1) الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص 128-129.

(2) المرجع السابق، ص 119- 120.

(3) الكهف، 46.

(4) الفجر، 20.

(5) آل عمران، 14.

(6) الإسراء، 100.

(7) النساء، 128.

(8) الإسراء، 11.

(20) وَتَذَرُونَ الْآَخِرَةَ) [1]. ونتيجة لحرص الإنسان على التملك واستعجاله في تحصيل الخيرات، نجده هلوعاً جزوعاً من كل ما من شأنه تهديد ممتلكاته، قال تعالى: (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ)[2].

وحب التملك كان واحداً من دافعين أوهم الشيطان بهما آدم عليه السلام فأكل من الشجرة المحرمة فعصى ربه، قال تعالى: (فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آَدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى) [3]. فهذان الدافعان (دافع حب الحياة ودافع التملك) لهما قيمة تعزيزية في النفس البشرية، لذلك وقع الاختيار عليهما في التأثير على آدم. وقد أشار الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم إلى أهمية هذين الدافعين في النفس الإنسانية، يقول في ذلك "قَلْبُ الشَّيْخِ شَابٌّ عَلَى حُبِّ اثْنَتَيْنِ "طُولِ الْحَيَاةِ وَكَثْرَةِ الْمَالِ" [4]، وَقَالَ صلى الله عليه وسلم "لَوْ أَنَّ لابْنِ آدَمَ وَادِيًا مِنْ ذَهَبٍ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَادِيَانِ، وَلَنْ يَمْلأَ فَاهُ إِلاَّ التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ" [5].

ج. **دافع التعلم**: عني الإسلام بإشباع دافع التعلم، فكانت أول آية نزلت من القرآن الكريم هي قوله تعالى: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)[6]. فهو دافع ذو منشأ فطري. والله سبحانه وتعالى زود الإنسان بأدوات العلم من سمع وبصر وعقل للتعلم والتفكر والتأمل في الآفاق والأنفس، وبالتالي إلى عبادة الخالق عزّ وجلّ وتوحيده. لذلك كان العلماء يخشون الله، قال تعالى (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) [7].

وبإشباع دافع التعلم، يصبح المرء قادراً على التمييز بين الخير والشر، وبين السلوك الأخلاقي وغير الأخلاقي، ويدرك النفع في الفضائل والضرر في الرذائل. لذلك أشار سبحانه إلى أن عدم إشباع هذا الدافع بإعمال العقل في التفكر والتأمل في آياته يؤدي إلى الانحراف والضياع وسوء العاقبة، قال تعالى: (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا

(1) القيامة 20-21.

(2) المعارج، 19-22.

(3) طه، 120.

(4) أخرجه الترمذي في كتاب أبواب الزهد، باب ما جاء في قلب الشيخ على حب اثنتين، حديث رقم2260.

(5) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب ما يتقى من فتنة المال، حديث رقم5958.

(6) العلق، 1.

(7) فاطر، 28.

فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ) [1] وقال أيضاً: (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) [2]. وقد علّم سبحانه وتعالى الإنسان بالوحي ما لا سبيل إلى معرفته بالعقل، فأشبع لديه هذا الدافع ولم يتركه ضحية أدواته المعرفية القاصرة.

- **الدوافـع الاجتماعيـة:**

وهي الدوافع المتعلمة أو المكتسبة بالتنشئة الاجتماعية، وتختص بالعلاقات الاجتماعية مع الآخرين؛ فهو بحاجة إليهم ليؤدي دوره في الحياة، ويشعر بالسكينة، ويحقق الغاية من وجوده. فقد شعر آدم عليه السلام بالسكينة عندما خلقت حواء، قال تعالى:(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ) [3]. وقد حدّد الإسلام دور كل فرد في المجتمع، وأكدّ ضرورة التوفيقَ بين إشباع حاجات الفردية وحاجات مجتمعه، بغية تحقيق التكيف الاجتماعي مع البيئة.

وقد فضّل الإسلام المسلم الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم على المسـلم الـذي ينسـحب اجتماعياً حتى لا يتعرض للأذى، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "الْمُسْلِمُ إِذَا كَانَ مُخَالِطًا النَّـاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُـمْ خَـيْرٌ مِـنْ الْمُسْـلِمِ الَّـذِي لا يُخَـالِطُ النَّـاسَ وَلا يَصْـبِرُ عَـلَى أَذَاهُـمْ"[4]. فالإنسـان اجتماعي بطبعه، ولا يستطيع العيش معزولاً عن الآخرين.

وتعدّ التنشئة الاجتماعية حاسمة في إثـارة الـدوافع الاجتماعيـة وضـبطها. ويمكـن أن تتخـذ هذه الـدوافع طابعـاً إيجابيـاً كـالانتماء والحـب، ويمكـن أن تتخـذ طابعـاً سـلبياً كالأنانيـة الفرديـة والكراهيّة والحسد والحقد. وفيما يلي عـرض لأبـرز الـدوافع الاجتماعيـة الـواردة في القـرآن الكـريم والسنة المشرّفة :

أ. **دافع التنافس**: التنافس دافع اجتماعي تحدد معاييره قـيم المجتمـع وثقافتـه، وغالبـاً مـا يكـون متوجهاً نحو ما في الحياة الدنيا من زينة أو مال أو جاه أو ممتلكات أو شـهرة، فيكـون سـبباً في المشاحنات والأحقاد بين الناس. وفي ذلك يقول النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم "وَاللَّهِ لا

---

(1) الملك، 10.

(2) الأعراف، 179.

(3) الأعراف، 189.

(4) رواه الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله، باب مخالطة النـاس مـع الصـبر عـلى آذاهـم، حـديث رقـم 2431.

الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ"[1]، لذلك حذر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم من التنافس إلا في أمرين فقط، يقول صلى الله عليه وسلم "ولاَ تَنَافُسَ بَيْنَكُمْ إِلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ أَعْطَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ وَيَتَّبِعُ مَا فِيهِ، فَيَقُولُ رَجُلٌ لَوْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعْطَانِي مِثْلَ مَا أَعْطَى فُلانًا فَأَقُومَ بِهِ كَمَا يَقُومُ بِهِ، وَرَجُلٌ أَعْطَاهُ اللَّهُ مَالاً فَهُوَ يُنْفِقُ وَيَتَصَدَّقُ، فَيَقُولُ رَجُلٌ لَوْ أَنَّ اللَّهَ أَعْطَانِي مِثْلَ مَا أَعْطَى فُلانًا فَأَتَصَدَّقَ بِهِ..."[2].

وقد حث الله سبحانه وتعالى على توجيه هذا الدافع نحو عمل الخير وتقوى الله، قال تعالى: (سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)[3]، وقال تعالى:(إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (22) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (23) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (24) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (25) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ) [4].

وقد حث رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين على التنافس في الأعمال المفيدة كالفروسية، والجري والرمي؛ فكان يشجعهم على التسابق بالخيل، لا بل كان يشترك هو نفسه معهم. فقد "أقام صلى الله عليه وسلم سباقاً للخيل التي أضمرت من الحفياء وأمدها ثنية الوداع وسابق بن الخيل التي لم تضمر من الثنية إلى مسجد بني زريق"[5]. كما سابق عائشة أم المؤمنين في الجري، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفر ممن أسلم ينتصلون[6] بالسوق فقال "ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً، ارموا وأنا مع بني فلان، فأمسك أحد الفريقين بأيديهم فقال ما لكم لا ترمون؟ فقالوا كيف نرمي وأنت معهم؟ فقال ارموا وأنا معكم كلكم"[7].

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب فرض الخمس، باب الجزية والموادعة، حديث رقم 2924.

(2) أخرجه أحمد، مسند الشاميين، باب حديث يزيد بن الأخنس عن النبي، حديث رقم16352.

(3) الحديد، 21.

(4) المطففين، 22-26.

(5) سبق تخريجه.

(6) أي يترامون بالسهام للسبق.

(7) أخرجه الشيخان انظر الشيباني، ج2، ص 164.

ب. **دافع العدوان:** العدوان دافع له أساس فطري، وقد أشار القرآن الكريم إليه عندما قال تعالى للملائكة "إني جاعل في الأرض خليفة"، فقالت الملائكة لله تعالى: (قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) [1]. قال السدي في تفسيره لهذه الآية الكريمة "يكون له ذرية يفسدون في الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضاً" [2]. كما أشار القرآن الكريم إلى دافع العدوان في قصة آدم وحواء عندما وسوس لهما الشيطان ليخرجهما من الجنة، قال تعالى:(فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ) [3]. وتكريماً لحق الإنسان في الحياة، حرّم الإسلام العدوان، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُرَوِّعَ مُسْلِمًا" [4]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ" [5].

وقد كان قابيل أول مخلوق استثاره دافع العدوان إلى حدّ قتل أخيه هابيل من غير ذنب، بغياً وحسداً، لأن الله سبحانه تقبل قربانه ولم يتقبل قربان قابيل، قال تعالى: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) [6].

وقال تعالى في سورة المائدة(فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ) [7]، أي أن نفسه استثارته وحثَّته على قتل أخيه فقتله. وقال السدي "أي طلبه ليقتله فراغ الغلام منه في رؤوس الجبال، فأتاه يوماً من الأيام، وهو يرعى غنماً له، وهو نائم، فرفع صخرة فَشَدَخ بها رأسه فمات فتركه بالعراء" [8]. وقال صلى الله عليه وسلم "لا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا، إِلاَّ كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا، لأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ" [9].

---

(1) البقرة، 30.

(2) مختصر تفسير ابن كثير للصابوني، 1981، ج1، ص50.

(3) البقرة، 36.

(4) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب من يأخذ الشيء على المزاح، حديث رقم4351.

(5) سنن الترمذي، كتاب الديات عن رسول الله، باب ما جاء في التشديد على قتل المؤمن، حديث رقم1315.

(6) المائدة، 27-29.

(7) المائدة، 30.

(8) انظر مختصر تفسير ابن كثير، ج1، ص 508.

(9) أخرجه الجماعة سوى أبي داود، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم وذريته، حديث رقم3088.

كما يقول رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم "إِذَا تَوَاجَهَ الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَكِلاهُمَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ، قِيلَ فَهَذَا الْقَاتِلُ فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ، قَالَ إِنَّهُ أَرَادَ قَتْلَ صَاحِبِهِ" [1]. وقال الإمام أحمد عن بشر بن سعيد أن سعد بن أبي وقاص قال، عند فتنة عثمان أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "إنها ستكون فتنة، القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي" [2].

وقد يتخذ العدوان شكل الاستيلاء على ممتلكات الآخرين وأعراضهم، لذلك شرع الإسلام الدفاع عن النفس والمال والدين والعرض، قال تعالى: (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) [3]. كما شرع القتال للدفاع عن المظلوم، قال تعالى: (وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا)[4]. وهو ضروري للوقوف بوجه المفسدين، قال تعالى: (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ) [5].

ج. **دافع الانتماء والحب:** لا يكون مجتمع المؤمنين متماسكاً تماسك الجسد الواحد، يشعر كل منهم بما يصيب الآخر إلا من خلال شبكة قوية من العلاقات الاجتماعية، ولن يتحقق ذلك إلا إذا سادت المودة والرحمة والألفة والمحبة والتعاون تلك العلاقات فيشعر المؤمن برغبة في عضوية الجماعة وفي الانتماء إلى الأمة الإسلامية. فهو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "المؤمن ألف مألوف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف وخير الناس أنفعهم للناس" [6]. ويحث الإسلام على إشباع هذا الدافع عن طريق الإيمان، فالحب بين المؤمن وخالقه حب متبادل وفيه الراحة النفسية، ومحبة الله ورسوله هي أساس محبة الناس. فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ "ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَانِ، أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلاَّ لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ" [7].

---

(1) رواه البخاري، كتاب الفتن، باب وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا، حديث رقم 6556.

(2) انظر مختصر تفسير ابن كثير، ج1، ص 507.

(3) البقرة، 190.

(4) النساء، 75.

(5) البقرة، 251.

(6) كشف الخفاء ومزيل الإلباس للعجلوني، ج2، ص 408.

(7) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، حديث رقم15.

والحب في الله عبادة عليها الأجر العظيم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن الله تعالى يقول يوم القيامة أين المتحابون بجلالي،اليوم أظلهم بظلي يوم لا ظل إلا ظلي" [1]، وقال صلى الله عليه وسلم قال الله عز وجل "المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء" [2].

وقد قرن رسول الله صلى الله عليه وسلم الإيمان بالمحبة بين المسلمين، قَالَ صلى الله عليه وسلم "آيَةُ الإِيمَانِ حُبُّ الأَنْصَارِ"[3]. وقال أيضاً "لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ" [4]. وقال صلى الله عليه وسلم "والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تسلموا، ولا تسلموا حتى تحابوا، ألا أدلكم على شيء لو فعلتموه تحاببتم، أفشوا السلام تحابوا، وإياكم والبغضة فإنها هي الحالقة، لا أقول لكم تحلق الشعر ولكن تحلق الدين [5].

وعليه، يتعين إشباع هذا الدافع بإشاعة روح المحبة بين الناس بعمل الخير وبتعليم الناس الخير. ورسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم يحث على تعليم الناس الخير، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم "إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرَضِينَ حَتَّى النَّمْلَةُ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحُوتُ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرَ" [6]. وينبغي أن لا يقتصر إشباع هذا الدافع على الأقارب والمعارف، بل يشمل الأمة الإسلامية جمعاء، محبة لله وطمعاً برضائه، قال تعالى (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (8) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا) [7]. والمؤمن لا يشبع من عمل الخيرات، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لن يشبع مؤمن من خير حتى يكون منتهاه الجنة" [8].

والأمة الإسلامية أمة واحدة، قال تعالى: (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ)[9]. وأفرادها يتآخون في الله وينتمون لها، قال تعالى:(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) [10]، وهم كالجسد الواحد، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ

---

(1) رواه مسلم.

(2) رواه الترمذي وقال حسن صحيح.

(3) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة الإيمان حب الأنصار، حديث رقم 16.

(4) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، حديث رقم 12.

(5) رواه الترمذي، الجامع الصحيح، كتاب الاستئذان والآداب، باب ما جاء في إفشاء السلام عن أبي هريرة، حديث رقم 2829، ج3، ص656، حديث حسن صحيح.

(6) رواه الترمذي، كتاب عن علم رسول الله، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، حديث رقم 2609.

(7) الإنسان، 8-9.

(8) كشف الخفاء ومزيل الإلباس للعجلوني، ج2، ص 215.

(9) الأنبياء، 92.

(10) الحجرات، 10.

فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى" [1]. وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم "الْمُسْلِمُونَ كَرَجُلٍ وَاحِدٍ إِنْ اشْتَكَى عَيْنُهُ اشْتَكَى كُلُّهُ، وَإِنْ اشْتَكَى رَأْسُهُ اشْتَكَى كُلُّهُ" [2]. وللمسلم على أخيه المسلم حقوق، قَالَ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم "الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ. وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" [3]. وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم "حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ خَمْسٌ رَدُّ السَّلاَمِ، وَتَشْمِيتُ الْعَاطِسِ، وَإِجَابَةُ الدَّعْوَةِ، وَعِيَادَةُ الْمَرِيضِ، وَاتِّبَاعُ الْجَنَائِزِ" [4].

ونظراً لأهمية الانتماء إلى الأمة الإسلامية، أمر سبحانه وتعالى بعدم الفرقة بين صفوف المسلمين، قال تعالى(وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ) [5]، وقال سبحانه: (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) [6]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه" [7]. لا بل أمر سبحانه بالاعتصام بحبل الله ونبذ الفرقة، قال تعالى: (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا) [8].

ورأباً للصدع الذي قد ينتاب بنية المجتمع، دعا الإسلام إلى إصلاح ذات البين بين المتخاصمين، قال سبحانه:(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)[9].

ويرى الماوردي أن الدين هو الذي يؤدي إلى إشباع دافع الانتماء والحب، يقول في ذلك "لقد بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم والعرب أشد تقاطعاً وتعادياً وأكثر اختلافاً وتمادياً، حتى إن بني الأب الواحد كانوا يتمزقون أحزاباً... إلى أن أسلموا فذهبت إحنهم

(1) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم، حديث رقم 4685.

(2) رواه مسلم، كتاب البر والآداب، حديث رقم 4687.

(3) رواه البخاري في كتاب المظالم والغضب، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، حديث رقم 2262.

(4) رواه مسلم، كتاب السلام، باب من حق المسلم للمسلم رد السلام، حديث رقم 4022.

(5) الأنفال، 46.

(6) آل عمران، 105.

(7) سنن أبي داود، كتاب السنة، باب في الخوارج عن أبي ذر الغفاري، حديث رقم 4758، ص1085؛ مسند الإمام أحمد من حديث أبي ذر الغفاري من غير كلمة قيد- حديث رقم 21111.

(8) آل عمران، 103.

(9) الأنفال، 1.

وانقطعت عداوتهم، وصاروا بالإسلام إخواناً متواصلين، وبلغة الدين أعواناً متناصرين"، ويستشهد بالآية الكريمة(وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا) [1]. فالإسلام يمحو الأحقاد، ويؤلف بين قلوب المسلمين. فبه تآلفت قلوب علي بن أبي طالب (من بني هاشم) وأبي سفيان (من بني أمية) وبلال الحبشي وسلمان الفارسي... وبنعمة الإسلام تحولت العداوة بين الأوس والخزرج إلى أخوة ومحبة. وعصم الإسلام دم وحشي الذي قتل حمزة بن عبد المطلب، عم رسول الله صلى الله عليه وسلم. كما عصم دم هند بنت عتبة التي أكلت كبد حمزة رضي الله عنه.

وتؤدي رابطة النسب والمصاهرة إلى إشباع دافع الانتماء والحب، وفي ذلك يقول الماوردي "لأن تعاطف الأرحام وحمية القرابة يبعثان على التناصر والألفة ... لذلك حفظت العرب أنسابها كما امتنعت عن سلطان يقهرها، ويكف الأذى عنها لتكون بها متظافرة على من ناوأها، متناصرة على من شاقها وعاداها... ولم تزل العرب تجتذب البعداء وتتآلف الأعداء بالمصاهرة، حتى يرجع النافر مؤانساً ويصير العدو موالياً، وقد يصير للصهر بين الإثنين ألفة بين القبيلتين وموالاة بين العشيرتين ..."[2].

د.**دافع الاحترام والتقدير:** يقرّ الإسلام بوجود هذا الدافع ويحققه بالإيمان. فالمسلم مطالب باحترام الفقير احترامه للغني، فلا تكون المفاضلة بين الناس إلا بالتقوى، قال تعالى: (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)[3]. وهو مطالب باحترام الوالدين، قال تعالى(فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (23) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ) [4]، وباحترام الصغير والكبير، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم "لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيَعْرِفْ شَرَفَ كَبِيرِنَا" [5]. ولا تصحّ السخرية بالآخرين والتعدي على كرامتهم، قال سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) [6].

---

(1) آل عمران، 103؛ الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص134.
(2) الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص 134-138.
(3) الحجرات، 13.
(4) الإسراء، 23-24.
(5) رواه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة الصبيان، حديث رقم 1843.
(6) الحجرات 11.

والاحترام دافع اجتماعي، ينبغي إشباعه. وتقدير الناس يكون على أساس العلم والإيمان، قال تعالى: (الَّذِينَ آَمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ) [1]. وقال تعالى (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

ونتيجة تفاعل الفرد مع الآخرين واحترامه لهم فإنه يكون مدفوعاً في سلوكه لكسب تقدير الآخرين واحترامهم بالمقابل. ويرى الماوردي أن هذا الدافع ينعكس على سلوك الفرد ويدفعه إلى إشباعه بطرق عديدة يذكر منها "البر والإحسان لأنه يوصل إلى القلوب ألطافاً، ويثنيها محبة وانعطافاً، ويستشهد بقوله تعالى:(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

[2] لأن في التقوى رضى الله وفي البرّ رضى الناس" [3]. فهو الدافع الذي يحرك المرء على العطاء. فالمسلم حريص على انتزاع ثناء الناس وتقديرهم لأن ثناءهم ثمرة لعمله في الدنيا، لذلك يقول "اللهم اجعلني خيراً مما يظن الناس، واغفر لي مالا يعلمون ولا تؤاخذني بما يقولون".

هـ. **تأكيد الذات وتحقيقها:** يظهر دافع تأكيد الذات لأول مرة عند الطفل عندما يرفض البقاء في الغرفة لمجرد أنه صار يقوى على الحبو أو المشي. بعدها يظهر التحدي لتأكيد الذات، فهو يريد أن يأكل بمفرده دون مساعدة أمه. ويرفض الأوامر ويظهر العناد. ويزداد هذا الدافع قوة كلما نضج الطفل. وقد حثّ الإسلام على تعويد الطفل على تحمل المسؤولية حسب طاقاته وقدراته، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "يَا أَيُّهَا النَّاسُ خُذُوا مِنْ الْأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا، وَإِنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ مَا دَامَ وَإِنْ قَلَّ" [4]. وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينمي دافع تأكيد الذات وتحقيقها لدى أصحابه، وكان يحث على استقلالية التفكير والرأي وتجنب التبعية والتقليد الأعمى للآخرين، يقول صلى الله عليه وسلم "لا تَكُونُوا إِمَّعَةً، تَقُولُونَ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا وَإِنْ أساؤوا أسأنا، وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا، وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا تَظْلِمُوا" [5]. ولابد من

---

(1) المجادلة، 11

(2) المائدة، 2.

(3) الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص 168.

(4) رواه البخاري، في كتاب اللباس، باب الجلوس على الحصير ونحوه، حديث رقم 5413.

(5) أخرجه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الإحسان والعفو، حديث رقم193.

إشباع هذا الدافع بالإيمان. ويشترط الإسلام له العمل الصالح، ولابد أن يكون صاحبه مؤمناً، قال تعالى:(فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ) [1].

ويقول الماوردي في إثبات الذات واحترامها "ولا ينبغي أن يجهل من نفسه مبلغ علمها، ولا أن يتجاوز بها قدر حقها، وَلأَنْ يكون بها مقصراً فيذعن بالانقياد، أولى من أن يكون بها مجاوزاً، فيكف عن الازدياد، لأن من جهل حال نفسه، كان لغيرها أجهل"[2]. وقال "إذا أشرفت النفس كانت للآداب طالبة وفي الفضائل راغبة"، ويستشهد بأبيات من الشعر هي :

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها	**هوانا بها كانت على الناس أهونا**
فنفسك أكرمها وإن ضاق مسكن	**عليك لها فاطلب لنفسك مسكناً**
وإياك والسكنى بمنزل ذلة	**يعد مسيئاً فيه من كان محسناً**

وعليه، يمكن القول بأن على المربين تبصير الناشئة بقدراتهم وإمكاناتهم وميولهم وتهيئة البيئة المناسبة لهم لاكتساب الخبرات وتحقيق ذواتهم [3].

- **الدوافع اللاشعورية:**

يُدفع المرء لإشباع دوافعه للوصول إلى حالة من التوازن النفسي، غير أن الحياة بما فيها من قيود اجتماعية وأوامر ونواه دينية تحول أحياناً دون إشباعها بالطرق الابتدائية، فقد يلجأ إلى كبتها في اللاشعور، والميل إلى تناسيها أو تجاهلها. واللاشعور هو المنطقة التي لا تقع ضمنها الخبرات الواقعية الحسية.

ويشير الشريف في كتابه "سكينة الإيمان" إلى أن "الفطرة تقع في اللاشعور، ويستدل على ذلك برواية حذيفة التي قال فيها: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين رأيت أحدهما وأنا انتظر الآخر "إن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم علموا من القرآن، ثم علموا من السنة" وحدثنا عن رفعها... إلى آخر الحديث" [4]. ويرى أن الجذر من النبات هو الجزء الخفي الحي الفعال منه، وكذا الحال بالنسبة إلى اللاشعور، فهو الجزء الخفي من الشخصية... ويضيف بأن معرفة الخالق العظيم إنما هي معرفة مخزونة في اللاشعور،

---

(1) الأنبياء، 94.

(2) الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص 68.

(3) المرجع السابق، ص 291-292.

(4) رواه البخاري.

ويستدل على ذلك بقصة الإشهاد التي أخبرنا بها الله سبحانه وتعالى، فالمعرفة لا شعورية وتصلنا منها مشاعر الارتياح والانشراح القلبي للإيمان بالخالق"[1].

والإنكار النفسي أو الغفلة حيلة دفاعية لاشعورية تلجأ لها الشخصية للتحرر من القلق الذي قد ينتابها عند مواجهة بعض الحقائق التي لا يمكن تغييرها. فالموت يشكل قلقاً نفسياً يقض مضجع الفرد، ولكنه يتغافل عن هذه الحقيقة ويتناساها، فيعيش ويخطط ويبني الآمال، وكأنه لن يموت، فهو بذلك ينكر حقيقة أنه سيموت لأن هذه الحقيقة تؤلمه، على الرغم من أنه متيقن بأنه سيموت يوماً.

وتبدأ الدوافع اللاشعورية عملها في مرحلة الطفولة عندما يتركز نشاط الطفل على إشباع رغباته دونما اكتراث بالمعايير الاجتماعية والدينية السائدة. وللدوافع اللاشعورية أهمية في تحديد السلوك الإنساني، فقد تدفعه إلى سلوكات مرضية، قد تظهر على شكل مخاوف مرضية، لا تستند إلى أساس واقعي، ولا إلى أسباب موضوعية، ويصعب السيطرة عليها، كالخوف من الأماكن المرتفعة والخوف من ركوب البحر والخوف من الظلام...الخ. كما قد تظهر على شكل وساوس قهرية كتكرار الوضوء مرات عديدة دونما سبب موضوعي، وكوساوس الأفكار التي تتسلط على المصلي أحياناً فتهجم عليه قسراً، إلا أنه لا يسأل عنها مهما كان موضوعها، فقد روي أن النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم جاءه رجل فَقَالَ "إِنَّ أَحَدَنَا يَجِدُ فِي نَفْسِهِ يُعَرِّضُ بِالشَّيْءِ لأَنْ يَكُونَ حُمَمَةً أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ، فَقَالَ اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الْوَسْوَسَةِ"[2]. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ جَاءَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَسَأَلُوهُ "إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ، قَالَ وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ، قَالُوا نَعَمْ، قَالَ ذَاكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ"[3].
وقد أشار القرآن الكريم إلى الدوافع اللاشعورية في قوله سبحانه: (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ(29) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ)[4]. وفي تفسير هاتين الآيتين الكريمتين، يقول أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه "ما أسرّ أحد سريرة إلا أبداها الله

---

(1) محمد كمال الشريف، سكينة الإيمان، ص 176-179.

(2) رواه أبو داود في كتاب الأدب، باب رد الوسوسة، حديث رقم 4448.

(3) رواه مسلم في كتاب الإيمان، بيان الوسوسة في الإيمان، حديث رقم 188.

(4) محمد، 29-30.

على صفحات وجهه وفلتات لسانه" . وفي الحديث "ما أسر أحد سريرة إلا كساه الله تعالى جلبابها، إن خيراً فخير وإن شراً فشر" [1]. وعليه، فإن الخبرات اللاشعورية يمكن أن تظهر على شكل فلتات اللسان، وقد تظهر على تعبيرات الوجه.

وقد تعرّض الإسلام إلى ثلاثة أنواع من السلوكات الخاطئة، التي لا تترتب عليها المسؤولية، والتي تنشأ عن الدوافع اللاشعورية وهي سلوكات كلامية خاطئة تدور حول اللغو في القسم، قال تعالى:(لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ) [2]. فالله سبحانه لا يؤاخذنا باللغو في الأيمان، ذلك أنها تصدر عن اللسان (أو فلتات اللسان) لا عن القلب الواعي. والنوع الثاني هو السلوكات العقلية الخاطئة كأخطاء الحدث وأخطاء النائم وأخطاء المجنون، وفي ذلك يقول صلى الله عليه وسلم "رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ عَنْ الصَّبِيِّ حَتَّى يَبْلُغَ، وَعَنْ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنْ الْمَعْتُوهِ حَتَّى يَبْرَأَ" [3]. أما النوع الثالث فيتعلق بالسلوكات النفسية الناشئة عن النسيان والخطأ، قال تعالى: (رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا) [4] وقال صلى الله عليه وسلم "إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ" [5].

وقد أشار القرآن الكريم إلى ثلاثة أنواع من وسائل الدفاع (الحيل) اللاشعورية التي يلجأ إليها المنافقون عادة، هي:

أ. **التبرير:** ويقصد به تبرير السلوك لإضفاء صفة المقبولية عليه، ويتضح ذلك في قوله تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (12) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ) [6].

الإسقاط: ويقصد به إسقاط المرء عيوبه ودوافعه على الآخر، كما في قول العرب "رمتني بدائها وانسلّت". ويتضح ذلك في قوله تعالى في وصف المنافقين: (يَحْسَبُونَ

(1) انظر مختصر تفسير ابن كثير للصابوني، ج3، ص 336-337.

(2) المائدة، 89.

(3) رواه أبو داود في كتاب الحدود، باب في المجنون يسرق أو يصيب حداً، حديث رقم3824.

(4) البقرة، 286.

(5) رواه ابن ماجة، كتاب الطلاق، باب طلاق المكره والناسي، حديث رقم 2035.

(6) البقرة، 11-13.

كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ)[1]. فالمنافقون يبطنون العداء للمسلمين ويسقطونه على المسلمين، لذلك فهم يحسبون كل صيحة موجهة ضدهم وهماً.

ويمكن النظر إلى الغيبة على أنها شكل من أشكال الإسقاط. فمن يغتاب الآخرين يغتابهم لينفّس عن حسده وعدائه لهم، وليشعر بالتعالي عليهم. وهو يغتابهم ليجمل صورته الاجتماعية عن ذاته، فهو يخلو من تلك العيوب. وبذا فإنه يسقط مشاعره وعيوبه التي ينكرها في نفسه على غيره من البشر.

ج. **تكوين رد الفعل المعاكس:** ويقصد به إظهار سلوك يكون معاكساً للسلوك الباطني. أي أن المرء هنا يبطن أمراً ويظهر نقيضه. ويتضح ذلك في قوله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (204) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ)[2].

وقد يظن الإنسان أنه قادر على تحقيق الأمن النفسي حين يبدي للآخرين غير ما يبطن، إذ لا يستطيع الآخرون سبر أعماقه للتعرف على أسراره ونواياه، غير أنه سبحانه الذي خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه يسمع أسرار النفوس ونجواها، فلا تخفى عنه خافية، قال تعالى: (وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)[3] وقال سبحانه: (وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ)[4]. وقال أيضاً: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)[5]. ويوم القيامة، يأتي كل إنسان ومعه كتابه، فيه كل ما أظهر وأبطن، فكل ما يجول بخاطره من خير أو شر مسجل في كتابه، قال تعالى(أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ)[6].

- **الصراع بين الدوافع:**

خلق الله الإنسان وأوجد فيه الدوافع الفطرية للحفاظ على حياته وتطوّره ولبقاء النوع الإنساني، وبالتالي لتمكينه من تحقيق الغاية من وجوده. فالإنسان بالفطرة، يكون

---

(1) المنافقون، 4.

(2) البقرة، 204-205.

(3) الملك، 13.

(4) النمل، 74.

(5) ق، 16.

(6) الزخرف، 80.

مدفوعاً لإشباع دوافع الجوع والعطش والجنس والمأوى ...الخ. وهي الـدوافع التـي تكفـل الله تعالى بإشباعها لسيدنا آدم عليه السلام وهو في الجنة.

وتتفاعل النفس الإنسانية مع زينة الحياة الدنيا على مستويين، ففي المستوى الأول تتفاعل النفس مع زينة الحياة الدنيا من مال وبنين مدفوعة بالرغبة في سدّ الحاجات الفسيولوجية. فالله سبحانه وتعالى يدعو إلى تنظيم إشباع الدوافع وتوجيهها على نحو يراعي مصلحة الفرد والجماعة، كي يسيطر على دوافعه ويوجهها ولا تسيطر عليه. فالإنسان، مثلاً، يأكل ليعيش ولا يعيش ليأكل. ويقول سبحانه مقراً بمشروعية إشباع الدوافع الفسيولوجية الفطرية، وبالتالي عدم الدعوة إلى كبتها:(يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ)[1]، ويقول تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)[2]، ويقول أيضاً (كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ)[3]، ويقول سبحانه بشـأن إشباع دافع الجنس بالطريقـة المشروعـــة: (نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ)[4]، ويقول أيضاً: (وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)[5]. وفي هذا المستوى الأول من التفاعل يتساوى الناس جميعهم في إشباع حاجاتهم الفسيولوجية. فالإقبال على نعم الحياة الدنيا يكون بدافع سدّ الحاجات، وليس بدافع الرغبة في الحصول على اللذة الكامنة في تلك النعم، وعليه، ينبغي التفريق بين مفهومي المنفعة (أي سدّ الحاجة) والمتعـة (أي اللذة). فالمتعة كما وردت في القرآن الكريم هي علاقة سيكولوجية بين النفس البشرية وبين شهوات المال والنساء والبنين. وهي علاقة تزيين وليست علاقة سدّ حاجة فسيولوجية. ومن هنا كانت محور الابتلاء.

أما المستوى الثاني من تفاعل النفس مع زينة الحياة الدنيا فيرتبط بدور اللذة الابتـدائي أي بالمتعة بين النفس والشهوات المودعة في النعم. ومن هنا يبدأ الصراع بـين الـدوافع، ومـن هنا يكون الابتلاء. فبعد أن تبدأ النفس بإشباع دوافعها الفسيولوجية، فإنها

(1) البقرة، 168.
(2) البقرة، 172.
(3) البقرة، 60.
(4) البقرة، 223.
(5) الروم، 21.

تنشط تلقائياً إلى تذوق المتع (اللذة) المودعة في النعم. وهكذا فإن طلب الطعام لا يعد مقصوراً على إشباع دافع الجوع، بل يتعدى ذلك ليشمل أصنافاً معينة من الطعام يؤكل في مطعم معين. فعند ابن آدم ما يكفيه، ولكنه يطلب ما يُطغيه، فلا يقنع بالقليل ولا يشبع من الكثير. وطلب اللباس لا يعد مقصوراً على ستر الجسد، بل يتعدى ذلك ليشمل ملابس متنوعة من محلاّت بعينها، وبمواصفات معينة . والمضاجعة لا تقتصر على إذهاب العنت ... وهكذا. ففي هذا المستوى من التفاعل بين النفس وزينة الحياة الدنيا تتذوق النفس البشرية الشهوات المودعة في تلك النعم، وتتمتع بها. وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم النفس بحب الشهوات من المال، وفي ذلك يقول "لَوْ أَنَّ ابْنَ آدَمَ أُعْطِيَ وَادِيًا مَلْئًا مِنْ ذَهَبٍ أَحَبَّ إِلَيْهِ ثَانِيًا، وَلَوْ أُعْطِيَ ثَانِيًا أَحَبَّ إِلَيْهِ ثَالِثًا، وَلا يَسُدُّ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلاَّ التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ" [1]. وعن كعب بن عياض رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "إن لكل أمة فتنة وفتنة أمتي المال" [2]. ولمّا كان ما يتوافر من النعم في لحظة ما يقل نسبياً عن الحدّ المطموع فيه، ولمّا كان هذا هو حال النفس الإنسانية عموماً، فإن الدوافع النفسية والاجتماعية ذات الطابع السلبي كالبخل والشح والتنافس والعدوان والحسد وغيرها، التي كانت كامنة في النفس، تبدأ بالحركة والنشاط، جراء التفاعل الاجتماعي، غير أن العوامل ذاتها تثير الدوافع الروحية (الإيمانية) والدوافع النفسية والاجتماعية ذات الطابع الإيجابي، في بعض النفوس البشرية. ومن هذه الدوافع الشفقة والرحمة والقناعة والكرم وغيرها. وهكذا يمكن القول بأن نشأة المجتمعات الإنسانية جاءت نتيجة لتفاعلات النفس مع زينة الحياة، وهي في الوقت ذاته شرط أساسي للابتلاء.

وتتمثل حقيقة الابتلاء على شكل جملة من الأوامر والنواهي التي تحكم تفاعل النفس مع نعم الحياة الدنيا. ومن المتوقع أن تتضارب هذه الأوامر والنواهي مع أهواء النفس وشهواتها. وقد يشتد الصراع، الأمر الذي قد يجعل من طاعة أوامر الله أمراً عسيراً على النفس. ويصور القرآن الكريم حالة الصراع النفسي بين أهواء النفس والامتثال بأوامر الله التي تنتهي بإيثار الحياة الدنيا وما يترتب على ذلك من مصير، بقوله تعالى:(فَأَمَّا مَنْ طَغَى (37) وَآَثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) (38فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى)[3] وقوله

---

(1) سبق تخريجه.

(2) أخرجه الترمذي في الزهد/ النووي، ج1، ص 426.

(3) النازعات، 37-39.

أيضاً:(وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) [1]. كما يصف القرآن الكريم حالة الحيرة والصراع النفسي بين دوافع الإيمان والكفر بقوله تعالى: (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (142) مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا)[2]. وقد شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم حالة الصراع النفسي الذي يشعر به المنافق في تردده بين الانضمام إلى المؤمنين أو إلى الكفار بحال الشاة الجائرة بين مجموعتين من الغنم، تنضم إلى أحدها مرة وإلى الأخرى مرة، فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال "مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمتين تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة" [3].

وهكذا فقد اقتضت المشيئة الإلهية أن يكون الطريق الذي تختاره النفس الإنسانية في حلّ هذا الصراع هو الابتلاء الحقيقي لها في الحياة، فعليها أن توفق بين طاعة الله والانتفاع بزينة الحياة الدنيا، وأن تحقق التوازن بينهما، قال تعالى: (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا) [4] وقال سبحانه: (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا) [5]، وقال أيضاً: (يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) [6]، وقال تعالى: وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا [7]. فإذا حققت النفس الإنسانية التوازن واجتازت الامتحان، فإنها تحصل على ثواب الآخرة، قال تعالى: (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)[8]، أما إذا انساقت النفس وراء شهواتها وملذاتها وتناست أوامر الله، فقد فشلت في هذا الامتحان وكتب عليها الشقاء في الدنيا والآخرة، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

---

(1) الجمعة، 11.

(2) النساء، 142-143.

(3) أخرجه مسلم في كتاب المنافقين/ ناصف، ج5، ص 45.

(4) الفرقان، 67.

(5) الإسراء، 29.

(6) الأعراف، 31.

(7) القصص، 77.

(8) النازعات، 40-41.

وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (34 يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ)[1] وقال أيضاً: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)[2].

ويكشف تقويم أداء النفس البشرية عبر التاريخ إخفاقها عموماً في السيطرة على الدوافع وعجزها عن الشكر، قال تعالى: (وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ)[3]، وقال سبحانه: (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ)[4]، وقال أيضاً: (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ)[5]. فقد تمكن الشيطان من تزيين المال والبنين والنساء في النفس، فاتبعت طريق الفجور، وكفرت بالنعمة وعظمت المتعة. وهذا ما يفسر حال الأغلبية من البشر عبر التاريخ. وتبقى القلة من البشر الذين اتقوا وفضلوا طريق التقوى، فعملوا الصالحات وشكروا النعمة وعظّموا الإيمان، فآثروا الحياة الآخرة ولم ينسوا نصيبهم من الدنيا.

وبناء على ما سبق، يترتب على النفس الإنسانية ضبط دوافعها وتنظيم إشباعها باعتدال ودونما إسراف، قال النبي صلى الله عليه وسلم "إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنْ الدُّلْجَةِ"[6]. وتلعب علوم الشريعة الإسلامية دوراً بارزاً في تفاعل النفس مع زينة الحياة، فالعبادات تسهم إسهاماً فاعلاً في إرشاد النفس وعلاجها وتوجيهها نحو طريق الخير والفلاح؛ فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والزكاة تطهر النفس وتزكيها من الشح والبخل، والصوم ينظم عمل الدوافع الفسيولوجية من جوع وعطش وجنس. وتعنى العادات بالأطر المناسبة للتفاعل في كافة المناحي الاجتماعية. وفي ضوء ذلك تبرز أهمية المعاملات والجنايات في تحديد أطر التفاعل الاجتماعي المتعلق بزينة الحياة الدنيا، ومن ثم علاج أشكال الظلم والعدوان الناشئة عن تعظيم الدوافع الاجتماعية ذات الطابع السلبي.

---

(1) التوبة 34-35.

(2) المنافقون، 9.

(3) الأعراف، 102.

(4) سبأ، 13.

(5) يوسف، 38.

(6) أخرجه البخاري/النووي، كتاب الإيمان، باب الدين يسر، حديث رقم38.

- **تنظيم إشباع الدوافع:**

اقتضت المشيئة الإلهية وجود دوافع في النفس البشرية لحفظ الذات وبقاء النوع. لذا فإن إشباعها أمر طبيعي تقتضيه الفطرة. والإسلام دين الوسطية والاعتدال. ففي الوقت الذي يدعو فيه إلى إشباع الدوافع وعدم كبتها، فإنه لا يسمح بإشباعها دون قيد أو ضابط يمنع الشطط في أي دافع منها. فدوافعنا كالرياح التي تدفع السفن، لذلك علينا أن لا نترك شراع السفينة لحالها، وإلا جرّتنا معها كالأسرى والأرقّاء. ومن هنا كان لابد من تنظيم عمل الدوافع وإشباعها وردّها إلى الاعتدال الذي هو بين الإفراط والتفريط.

وفي هذا الصدد يرى الغزالي أنه باحتكام الإنسان إلى العقل والشرع يعلم حدّ الاعتدال المحمود. ويضرب مثالاً على التعاون بين العقل والشرع لهذه الغاية، يقول "إذا فكر الإنسان بعقله وراعى حدّ الشرع وحكمه ومقاصده، فإنه يعلم أن شهوتي البطن والفرج جُهِّز الإنسان بهما ليبعثاه على حفظ الفرد والنوع بسلامة البدن، الذي به صحة العقل وجودة التفكير، وطلب العلوم وحقائق الأمور. وبالنسل الذي به عمارة الأرض وبقاء العالم. وإذن فليس للمرء إن استشار عقله أن ينيل هاتين الشهوتين كل سؤلهما. وحري به أن يقصد منهما ما خلقتا له. وليكن شعاره في الأمر أنه يأكل ليعيش لا أنه يعيش ليأكل. وفي الثانية أن يتزوج ليحصن نفسه ويساهم في بناء العالم لا ليطلب اللذة ويلهو ويتمتع فحسب" [1]... ويكون ذلك على أساس تحديد حدّ الضرورة فيكون مقتصراً من كل أمر على قدر الحاجة [2].

والمنهج الإسلامي في تنظيم إشباع الدوافع منهج عام، ولا يتسع المقام لعرض كيفية تنظيم إشباع كل دافع من الدوافع الإنسانية على حدة، لذا فسنكتفي بالحديث عن تنظيم إشباع دافعي الجوع والجنس.

1. **تنظيم إشباع دافع الجوع:** يحرص الإسلام على تنظيم إشباع دافع الجوع بطرق عدة، لعل أبرزها :

أ. التزام حدّ الحلال في إشباع الدافع، بأكل الطيبات، التي يكون مصدرها حلالاً، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا) [3]، وقال سبحانه:

---

(1) معارج القدس في معرفة مدارج النفس، ص 94-95.

(2) الإحياء، ج2، ص 65.

(3) البقرة، 168.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)[1]، وقال أيضاً: كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ) [2]. وأمر سبحانه بأكل ما يذكر اسم الله عليه، قال تعالى: (فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآَيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ)[3].

ب. تجنب الإشباع بالطعام الحرام، فقد حرّم الإسلام أكل الميتة والدم والخنزير ومشتقاته، قال تعالى: (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ)[4]. كما نهى الرسول الكريم عن أكل الطعام الذي مصدره حرام، بقولِه صلى الله عليه وسلم "لا يدخل الجنة جسد غذي بحرام" [5].

ج. التزام حدّ الاعتدال في إشباع الدافع: يؤكد الإسلام، وهو دين الاعتدال، على الاعتدال في إشباع دافع الجوع دون إسراف أو تقصير يضر بالصحة. فنهى عن العزوف عن الطعام خشية الإضرار بالصحة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ" [6]. وقال صلى الله عليه وسلم "لاَ صَامَ مَنْ صَامَ الأَبَدَ"[7]. كما نهى عن النهم والتوغل في إشباعه دون قيود، خشية مضرة الجسم وإتلاف النعمة، قال تعالى:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) [8]، وقال سبحانه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ [9]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، حَسْبُ الآدَمِيِّ لُقَيْمَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ غَلَبَتْ الآدَمِيَّ نَفْسُهُ، فَثُلُثٌ لِلطَّعَامِ وَثُلُثٌ لِلشَّرَابِ وَثُلُثٌ لِلنَّفَسِ" [10]، وقال صلى الله عليه وسلم "من فقه الرجل رفقه في معيشته" [1]، وقال

---

(1) البقرة، 172.

(2) الأنعام، 141.

(3) الأنعام، 118.

(4) المائدة، 3.

(5) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي، كتاب الزهد، باب فيمن نبت لحمه من الحرام، ج10، ص296/ الكامل في الضعفاء لإبن عدي عن أبي بكر، ج5، ص1936.

(6) سبق تخريجه.

(7) سبق تخريجه.

(8) الأعراف، 31.

(9) المائدة، 87.

(10) رواه ابن ماجة، كتاب الأطعمة، باب الاقتصاد في الأكل وكراهة الشبع، حديث رقم3340.

صلى الله عليه وسلم "طَعَامُ الاثْنَيْنِ كَافِي الثَّلاثَةَ، وَطَعَامُ الثَّلاثَةِ كَافِي الأَرْبَعَةَ" [2]، وقال صلى الله عليه وسلم "إِنَّ مِمَّا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ[*] يَقْتُلُ أَوْ يُلِمُّ[**] حَبَطًا[***][3]. ومعناه أن إنبات الربيع وخضره تقتل حبطاً بالتخمة لكثرة الأكل أو تقارب القتل إلا إذا اقتصر منه على اليسير الذي تدعو إليه الحاجة، فإنه لا يضر.

د.عدم الاستئثار بالطعام، بل لابد أن يشارك الفقير فيه، قال تعالى: (فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِي) [4]. فللفقير حق فيه قدره له الله تعالى بقوله(وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (24) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ) [5].

2. **تنظيم إشباع دافع الجنس:** حث الإسلام على تنظيم إشباع دافع الجنس بعدة طرق، لعل أبرزها التالية :

أ. التزام حدّ الحلال في إشباعه عن طريق واحد محدد هو الزواج الذي يحدد الحقوق والواجبات؛ فيحمي من الانحراف ويهيئ البيئة الملائمة للإنجاب. فقد خلق الله الذكر والأنثى، ونظَّم إشباع هذا الدافع بالحلال وبالطرق المشروعة، قال تعالى: (وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)[6]، وقال: (وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ)[7] وقال سبحانه: (هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ [8]، وقال أيضاً: نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ) [9].

ب. الحث على الزواج، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم "يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنْ اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ

---

(1) أخرجه أحمد في مسنده من حديث أبي الدرداء، حديث رقم 21592، ج16، ص64.

(2) رواه الترمذي، كتاب الأطعمة، باب طعام الواحد يكفي اثنين، حديث رقم1742.

(*) الربيع: الجدول أو النهر الصغير.

(**) يلم: يقرب من الهلاك.

(***) حبطا: انتفاخاً من كثرة الأكل.

(3) أخرجه الشيخان/ناصف، أخرجه أحمد، مسند المكثرين، باب أبي سعيد الخدري، حديث رقم10730.

(4) الحج، 28.

(5) المعارج، 24-25.

(6) الروم، 21.

(7) النور، 32.

(8) البقرة، 187.

(9) البقرة، 223.

وِجَاءٌ" [1]، وقال صلى الله عليه وسلم "مَنْ قَدَرَ عَلَى أَنْ يَـنْكِحَ فَلَـمْ يَـنْكِحْ فَلَـيْسَ مِنَّـا" [2]، وقال صلى الله عليه وسلم "النكاح من سنتي فمن لم يعمل بسنتي فليس مني. وتزوجـوا فإني مكاثر بكم الأمم"[3]، وقال أيضاً "ثَلاثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ عَوْنُهُمْ، الْمُجَاهِـدُ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ، وَالْمُكَاتَبُ الَّذِي يُرِيدُ الأَدَاءَ، وَالنَّاكِحُ الَّذِي يُرِيدُ الْعَفَافَ" [4]، وقال صلى الله عليه وسـلم "إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَـنْ تَرْضَـوْنَ دِينَـهُ وَخُلُقَـهُ فَزَوِّجُـوهُ، إِلاَّ تَفْعَلُـوا تَكُـنْ فِتْنَـةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ" [5]. وقد حث الإسلام على الزواج المبكر، فعن عروة قَـالَ نَكَـحَ رسـول الله عَائِشَةَ وَهِيَ بِنْتُ سِتِّ سِنِينَ ثُمَّ بَنَى بِهَا وَهِيَ بِنْتُ تِسْعِ سِنِينَ" [6].

هذا وقد يسَّر الإسلام سبيل الزواج، قال النبـــي صلى الله عليه وسلم "أَعْظَمُ النِّسَاءِ بَرَكَةً أَيْسَرُهُنَّ مَئُونَةً" [7]، وقال صلى الله عليه وسـلم لرجـل في المهـر "الْـتَمِسْ وَلَـوْ خَاتَمًـا مِـنْ حَدِيدٍ" [8].

ج. تحريم الانحراف، حرّم الإسلام كافة أنواع الانحراف الجنسي؛ فحرَّم الزنا، قال تعالى:(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا)(9) وعاقـــب مرتكبه، قال تعالى: (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ). كما حرَّم اللواط، قال تعالى: (أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (165) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ) [10]، وقال سبحانه(وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (80) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ)[11]. وقد شرع الإسلام عقوبة لمرتكبه، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم "مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ"[12]. كما منع

(1) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب من لم يستطع الباءة فليصم، حديث رقم 4678.
(2) رواه الطبراني/ الدارمي، كتاب النكاح، باب الحث على التزويج، حديث رقم2070.
(3) أخرجه إبن ماجة في سننه، عن عائشة رضي الله عنها، كتاب النكاح، باب ما جاء في فضل النكـاح، حـديث رقـم 1846، ج2، ص406-407.
(4) رواه الترمذي، فضائل الجهاد عن رسول الله، باب ما جاء في المجاهد والنكاح والمكاتَب، حديث رقم1579.
(5) أخرجه الترمذي، كتاب النكاح، باب إذا جاءكم من ترضون دينه فزوجوه، حديث رقم 1004.
(6) رواه البخاري، الصحيح، كتاب المناقب، باب تزوج النبي صلى الله عليه وسلم عائشة وقـدومها إلى المدينـة وبنائـه بهـا، حـديث رقـم 3607.
(7) رواه أحمد في مسند الأنصار، باب باقي مسند الأنصار، حديث رقم 23966.
(8) متفق عليه/ أخرجه النسائي، كتاب النكاح، باب هبة المرأة نفسها لرجل بغير صداق، حديث رقم3306.
(9) النور، 2.
(10) الشعراء، 165-166.
(11) الأعراف، 80-81.
(12) الترمذي، كتاب الحدود عن رسول الله، باب ما جاء في حد اللوطي، حديث رقم 1376.

الإسلام الجماع في المحيض، قال تعالى: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ)[1] وحرّم إتيان المرأة في دبرها.

وبالمقابل، فقد نهى الإسلام عن التطرف في تحريم ما أحل الله من الطيبات من أجل التفرغ للعبادة، فمنع الرهبانية، قال تعالى:(وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ)[2]. كما نهى عن التبتل، قَالَ صلى الله عليه وسلم "أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي"[3]. وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ كُنَّا نَغْزُو مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَلَيْسَ لَنَا نِسَاءٌ، فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلا نَسْتَخْصِي فَنَهَانَا عَنْهُ، ثُمَّ رُخِّصَ لَنَا بَعْدُ فِي أَنْ نَتَزَوَّجَ الْمَرْأَةَ بِالثَّوْبِ إِلَى أَجَلٍ ثُمَّ قَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ"[4]. وَقَالَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لِرَجُلٍ يُقَالُ لَهُ عَكَّافُ بْنُ بِشْرٍ التَّمِيمِيُّ "يَا عَكَّافُ هَلْ لَكَ مِنْ زَوْجَةٍ؟ قَالَ لا، قَالَ وَلا جَارِيَةٍ، قَالَ وَلا جَارِيَةَ، قَالَ وَأَنْتَ مُوسِرٌ بِخَيْرٍ، قَالَ وَأَنَا مُوسِرٌ بِخَيْرٍ، قَالَ أَنْتَ إِذًا مِنْ إِخْوَانِ الشَّيَاطِينِ، وَلَوْ كُنْتَ فِي النَّصَارَى كُنْتَ مِنْ رُهْبَانِهِمْ إِنَّ سُنَّتَنَا النِّكَاحُ شِرَارُكُمْ، عُزَّابُكُمْ وَأَرَاذِلُ مَوْتَاكُمْ عُزَّابُكُمْ أَبِالشَّيْطَانِ تَمَرَّسُونَ مَا لِلشَّيْطَانِ مِنْ سِلاحٍ أَبْلَغُ فِي الصَّالِحِينَ مِنْ النِّسَاءِ إِلاَّ الْمُتَزَوِّجُونَ أُولَئِكَ الْمُطَهَّرُونَ الْمُبَرَّءُونَ مِنْ الْخَنَا"[5].

د. الاستعفاف: أمر الله سبحانه وتعالى بالاستعفاف (أي ضبط الغريزة وتوجيهها بالاتجاه الطبيعي لها)، قال تعالى:(وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ)[6]. وقد ترجم سيدنا يوسف الاستعفاف عملياً عندما قال لامرأة العزيز معاذ الله واستعصم وقاوم إغراءها بعد أن رأى برهان ربه، قال تعالى: (وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)[7]. وقد حثّ الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الرجال إذا ما تعرضوا لرؤية امرأة جميلة تثير فيهم الشهوة أن يواقعوا زوجاتهم، قال صلى الله عليه وسلم "إِذَا

(1) البقرة، 222.
(2) الحديد، 27.
(3) سبق تخريجه.
(4) رواه مسلم، كتاب النكاح، باب نكاح المتعة وبيان أنه أبيح، حديث رقم2493.
(5) أخرجه أحمد في كتاب مسند الأنصار، باب حديث أبي ذر الغفاري، حديث رقم20477.
(6) النور، 33.
(7) يوسف، 23.

أَحَدُكُمْ أَعْجَبَتْهُ الْمَرْأَةُ فَوَقَعَتْ فِي قَلْبِهِ فَلْيَعْمِدْ إِلَى امْرَأَتِهِ فَلْيُوَاقِعْهَا فَإِنَّ ذَلِكَ يَرُدُّ مَا فِي نَفْسِهِ"[1].

هـ. التسامي ويقصد به تحويل الطاقة الغريزية وتوجيهها إلى مصدر آخر فيه خير المرء في الدنيا والآخرة وصرف الجهد عن الدافع الأصلي، فقد قَالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم "يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ"[2].

- **الرؤية القرآنية لتفاعل النفس مع زينة الحياة:**

وحتى تكتمل الصورة النفسية القرآنية، ارتأينا تلخيص موضوع الدافعية وربطه ببنية النفس الإنسانية وأحوالها من خلال نموذج للرؤية القرآنية لتفاعل النفس الإنسانية (بدوافعها المختلفة) مع زينة الحياة الدنيا لتشكل أحوال النفس. وتتضح معالم هذه الرؤية، كما في الشكل رقم (8) على النحو التالي: تتفرع زينة الحياة الدنيا إلى عنصري المال والبنين، مصداقاً لقوله تعالى: (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)[3]. وقد أودع سبحانه في المال والبنين شهوات ولذة جامحة حببها إلى النفس وزينها لها، قال تعالى: (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ)[4]. ففصلت هذه الآية الكريمة عنصر الأبناء عن النساء، إشارة إلى علاقة الرجل بالمرأة، وما تتضمنها من ابتلاء الجنس. كما فصّلت عنصر المال إلى الذهب والفضة (ثروة معدنية) والخيل المسومة والأنعام (ثروة حيوانية) والحرث (ثروة زراعية). وتتفاعل النفس الإنسانية مع عناصر زينة الحياة، ويكون ابتلاؤها بها، قال تعالى:(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)[5]. وتشير الأسهم المنعكسة إلى التفاعل بين النفس وعناصر زينة الحياة.

---

(1) أخرجه مسلم، كتاب النكاح، باب ندب من رأى امرأة فوقعت في نفسه إلى أن يأتي، حديث رقم2492.

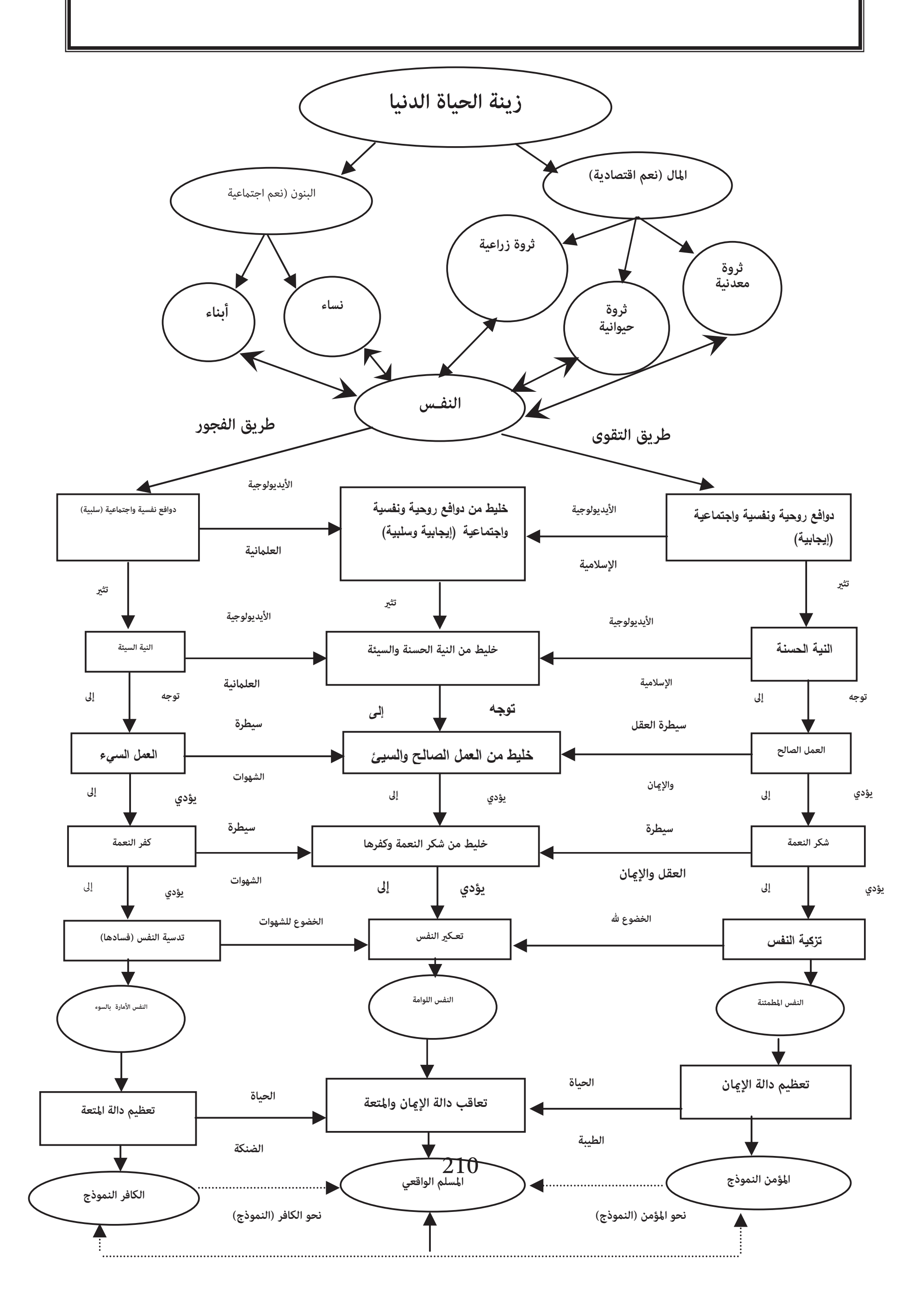
(2) رواه البخاري، في كتاب النكاح، باب ما جاء في قول رسول الله من استطاع منكم الباءة فليتزوج، حديث رقم 4677.

(3) الكهف، 46.

(4) آل عمران، 14.

(5) الكهف، 7.

الشكل رقم (8) نموذج مقترح للرؤية القرآنية لتفاعل النفس الإنسانية (بدوافعها المختلفة) مع زينة الحياة الدنيا لتشكيل أحوال النفس



وقد أودع الله سبحانه في النفس البشرية دوافع فسيولوجية وروحية ونفسية واجتماعية (تم الحديث عنها سابقاً) لابد من إشباعها، ولو جزئياً، لاستمرار حياة الفرد وتطوّره، ولحفظ النوع من الانقراض. وتنشط الدوافع النفسية والاجتماعية والروحية (التي تمثل ميكنزمات الابتلاء) بمجرد أن تؤدي الدوافع الفسيولوجية دورها في ابتداء التفاعل بين النفس وعناصر زينة الحياة الدنيا. وقد ألهم الله سبحانه النفس الإنسانية إلى طريقي التقوى والفجور، كما منحها حرية الاختيار. ويترتب على اختيار النفس لأحد الطريقين مجموعة أفعال (سلوكات) ترتبط ببعضها بعضاً. فمجموعة أفعال النفس المطمئنة مثلاً، التي تمثل حالة المؤمن النموذج تمثلها الأفعال (داخل المستطيلات) الموجودة في أقصى يمين النموذج . أما مجموعة أفعال النفس الأمارة بالسوء التي تسم أفعال الكافر النموذج فتمثلها الأفعال (داخل المستطيلات) الموجودة في أقصى يسار النموذج. وتتوسط أفعال المسلم الواقعي الرسم التوضيحي للنموذج، وهو الذي تتعاقب عليه الدوافع الإيجابية والسلبية، فيعظم المتعة والإيمان.

وهكذا فإن اختيار النفس طريقها (التقوى أو الفجور) عند تفاعلها مع عناصر زينة الحياة الدنيا يحدِّد حالها. ولمّا كان الرسم موضحاً تماماً للنموذج المقترح، فهو يشرح نفسه بنفسه، فسنكتفي بتوضيح أفعال المؤمن (النموذج). فإذا اختارت النفس الإنسانية طريق التقوى، فستتحرك الدوافع الروحية والنفسية والاجتماعية ذات الطابع الإيجابي (كالكرم والخوف من الله والقناعة والشفقة... الخ)، وتستثير النيّة فتوجه السلوك نحو العمل الصالح، الذي يقود إلى شكر النعمة، الذي يؤدي بدوره إلى تزكية النفس، فتنشأ النفس المطمئنة التي تعظم دالة الإيمان في سلوكاتها، فتعكس بذلك حال المؤمن النموذج.

ومن الجدير بالذكر أن سلوك المؤمن النموذج ينطوي على تعظيم دالة الإيمان، فيما ينطوي سلوك الكافر النموذج على تعظيم دالة المتعة. أما المسلم الواقعي فينطوي سلوكه على تعاقب دالتي الإيمان والمتعة (أي المنفعة). وتشير الخطوط المتقطعة المرسومة بين أحوال النفس إلى أنها (أي أحوال النفس) تقع على خط متصل، يبدأ بحال النفس المطمئنة، وينتهي بحال النفس الأمارة بالسوء، مروراً بأحوال وسطية متعددة، تتوسط الأحوال المتمايزة. كما تشير الأسهم المتقطعة في أسفل النموذج إلى تقلب النفس وإمكانية تحولها من حال إلى آخر. ولّما كانت سمة الثبات هي الغالبة على أحوال النفس، جاءت الخطوط متقطعة وليست متصلة. أما بالنسبة للأشكال الواردة في النموذج؛ فقد اخترنا الشكل المستطيل لتمثيل الأفعال، والشكل البيضوي لتمثيل النفس وأحوالها وعناصر زينة الحياة التي تتفاعل معها النفس، لتمييزها عن الأفعال، ولا يختلف الأمر بحال ما إذا كان الشكل المرسوم بيضوياً أو دائرياً أو مربعاً... ما دامت له حدوده المغلقة. كما أن حجم الشكل لا يعدُّ هاماً في النموذج.

خلاصة

تعرَّض الفصل الحالي إلى مفهوم الدافعية الإنسانية وحدَّد علاقة الدافع بالنيَّة والحاجة والسلوك. فالدافعية محركات داخلية أو خارجية تثير النيّة، والنية بدورها توجه السلوك، أما الحاجة فمفهوم فرضي يشير إلى حالة الخلل الفسيولوجي الداخلي. فانخفاض نسبة السكر في الدم يمثل الحاجة، فيما يكون الجوع دافعاً لإشباعها. وتتعدد تصنيفات الدوافع الإنسانية، ولكننا نرى تصنيفها إلى دوافع فسيولوجية ودوافع دينية ودوافع نفسية ودوافع اجتماعية ودوافع لا شعورية. وتضم الدوافع الفسيولوجية نوعين من الدوافع هي دوافع حفظ الذات (كدوافع الجوع والعطش والتعب والتنفس...الخ) ودوافع حفظ النوع (دافع الجنس ودافع الأمومة). أما الدوافع الدينية فدوافع فطرية نشأت عن التكوين الروحي للإنسان، وتكون الدافع الرئيسي للسلوك في حالات الخطر التي تهدد حياته. وتضم الدوافع النفسية دوافع الأمن، والتملك، والتعلم. أما الدوافع الاجتماعية فتندرج تحتها دوافع التنافس، والعدوان، والانتماء والحب، والاحترام والتقدير، وتأكيد الذات وتحقيقها. وتشير الدوافع اللاشعورية إلى الخبرات المكبوتة في اللاشعور والتي قد تظهر على شكل فلتات للسان، وتضم دوافع التبرير والاسقاط وتكوين رد الفعل المعاكس.

كما عرض الفصل صور الصراع بين الدوافع المذكورة وأساليب النفس في حلها، وأشار إلى خيبة النفس، عموماً، في التوفيق بين الدوافع المادية والروحية، ذلك أنها عظَّمت المتعة وكفرت بالنعمة. فانحرفت الدوافع عن مسارها المرسوم لها. وقد دعا الإسلام إلى تربيتها وتنظيم إشباعها. وقد بيَّن كيفية تنظيم إشباع دوافع الجوع والجنس والتملك كأمثلة على تربية الدوافع الإنسانية. ففيما يتعلق بتنظيم إشباع دافع الجوع، حرص الإسلام على التزام حدّ الحلال في إشباعه، وأكد ضرورة الاعتدال فيه دون إسراف أو تقصير يضر بالصحة. ولتنظيم إشباع دافع الجنس، حث الإسلام على الزواج المبكر، والتزام حدّ الحلال في إشباعه بالزواج، وحرَّم أشكال الانحراف الجنسي، وأمر بالاستعفاف، والتسامي، وتهيئة المناخ الملائم للعفة من خلال التدابير الوقائية من المثيرات التي قد تؤدي إلى الإثارة الجنسية من مثل غض البصر، وعدم الخلوة، وعدم التبرج، والاستئذان عند الدخول على الوالدين في أوقات القيلولة، والتفريق في المضاجع وغيرها.




الفصل الخامس

السواء والانحراف في الشخصية

- مقدمـة
- مفهوم السواء والانحراف ومعاييرهما
- الشخصية السوية والشخصية المنحرفة
- مستويات الانحراف النفسي
- أنواع الانحرافات النفسية
- مؤشرات سواء الشخصية وانحرافها
- الشخصية الوسطية والشخصية المتطرفة
- الصحة النفسية
- شخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم نموذجاً




الفصل الخامس

السواء والانحراف في الشخصية

مقدمـة

يولد الإنسان على الفطرة السوية القويمة الملهمة، فإن بقيت نفسه على أصل الفطـرة، فإنه ينمو نمواً سوياً، ويسلك سلوكاً سوياً. لذلك يلقى على عاتق الوالـدين والمـربين مسـؤولية جسيمة تتعلق بالحفاظ عـلى الفطـرة وصـيانتها مـن الانحـراف. أمـا إذا طـرأت عـلى الـنفس وساوس الشيطان، عندها تنحرف عن الفطرة وتتحـول عـن السـواء. وقـد تنحـرف كثـيراً، فـلا تؤدي رسالتها في الحياة، ولا تحقق الغاية من وجودها، وفي ذلك ظلم للنفس. فالكفر بالخالق وإنكار الموت والبعث والنشور ظلم للنفس وانحراف لها عـن السـواء. والكـذب عـلى الـنفس انحراف لها، وخيانة النفس انحراف لها كذلك. وتعدي حـدود الله التـي أنزلهـا لصـلاح البشرـ والخروج على النظام الذي سنّته الشرـيعة الإسـلامية فيـه انحـراف للـنفس. وفعـل الفاحشـة داخل في انحراف النفس، والتطرف في الاعتقاد والغلو في الدين انحراف للنفس...

ويهدف الفصل الحالي إلى تحديد مفهـومي السـواء والانحـراف ومعـاييرهما، ومـن ثـم تحديد مفهومي الشخصية السوية والشخصية المنحرفة، وتوضيح مستويات الانحراف النفسي، وبيـان أنـواع الانحرافـات النفسـية. كـما يهـدف إلى اسـتخلاص مـؤشرات سـواء الشخصـية وانحرافاتها، وتوضيح ما يقصد بالصحة النفسية وبالشخصية الوسطية والمتطرفة.

- **مفهوم السواء والانحراف ومعاييرهما:**

حدد الإسلام مفهوم السلوك السوي والمنحرف ومعـاييرهما، ومـا مـن شـك بـأن خـالق الإنسان هو السلطة النهائية لتحديد معايير السواء والانحراف في الشخصية، وليس البشر. فهو سبحانه الذي يعرف كيف يكون الإنسان سوياً، فوضع لذلك القـوانين السـماوية، وهـو تعـالى الذي يعرف أسباب انحراف سلوك الإنسان، وهو الذي يعرف طرق وقايته وصيانة فطرته مـن الانحراف، ويعرف طرق علاجه وصلاحه. وعليه، فلا يجوز اعتماد المعـايير البشرـية في تحديـد سواء الشخصية وانحرافها، لأن البشر ليسـوا أعلـم بالإنسـان مـن الله الـذي خلقـه. فـلا يجـوز اعتماد المعيار الذاتي مثلاً للحكم على سلوك

الآخرين بالسواء أو الانحراف حسب الإطار المرجعي الذاتي. كما لا يجوز اعتماد المعيار الإحصائي الذي يحكم على السلوك الأكثر شيوعاً وتكراراً بالسواء وبخلافه يكون الانحراف. ولا يجوز اعتماد المعيار الاجتماعي الذي يحكم على السلوك الذي يتفق مع المعايير السائدة في المجتمع بالسواء وبخلافه يكون الانحراف ... فلا يجوز اعتماد أي منها للحكم على سواء الشخصية أو انحرافها. ذلك أن هذه المعايير الوضعية قاصرة عن تحديد معيار ثابت لسواء الشخصية لا يختلف باختلاف الثقافة والمجتمع والعصر... لذا لا بد من اعتماد المعيار الإسلامي الثابت الذي له الكلمة الفاصلة في تحديد السواء والانحراف، بوصف السلوك طاعة لأوامر الله سبحانه وبوصفه توجيهاً للإنسان المستخلف في إعمار الأرض.

والإسلام دين الله، وهو دين الوسطية ودين الفطرة. والفطرة هي حال السواء والاستقامة التي يولد الناس عليها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "كل مولود يُولَدُ على الفطرةِ، فأبواه يُهوِّدانِهِ أو ينصِّرانه... "[1] وقال صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى (إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وأنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرّمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً)[2]. وعليه، فإن كل مولود يولد على الفطرة السوية المستقيمة، أي بشخصية سوية، غير أن للوالدين والبيئة عموماً دوراً في انحرافها عن الفطرة. لذلك جاءت تعاليم الإسلام لصيانة الفطرة ووقايتها من الانحراف، وردّها إلى السواء الذي خلقت عليه أول مرة.

وتتعدد الألفاظ التي تعبر عن مفهوم السواء، وتحمل دلالته؛ ومنها: الإيمان، والصراط المستقيم، والاستقامة، وسبيل الله، والتوحيد، إضافة إلى الفطرة، وبالمقابل ما يعبر عن مفهوم الانحراف. ففي "مجموع الفتاوى" يعبر ابن تيمية عن مفهومي "السواء" و "الانحراف" بمفهومي "الإيمان" و "الكفر". ويرى أن الإيمان (أي السواء) جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه. أما الكفر (أي الانحراف) فاسم جامع لكل ما يبغضه الله وينهى عنه. ويأتي هذا الفهم للسواء والانحراف مصداقاً لقوله سبحانه:(وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ)[3]. أي أن من يشتري الكفر بالإيمان فقد خرج عن الطريق السوي إلى طريق الجهل والضلال. فالشخصية السوية هي شخصية المؤمن الذي يعمل بما

(1) سبق تخريجه.

(2) سبق تخريجه.

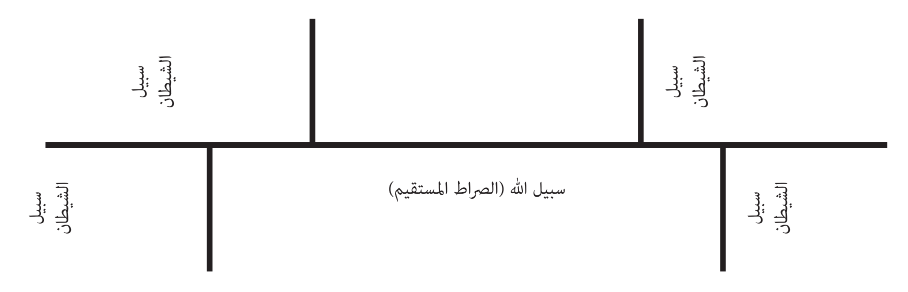
(3) البقرة، 108.

يحبه الله ويرضاه، أما الشخصية المنحرفة فهي شخصية الكافر الذي يعمل ما يبغضه الله وينهى عنه.

كما يعبر ابن تيمية عن السواء في "مجموع الفتاوى" "بالصراط المستقيم"، الذي يقتضي أن يفعل العبد في كل وقت ما أُمر به من علم وعمل، ولا يفعل ما يُنهى عنه"[1]. ويأتي هذا الفهم للسواء مصداقاً لقوله تعالى: (أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)[2]. وقد روى ابن ماجه عن جابر ابن عبد الله قال: كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فخطّ خطاً وخطّ خطين عن يمينه وخطين عن يساره، ثم وضع يده في الخط الأوسط، فقال: هذا سبيل الله، ثم تلا هذه الآية: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)[3]. وفيما يلي رسم توضيحي لما قصده رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الشكل رقم (9)

يوضح حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم **حول سبيل الله وسبل الشيطان**



والصراط المستقيم هو صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين من أهل الهداية والاستقامة. فهو دين الله الذي لا اعوجاج فيه. ويقابله صراط المغضوب عليهم – أي اليهود – الذين عرفوا الحق وعدلوا عنه، فهم أخصّ بالغضب لأنهم أمة عناد. كما يقابل صراط الضالين – أي النصارى – الذين يهيمون في الضلال والجهل لا يهتدون إلى الحق. وقد روى النواس بن سمعان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال "ضرب الله مثلاً، صراطاً مستقيماً، وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة وعلى الأبواب ستور مرخاة وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ص 14-15.

(2) الملك، 22.

(3) الأنعام، 153.

ادخلوا الصراط جميعاً ولا تنفرجوا، وداع يـدعو مـن جـوف الصراط، فـإذا أراد يفـتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه فإنك إن تفتحه تلجه، والصراط الإسلام والسـوران حدود الله تعالى، والأبواب المفتحة محارم الله تعالى، وذلك الداعي على رأس الصراط كتـاب الله عزَّ وجلَّ، والداعي فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم"[1]. وعليـه، فـإن معيـار السـواء هو الالتزام بالمنهج الإسلامي، أما معيار الانحراف فتعدي حدود الله.

وقد حدّد سبحانه في كتابه العزيز ملامح الصراط المستقيم الواجب اتباعه، حتى تسير الشخصية على طريق السواء والاستقامة والهداية. ففي سورة الأنعام، يقول سبحانه:(قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (151) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (152) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)[2]. وعليه، فالصراط المستقيم طريق يقتضي اتقاء ما حرّم الله من الشرك به سبحانه، والإتيان بالفاحشة ما ظهر منها وما بطن، وقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق، وعقوق الوالدين، وعدم إيفاء الكيل والميزان، وأكل مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن... وبالمقابل، فإنه – أي الصراط المستقيم – يقتضي العدل في القول والوفاء بعهد الله ...

كما يرى ابن تيميـة في "مجمـوع الفتـاوى" أن السـواء هـو حـال "التوحيـد"، ويقابلهـا "الشرك" الذي يمثل الانحراف. "فالتوحيد وما يتبعه من حسنات هو صـلاح وعـدل. والـذنوب التي فيها تفريط أو عدوان في حقوق الله تعالى وحقوق العباد هـي فسـاد وظلـم"[3]. وعليـه، فإن الشخصية السوية هي شخصية الرجل الصالح الذي يؤمن

---

(1) رواه أحمد في مسنده، وأخرجه الترمذي والنسائي، انظر: مختصر تفسير ابن كثير للصابوني، ط1، ص23-24.

(2) الأنعام، 151-153.

(3) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج18، ص165.

بوحدانية الله، ويقوم بالواجبات كالبرّ والعدل ... هذا بمقابل الرجل المشرك الظالم الباغي، الذي يريد العلو على غيره من أبناء جنسه...

وإذا كان السواء يمثل الوسطية في سمات الشخصية، أي التحلي بالفضائل، فإن الانحراف يمثل الحياد عن الوسطية والتطرف في سمات الشخصية نحو الرذائل. وإذا كان السواء يمثل التوازن في مكوني الشخصية (المادي، والروحي) أو في مظاهر الشخصية (الجسمية والروحية والاجتماعية والانفعالية والعقلية) فإن الانحراف يمثل الميل نحو أحد المكونين أو أحد المظاهر على حساب الآخر.

ويعدّ القلب أصل السواء والانحراف؛ فجسد الإنسان تابع لقلبه، مصداقاً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم "أَلاَ إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ لَهَا سَائِرِ الْجَسَدُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَد لَهَا سَائِرِ الْجَسَدُ، أَلاَ وَهِيَ الْقَلْب"[1]. وعليه، فالشخصية السوية هي السوية في قلبها؛ أي التي تملك قلباً سوياً صالحاً. وبصلاح القلب تتم معرفة الله ومحبته. وصلاحه يقود إلى السلوك السوي. فالسواء هو الصلاح، والانحراف هو الفساد. وهذا ما ذهب إليه ابن القيم، الذي يرى أن الإنسان السوي هو صاحب القلب السليم، الذي تغلّب على نفسه فقهرها. والمنحرف هو صاحب القلب الميت، الذي تغلبت عليه نفسه فقهرته. أما صاحب القلب المريض فيكون أحياناً سوياً وأحياناً منحرفاً. ويذكّرنا هذا الرأي بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم "الحَلالُ بَيِّنٌ، وَالحَرامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهما مُشَبَّهاتٌ لا يَعْلَمُها كثيرٌ منَ الناسِ. فمنِ اتَّقى المُشَبَّهاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينهِ وعِرْضِه، ومَنْ وَقَعَ في الشُّبُهاتِ وَقَعَ فِي الحَرامِ: كراعٍ يَرْعَى حَوْلَ الحِمى يُوشِكُ أنْ يَرْتع فِيه. ألا وإِنَّ لِكلِّ مَلكٍ حِمى، ألا إِنَّ حِمَى اللهِ فِي أرضِهِ مَحارِمُه"[2]. ويشير هذا الحديث الشريف إلى الطريق السوي والمنحرف (أي طريق الحلال والحرام) وإلى طريق يتناوب فيه الحلال والحرام، وهو الطريق الذي جاء الأمر بالتحرز عنه، ودفع المؤمن إلى تجنب ما يشتبه فيه من الأمور، وهو طريق القلب المريض، أي قلب المنافق، الذي يبطن الكفر ويظهر الإيمان. وعليه، فإن كثيراً من البشر يشتبه عليهم أمر المنافق، لذلك بيّن سبحانه وتعالى كما رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم صفات المنافقين لكثرتهم وحتى لا يغترّ المؤمنون بسلوكهم الظاهري.

---

(1) سبق تخريجه.

(2) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، حديث رقم 50.

وبناء على ما سبق، يمكن القول بأن مفهوم السواء يرتبط بالإيمان والهداية والتوحيد والالتزام بالمنهج الإسلامي وضوابطه، كما في كتاب الله وسنة رسوله، فكراً وقلباً وسلوكاً. كما يرتبط باتباع الصراط المستقيم الذي أوجب الله اتباعه، وهو طريق الذين علموا الحق وعملوا به، فتحفظ الشخصية فطرتها القويمة السوية وتغذيها وتنميها بالشريعة. وبخلاف ذلك يكون الانحراف، أي اللاسواء أو سبل الشيطان. وهكذا يرتبط السواء والانحراف بالقرب والبعد عن الصراط المستقيم، فهو بمثابة الميزان العدل الذي يزن البشر عليه أفكارهم ومشاعرهم وسلوكاتهم ليروا قربها أو بعدها عن الحق والصواب وهو حدّ الاعتدال الذي بيّنه سبحانه وتعالى بقوله:(وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا) [1].
فالاعتدال يحفظ للشخصية توازنها ويجنبها ألوان الصراع النفسي. والاعتدال، هو أن تعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً وأن تعمل لآخرتك كأنك تموت غداً.

- **الشخصية السوية والشخصية المنحرفة:**

وصف القرآن الكريم الشخصية السوية والشخصية غير السوية، أي المنحرفة. ويعرض القصص القرآني نماذج للسلوكين السوي والمنحرف. ومثال ذلك التصوير الفني الحي الذي ورد في سورة الكهف. فالصورة تطالعنا برجلين؛ أحدهما أتاه الله سبحانه، من فضله، جنتين من الكروم يحفّ بهما النخيل، وينبت بينهما الزرع، ويتفجر فيهما ينبوع ثرّ العطاء، فأخرجتا نتاجاً طيباً، فزهى بصاحبه المؤمن بما يملك من ثروة وعزّة الولد والجاه. ومضى بالمباهاة، فهو أكثر مالاً وأعز نفراً من صاحبه، ظناً منه أنها لن تتلف ولن تهلك. فدخل جنتيه مأخوذاً بتمرده وكفره بقيام الساعة. فقد أنكر الموت والبعث، وجحد النعمة، وأصابه الغرور، وساقه إلى الكفر والانحراف. وتأتي المفارقات بين جحود مالك الجنتين وإيمان صاحبه الذي يعترف بوحدانية الله وربوبيته، ويدعو الله أن يؤتيه في الآخرة خيراً من جنته. فماذا كانت النتيجة؟ لقد أحاط الله سبحانه بثمار الجنتين، فأصبح صاحبهما يقلّب كفيه على ما أنفق فيها، ويندم على كفره، ويتمنى لو أنه لم يشرك بربه أحداً.

والشخصية السوية التي تتمتع بالسواء الكامل في فكرها ووجدانها وسلوكها، في كل لحظة من لحظات حياتها، وإزاء كل حدث من الأحداث التي تمر بها، شخصية غير

---

(1) القصص، 77.

موجودة. فلا بد من ميل ولو صغير – أي انحراف ولو بسيط – عن خط السواء (الصراط المستقيم) زيادة ونقصاً. وبذا لا ينجو من هذا الميل أحد من البشر حتى الرسل عليهم السلام. غير أن هذا الميل عن السواء ميل مؤقت وبسيط؛ يُبقي صاحبه ضمن دائرة السواء فكراً ووجداناً وسلوكاً. فهو لا يشوّه هوية الشخصية أو بنيتها العقائدية، ولا يفسد علاقتها بخالقها عزّ وجلّ، ولا علاقتها بنفسها أو بالآخرين.

ويذكر ابن تيمية في "مجموع الفتاوى" أن الأمة "اتفقت على أن الرسل معصومون في تحمل الرسالة، فلا ينسون شيئاً مما أوحاه الله لهم إلا شيئاً قد نسخ. وهم معصومون في التبليغ" [1]. ولكنهم قد يخطئون، فكل بني آدم خطّاء. وهم ليسوا معصومين من الصغائر، يقول ابن تيمية بهذا الشأن "القول بأن الأنبياء معصومون من الكبائر دون الصغائر هو قول أكثر علماء الإسلام وجميع الطوائف، حتى إنه قول أكثر أهل الكلام وقول أكثر أهل التفسير والحديث والفقهاء، بل لم يُنقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين وتابعيهم إلا ما يوافق هذا القول" [2]. ومن المعلوم أن "لم يقع ذنب من نبي إلا وقد سارع إلى التوبة والاستغفار، يدلنا على هذا "أن القرآن الكريم لم يذكر ذنوب الأنبياء إلا مقرونة بالتوبة والاستغفار. فالأنبياء لا يقرّون على الذنب، ولا يؤخّرون التوبة. فالله سبحانه عصمهم من ذلك، وهم بعد التوبة، أكمل منهم قبلها" [3]. فقد سأل آدم ربه أن يتوب عليه، قال تعالى: (قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) [4]. وقد جاءت التوبة بعد أن عصى ربه بالأكل من الشجرة المحرمة، قال تعالى:(فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (121) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى) [5].

كما عصى نوح عليه السلام ربه عندما دعاه في ابنه الكافر، قال تعالى:(وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ) [6]. فردّ عليه سبحانه: (قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ

---

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج10، ص291.

(2) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج4، ص319.

(3) عمر الأشقر، الرسل والرسالات، ص107- 111.

(4) الأعراف، 23.

(5) طه، 121- 122.

(6) هود، 45.

إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ)[1]. فسأل نوح ربه أن يغفر له وتاب، قال تعالى: (قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ)[2].

وعصى موسى عليه السلام ربه عندما نصر الذي من شيعته على الذي من عدوه (خصمه القبطي) فقضى عليه، فقال: هذا من عمل الشيطان، فاستغفر لذنبه، قال تعالى: (قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)[3]. كما أخطأ إبراهيم الخليل، وطمع أن يغفر الله له خطيئته، قال تعالى على لسان إبراهيم: وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ[4]. وأخطأ أبناء يعقوب بحق أخيهم يوسف عليه السلام عندما ألقوه في غيابة الجب وباعوه بثمن بخس، واعترفوا بخطئهم، وطلبوا من أبيهم أن يستغفر لهم ذنوبهم.

وعاتب سبحانه رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم بسبب تحريمه العسل على نفسه، أو تحريم مارية القبطية، قال تعالى:(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)[5]. كما عاتبه عندما عبس في وجه ابن أم مكتوم (الأعمى) وانشغل بدعوة الكفار إلى الله، قال تعالى: (عَبَسَ وَتَوَلَّى (1) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (2) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (3) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى)[6]. وقال تعالى لرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم:(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ) [7].

يتبين مما سبق أن جميع البشر، حتى الأنبياء منهم، لا ينجون من الصغائر. ويقصد بالصغائر الذنوب الصغيرة (اللمم) التي تميل بالشخصية ميلاً بسيطاً عن خط السواء. ولا بد أن يكون الميل مؤقتاً لا يدوم. فقد تميل الشخصية نحو لذات الجسد في لحظات عابرة، ثم تعود إلى نشاطها الروحي في لحظات أخرى. وتتناوب هذه اللحظات، مما يحافظ على التوازن حول خط السواء، الذي يتوازن فيه نشاطاَ الجسد والروح. وهكذا يمكن النظر إلى

---

(1) هود، 46.

(2) هود، 47.

(3) القصص، 16.

(4) الشعراء، 82.

(5) التحريم، 1.

(6) عبس، 1-4.

(7) محمد، 19.

الشخصية السوية على أنها شخصية تدور حول محور ثابت، هو خط السواء، زيادة ونقصاً، أو ارتفاعاً وانخفاضاَ، فلا تثبت على ميل واحد. كما يكون الميل مؤقتاً، وعارضاً لا يدوم، وبسيطاً فلا يقرب من الأطراف البعيدة عن خط السواء.

ويشبّه رسول الله صلى الله عليه وسلم ميل المؤمن عن خط السواء "بميل الفرس في أخيّته، يقول صلى الله عليه وسلم "ميل المؤمن كميل الفرس في أخيته، يحوّل ثم يرجع إلى أخيته. كذلك المؤمن يحول ثم يرجع إلى ربه"، قال تعالى:(وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ)،ولهذ قال سبحانه وتعالى: (وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)، ثم قال :(يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا) أي أنه ضعيف عن ترك الشهوات"[1]. فجعل التوبة في مقابل اتباع الشهوات.

وهكذا فإن ميل شخصية المؤمن عن خط السواء لا يخرجها من دائرة السواء إلى دائرة المرض النفسي، تماماً كما أن العارض الصحي البسيط لا يخرج صاحبه من دائرة الصحة الجسمية على دائرة المرض العضوي. وكما يرى محمد قطب، فإن الجسم الصحيح الكامل، الذي لا يختلّ فيه قلب ولا كبد ولا معدة في ليل أو نهار، ولا ينبض قلبه نبضة زائدة أو ناقصة، ولا يصاب بإمساك أو إسهال ولا عسر هضم ولا ألم ... جسم مستحيل الوجود في واقع الحياة. ومع ذلك لا يقول الطب أن البشر جميعاً مرضى ليس بينهم سليم[2].

وقد أشار سبحانه إلى أن ميل الشخصية عن خط السواء أمر طبيعي فيها، ولكنه يأمرنا بأن لا يكون الميل كبيراً إلى حدّ الزيغ، حتى لا يُخرج صاحبه عن دائرة السواء، يقول تعالى:(وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ)[3]،"أي لن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء من كافة الوجوه (كالمحبة والشهوة والجماع) ولو حرصتم في القسم الصوري. فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم بين نسائه فيعدل، ثم يقول "اللَّهُمَّ هذَا قَسَمِي فِيمَا أَمْلِكُ فَلاَ تَلَمْني فِيمَا تَمْلِكُ وَلا أَمْلِكُ"[4]. ويقصد "بكل الميل" أي الميل إلى النهاية، الذي يؤول إلى الزيغ عن الطريق المستقيم والعدول عن سواء الصراط. قال سبحانه: (وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج10، ص571.

(2) محمد قطب، دراسات في النفس الإنسانية، ص276.

(3) النساء، 129.

(4) انظر: مختصر تفسير ابن كثير للصابوني، ج1، ص445.

وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا (27) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا)[1]. فقد خفف الله تعالى في شرائعه وأوامره ونواهيه بما يناسب ضعف النفس البشرية. كما جعل سبحانه التوبة في مقابل اتباع الشهوات. فالله يريد أن يتوب علينا، ويحب التوبة منّا، ويأمرنا بها، فيما يريد الذين يتبعون الشهوات أن نميل ميلاً عظيماً، يعدل بنا عن الصراط المستقيم عدولاً عظيماً.

وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم "أننا لن نطيق الاستقامة أو ثوابها إذا استقمنا، قال صلى الله عليه وسلم "اسْتَقِيمُوا، وَلَنْ تُحْصُوا، وَاعْمَلُوا، وَخَيْرُ أَعْمَالِكُمُ الصَّلاَةُ، وَلاَ يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلاَّ مُؤْمِنٌ"[2]. وفي ذلك دعوة إلى الحفاظ على الوضوء والصلاة، فهما سبيل المؤمن إلى العودة إلى سواء الصراط"[3].

ودائرة سواء الشخصية لا تفهم على أنها فئة متجانسة تماماً من البشر، إن تشابهوا في كونهم يقعون داخل هذه الدائرة، فثمة فروق فردية بينهم تتعلق بمدى قربهم أو بعدهم عن خط السواء (درجة وثباتاً). فكلما اقتربوا منه، اقتربت شخصياتهم من الشخصية السوية الكاملة. وكما ذكرنا في الفصل الثاني، فإن السابقين بالخيرات هم الأقرب إلى الشخصية السوية الكاملة. فهم المقربون، الأعلى درجة عند الله، يليهم المقتصدون، ثم الظالمون لأنفسهم. وقد روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: قال الله تعالى(ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ) فأما الذين سبقوا فأولئك الذي يدخلون الجنة بغير حساب، وأما الذين اقتصدوا فأولئك الذين يحاسبون حساباً يسيراً، وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذي يحبسون في طول المحشر، ثم هم الذين شملهم الله برحمته، فهم الذين يقولون: (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (34) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ)[4].

وينسحب الحديث نفسه على انحراف الشخصية، الذي تندرج تحته فئة غير متجانسة تماماً من البشر (على الرغم من أنهم يشتركون في كونهم يقعون خارج حدود السواء)، تمتد من حالات الانحراف العادي إلى الشديد الذي يؤول إلى الشذوذ

(1) النساء، 27-28.

(2) رواه أحمد وابن ماجة من حديث ثوبان، حديث رقم (22001).

(3) نقلاً عن: ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج10، ص571.

(4) مختصر تفسير ابن كثير للصابوني، ج3، ص148.

والاضطراب الدائم في الشخصية. ويمثل الانحراف المرحلة الأولى من الخلل، أما الشذوذ فيمثل المرحلة الأخيرة له.

وعلى الرغم من وجود خطوط فاصلة بين دائرتي السواء والمرض في عالم الشخصية، إذ تمثل دائرة السواء أحد طرفي المتصل، فيما تمثل دائرة المرض طرفه الآخر، إلا أن ثمة طيفاً واسعاً من الانحرافات تتوسط هاتين الدائرتين، قد تحسب مرة هنا ومرة هناك، بحسب قربها أو بعدها عن أي من الدائرتين. ولعلنا نرى من المناسب بيان الفرق بين المفاهيم التالية: الميل والانحراف والمرض النفسي، التي تحمل جميعاً، في طياتها جنوحاً عن خط السواء، أي انحرافاً عنه، ولكنها تتفاوت فيما بينها من حيث درجة الانحراف ونوعيته ومدته. ففي حال "الميل"، يكون الانحراف (عن الصراط المستقيم) بسيطاً في الدرجة، وعارضاً لحظياً، ومؤقتاً، ويحدث عن غفلة المؤمن، الذي سرعان ما يتذكر، فيستغفر ربه ويتوب عن ذنبه. وذنوب المؤمن لا تخرجه من دائرة السواء، فلا تتغير حاله أو هويته، كما أسلفنا. أما إذا زادت درجة الانحراف، وصار أكثر ديمومة (عما كان عليه في دائرة السواء)، وحدث عن إصرار وتعنت، وبما يؤول إلى فساد جزئي في العلاقة بين الإنسان وربه، أو بينه وبين نفسه أو بينه وبين الآخرين، عندها تخرج الشخصية من دائرة السواء إلى دائرة الانحراف. وفي حال "المرض" أي الشذوذ، يكون الانحراف كبيراً ومتطرفاً ومتكرراً، يؤول إلى اضطراب في الشخصية وانفصالها عن الواقع. ويتمثل المرض النفسي في شذوذ في المعتقد والمشاعر والسلوك.

والشخصية المريضة شخصية تسعى وراء شهواتها، فلا تذكر لها طاقة روحية، ولا تعبأ بتحقيق رسالتها وأهداف وجودها. أو هي في المقابل، شخصية تنقطع كلياً إلى العبادة إلى حدّ إهمال الجسد وتعذيبه وإهانته، كما في قصة الرهط الذين قدموا للسؤال عن عبادة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وعندما سمعوا عنها كأنهم تقالوّها، لأن منهم من يصوم الدهر ولا يفطر، ومنهم من يقوم الليل ولا يرقد، ومنهم من يعتزل النساء. وعندما علم الرسولصلى الله عليه وسلم عن عبادتهم عدّها خروجاً عن السنّة. فلا تستقيم الأمور حينما يهمل الإنسان حاجاته الجسدية التي خلقها الله سبحانه وأمر بإشباعها باعتدال، حتى يتمكن من تحقيق الغاية من وجوده من خلافة وعمارة.

وفي مجال التطرف في العبادة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "هلك المتنطعون" قالها ثلاثاً، وقال أيضاً "لَوْ مُدَّ لَنَا الشَّهْرُ لَوَاصَلْنَا وِصَالاً، يَدَعُ الْمُتَعَمِّقُونَ تَعَمُّقَهُمْ" مثل الجوع والعطش المفرط الذي يضرّ العقل والجسم، ويمنع أداء واجبات أو مستحبات أنفع منه، كالذي نذر

أن يصوم وأن يقوم قائماً ولا يجلس ولا يستظل ولا يتكلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم "مُرُوهُ فَلْيَتَكَلَّمْ وَلْيَسْتَظِلَّ وَلْيَقْعُدْ وَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ" [1].

وفي كلا حالتي التطرف (نحو الجسد أو الروح)، تخالف الشخصية حال الفطرة السوية المستقيمة التي ترتكز على البناء الجسدي والروحي معاً. فهي شخصية منحرفة تعمل بجانب واحد وتعطل الجانب الآخر. كما ينتابها خلل في دورة الحياة السوية، فتعيش حال اضطراب دائم، وإيذاء للآخرين، كما للذات. فالأنانية انحراف في الشخصية، ولكنها لا تخرج صاحبها عن دائرة السواء إلى دائرة المرض، إلا إذا زادت في حدّها وتطرفت إلى أن قادته إلى ارتكاب الجريمة بالعدوان على الآخرين، بحيث يصبح العدوان سمة من سماتها.

- **مستويات الانحراف النفسي:**

بالعودة إلى مفهوم السواء والانحراف، يمكن القول بأنه إذا كان السواء يمثل التوحيد، فإن الانحراف يمثل الشرك. "والشرك درجات تتراوح بين الشرك الخفي إلى الشرك الأكبر. وقد عبّر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشرك الخفي في قوله صلى الله عليه وسلم "الشِّرْك فِي هَذِهِ الأُمَة أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَمْلَة السَوْدَاء عَلَى صَفَحَات سَوْدَاء فِي ظُلْمَة اللَيْل". وكفارته قوله صلى الله عليه وسلم (اللهم إِنِي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أشْرِكَ بِكَ شَيْئاً وَأَنَا أَعْلَمْ، وَأَسْتَغْفِرك مِنَ الذَنْبِ الذَي لاَ أَعْلَمْ)[2]. أما الشرك الأصغر فهو الرياء المقصود في قوله تعالى: (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)[3]. وقد روى محمود بن لبيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال "إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: يا رسول الله، وما الشرك الأصغر؟ قال: الرياء، إن الله تبارك وتعالى يقول يوم تجازى العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤن بأعمالكم في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء"[4]. ويعدّ الشرك الأكبر أكثر درجات الشرك تطرفاً وزيغاً عن الصراط المستقيم. والله سبحانه لا يغفر أن يشرك به، قال تعالى(:إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا)[5].

---

(1) انظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج10، ص620- 621.

(2) انظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج10، ص571.

(3) الكهف: 110.

(4) رواه أحمد في مسنده، ص428- 429، ورواه البيهقي وابن أبي الدنيا.

(5) النساء، 116.

وقد أورد ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب في "مجموعة التوحيد" أربعة أنواع من الشرك الأكبر هي[1]:

1. **شرك الدعوة**، كما في قوله تعالى: (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ)[2].

2. **شرك النيّة والإرادة والقصد**، كما في قوله تعالى: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (15) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)[3].

3. **شرك الطاعة**، كما في قوله تعالى: (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)[4].

4. **شرك المحبة**، كما في قوله تعالى: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ)[5].

وبالعودة ثانية إلى مفهومي السواء والانحراف، فإذا كان السواء يمثل دائرة الإيمان، فإن الانحراف يمثل دائرة الكفر. والكفر كفران: كفر أصغر لا يخرج صاحبه من الملّة، وكفر يخرجه منها. والكفر الأصغر هو كفر النعمة، كما في قوله سبحانه(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)[6]. أما الكفر الذي يُخرج صاحبه من الملّة فهو على خمسة أنواع[7] هي التالية:

1. **كفر التكذيب**، كما في قوله تعالى: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ)[8].

---

(1) لمزيد من التفصيل، انظر: ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب، مجموعة التوحيد، ص(5-7).

(2) العنكبوت، 65.

(3) هود، 15-16.

(4) التوبة، 31.

(5) البقرة، 165.

(6) النحل، 112.

(7) لمزيد من التفصيل، انظر: ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب، مجموعة التوحيد، ص(7-9).

(8) العنكبوت، 68.

2.كفر الإباء والاستكبار مع التصديق، كما في قوله تعالى: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ) [1].

3.كفر الشك (الظن)، كما في قوله تعالى(وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (35) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (36) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (37) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا) [2].

4.كفر الإعراض، كما في قوله تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ) [3].

5.كفر النفاق، كما في قوله تعالى: (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آَمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ) [4].

وتتوسط دائرة النفاق بين دائرة الإيمان (السواء) ودائرة الكفر (الشذوذ أو الانحراف الشديد) يقول سبحانه بشأن المنافقين:(وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ)[5]. كما يصفهم تعالى بالمتذبذبين بين الإيمان والكفر في قوله سبحانه: (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (142) مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا)[6]. والمنافقون ليسوا فئة واحدة، بل يتفاوتون في شعب النفاق. "والنفاق نوعان: نفاق اعتقادي ونفاق عملي. ويقصد بالنفاق الاعتقادي: تكذيب الرسل أو تكذيب بعض ما جاء به الرسل، أو بغض الرسول صلى الله عليه وسلم، أو بغض ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، والسرور بانخفاض دين الرسول صلى الله عليه وسلم، أو الكراهية بانتصار دين الرسول صلى الله عليه وسلم. ويهوي هذا النوع من النفاق بصاحبه إلى الدرك الأسفل من النار. أما النفاق العملي فهو ما أشار إليه

(1) البقرة، 34.

(2) الكهف، 35- 38.

(3) الأحقاف، 3.

(4) المنافقون، 3.

(5) آل عمران، 167.

(6) النساء، 142-143.

رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله "آية الْمُنَافِقِ ثَلَاثَةٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ. وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ. وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ"[1].

وإذا كانت الذنوب الصغيرة (اللمم) المتباعدة، التي تحدث عن غفلة ونسيان تبقي صاحبها ضمن دائرة السواء، فما من شك بأن ارتكاب الكبائر يخرج صاحبها من هذه الدائرة، ليضعه على الطرف المناقض للسواء. وقد حدّد رسول الله صلى الله عليه وسلم الكبائر عندما سئل عنها فقال "الشِّرْكُ بِالله وَقَتْلُ النَّفْسِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ. وَقَالَ: أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟ قَالَ: قَوْلُ الزُّورِ أَوْ قَالَ شَهَادَةُ الزُّورِ"[2]. وفي رواية أخرى عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال "من أكبر الكبائر استطالة المرء في عِرض رجل مسلم"[3]. أما إذا كان السواء يعني الصراط المستقيم، والانحراف يعني تعدي حدود الله، فيمكن تمييز ثلاثة مستويات للانحراف هي:

1. انحراف يستوجب إقامة الحدّ على صاحبه كما في حال السرقة أو الردّة أو الزنا...
2. انحراف يستوجب القصاص كما في حال القتل العمد مثلاً.
3. انحراف يستوجب التعزير كما في حال ارتكاب بعض الجرائم التي لم تذكر لها عقوبة محددة كالاختلاس والرشوة...

هذا وقد أورد مرسي[4] في كتابه "المدخل إلى علم الصحة النفسية" التصنيف التالي لمستويات الانحراف النفسي والذي يستند إلى المعيار الإحصائي:

1. **الانحراف البسيط**: وتندرج تحت هذا المستوى الذنوب الصغيرة والكبيرة المتباعدة التي يرتكبها الإنسان عن نسيان وغفلة. ولا ينجو من هذه الذنوب أحد من البشر. وقد تكون ذنوباً باطنية (كسوء الظن) أو ظاهرية (كالغيبة). كما قد تكون أفعالاً أو تروكاً. وفي جميع الأحوال، فإن هذه الذنوب لا تؤدي إلى حال شذوذ دائمة في علاقة الإنسان بربه أو في علاقاته مع الآخرين. ويرى مرسي أن حوالي (2.5%) من البشر يندرجون تحت مستوى الانحراف هذا.

---

(1) نقلاً عن: ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب، مجموعة التوحيد، ص9.

(2) رواه البخاري، 261/5، ومسلم 405/10 عن أنس رضي الله عنه.

(3) رواه أبو داود في كتاب الأدب، باب في الغيبة، حديث رقم 4877.

(4) كمال مرسي، المدخل إلى الصحة النفسية، ص181- 185.

2. **الانحراف الخفيف**: وتندرج تحت هذا المستوى الذنوب المتكررة بشكل أكبر مما هي عليه في المستوى السابق، غير أنها لا تزال متباعدة، ولا تقع إلا عن غفلة أو نسيان. وعلى الرغم من شعور الإنسان بالتوتر والقلق، إلا أن القلق لا يعوِّق مسيرة حياته، ولا يوهن نفسه بصورة جوهرية. ويقع تحت هذا المستوى حوالي (13.5%) من البشر.
3. **الانحراف العادي**: وتندرج تحت هذا المستوى الذنوب والمعاصي التي تتكرر مع الإصرار والمجاهرة، وبما يفسد العلاقة بين الشخصية وبين ربها، وبينها وبين الآخرين. وتمرّ الشخصية بحالات من القلق والصراع بصورة أكثر وضوحاً مما هي عليه في المستوى السابق، إلا أن القلق لا يعوّق مسيرة حياتها الاجتماعية. ويقع تحت هذا المستوى حوالي (68%) من البشر، أي عامتهم وسوادهم.
4. **الانحراف الكبير**: وتندرج تحت هذا المستوى الذنوب الكبيرة والمتكررة التي قد تؤدي إلى سوء توافق يتمثل في الانفصال الجزئي عن الواقع، مع ظهور مخاوف مرضية ووساوس ووهم واكتئاب وصراع هستيري ... وقد تقود الشخصية إلى الجريمة أو الانحراف الجنسي أو العصاب أو الأمراض النفسية الجسمية. وتقدر نسبة الذين يندرجون تحت هذا المستوى حوالي (13.5%) من البشر.
5. **الانحراف الشديد**: وتندرج تحت هذا المستوى حالات اضطرابات الشخصية من هلاوس وهذيان وتدهور القدرات العقلية وشذوذ الانفعال والسلوك، وبما يؤدي بالشخصية إلى الانفصال عن الواقع. وتقدر نسبة الذين يندرجون تحت هذا المستوى بحوالي (2.5%) من البشر.

وهكذا يمكن القول عموماً بأن المرض يقع على القطب المعاكس لقطب السواء على الخط المتصل، وأن الانحراف يتدرج من الانحراف البسيط إلى الشديد (أي المرض). ويصعب تحديد فواصل حاسمة بين مستويات الانحراف، غير أن ثمة فواصل واضحة بين دائرة السوء ودائرة الشذوذ (المرض النفسي أو الانحراف الشديد).

- **أنواع الانحرافات النفسية:**

تتنوع تصنيفات الانحرافات النفسية. ففي ضوء النظرة إلى مفهوم الشخصية، يمكن القول بوجود ثلاثة أنواع لانحراف الشخصية هي: انحراف الفكر أو المعتقد كالكفر والشرك بالله ... وانحراف المشاعر أو فساد القلب كبغض الله ورسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين

وعدم إخلاص النيّة لله سبحانه والحسد والنميمة ... وانحراف السلوك أو العمل غير الصالح كالإدمان على المخدرات والزنا والسرقة وأكل مال اليتيم وعدم أداء العبادات... ويمكن القول بأن فساد القلب هو العامل الحاسم في انحراف الشخصية، فبفساده يفسد المعتقد، وبفساده ينحرف السلوك.

وثمة تصنيف آخر أكثر شيوعاً في الفكر الإسلامي، يصنف الانحرافات النفسية في نوعين: انحرافات ظاهرية كالقلق والهستيريا والهذيان والاكتئاب والمخاوف المرضية والإدمان على المخدرات وارتكاب الجريمة والفاحشة ... وانحرافات باطنية (أي باطن الإثم أو أمراض القلوب كما في القرآن الكريم) لا ينجو منها أحد من البشر، لأنها عامة؛ كسوء الظن والغيبة والنميمة والكبر والحسد ... لكنها لا تمثل حالة مرضية في الشخصية إلا عندما تصل إلى درجة عالية، تفضي بصاحبها إلى انحراف ظاهر كالجريمة أو الذهان (الاضطراب العقلي). هذا ومن الجدير بالذكر أن علم النفس العيادي الغربي يغفل موضوع الانحرافات الباطنية، ذلك أن صاحبها لا يعدّ مريضاً بالمعيار الطبي، وإن كانوا يعدّونها في علم الصحة النفسية أعراضاً لأشكال من الانحراف أو استعداداً له، غير أن المعيار الإسلامي يعدّ صاحبها مريضاً بحاجة إلى علاج، إذا تجاوز الانحراف المستوى العادي له، كما أسلفنا. وما من شك بأن الإنسان سيحاسب على ذنوبه الباطنية، كما الانحرافات الظاهرية. فقد حرّمها الإسلام، مصداقاً لقوله تعالى:(وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ) [1]. هذا فضلاً عن مشاعر القلق والتوتر الناجمة عن الذنوب الباطنة، والضرر الذي قد يلحق بالشخص وبالمجتمع جرّاء ذلك.

وعلى الرغم من عدم وجود تصنيف محدد للانحرافات الباطنية، إلا أن ثمة ترابطاً بين بعضها من جهة، وتفرعاً لبعضها عن بعض من جهة أخرى. وفي ضوء ذلك، عني المفكرون المسلمون بالتعرف على أصول الذنوب بغية الوقاية منها وعلاجها؛ فالحسد مثلاً أصل من أصول الذنوب، ويتفرع عنه: الكذب والكبر وسوء الظن والغيبة والنميمة. هذا وقد تعرضنا في الفصل الثاني لهذا الموضوع عند الحديث عن السمات السلبية للشخصية، أي الرذائل وتفرعاتها، ولا داعي لتكرارها هنا.

---

(1) الأنعام، 120.

- **مؤشرات سواء الشخصية وانحرافها:**

قبل الحديث عن مؤشرات سواء الشخصية وانحرافها في الإسلام، لا بد من التذكير بأن التفريق بين الشخصية السوية والشخصية المضطربة يختلف باختلاف عدد من المتغيرات، منها الأديان والمجتمعات والظروف الاقتصادية والمستويات الحضارية ... الخ فيصعب على عالم النفس الذي ينتمي إلى مجتمع متطور صناعياً، مثلاً، أن يحدد مؤشرات اضطراب الشخصية لأبناء المجتمعات النامية. كما يصعب على عالم النفس غير المسلم أن يحدد مؤشرات سواء الشخصية واضطرابها لأبناء المجتمع الإسلامي. فعندما يقيس الغربي شخصية العربي المسلم يجده مضطرباً. وعندما نصنف الإنسان الغربي من منطلق إسلامي نجده مضطرباً سلوكياً وأخلاقياً. فهو، أي الغربي، يتعاطى الخمر ويسهم في تفكك الأسرة، ويرتكب العديد من الممارسات غير المقبولة إسلامياً. والغربي بدوره يحكم باضطراب سلوك العربي وشخصيته لأنه لا يقوم بمثل هذه الممارسات. وإذا اعتمدنا المقاييس الغربية للتفريق بين الشخصية السوية والمرضية يتبين أننا جميعاً مضطربو الشخصية، والعكس صحيح. ويكشف مدير تحرير مجلة الثقافة النفسية المتخصصة في افتتاحية العدد الأول للمجلة اختلاف نسب الإصابة بالأمراض النفسية باختلاف الأديان والمجتمعات، وكذا الحال بالنسبة إلى نسب الانتحار والإدمان على الكحول.

وبناء على ما سبق فقد بات من الضروري تحديد مؤشرات سواء الشخصية وانحرافها من المنظور الإسلامي. وباستقراء مدلولات مفهومي السواء والانحراف في الشخصية، ومرادفاتها في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، يمكن القول بصعوبة حصر جميع مؤشرات سواء الشخصية وانحرافها، ومع ذلك فإننا نرى ضرورة عرض أبرزها على النحو التالي:

1. الإيمان مقابل الكفر.
2. اتباع السنة مقابل البدعة.
3. طاعة الله مقابل معصيته.
4. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مقابل الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف.
5. العدل مقابل الظلم.
6. العمل الصالح مقابل العمل السيئ.
7. اتباع طريق الحلال مقابل اتباع طريق الحرام.

8. الصبر مقابل الجزع.
9. إنكار الفتن مقابل شرب الفتن.
10. الاستقامة مقابل الانحراف.
11. الخوف من الله مقابل عدم الخوف من الله.
12. نهي النفس عن الهوى مقابل اتباع الهوى وارتكاب الفاحشة.
13. الحياء (جامع خصال الخير) مقابل عدم الحياء.
14. التقوى مقابل الفجور.
15. تزكية النفس مقابل تدسية النفس.
16. اتباع سبيل الله مقابل اتباع سبل الشيطان.
17. التوحيد مقابل الشرك.
18. السعي إلى تحقيق الخلافة في الأرض مقابل الفساد في الأرض.
19. الاعتدال في إشباع الحاجات مقابل الإفراط أو التفريط في إشباعها.
20. العلم مقابل الجهل.
21. صلاح القلب مقابل فساده.
22. حمل الأمانة مقابل إضاعة الأمانة.
23. الألفة الاجتماعية مقابل العزلة.

ويصنف نجاتي[1] في كتابه "الحديث النبوي وعلم النفس" مؤشرات سواء الشخصية"، وبخلافها تكون مؤشرات إنحرافها – كما في القرآن الكريم والسنة الشريفة- في أربع فئات هي التالية:

1. **مؤشرات ترتبط بعلاقة الإنسان بربه**، ومنها: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وامتثال أوامر الله واجتناب نواهيه.
2. **مؤشرات ترتبط بعلاقة الإنسان بنفسه**، ومنها: معرفة إمكاناته ووضع أهداف له في ضوئها، والسعي إلى تحقيق الكمال وتأكيد الذات وإشباع الدوافع بالحلال وباعتدال، والتحكم بالعواطف وتوجيهها الوجهة الحسنة. هذا بالإضافة إلى الشعور بالحرية والمسؤولية والاستقلالية، والكفاح للتغلب على ضغوط الحياة، والحفاظ على الصحة الجسمية.

---

(1) نجاتي، الحديث النبوي وعلم النفس، ص 302- 303.

3. **مؤشرات ترتبط بعلاقة الفرد بالآخرين**، ومنها: إقامة علاقات طيبة مع الآخرين تسودها المحبة والألفة، والتعامل بالحسنى، وأداء الحقوق إلى أصحابها، والشعور بالمسؤولية الاجتماعية.
4. **مؤشرات ترتبط بعلاقة الإنسان بالكون**، ومنها: معرفة مكانه في الكون ووظائفه في الحياة من خلافة وعمارة، وتطبيق منهج الله فيها. هذا بالإضافة إلى التكيف الإيجابي مع البيئة، بحيث يشعر معها بالأنس، ويرى فيها إبداع الخالق وإتقانه.

ويحدّد ابن حزم[1] في كتابه "الأخلاق والسير" مؤشرات سواء الشخصية التي تقود إلى السعادة بأنسها بالفضائل والطاعات والنفور من الرذائل والمعاصي. وبعكس ذلك يكون الانحراف الذي يفضي إلى الشقاء، وفي ذلك يقول "ليس بين الفضائل والرذائل، ولا بين الطاعات والمعاصي، إلا نفار النفس وأنسها فقط. فالسعيد من أنست نفسه بالفضائل والطاعات ونفرت من الرذائل والمعاصي. والشقي من أنست نفسه بالرذائل والمعاصي، ونفرت من الفضائل والطاعات.

ويمكن استنتاج المؤشرات الآتية لسواء الشخصية بمقابل انحرافها من خلال كتابات ابن تيمية[2] في "مجموع الفتاوى":

1. عمل ما يحبه الله ويرضاه مقابل عمل ما يبغضه الله وينهى عنه.
2. الصلاح والعدل مقابل الفساد والظلم.
3. معرفة الله ومحبته وتعظيمه مقابل عدم محبة الله وإنكار عظمته.
4. الإدراك الصحيح للأشياء مقابل الإدراك المشوه لها (أي إدراكها بخلاف ما هي عليه).
5. الحركة الطبيعية مقابل فساد الحركة الطبيعية.
6. حب ما ينفع وبغض ما يضرّ مقابل حب ما يضّر وبغض ما ينفع.
7. التمييز بين الخير والشر، والغي والرشاد مقابل عدم التمييز بينهما.
8. الاعتدال في الشهوة مقابل خروج الشهوة عن الاعتدال.
9. الوسطية في الاعتقاد والفكر مقابل التطرف في الاعتقاد والفكر (الغلو في الدين).
10. اتباع السنة مقابل البدعة.

---

(1) ابن حزم، الأخلاق والسير.

(2) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ص14- 283.

11. قبول الحق واتباعه مقابل عدم قبول الحق واتباع الشهوات.
12. دوام ذكر الله مقابل الغفلة المذمومة.
13. عمل ما أمر الله به من علم وعمل مقابل ما ينهى عنه من علم وعمل.

فيما يحدّد ابن القيم[1] في كتابه "إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان" أربعة مؤشرات لسواء الشخصية، يمكن إجمالها فيما يأتي:

1. إيثار الأغذية النافعة الشافية على الضارة المؤذية للقلب. وأنفع الأغذية غذاء الإيمان، وأنفع الأدوية دواء القرآن.
2. دوام ضرب القلب على صاحبه حتى ينيب إلى الله ويخبت له.
3. دوام ذكر الله تعالى وعدم السأم من خدمته.
4. الشعور بالألم العظيم لفوات الطاعة.

أما مؤشرات انحراف الشخصية فيجملها ابن القيم فيما يلي:

1. تعذر أداء القلب لمهمته التي خلق من أجلها كمعرفة الله تعالى ومحبته والشوق إلى لقائه والإنابة إليه وإيثار ذلك على كل شهوة.
2. العدول عن الأغذية النافعة إلى الأغذية الضارة.

ويقترح محمد عودة[2] في كتابه "الصحة النفسية في ضوء علم النفس والإسلام" المؤشرات التالية لسواء الشخصية، وبخلافها تكون مؤشرات إنحرافها:

1. **مؤشرات تتعلق بالجانب الروحي**، ومنها: الإيمان بالله وأداء العبادات وإشباع الحاجات بالحلال والالتزام بتوجيهات الإسلام وضوابطه.
2. **مؤشرات تتعلق بالجانب الاجتماعي**، ومنها: برّ الوالدين، وحب الأولاد والزوجة، والبعد عما يؤذي الآخرين، وتحمل المسؤولية الفردية والاجتماعية.
3. **مؤشرات تتعلق بالجانب النفسي**، ومنها: قبول الذات، وضبط الذات، وصلاح القلب من الحقد والحسد والإقبال على الحياة.
4. **مؤشرات تتعلق بالجانب البيولوجي**، ومنها: سلامة الجسم من الأمراض والإعاقات، والعناية بالجسم من حيث الرياضة والغذاء والراحة.

---

(1) ابن القيم، إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، ص62- 63.

(2) محمد عودة، الصحة النفسية في ضوء علم النفس والإسلام، ص60.

- الشخصية الوسطية والشخصية المتطرفة:

شاءت حكمة الله أن يخلق الإنسان مزوداً بانفعالات تجنبه الألم، شريطة أن تبقى في حدود الاعتدال. فالخوف مثلاً، يدفع الشخصية إلى تجنب الأخطار التي تهددها. والغضب يدفعها إلى الدفاع عن نفسها، وإلى الصراع من أجل البقاء، يقول الغزالي بهذا الشأن "لو لم يكن قد خلق فيك الغضب الذي به تدفع كل ما يضادك ولا يوافقك لبقيت عرضة للآفات، ولأخذ منك كل ما حصلته من الغذاء ... فتحتاج إلى داعية في دفعه ومقاتلته، وهي داعية الغضب الذي به تدفع كل ما يضادك ولا يوافقك ... وقد قال الشافعي "من استغضب فلم يغضب فهو حمار. فمن فقد الغضب والحمية أصلاً فإنه ناقص" [(1)].

غير أن الإسراف في الخوف أو الغضب يضرّ بالصحة النفسية، ذلك أن الشخصية إذا أسرفت في الخوف مثلاً، أصبحت تخاف خوفاً مرضياًَ، لا يهددها بأخطار واقعية. وتعدّ هذه المخاوف المرضية مؤشراً لاضطراب الشخصية. وإذا أسرفت في الغضب، أصبحت متهورة وعدوانية، تتقدم في مواضع الإحجام، وتحجم في مواضع الإقدام.

وبالعودة إلى سمات الشخصية، يمكن القول بإجماع علماء المسلمين على حدود الأخلاق (أي السمات الخلقية) وعلى حدود الوسط أو الاعتدال فيها، وبما يمثل الفضائل الإنسانية التي تتوسط الرذائل. ومن هنا جاء تعبير الشخصية الوسطية والمتطرفة. فالإنسان ليس ملاكاً ولا حيواناً، بل بشر ركّب الله فيه العقل والشهوة، وربما خضع لأحدهما حيناً وللآخر حيناً آخر. فهو وسطي بشموليته وموضوعيته وإدراكه لمطالب الحياة، دون أن يميل أو يجور أو يتطرف أو يبتعد عن خط السواء. وبهذه الوسطية يتحقق الوفاق والانسجام بين كافة الثنائيات. والشخصية الوسطية جوهر متفرد أصيل؛ فهي تجمع السمات الخلقية في حدودها الوسطية المعتدلة؛ أي أنها تنفرد بالفضائل، وترفض الجنوح إلى اليمين أو الشمال. وهي الشخصية التي يطمح المسلم إلى الوصول إليها، لأنها تمثل الشخصية النموذجية في الإسلام، فلا إفراط ولا تفريط. وهي الصورة التي تمثلها شخصية رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم التي تجمع فضائل الحكمة والشجاعة والعفّة والعدالة، وما تنطوي عليها من فضائل ثانوية. وهي التي عبّر عنها الله سبحانه وتعالى حينما وصف نبيه

---

(1) الغزالي، إحياء علوم الدين، ج4، ص159؛ ج3، ص333.

الكريم صلى الله عليه وسلم بقوله: (وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)[1]. أما الشخصية المتطرفة فهي الشخصية التي تنحرف في سماتها عن الحدود الوسطية للأخلاق، أي أنها تنحرف عن الفضائل سلباً أو إيجاباً؛ زيادة أو نقصاً، فتتجه نحو الرذائل.

ويوضح ابن حزم حدود الأخلاق، فيقول "حدّ الجود وغايته أن تبذل الفضل كله في وجوه البرّ، وأفضل ذلك في الجار المحتاج وذي الرحم الفقير وذي النعمة الذاهبة والأحضر فاقة. ومنع الفضل من هذه الوجوه داخل في البخل. وما وضع في غير هذه الوجوه فهو تبذير، وهو مذموم. وحدّ الشجاعة بذل النفس للموت عن الدين والحريم وعن الجار المضطهد، وعن المستجير المظلوم وعن الهضيمة ظلماً في المال والعرض وفي سائر سبل الحق، سواء قلّ من يعارض أو كثر. والتقصير عما ذكرنا جبن وخور، وبذلها في عرض الدنيا تهور وحمق. وحدّ العفة أن تغض بصرك وجميع جوارحك عن الأجسام التي لا تحلّ لك. فما عدا هذا فهو عهر، وما نقص حتى يمسك عما أحلّ الله تعالى فهو ضعف وعجز. وحدّ العدل أن تعطي من نفسك الواجب وتأخذه. وحدّ الجور أن تأخذه ولا تعطيه. وحدّ الكرم أن تعطي من نفسك الحق طائعاً، وتتجافى عن حقك لغيرك قادراً، وهو فضل أيضاً" [2].

كما يوضح ابن القيم في "الفوائد" حدود الأخلاق بقوله: "فللغضب حدّ وهو الشجاعة المحمودة والأنفة من الرذائل والنقائص، وهذا كماله. فإذا جاوز حدّه تعدى صاحبه وجار، وإن نقص عنه جبن ولم يأنف من الرذائل. وللحرص حدّ وهو الكفاية في أمور الدنيا وحصول البلاغ منها، فمتى نقص من ذلك كان مهانة وإضاعة، ومتى زاد عليه كان شرهاً ورغبة فيما لا تحمد الرغبة فيه ... والجود له حدّ بين طرفين، فمتى جاوز حدّه كان إسرافاً وتبذيراً، ومتى نقص عنه كان بخلاً وتقتيراً. وللحسد حدّ وهو المنافسة في طلب الكمال والأنفة أن يتقدم عليه نظيره، فمتى تعدى ذلك صار بغياً وظلماً يتمنى معه زوال النعمة عن المحسود، ويحرص على إيذائه. ومتى نقص عن ذلك كان دناءة وضعف همة وصغر نفس" [3].

---

(1) القلم، 4.

(2) ابن حزم، الأخلاق والسير في مداواة النفوس، ص32- 33.

(3) ابن القيم، الفوائد، ص 177.

ويضيف ابن القيم في "تهذيب مدارج السالكين" أمثلة أخرى على حدود الأخلاق، يقول "فللتواضع حدّ، متى زاد عليه كان كبراً وعلواً، ومتى نقص عنه كان ذلاً ومهانة وحقارة. وللحياء حدّ متى زاد عليه صار قحة وجرأة، ومتى نقص عنه كان عجزاً ومهانة بحيث يُطمع في نفسه عدوه ويفوته كثير من مصالحه ... وللحلم حدّ متى زاد عليه صار ترفاً وحدّة وخفة، ومتى نقص عنه صار ذلاً ومهانة وحقارة. وللأناة والرفق حدّ متى زادت عليه صارت طيشاً وعنفاً، ومتى نقصت عنه صارت تفريطاً وإضاعة ... وكذلك طلاقة الوجه فإنها وسط بين التعبيس والتقطيب وتصعير الخدّ وطي البِشر عن البَشر، وبين الاسترسال بذلك مع كل أحد بحيث يزيل الهيبة ويزيل الوقار ويطمع في الجانب"[1].

وفي ضوء ما توصل إليه معظم علماء المسلمين من فضائل كبرى للشخصية هي: الحكمة والعفّة والعدالة والشجاعة، وما يقابلها من رذائل هي: الجهل والشهوة والظلم والغضب، يمكن القول بأن هذه الرذائل هي أصل التطرف في الشخصية. فالجهل، كما عند ابن القيم "يُري صاحبه الحسن في صورة القبيح، والقبيح في صورة الحسن، والكمال نقصاً والنقص كمالاً. والظلم يحمل صاحبه على وضع الشيء في غير موضعه؛ فيغضب في موضع الرضا ويرضى في موضع الغضب، ويجهل في موضع الأناة، ويبخل في موضع البذل، ويبذل في موضع البخل، ويحجم في موضع الإقدام، ويقدم في موضع الإحجام ويلين في موضع الشدة، ويشتدّ في موضع اللين، ويتواضع في موضع العزّ. ويتكبر في موضع التواضع. والشهوة تحمله على الحرص والشح والبخل وعدم العفة والنهمة والجشع والدناءات كلها. والغضب يحمله على الكبر والحقد والحسد والعدوان والسفه"[2].

هذا ومن الجدير بالذكر أن معيار الحكم على الفضائل والرذائل في الإسلام هو المعيار العقائدي، وهو معيار ثابت، لا يتغير بتغير الزمان أو المكان أو المجتمع ... لأنه إلهي المصدر، وليست المعايير الاجتماعية كما هو الحال في الفكر النفسي الغربي.

ولمّا كانت سمات الشخصية ثابتة نسبياً. وأن معيار الحكم على اعتدال السمات وانحرافها هو المعيار العقائدي، فهذا يعني إمكانية تعديل سمات الشخصية بتعديل ما

---

(1) ابن القيم، تهذيب مدارج السالكين، ص660.

(2) ابن القيم، تهذيب مدارج السالكين، ص659.

انحرف منها من فكر ومعتقد وخلق. وما من شك بأن تعديل سمات الشخصية سيقود إلى تعديل السلوك، والله سبحانه لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم. ويذكر المحققون أن "غير الأنبياء من البشر يُطبع على بعض السمات دون جميعها ويولد عليها، فيسهل عليه اكتساب تمامها عناية من الله سبحانه ... فبالاكتساب يكمل نقصها، وبالرياضة والمجاهدة يستجلب معدومها ويعتدل منحرفها. وباختلاف هذين الحالين يتفاوت الناس فيها، وكلٌّ ميَّسر لما خلق له، ولهذا ما اختلف السلف فيها: هل هذا الخلق جبلة (أي خلقة) أو مكتسب؟ فقد حكى الطبري عن بعض السلف أن الخلق الحسن جبلّة وغريزة في العبد، وحكاه عن عبد الله بن مسعود والحسن، وبه قال هو: والصواب ما أصّلناه" [1]. وقد روى سعد عن النبي صلى الله عليه وسلم "كل الخلال يطبع عليها المؤمن إلا الخيانة والكذب" [2]. وهكذا يمكن القول بأن الشخصية الوسطية هي الشخصية السوية المستقيمة على الفطرة وهي الشخصية الأكثر عدلاً واعتدالاً وقوة وعطاء وخيراً وحكمة وعفة وعدالة. فقد ورد في القرآن الكريم قوله سبحانه: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) [3]. ويقصد بالوسطية هنا العدل والاعتدال، كما ورد قوله تعالى: (قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ) [4]. أي أعدلهم وخيرهم.

- **الصحة النفسية:**

يشير مفهوم الصحة النفسية في الإسلام إلى حالة دائمة نسبياً من الشعور بالسعادة والعيش بسلام مع النفس ومع خالقها ومع الآخرين، وتشمل السعادة في الدنيا والآخرة. وتنتج هذه الحالة عن سواء الشخصية. فالإيمان الحق (بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء خيره وشره) يعدّ مؤشراً لسواء الشخصية، ويؤدي بدوره إلى الأمن النفسي والهداية (مؤشران للصحة النفسية). فالسعادة النفسية ثمرة مؤكدة للإيمان، مصداقاً لقوله تعالى: (الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)[5]. والإيمان طريق الهداية، فالله سبحانه يهدي الذين آمنوا إلى الصراط

---

(1) مجدي الشهاوي، وصف النبي صلى الله عليه وسلم كأنك تراه، ص48- 49.

(2) عزاه الخفاجي في نسيم الرياض (شرح الشفا) لأحمد في مسنده والبيهقي في شعب الإيمان وابن أبي شيبة في مصنفه، وقال الخفاجي: حديث صحيح.

(3) البقرة، 143.

(4) القلم، 28.

(5) الأنعام، 82.

المستقيم. وينسحب الحديث نفسه على مفهوم انحراف الشخصية وما يفضي إليه من وهن أو اضطراب أو حتى مرض نفسي. فالإعراض عن ذكر الله، مثلاً، مؤشر على انحراف الشخصية ويفضي إلى المعيشة الضنك، كما يتضح في قوله تعالى:(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(124) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (125) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (126) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى) [1].

ويكشف استقراء ما يفضي إليه سواء الشخصية وانحرافها من مؤشرات للصحة النفسية أو المرض النفسي، كما وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وجود عدد يصعب حصره من هذه المؤشرات، لعلّ أبرزها التالية:

1. الرضا بالعبودية مقابل السخط.
2. الحياة الطيبة مقابل المعيشة الضنك.
3. سكينة النفس واطمئنانها مقابل الغم.
4. الشعور بالأمن النفسي مقابل القلق.
5. العيش بسلام مقابل الصراع النفسي.
6. الشعور بالإنجاز بسبب اغتنام الخمس مقابل الشعور بعدم الإنجاز وضياع العمر هدراً.
7. انشراح الصدر مقابل انقباض الصدر.
8. السعادة مقابل الشقاء.
9. تحمل المسؤولية الفردية والاجتماعية مقابل عدم تحملها.
10. النضج الانفعالي مقابل عدم الاتزان الانفعالي.
11. القدرة على ضبط الذات مقابل عدم القدرة على ضبط الذات.
12. القدرة على مواجهة مطالب الحياة مقابل الفشل في مواجهتها.
13. التوافق مع الجماعة.
14. البرء من الأمراض النفسية.

ويمكن القول بأن الشخصية التي تتمتع بالصحة النفسية هي الشخصية صاحبة النفس المطمئنة، كما سمّاها القرآن الكريم. وهي التي تمكنت من تحقيق التوازن

(1) طه، 124- 127.

والانسجام والوحدة بين متطلبات الروح والجسد؛ فتعنى بإشباع حاجات الجسد في حدود الشرع، وتحافظ على قوته. كما تشبع في الوقت ذاته الحاجات الروحية بما يتفق مع المنهج الإسلامي، وبما يصون الفطرة التي فطرها الله عليها، بتوسط واعتدال، ودون إفراط أو تفريط. فلا يطغى جانب على آخر، ولا يشبع أحدها إلى الحدّ الذي يعطّل إشباع الآخر أو كبته. فلا يعذب الجسم ليسمو بالروح، ولا يهمل الروح ليتمتع الجسم. وهذا هو قول معظم علماء المسلمين. فإبن القيم، مثلاً، يرى في "رسالة في أمراض القلوب" أن تحقيق الصحة النفسية يتم بتحقيق التوازن بين متطلبات الجسم والنفس والروح في حدود الشرع ... ويرى أن الشخصية التي تتمتع بالصحة النفسية هي التي غلبت نفسها. وبالمقابل، فإن الشخصية المريضة نفسياً هي التي غلبتها نفسها[1].

ويذهب الغزالي في "إحياء علوم الدين"[2] إلى ما ذهب إليه ابن القيم، فهو يرى أيضاً أن تحقيق الصحة النفسية يتم عندما يتحقق التوازن بين بواعث الهدى (التي تتعلق بإشباع الحاجات الروحية من حب الله ورسوله والتوكل على الله ...) وبواعث الهوى (التي تتعلق بإشباع الغرائز والسعي وراء الشهوات والملذات). ويرى الغزالي أن تحقيق التوازن بين باعثي النفس (الهوى والهدى) يكون من خلال أمرين هما:

1. الوجود الإلهي والكمال الفطري.
2. اكتساب الأخلاق بمجاهدة النفس وترويضها والتعامل معها بأضدادها، فكسر شهوة البطن تكون بتعويد النفس على الجوع.

ويرى الغزالي أن سعادة الإنسان، أي صحته النفسية، تتحقق عندما تكون القوى الثلاث (الغضب والعلم والشهوة) في حال توسط واعتدال. فصحة النفس مرهونة باعتدال الأخلاق، أما مرض النفس فمرتبط بميل الأخلاق عن الوسطية نحو الرذائل.

فيما يرى ابن سينا في كتابه "النجاة" أن الإيمان بالله تعالى هو الذي يحقق التوازن والتوافق النفسي. فالإيمان بالله هو باب السكينة، وهو الذي يحفظ للشخصية دوام الصحة[3]. ويؤيده في ذلك ابن تيمية في كتابه "مجموع الفتاوى" الذي يرى "حفظ صحة القلب (أي الصحة النفسية) باستعمال أمثال ما فيها، أي ما يقوي العلم والإيمان من

(1) ابن القيم، رسالة في أمراض القلوب، مرجع سابق.

(2) الغزالي، إحياء علوم الدين، مرجع سابق.

(3) ابن سينا، النجاة، مرجع سابق.

الذكر والتفكر والعبادات. وتزول بالضدّ؛ فتزال الشبهات بالبينات، وتزال محاباة الباطل ببغضه ومحبة الحق"[1].

ويؤكد ابن تيمية ضرورة أن يسعى الإنسان إلى تحقيق الكمال في شخصيته، الذي يكون بتحقيق السعادة، أي بالصحة النفسية. ولا يكون تحقيق السعادة إلا في ظل نور الإيمان والعمل الصالح، فالإيمان عماد الحياة ومنبع طمأنينة النفس ومصدر سعادتها، شريطة أن تظهر آثاره على سلوك الإنسان على شكل عمل صالح، وفي ذلك يقول "وربط السعادة مع صلاح العمل في مثل قوله تعالى(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)[2]. وليس للنفس صلاح إلا في معرفة الله تعالى وعبادته. ولا يتحقق ذلك إلا باتباع الرسول صلى الله عليه وسلم، قال سبحانه: (وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) [3]. فطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم قطب السعادة التي عليها تدور، ومستقر النجاة التي عنه لا تحور. فالله خلق الخلق لعبادته، كما قال سبحانه: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)[4]. وقد أنعم الله عز وجل على بني آدم بأمرين هما أصل السعادة؛ أحدهما: أن كل مولود يولد على الفطرة، والثاني: أن الله قد هدى الناس هداية عامة بما جعل فيهم من الفطرة ومن المعرفة وأسباب العلم وبما أنزل إليهم من الكتب وأرسل إليهم من الرسل"[5].

فالسعادة في الإسلام ثمرة من ثمرات الإيمان الصادق، تنبع من أعماق الشخصية، فتشعرها بالسكينة والطمأنينة والقناعة والرضا والمحبة والأمل والفرح، قال تعالى(قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)[6]. ويفسر ابن كثير هذه الآية الكريمة بقوله "فليفرحوا بهذا الذي جاءهم من الله الهدى ودين الحق، فإنه خير من حطام الدنيا وما فيها من الزهوة الفانية الذاهبة لا محالة"[7]. فالسعادة الحقيقية مرهونة بطاعة الله.

---

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج10، ص145.
(2) النحل، 97.
(3) النساء، 13.
(4) الذاريات، 56.
(5) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج14، ص295- 296.
(6) يونس، 58.
(7) انظر: مختصر تفسير ابن كثير للصابوني، ج2، ص198.

وينظر أبو زيد البلخي في "مصالح الأبدان والأنفس" إلى مفهوم الصحة النفسية ومؤشراتها نظرة فريدة تتعلق بالبرء من الأمراض النفسية. فهو يرى للنفس البشرية حالتي صحة وسقم. وتتحقق لها الصحة النفسية عندما تكون قواها ساكنة، فلا يهيج لها شيء من الأعراض النفسية، ولا يغلب عليها، كالخوف والفزع والغضب. ويرى أن الحفاظ على الصحة النفسية يكون بصيانة النفس من الأعراض الداخلية (كالتفكير) والأعراض الخارجية (ما يُسمع وما يُبصر...)[1].

ويربط الماوردي في كتابه "أدب الدنيا والدين" بين الصحة النفسية والعقلية. فهو يرى أن تحقيق الصحة النفسية يكون بتحقيق الصحة العقلية، ويستشهد بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن الأحمق العابد ليصيب بجهله أعظم من فجور الفاجر، وإنما يقرّب الناس من ربهم بالزلف (القربات) على قدر عقولهم"[2].

ويمكن القول بأن الصحة النفسية للشخصية ترتبط بتحقيق الغاية من وجودها. فإذا تمكنت الشخصية من تحقيق العبودية لله، فإنها تشعر بالرضا النفسي. ويقتضي تحقيق الغاية من الوجود إيجاد وحدة بين عناصر الشخصية، فلا تصارع ولا تناقض بين الفكر والمشاعر والسلوك. بل تتوجه الشخصية بكليتها إلى تحقيق غاية تتصاغر دونها الغايات. وهذه الغاية ثابتة لا تتغير بسبب ما جمعه المؤمن من مال، مثلاً. فالمال يزيده شكراً لمنعمه. ولا بسبب ما حققه من نصر، لأن النصر يزيده خوفاً من عظمته. ولا بسبب ما حققه من إنجاز، لأن الإنجاز يزيده تواضعاً لواهبه. فقد حقق خالد بن الوليد، رضي الله عنه، الانتصار تلو الانتصار، ولم تأخذه عقدة الغرور والكبر. حتى عندما طلب منه عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، التخلي عن القيادة لأبي عبيدة، وهو في قلب المعركة، أجاب: أنا لا أقاتل لأجل عمر، واستمر يقاتل جندياً في صفوف أبي عبيدة، حتى فتح الله على المؤمنين بالنصر.

كما ترتبط الصحة النفسية بالتكيف مع الجماعة والتوافق النفسي والاجتماعي معها، حيث التعاون والتعاطف والتراحم والتكافل والألفة، فالمؤمن ألف مألوف. ويتماشى الإسلام مع الفطرة السوية المستقيمة، فلا يقيّد طاقات الفرد ورغباته الفطرية السوية لتحقيق مصلحة المجتمع، ولا يسمح للفرد بالسعي وراء شهواته بما يؤذي حياة

---

(1) انظر: العاني، الشخصية الإنسانية في التراث الإسلامي، ص160.

(2) الماوردي، أدب الدنيا والدين، مرجع سابق.

المجتمع، بل يحظى كل بنصيبه من الإشباع الأمثل المعتدل. فيتحقق السلام مع الجماعة بتوازن وتكامل، وبما يحقق الصحة النفسية للفرد والمجتمع على حدّ سواء.

ويربط الإسلام بين سعادة الإنسان والوجود الشامل للكون، لذلك حدّد العلاقات بين الإنسان ونفسه، وبينه وبين خالقه، وبينه وبين الآخرين. فهو بحاجة إلى أمن مع نفسه ومع الآخرين، وإلى سلام مع خالقه. فجاء تحديد العلاقات هذه وتنظيمها بما يضمن له الأمن والسعادة، ويجنبه الاغتراب والمرض النفسي. وتتحقق له السعادة النفسية عندما يحقق السلام مع خالقه بطاعة أوامره وتجنب نواهيه والرضى بقضائه وقدره، والسعي إلى مرضاته ومع نفسه بالتحلي بمكارم الأخلاق وآداب الإسلام. وتتحقق له السعادة مع الآخرين بإقامة العلاقات الاجتماعية الصادقة التي تنبثق عن علاقات الحب في الله.

ويعدّ تحقيق السعادة للفرد والمجتمع من الغايات الكبرى للدعوة الإسلامية. فالسعادة التي تحرّر الإنسان من البؤس والشقاء مقصد من مقاصد الشريعة، قال سبحانه(طه (1) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى) [1]، وقال تعالى: (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى) (123وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا) [2].

وقد تمتعت شخصية رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم بالصحة النفسية بأبهى صورها، فقد حمل الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وحقق العبودية لله وحده. رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً، فشعر بالطمأنينة في الحياة الدنيا واطمأن إلى خالقه سبحانه، الذي وعده بأن يعطيه في الآخرة حتى يرضيه في أمته وفيما أعدّه له من الكرامة، قال تعالى:(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى)[3]، بما فيها نهر الكوثر في الجنة، قال تعالى: (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ)[4]، الذي خصّه الله به. هذا وسنتحدث بالتفصيل عن شخصية رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم نموذجاً للشخصية الوسطية التي تتمتع بالصحة النفسية.

---

(1) طه، 1-2.

(2) طه، 123- 124.

(3) الضحى، 5.

(4) الكوثر، 1.

- **شخصية رسول الله** صلى الله عليه وسلم **نموذجاً:**

تتمتع شخصية رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم بالوسطية والاعتدال بأوضح صورها، ذلك أنها حققت أصل السواء، وهو صلاح القلب الذي يصلح بصلاحه سائر الجسد، وحققت الاستقامة، فهي شخصية مطمئنة إلى خالقها لتمسكها بعقيدة التوحيد وبفطرتها، كما أنها حملت الأمانة وأدت الرسالة. وكما هو معلوم فإن ملامح شخصية رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم وحدودها هي في الوقت ذاته ملامح الرسالة الإسلامية وحدودها في الجانب التطبيقي للحياة. فقد جاءت شخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم مناسبة للرسالة الإسلامية، فهي شخصية وسطية متوازنة متكاملة سوية، لا يطغى فيها جانب على الآخر. والله سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته. وهو سبحانه القادر وحده على اختيار الشخصية المناسبة تماماً لحمل أمانة الرسالة.

فمن الناحية الجسمية: قال البراء بن عازب رضي الله عنه "كَانَ رَسول الله صلى الله عليه وسلم أَحْسَن النَاس وَجْهاً وَأَحْسَنَهُم خُلْقاً"[1]. وسأل رجل جابر بن سمرة: أَكَانَ رَسُول الله صلى الله عليه وسلم وجْهَهُ مِثْل السَيْفِ؟ قال جابر: لا، بَلْ مِثْل الشَمْس وَالقَمَر مُسْتَدِيراً"[2]. و "التشبيه بالشمس إشارة إلى الإشراق، والتشبيه بالقمر يراد به الملاحة. وبذا فقوله "كان مستديراً" يحمل الصفتين معاً: الحسن والاستدارة"[3].

وكان لون رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بالأبيض الشديد البياض ولا بالأسمر الشديد السمرة، بل كان يخالط بياضه الحمرة. فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه في وصف النبي صلى الله عليه وسلم " كَانَ أَزْهرَ اللَّون، لَيْسَ بِالأَبْيَضِ الأَمْهَقِ وَلاَ بِالآدَمِ"[4]. وقد وصفه علي بن أبي طالب، كرّم الله وجهه، فقال "كان أبيض مشرباً بالحمرة"[5].

---

(1) رواه البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم حديث رقم 3549، ومسلم في كتاب الفضائل، باب صفة النبي، ج93.

(2) رواه مسلم عن أبي بكر بن ابي شيبة عن عبيد الله بن موسى، ص1823.

(3) قول ابن حجر، نقلاً عن مجدي الشهاوي، وصف النبي صلى الله عليه وسلم، كأنك تراه، ص9.

(4) الحديث بتمامه في صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي، حديث رقم 3547، 3548، كتاب اللباس، باب الجعد رقم 5900؛ ومسلم في كتاب الفضائل، باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم، حديث رقم 113، 114.

(5) ابن عساكر في تاريخه؛ الخصائص الكبرى للسيوطي 72/1؛ دلائل النبوة للبيهقي 206/1.

كان شعره وسطاً بين السبط المسترسل والجعد القطط، ففي حديث أنس رضي الله عنهما "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم رَجل الشعر ليس بالسَّبِط ولا بالجعْد القطِط" [1]. وكان طول شعره بين أذنيه وعاتقه، فقد روى البخاري في باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم "لهُ شَعَرٌ يبلُغُ شَحمةَ أُذُنيه إلى منكِبَيه" [2]. وفي الشمائل للترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال "كَانَ رَسُول الله صلى الله عليه وسلم يَسْدِلُ شعرَه" أي أنه يرسل شعر ناصيته على جبهته دون أن يضم جوانبه[3]. هذا وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرم شعره ولكن لا يبالغ في تزيينه، فقد روى أبو داود والترمذي والنسائي "نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الترجل إلا غِبًّا" [4]. أي أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن تسريح الشعر وتزيينه للرجال إلا مرة بعد مرة، أي أن يسرّحه يوماً ويتركه يوماًَ.

ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلاً مفرطاً في الطول ولا قصيراً واضح القصر، بل كان وسطاً معتدلاً بينهما، يميل إلى الطول عن القصر، فقد وصف أنس بن مالك رضي الله عنهما النبي صلى الله عليه وسلم فقال "كان رَبعةً منَ القَومِ ليسَ بالطويلِ ولا بالقَصيرَ" [5]. وروى الحافظ البيهقي في دلائل النبوة بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال "كان – يعني النبي صلى الله عليه وسلم - رجلاً ربعة، وهو إلى الطول أقرب" [6].

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم حريصاً على نظافة جسمه وبخاصة في يوم الجمعة، قال صلى الله عليه وسلم "اغتَسِلوا يومَ الجُمعةِ واغسِلوا رؤوسَكم، وإن لم تكونوا جُنُباً، وأصيبوا منَ الطيبِ" [7]. وكان طيب الرائحة، فعن أنس رضي الله عنه قال "ما مسست بيدي ديباجاً ولا حريراً ولا شيئاً ألين من كفّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا شممت رائحة قط أطيب من ريح رسول الله صلى الله عليه وسلم [8].

---

(1) انظر الهامش رقم (4).

(2) البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم، حديث رقم 3551؛ كتاب اللباس، باب الجعد، حديث رقم 5901.

(3) نقلاً عن مجدي الشهاوي، ص14-15.

(4) أبو داود في كتاب الترجل، حديث رقم 4159 والترمذي في كتاب اللباس، باب ما جاء في النهي عن الترجل إلا غباً وقال حسن صحيح (257/7- 258) والنسائي في كتاب الزينة، باب الترجل غباً (132/8).

(5) انظر الهامش رقم (4).

(6) دلائل النبوة للبيهقي 253/1، قال الحافظ ابن حجر إسناده حسن وهو من رواية الذهلي في الزهريات عن أبي هريرة (الفتح 6/ 657).

(7) رواه البخاري.

(8) البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم، حديث رقم 3561، مسلم في الفضائل، حديث رقم 81.

وقال اسحق بن راهويه "إن هذه الرائحة كانت رائحة رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير طيب"[1]. أي أن هذه الرائحة الطيبة كانت مما أكرمه الله تعالى به. فهي صفته ولـو لم يمس طيباً، ومع ذلك فقد كان يستعمل الطيب في أكثر أوقاته.

وسئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن أي شيء يبدأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل بيته، فقالت "السواك"[2]. فقد حرص رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم على نظافة الفم فهو يقول "لَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ عِنْدَ كُلِ صَلاة"[3]. وقد حظر رسول الله صلى الله عليه وسلم على الذين يأكلون الثوم والبصل الصلاة في المسجد كي لا تتأذى الملائكة والمصلون من رائحتها الكريهة.

ويحرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على نظافة ثوبه وحسن هندامه، فقد كان يقول "مَا عَلَى أحَدِكُم إنْ وَجَدَ، أنْ يَتَّخِذَ ثَوْبَيْنِ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ سِوَى ثَوْبَيْ مَهِنَتِهِ"[4]، لذا فهو صلى الله عليه وسلم يريد أن نكون نظيفين دوماً، فلا يدخل الجنة إلا نظيف. وقد روى مكحول عن عائشة رضي الله عنها قالت "كان نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرونه على الباب، فخرج يريدهم، وفي الدار رَكْوة فيها ماء، فجعل ينظر في الماء ويسوّي لحيته وشعره. قالت عائشة: فقلت له: يا رسول الله، وأنت تفعل هذا؟ قال: نعم، إذا خرج الرجل إلى إخوانه فليهيئ من نفسه، فإن الله جميل يحب الجمال"[5].والأحاديث والأخبار متوافرة حول نظافة رسول الله صلى الله عليه وسلم وطيب رائحته. وقد كان وسطاً ومعتدلاً دون إفراط أو تفريط، فلم يكن ليهمل مظهره بدعوى الزهد والتواضع، ولا يبالغ في تزيين نفسه، فهو سيّد المتواضعين، كان يلبس الملابس النظيفة ويتجمل لأهله وأصحابه، إظهاراً لنعمة الله عليه. فالله سبحانه يحب أن يرى أثر نعمته على عبده. وقد روى جندب بن مكيث رضي الله عنه قال "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قدم الوفد لبس أحسن ثيابه وأمر عِلْيَةَ أصحابه بذلك، فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم قدم وفد كندة، وعليه حُلَّة يَمانية، وعلى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما مثل ذلك"[6].

---

(1) عن محقق دلائل النبوة للبيهقي (د. عبد المعطي قلعجي)، هامش 258/1.

(2) رواه مسلم.

(3) رواه الشيخان.

(4) رواه أبو داود.

(5) نقلاً عن محمد علي الهاشمي، شخصية المسلم كما يصوغها الكتاب والسنة، ص41-42.

(6) طبقات ابن سعد، 346/4.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم معتدلاً في طعامه وشرابه، لا يُقبل على الطعام إلا عندما يجوع، وإن أكل لا يشبع، فلا يصيب من الطعام إلا ما يقيم به صلبه، ويحفظ قوته ونشاطه. فمن هديه صلى الله عليه وسلم في الاعتدال في الطعام والشراب قوله "مَا مَلأَ آدمِيٌ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، فإِنْ كَانَ لاَ مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ وَثُلْثٌ لِنَفَسِهِ" [1]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال "مَا شَبِعَ آلَ مُحَمَد صلى الله عليه وسلم منْ خُبْزِ طعام ثَلاثَةَ أَيام حَتَّى قُبِضَ" [2].

وقال العسقلاني: وقع في حديث كعب بن عنجرة عند الطبراني في الأوسط صفة لعق الأصابع ولفظه "رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل بأصابعه الثلاث: الإبهام والتي تليها والوسطى ثم رأيته يلعق أصابعه الثلاث قبل أن يمسحها: الوسطى ثم التي تليها ثم الإبهام[3]. وكان صلى الله عليه وسلم لا يأكل متكئاً، وكان يأكل بيمينه ويسمي الله قبل الأكل ويأكل مما يليه ويحمد الله الذي أطعمه ورزقه. وفي الصحيحين "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما عاب طعاماً قط، إن اشتهاه أكله وإن كرهه تركه".

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشرب قائماً وقاعداً. وغالباً ما كان يشرب قاعداً لأنه الأفضل والأكمل، ولكنه نادراً ما كان يشرب قائماً. وكان يشرب ثلاثاً وفي كل مرة كان يُبعد الإناء عن فمه ثم يتنفس، فعن أنس بن مالك "أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتنفس في الإناء ثلاثاً إذا شرب ويقول هو أمرأ وأروى وأبرأ" [4]، أي أهضم وأكثر رياً وأكثر برءاً وصحة. ومن هديه صلى الله عليه وسلم أنه كان يحمد الله إذا أكل ويحمده إذا شرب.

وعن عبادة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد أمر الله رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم بالعبادة حتى الموت، قال تعالى (وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)[5]، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عبداً شكوراً، فعن المغيرة بن شعبة قال "قام[*]رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتفخَتْ قدماهُ فقيلَ لهُ: أتَتَكلفُ هذا وقد غُفِرَ لك ما تقدمَ من ذنبكَ وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً" [6].

---

(1) رواه الترمذي.

(2) رواه البخاري.

(3) نقلاً عن مجدي الشهاوي، ص35.

(4) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الأشربة، حديث رقم 173.

(5) الحجر، 99.

(*) قام: يعني صلاة قيام الليل.

(6) رواه البخاري في الصحيح، كتاب التهجد، باب6.

وقالت عائشة رضي الله عنها "كنت لا تشاء أن تراه من الليل مصلياً إلا رأيته مصلياً، ولا نائماً إلا رأيته نائماً" [1].

أما عن صومه، فقد قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما "ما صامَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم شهراً كامِلاً قطُّ غيرَ رَمضانَ، ويَصومُ حتّى يَقولَ القائلُ: لا واللهِ لا يُفطِرُ، ويُفطِرُ حتّى يقولَ القائلُ: لا واللهِ لا يَصُومُ" [2].

وقد حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على الاعتدال في العبادة وعدم الإفراط فيها على حساب الجسد، فيروى أن ثلاثة رجال جاءوا إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادته، فلما أخبروا عنها كأنهم تقالّوها، فقالوا: وأين نحن من رسول صلى الله عليه وسلم وقد غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر. فقال أحدهم: أما أنا فإنني أصلي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء ولا أتزوج أبداً". فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم، فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني" [3].

وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المغالاة في العبادة، فنهى عن الرهبانية والتبتل وصيام الأبد. كما أمر بحلّ حبل زينب، فعن أنس بن مالك رضي الله عنهما قال: دَخَلَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم المسجد فإذا حَبلٌ مَمدودٌ بينَ الساريتَينِ، فقال: ما هذا الحبلُ؟ قالوا: هذا حبلٌ لزينبَ، فإذا فَتَرَتْ تَعلَّقَتْ به. فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: حُلُّوهُ، ليُصلِّ أحدُكم نشاطَهُ، فإذا كَسَل أو فترَ فلْيَقعُدْ" [4].

أما عن خوفه من ربه وخشيته له، فقد كان أتقى الناس وأخشاهم لله. وقد كانت شدة عبادته على قدر علمه بربه، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم "لو تعلمونَ ما أعلمُ لضحكتم قليلاً وَلبَكيتُم كثيراً" [5].

وفيما يتعلق بالسمات الشخصية لرسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم، أي أخلاقه، فقد كان صلى الله عليه وسلم أكمل الناس أخلاقاً وأكثرهم اعتدالاً وتوسطاً في قوى النفس وسمات الشخصية، لذلك

---

(1) صحيح مسلم، 451؛ نقلاً عن مجدي الشهاوي، ص46.

(2) أخرجه البخاري، كتاب الصوم، باب ما يذكر من صوم النبي صلى الله عليه وسلم رقم 1971.

(3) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب ترغيب في النكاح، حديث رقم 4657.

(4) أخرجه الشيخان/ النووي، رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب النعاس في الصلاة، حديث رقم 1117.

(5) صحيح البخاري، كتاب الكسوف، باب2، التفسير سورة المائدة باب 12، كتاب النكاح باب 107، الرقاق باب 27، الإيمان باب3.

أثنى الله سبحانه بذلك عليه، فقد قال تعالى: (وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)[1]. وقال أنس رضي الله عنه "كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خُلقاً. وقال علي بنِ أبي طالبٍ مثله"[2]. وقد بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ليتمم مكارم الأخلاق، قال صلى الله عليه وسلم "بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ حُسْنَ الأَخْلَاقِ "[3]. وتلخص عائشة رضي الله عنها سمات شخصية رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم بعبارة موجزة جامعة لكمال الأخلاق واعتدالها وتوسطها دون ميل أو انحراف إلى أطرافها، فقد قالت "كان خلقه القرآن"[4]؛ أي أن شخصيته سوية مستقيمة على الفطرة، فهو يرضى لما يرضي الله ويغضب لما يغضب الله.

ويذكر المحققون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم "كان مجبولاً، أي مخلوقاً على حسن الخلق وكماله واعتداله وتوسطه في أصل خلقته وأول فطرته، ولم تحصل له باكتساب ولا رياضة إلا بجود إلهي وخصوصية ربّانية، وهكذا لسائر الأنبياء، ومن طالع سيرهم منذ صباهم إلى مبعثهم حقق ذلك ... ثم يتمكن الأمر لهم، وتترادف نفحات الله عليهم، وتشرق أنوار المعارف في قلوبهم، حتى يصلوا الغاية، ويبلّغوا- باصطفاء الله لهم بالنبوة في تحصيل هذه الخصال الشريفة – النهاية دون ممارسة ولا رياضة... "[5].

وعن حكمة رسول الله صلى الله عليه وسلم **وعلمه**، فقد كان صلى الله عليه وسلم مدينة للعلم، وله مكانته المميزة في إيصال المعرفة الإلهية إلى الناس، قال سبحانه: (كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ)[6]. وقد كان يعلّم الناس الخير، فعن خباب بن الأرت قال: نزلت: (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ)عليه وسلم بالغداة والعشي، يعلّمنا القرآن والخير، وكان يرغّبنا في الجنة ويخوّفنا من النار، وما ينفعنا الله به، والبعث بعد الموت"[7].

---

(1) القلم، 4.

(2) نقلاً عن مجدي الشهاوي، ص48.

(3) الموطأ، 904، قال ابن عبد البر: هو حديث صحيح متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة.

(4) ذكره الإمام السيوطي في الجامع الصغير وأحمد في مسنده وعن مسلم وأبي داود ورمز له بالصحة.

(5) نقلاً عن مجدي الشهاوي، ص48.

(6) البقرة، 151.

(7) أخرجه ابن ماجة في الزهد، باب مجالسة الفقراء، حديث رقم 4127، وفي مجمع الزوائد قال الهيثمي إسناده صحيح ورجاله ثقات. وقد روى مسلم والنسائي وابن ماجة بعضه من حديث سعد بن أبي وقاص.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أول معلم في الإسلام، فقد بعثه الله سبحانه ليكون معلماً للبشرية، قال صلى الله عليه وسلم إِنَّما بُعِثت مُعِلماً" [1]. وكـان يعلّـم القـرآن الكـريم في دار الأرقم ابن أبي الأرقم، ثم كان التعليم يتم في المسجد. وقد تربى على يـديّ رسـولنا الكـريم صلى الله عليه وسلم عدد من الصحابة في المدرسة الأم للإسلام، لعل أبرزهم الخلفـاء الأربعـة، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يرسل المعلمين إلى النـاس ليعلّمـوهم أمـور ديـنهم، وكـان صلى الله عليه وسلم يقول "بلِّغوا عني ولو آيةً" [2]. وقد كان صحابة رسول الله صـلى الله عليـه وسلم يلتفون حوله، يتعلمون منه القرآن الكريم وكل ما يفيدهم في حيـاتهم الـدنيا والآخـرة، فقد قال أبو ذر الغفاري رضي الله عنه "لقد تركنا محمد صلى الله عليه وسلم وما يحرك طـائر جناحيه في السماء، إلا أذكرنا منه علماً" [3].

ويتسم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفطنة وحصافة العقل وقوة التدبير وحسن السياسة في تحقيق مصالح أمته الإسلامية، فهو المؤمن النموذج الذي ينظر بنور الله، وهو الكيّس الفطن الحذر. والأدلة على ذلك كثيرة، نذكر منها على سبيل المثال خطته الذكية في غزوة الخندق بتكليفه أبا سلمة بأن يخذل ما استطاع من أطراف التحالف القبلي الوثني اليهودي، والذي استطاع بتوجيهات رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفرّق كلمة قريش وغطفان وبني قريظة. وبعد غزوة الخندق، قال صلى الله عليه وسلم للمسلمين "لَنْ تَغْزوكُمْ قُرَيْش بَعْدَ عَامَكُمْ هَذا، وَلَكِنَكُمْ تَغْزُونَهُمْ" [4]. وقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في تقدير الموقف العسكري.

كما كان صلى الله عليه وسلم متعقلاً، مترويا،ً بعيد النظر، ثاقب البصيرة، ومن الأدلة على ذلك موافقته على شروط صلح الحديبية، التي رأى المسلمون فيها إجحافاً لهم وحرجاً في قبولها. حتى أن عمر بن الخَطابِ رضي الله عنه قال له: ألستَ نبيَّ اللهِ حَقاً ؟ قال: بلى. قال: أَلَسنا على حقٍّ وعدوُّنا على باطلِ ؟ قال: بلى. قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى. قال: فلم نُعطِي الدّنيّةَ في ديننا إذاً؟ قال: إِني رسولُ اللهِ ولسَت أعصِيه وهوَ ناصِرُي". وكان صلح الحديبية مقدمة الفتح. وكان من نتائجه أن أسلم كثير من مشركي قريش عندما سمعوا عن الرسول صلى الله عليه وسلم ومعجزاته، ومن ثم كان فتح مكة، ودخل أهل مكة كلهم في الإسلام، وأسلمت العرب في البوادي.

---

(1) أخرجه ابن ماجة والدارمي في كتاب المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، حديث رقم 225.

(2) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، حديث رقم 3202.

(3) أخرجه أحمد، كتاب مسند الأنصار، باب حديث أبي ذر الغفاري، حديث رقم 20399.

(4) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، حديث رقم 4109/ 4110.

وكان رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم قادراً على اتخاذ القرار عند توافر المعلومات الكاملة، ومع ذلك فكان يشاور أصحابه، فقد قال لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما "لَوْ اجْتَمَعْتُما فِي مَشُورَةٍ مَا خَالَفْتُكُمَا" [1]. وقد كان صلى الله عليه وسلم أكثر الناس مشورة لأصحابه. فقد استشارهم في غزو بدر عندما علم بقوة القرشيين وكثرة عددهم، كما استشارهم في غزوة الخندق ... فكان النصر والفتح المبين. ومن الأدلة على حزم رسول الله صلى الله عليه وسلم في اتخاذ القرار الصائب الذي لا رجعة فيه، قوله للمشركين الذين عرضوا عليه التراجع عن دينه "والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه" [2].

وباختصار، فقد حارت العقول في تقدير فضل عقل رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصف ما يحيط به أو ما ينتهي إليه. فقد بلغ صلى الله عليه وسلم من العلم مبلغاً لم يبلغه بشر سواه في حِكم الحكماء، وسير الأمم السابقة، وضرب الأمثال، وتأصيل الآداب، وتقرير الشرائع، والعلم بالكتب السماوية ... فقد أطلعه الله سبحانه على علم ما كان وما يكون، قال تعالى:(وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا) [3].

أما عن شجاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد كان صلى الله عليه وسلم شجاعاً جريئاً مقداماً في خوض الصعاب، يسعى إلى إحقاق الحق، ولا يخاف في ذلك لومة لائم. كما كان يربي أصحابه على الشجاعة والجرأة، وكان أسوة حسنة لهم في ذلك. قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه "كنا إذا اشتد الخطب واحمرّت الحدق اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه. ولقد رأيتنا يوم حنين ونحن نلوذ برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أقربنا إلى العدو" [4]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "نُصِرْتُ بالرُّعْب مَسِيرَةَ شَهرٍ كامل" [5]. وقال ابن عمر "ما رأيت أشجع ولا أنجد ولا أجود ولا أرضى ولا أفضل من رسول الله صلى الله عليه وسلم". وقال عمران بن حصين "ما لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم كتيبة إلا كان أول من يضرب" [6].

---

(1) أخرجه أحمد في مسنده، ج4، ص227، وحسنه الهيثمي في مجمع الزوائد، ج10، ص 393.

(2) ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، دار الكنوز الأدبية، ج1، ص266.

(3) النساء، 113.

(4) القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ج1، ص237.

(5) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب (121)، نصرت بالرعب مسيرة شهر، حديث رقم 2977، ص 687، عن أبي هريرة.

(6) نقلاً عن مجدي الشهاوي، ص58- 59.

ولا يخفى علينا ما يؤثر من حلم رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم واحتماله؛ فهو لا يزيد مع كثرة الأذى إلا صبراً، وعلى إسراف الجاهل حلماً. فعن عائشة رضي الله عنها قالت "ما خُيرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرينِ إلاَّ اختارَ أَيْسَرهُما ما لم يأْثم، فإِذا كان الإثمُ كان أبعد الناس منه، وما انتقمَ رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسهِ إلا أن تُنْتَهكَ حُرْمة الله تعالى، فينتقِمُ لله بها"[1].

ويشيد رسول الله صلى الله عليه وسلم بسمة الحلم ويجعلها دليل القوة، قال صلى الله عليه وسلم "ليس الشديدُ بالصّرَعة، إنما الشديدُ الذي يملكُ نفسَه عندَ الغضب"[2]. وكان صلى الله عليه وسلم مثالاً للحلم، يقول أنس بن مالك رضي الله عنهما "كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللّهِ صلى الله عليه وسلم، وعَلَيْهِ رِدَاءٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ. فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ. فَجَبَذَهُ بِرِدَائِهِ جَبْذَةً شَدِيدَةً. نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عُنُقِ رَسُولِ اللّهِ وَقَدْ أَثَّرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَبْذَتِهِ. ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللّهِ الَّذِي عِنْدَكَ (وفي رواية فإنك لا تأمر لي من مالك ولا من مال أبيك). فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللّهِ . فَضَحِكَ. ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ"[3].

وكان صلى الله عليه وسلم أكثر الناس وقاراً ومروءة، فعن عبد العزيز ابن وهيب قال: سمعت خارجة بن زيد يقول "كان النبي صلى الله عليه وسلم أوقر الناس في مجلسه ... " وكان كثير السكون لا يتكلم في غير حاجة، يُعرض عمن تكلم بغير جميل. وكان ضحكه تبسماً، وكلامه فصلاً، وكان ضحك أصحابه عنده التبسم، توقيراً له واقتداء به. مجلسه مجلس حلم وحياء وخير وأمانة، لا ترفع فيه الأصوات ولا تهتك فيه الحرمات، إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير"[4].

أما عن عفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد كان صلى الله عليه وسلم أعفّ الناس وأصدقهم لهجة وأكثرهم حياء، وكان يسمى "الصادق الأمين" قبل نبوته، وقد اعترف بذلك أعداؤه، فعن ناجية بن كعب عن عليّ رضي الله عنه أن أبا جهل قال للنبي صلى الله عليه وسلم إنا لا نكذبك، ولكن نكذب بما جئت به، فأنزل الله تعالى: (فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ)[5].

---

(1) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم، حديث رقم 3560.

(2) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب (30) فضل من يملك نفسه عند الغضب وبأي شيء يذهب الغضب، ج4، حديث رقم 2609، ص 1598- 1599.

(3) البخاري مختصراً في كتاب فرض الخمس، باب 19، حديث رقم 3149.

(4) نقلاً عن مجدي الشهاوي، ص 72- 73.

(5) الأنعام، 33؛ الحديث3 في سنن الترمذي، 4/ 261.

وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "ما لمست يده يد امرأة لا يملك رقّها" [1]. وروى أبو جعفر الطبري عن عليّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال "مَا هَمِمْتُ بِشَيْء مِمَا كَانَ أَهْل الجَاهِلية يَعْمَلُونَ بِهِ غَيْر مَرَتَيْنِ، كُل ذَلِكَ يَحُول الله بَيْنِي وَبَيْنَ مَا أُرِيد مِن ذَلِكَ، ثُمَ مَا هَمِمْتُ بسوءٍ حَتَى أَكْرَمَنِي الله بِرِسالَتِهِ، قُلْتُ ليلة لِغُلامٍ كَانَ يَرْعَى مَعِي: لَوْ أَبْصَرْتَ لِي غَنَمي حَتَى أَدْخل مَكة فأسمر بِها كَما يَسْمَر الشَباب، فَخَرَجْت كَذَلِك حَتَى جِئْتَ أَوَل دَار مِن مَكَة فَسَمِعت عَزفاً بالدفوف وَالمَزَامِير لِعُرس بَعْضَهُم، فَجَلَسْتُ أَنْظُر، فَضَرَبَ عَلَى أُذْنِي فَنِمْت، فَما أَيْقَظَنِي إلا مَسُّ الشَمْس، فَرَجَعْت وَلَم أَقْضِ شَيْئاً، ثُم عَرَانِي مَرَة أُخْرَى مِثْل ذَلِكَ، ثُمَ لَمْ أَهِمّ بَعْدَ ذَلِكَ بِسُوءٍ" [2].

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد الناس حياء وأكثرهم عن العورات إغضاء، قال سبحانه وتعالى:(ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ) [3]. وعن أبي سعيد الخدري قال "كان النبي صلى الله عليه وسلم أشدَّ حَياءً من العَذراء في خِدرها" [4]. وروي عنه أنه كان من حيائه "لا يثبت بصره في وجه أحد، وأنه كان يكني عما اضطره الكلام إليه مما يُكرَه" [5]. ولم يكن رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم "فاحشاً ولا متفحشاً ولا صخاباً، ولكن كان يعفو ويصفح عن المسيء. وكان دمثاً، لا يجفو الناس ولا يهينهم، قنوعاً، يعظّم النعمة وإن قلّت. وكان صلى الله عليه وسلم خافض الطرف، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، وإذا فرح غض طرفه، جُلُّ ضحكه التبسم، وجُلُّ نظره الملاحظة. وكان دائم البِشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس عياباً ولا مزّاحاً، لا يذم أحداً ولا يطلب عورته" [6].

أما عن كرم رسول الله صلى الله عليه وسلم **وجوده**، فقد قال ابن عباس "كان النبي صلى الله عليه وسلم أجْوَدَ الناس بالخير وأجْوَدُ ما يكون في رمضانَ حينَ يَلقاهُ جبريلُ. وكان جبريلُ عليه السلام يلقاهُ في كلِّ ليلةٍ من رمضانَ فُيدارِسُه القرآنَ. فلرسولَ الله صلى الله عليه وسلم أجْوَدُ بالخير مِنَ

(1) الحديث في صحيح البخاري وآخره "إلى امرأة يملكها" وهو في كتاب الأحكام، باب بيعة النساء، حديث رقم 7214.

(2) رواه الحاكم في المستدرك والبزار عن علي كرم الله وجهه؛ الشفا 1/ 172- 176 بتصرف.

(3) الأحزاب، 53.

(4) رواه البخاري في كتاب المناقب، باب صفة النبي، حديث رقم 3562.

(5) الشفا للقاضي عياض 1/ 153- 154 بتصرف.

(6) نقلاً عن الشهاوي، ص 80- 85 بتصرف.

الرِّيح المرسَلة"[1]. وقد ذكر الترمذي أن قد حُمل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعون ألف درهم فوضعت على حصير ثم قام إليها يقسمها فما ردّ سائلاً حتى فرغ منها. وجاءه رجل، فسأله، فقال "ما عندي شيء ولكن ابتع عليّ فإذا جاءنا شيء قضيناه". فقال له عمر: ما كلفك الله ما لا تقدر عليه، فكره النبي صلى الله عليه وسلم ذلك، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله، أنفق ولا تخف من ذي العرش إقلالاً، فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم وعُرف البِشرُ في وجهه، وقال "بهذا أمرت". وقال أنس رضي الله عنه "كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يدّخر شيئاً لغد"[2].

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعدّ المال الذي ينفقه في سبيل الله هو المال الباقي (في الآخرة)، ففي الحديث الذي روته عن عَائِشَةَ رضي الله عنها عن ذَبَحُهم شَاةً، فَقَالَ النبيُ صلى الله عليه وسلم "مَا بَقِيَ مِنْهَا؟ قَالَتْ مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلاَّ كَتِفُهَا فقال: قُولِي بَقِيَت كُلَها إلاّ كِتْفها"[3]. كما حرص على تأصيل الكرم في نفوس المسلمين بأن جعله من الفضائل التي يتنافس المسلمون فيها، قال صلى الله عليه وسلم "لاَ حَسَدَ إِلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ الله مَالاً، فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ. وَرَجُلٌ آتَاهُ الله حِكْمَةً، فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا"[4]. كما جعل صلى الله عليه وسلم الكرم من أفضل سمات المسلم وشمائله في جوابه صلى الله عليه وسلم للرجل الذي سأله: أي الإسلام خير، فقال صلى الله عليه وسلم "تُطْعِمُ الطَّعَامَ. وَتَقْرَأُ السَّلاَمَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ"[5].

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم نموذجاً للكرم، لم يُمسك يده عن عطاء ولم يرد سائلاً، قال جابر رضي الله عنه "ما سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً قط، فقال لا"[6]. وكان يتخذ من المال وسيلة لتأليف القلوب وكسبها إلى الإسلام، فعن أنس بن مالك رضي الله عنهما قال "ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام شيئاً إلا أعطاه، ولقد جاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: يا قوم أسلموا! فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر. وإن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يلبث إلا يسيراً حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها"[7].

---

(1) رواه البخاري في كتاب بدء الوحي، حديث رقم 6، وفي المناقب باب صفة النبي، حديث رقم 3554.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد، باب معيشة النبي صلى الله عليه وسلم، حديث رقم 2362، وقال غريب.

(3) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

(4) متفق عليه.

(5) متفق عليه.

(6) متفق عليه.

(7) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً قط فقال لا وكثرة عطائه، حديث رقم 57، ص1806.

ولم يكن كرمه صلى الله عليه وسلم يصل به إلى حدّ التفريط والإطاحة بالمال كله، بل كان يحث على الاعتدال وعدم الإسراف في النفقة والصدقة حفظاً للذرية وصوناً لكرامتهم من الابتذال. فلا يبسط المرء يده كل البسط فيقعد ملوماً محسوراً. فعندما سأله سعد بن أبي وقاص أن يتصدق بثلثي ماله وكان عنده مال كثير ولا يرثه إلا ابنته، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا، قال: فالشطر؟ قال: لا، قال: الثلث؟ قال: الثلث والثلث كثير ... فإنك إن تركت ولدك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس، وإنك لن تنفق نفقة إلا أجرت عليها، حتى اللقمة ترفعها إلى في إمرأتك"[1].

أما عن عدل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد كان يتحاكم الناس إليه في الجاهلية قبل الإسلام. وقد طبق صلى الله عليه وسلم العدل مع أحب الناس وأقربهم إليه، فهو القائل "فلو أن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم سرقت لقطعت يدها". فالناس عنده سواسية، ولا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى. وكان يعدل بين زوجاته فيما يملك (من القسم الصوري)، ويأمر بالعدل بين الأبناء في العطايا وحتى في القبل. كما كان يأمر بالعدل بين الأولاد والبنات في الجوانب المادية كالعطايا والنفقة والجوانب المعنوية كالمحبة والعطف والشفقة، وحتى في الجلسة، فقد روى أنس أن رجلاًَ كان جالساً مع النبيصلى الله عليه وسلم فجاء بني له فقبّله، وأجلسه في حجره، ثم جاءت بنته، فأخذها فأجلسها إلى جنبه، فقال صلى الله عليه وسلم "فَمَا عَدِلْتَ بَيْنَهُمَا"[2]. هذا وقد تحدثنا عن هذا الموضوع في الفصل الثالث من هذا الكتاب، ولا داعي لتكراره هنا.

أما عن سماته الاجتماعية، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ألفاً مألوفاً، كريم العشرة، واسع الصدر، يتفقد أصحابه، ويعطي كل جلسائه نصيبه، فلا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه. من سأله حاجة لم يرّده إلا بها، أو بميسور من القول. وسع الناس بسطه وخلقه، فصار لهم أباً. وكان دائم البِشر لين الجانب، يمازح أصحابه ويحادثهم ويداعب صبيانهم ويجلسهم في حجره، ويعود المرضى ويتبع الجنائز، ويجيب دعوة الحرّ والعبد والأمة والمسكين. لا يتكبر على أصحابه في شيء؛ يجلس معهم على الأرض ويسمع ما يقولون. يبدأ من لقيه بالسلام ويبدأ أصحابه بالمصافحة. كان يصل الرحم ويحمل الكلّ ويكرم الضيف ويعين على نوائب الحق. كما كان وفي العهد، يحفظ السّر يحترم الكبير ويتواضع للصغير. يعاشر كرام الناس ويحب معالي الأمور، ويحرص على نفع الناس

(1) رواه البخاري، مسند الإمام أحمد، حديث رقم (11794).

(2) سبق تخريجه.

ويصبر على أذاهم، ويسعى للصلح بينهم. ويدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ويجادل الناس بالتي هي أحسن. يتأدب بآداب الإسلام في زياراته ومجالسته الناس، وفي سلوكاته الاجتماعية جميعها. فكان مثالاً للبرّ الصادق والوفاء العميق للوالدين، ومثالاً لحسن معاشرة الزوجات، ومثالاً للأب الرحيم، ونموذجاً لحسن الجوار وصلة الأرحام ومثالاً للعلاقات الإنسانية النبيلة.

هذه باختصار سمات رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم الشخصية والروحية والاجتماعية والخلقية، وهي غيض من فيض شمائله وفضائله. ولمزيد من التفصيل والشرح والتحليل، يمكن الرجوع إلى الترمذي في الشمائل، والقاضي عياض في الشفا بتعريف حقوق المصطفى وغيرهم.

خلاصة

حدّد الإسلام معايير السلوك السوي والمنحرف. وتتعدد الألفاظ التي تعبر عن السواء وتحمل دلالاته، ومنها: الإيمان والصراط المستقيم والاستقامة وسبيل الله والتوحيد، والفطرة، وبالمقابل ما يعبر عن الانحراف. والشخصية السوية هي التي تتمتع بالسواء الكامل في فكرها ومشاعرها وسلوكها غير موجودة في واقع الحال. فلا بد من ميل ولو بسيط ومؤقت وبما لا يشوّه هويتها وبنيتها العقائدية، وهو أمر طبيعي في الشخصية. أما الميل الكلي فيؤول بالشخصية إلى دائرة المرض النفسي. وثمة طيف واسع من الانحرافات تتوسط بين دائرتي السواء والانحراف، بحيث تحسب مرة هنا ومرة هناك، وهي دائرة النفاق.

وقد يكون انحراف الشخصية بسيطاً أو خفيفاً أو عادياً أو كبيراً أو شديداً. وقد تكون الانحرافات ظاهرية كالقلق والاكتئاب، وقد تكون باطنية كالحسد والكبر. وعلى الرغم من صعوبة تحديد مؤشرات سواء الشخصية وانحرافها، إلا أن من أبرزها: الإيمان مقابل الكفر، وطاعة الله مقابل معصيته، والاستقامة مقابل الانحراف، والعلم مقابل الجهل، وصلاح القلب مقابل فساده، والاعتدال في إشباع الحاجات مقابل الإفراط أو التفريط في إشباعها. ويمكن تلخيصها في: مؤشرات ترتبط بعلاقة الإنسان بخالقه، وبنفسه، وبالكون، وبالآخرين.

وتتلخص مؤشرات الصحة النفسية في: الرضا بالعبودية مقابل السخط، والشعور بالأمن مقابل القلق، والسعادة مقابل الشقاء. وتتحقق الصحة النفسية بتحقيق التوازن والشمولية والتكامل والوسطية، وتتمتع شخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصحة النفسية بأوضح صورها، ذلك أنها حققت صلاح القلب الذي يصلح بصلاحه سائر الجسد، وحققت الاستقامة والتوازن والوسطية. فكان النموذج والقدوة للمسلمين وللعالم أجمع.

وقد تمّ تحديد مفهومي الشخصية الوسطية والمنحرفة. فالشخصية الوسطية هي الشخصية السوية المستقيمة على الفطرة، وهي الشخصية الأكثر عدلاً واعتدالاً وخيراً. وهي التي تتوسط فيها سمات الشخصية، فتنفرد بالفضائل. أما الشخصية المتطرفة فهي التي تنحرف في سماتها عن حدود الوسط، فتتجه نحو الرذائل. هذا مع الأخذ بالاعتبار أن معيار الحكم على الشخصية الوسطية والمتطرفة هو المعيار العقائدي، إلهي المصدر، الذي لا يتغير بتغير الزمان أو المكان أو المجتمع. وقد انتهى الفصل بوصف شخصية رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم من حيث جسمه وعبادته وسماته الشخصية والاجتماعية.



الفصل السادس



المنهج الوقائي من الانحرافات النفسية

- مقدمة
- الوقاية في مجال الدين
- الوقاية في مجال العقل
- الوقاية في مجال النسل
- الوقاية في مجال النفس
- الوقاية في مجال المال
- الأساليب الوقائية من الانحرافات النفسية




الفصل السادس

المنهج الوقائي من الانحرافات النفسية

مقدمة

يجب أن ننظر إلى الإسلام في إطار رؤية وظيفية ومجتمعية، باعتباره مجموعة من المبادئ المعيارية التي تهدف إلى تحقيق ورعاية المصالح الفردية والاجتماعية للبشر. فالإسلام وسيلة لهداية الناس، وجوهر الهداية هو توجيه حركة الحياة الفردية والجماعية نحو تحقيق المصالح الأساسية للإنسان من حفظ للنفس والعرض والدين والعقل والمال.

وقد نزل القرآن الكريم هداية للناس إلى عقيدة التوحيد التي فيها وقاية للقلوب من الانحراف، وشفاء لها من الأمراض. وفيها هدى للنفوس ورحمة بالمؤمنين، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ) [1].

وتحفل رسالة الإسلام السمحة بجملة من التدابير الوقائية في ميدان الصحة النفسية. ويزخر البرنامج اليومي في الإسلام بأوامر ونواه ووصايا تمثل اللبنات الأساسية لبرنامج حياة يقي المسلم من الانحرافات النفسية. فالوقاية خير من العلاج. ويقصد بالمنهج الوقائي من الانحرافات النفسية مجموعة الضوابط والطرق التي تحول دون حدوث الانحرافات النفسية أو تفاقمها، وذلك من خلال بناء خطوط دفاع مناعية تحمي الشخصية من الانحراف قبل الوقوع به، أو بعد العلاج منه. وقد وضع الإسلام منهجاً وقائياً لحماية الشخصية من كافة جوانبها، وحفظ توازنها ووسطيتها دون إفراط أو تفريط.

ويستند المنهج الوقائي في الإسلام إلى باب سد الذرائع بحسم قوى الفجور والمعصية ودفع ما تفضي إليه، إذا لم تكن فيها مصلحة راجحة. ويشمل المنهج الوقائي: حفظ الدين والعقل والنفس والنسل والمال، أي الأصول الخمسة التي تمثل مقاصد الشرع في الخلق. وفيما يلي عرض لكل منها:

---

(1) يونس، 57.

- **الوقاية في مجال الدين:**

يعد الدين منهجاً للحياة بأسرها. فالدين ينتظم العقائد والعبادات والأحكام التي شرعها سبحانه لتنظيم علاقة الإنسان بنفسه وبربه وبالآخرين. فالدين يربي الضمير، ويحث على مكارم الأخلاق ويهذب المشاعر، ويعزز قيم الخير والحق والفضيلة، ويفعّل دورها بحيث تسدّ منافذ قوى الشر ويضعف مفعولها. والدين يشحن النفوس بالعواطف السامية كحب الله سبحانه، وشكره على نعمائه، والإخلاص في عبادته، والحياء منه، والأمل برضاه. وبذا فإن الدين يقي النفوس ويصونها من أسباب ضعفها من غضب وحقد، أو حسد وعداء، أو همّ وحزن، أو يأس وقنوط، أو خوف وحيرة... فتطمئن النفوس بالإيمان ويتحقق لها الأمن والاستقرار.

ولإقامة الدين وإصلاح النفوس، أوجب الإسلام الدعوة إلى الله لتبصير الناس بشؤون دينهم ودنياهم وتعديل أفكارهم وطرح معتقداتهم المنحرفة، وتحريرهم من قيود العادات والتقاليد التي تتنافى مع العقيدة الإسلامية السمحة، ومقاومة الفساد والفوضى والانحراف، وصيانة الحقوق، وتنظيم العلاقات والمعاملات الرئيسية والثانوية ووضع الضوابط على أسس من العدل والمساواة. ويحذر الله سبحانه من الشرك، وقاية النفس الإنسانية التي كرّمها الله عز وجل من الانحراف عن النهج القويم، لأن في الشرك ظلماً للنفس، وظلم عظيم، قال تعالى(وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)[1]. فالشرك دنس النفس الذي يحرفها عن الصراط الذي رسمه الله سبحانه لعباده الذين أنعم الله عليهم من الأنبياء والصديقين.

كما يحذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغلو في الدين، قال صلى الله عليه وسلم "هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ قَالَهَا ثَلَاثاً"[2]. كما يحرم الابتداع في الدين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأمُورِ، ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ وَكلَّ ضَلاَلَةٌ فِي النَار"[3].

ويدعو الإسلام إلى الإيمان اليقيني، القائم على بصيرة، لما له من دور حاسم في تحقيق الصحة النفسية وإكساب الشخصية مناعة من الانحراف النفسي، من خلال ما

---

(1) لقمان، 13.

(2) رواه مسلم في صحيحه، كتاب العلم (47) باب (4) حديث رقم 6725، 437/16.

(3) رواه أحمد، سنن النسائي، حديث رقم (1579).

يقدمه لها من إطار مرجعي يتعلق بالتصور الإسلامي للإنسان والحياة والموت وعلاقة الإنسان بالمجتمع وبالكون، فتتضح صورته عن نفسه وعلاقته بذاته، وعلاقته بخالقه، وعلاقاته بالآخرين وبالكون. ويعينه هذا الإدراك الصحيح على تفسير سلوكاته والتنبؤ بها ومن ثم السيطرة عليها أي ضبطها، حتى لا تنحرف عن مسارها القويم. ويمثل هذا التصور الإسلامي إطاراً مرجعياً ثابتاً، يرجع إليه المؤمن إذا واجهته المتاعب، فيشعر بالرضا بقضاء الله وقدره، ويتحلى بالصبر.

فالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والحساب والقضاء والقدر، والنظر إلى الحياة على أنها ليست بدار قرار، بل دار ابتلاء للمؤمن، وأن ابتلاء المؤمن دليل محبة الله، فإن رضي بالقضاء وصبر على البلاء كان خيراً له. كل هذه الثوابت الإيمانية تؤدي إلى الأمن النفسي، وتشعر المؤمن بالثبات في الدنيا والآخرة، قال تعالى:(يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ)[1]. وهي السبيل إلى طمأنة قلبه في مواقف الشدة، قال تعالى: (وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ)[2].

فالطمأنينة التي يزرعها الإيمان في النفوس تجعلها قوية في مواجهة الشدائد، ثابتة أمام الشهوات والهوى. وهو، أي الإيمان، أساس السلوك القويم ثابت البنيان، قال تعالى:(أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)[3]. فعندما تطمئن النفوس إلى خالقها، تصبح في مأمن من كل سوء. تتطلع إلى لقائه والرجوع إليه، غير وجلة من الموت، لأنها تجد فيه عتبة الولوج إلى باب الآخرة، حيث الطمأنينة الخالدة، قال سبحانه:(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (28) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (29) وَادْخُلِي جَنَّتِي)[4].

وقد حرص الإسلام على تنمية الإيمان في النفس الإنسانية ليرتقي بها إلى الحال المطمئنة التي تنعم بالأمن وتتحرر من الخوف والقلق والهم. فالمؤمن هو الأحق بالأمن، قال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام:(وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ

---

(1) إبراهيم، 27.

(2) آل عمران، 126.

(3) التوبة، 109.

(4) الفجر، 27-30.

أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِأَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)[1]. وقد عقّب سبحانه على ذلك حاكماً بين الفريقين، قال تعالى(الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ) [2]. والإيمان يقي المؤمن من الخوف، قال سبحانه:(يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ)[3]. كما يقيه من الفزع، قال تعالى: (وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ) [4].

والمؤمن يقي نفسه من عذاب الله وغضبه، فيبتعد عن ارتكاب المعصية، كما يشعر بمراقبة الله عز وجل حيثما كان، فيتبع السيئة الحسنة، ويفعل ما أمره الله سبحانه، ويلتزم بمنهجه. وبذا تتحقق تزكية النفس وتطهيرها من الذنوب.

والمؤمن الصادق لا يعاني من القلق الناشئ عن الإحساس بالذنب، لأنه لا ينساق بسهولة وراء الشهوات التي تدفعه إلى ارتكاب المعاصي التي تؤرق حياته، وتجعله فريسة تأنيب الضمير. فهو إن أخطأ - وكل بني آدم خطاء – فإنه لا يلبث أن يعترف بخطئه ويستغفر ربه.

والإيمان بالقضاء والقدر، والرضا به، يبعث الأمن والطمأنينة في القلب، وتهون الحياة عليه - بخيرها وشرّ ما فيها – لأنه يعلم أن الحياة دار ابتلاء للمسلم. فلا تحمله النعمة على البطر، ولا تحمله المصيبة على اليأس والقنوط. فالمؤمن الحق يعلم أن الله عدل في قضائه، لا يظلم أحداً، فيصبر على الضرّاء، ويشكر على السرّاء.

والتوكل على الله يشعر المؤمن بقربه من ربه، ويبعث في نفسه الأمن والسكينة. فالله وحده مقسم الأرزاق، وهو المحيي والمميت، فلا مجال للقلق والمخاوف والتردد والشك والأوهام وضعف الثقة بالنفس.

والمؤمن يحسن الظن بالله، فلا ييأس ولا يقنط من رحمته، فاليأس قرين الكفر. ولا غرو أن الكافرين هم الذين ييأسون من روح الله، قال تعالى: (لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)[5]، وينعدم لديهم الأمن النفسي، قال تعالى: (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ

(1) الأنعام، 81.

(2) الأنعام، 82.

(3) القصص، 31.

(4) النمل، 89.

(5) يوسف، 87.

ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا)[1]. أما المؤمن فأوسع الناس أملاً وأكثرهم تفاؤلاً. والأمل قوة دافعة تشرح صدر المؤمن، وتخلق لديه دواعي الكفاح لتحقيق الغاية من وجوده.

والمؤمن الحق لا يجترّ أحزانه، ولا يعيش مهموماً بذكريات الماضي، ولا يتحسر على ما فاته، فلا يشعر بالهمّ الذي يثقل كاهل أولئك الذين يعيشون أحزان الماضي وآلامه. ولا يخاف الفقر، لأن الرزق بيد الله. يقنع باليسير ويحمد الله تعالى على نعمائه. ويحجّم أثر الضغوط النفسية، ويوصد أبوابها بالصبر والرضا، والتوكل على الله والدعاء وتلاوة القرآن، وبالتوبة. فالمصيبة تهون، إن لم تكن في الدين. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعوذ بالله من الهم والحزن.

والتزام الدعاء يعدّ من دعائم المنهج الوقائي من الانحرافات النفسية. فالدعاء مناجاة الله لدفع الألم أو لجلب المنفعة. ولا يتحقق ذلك إلا بقدرة الله ومشيئته. فالدعاء لا يطلب إلا ممن بيده الحاجة، وممن يملك القدرة على الإجابة. وفي هذا تأكيد العبودية لله وحده، وتحرير النفس من سيطرة الغير. فالله هو المعطي والمانع، والضار والنافع، والمحيي والمميت. هذا ومن الجدير بالذكر أن وقوع المكروه على المبتلى يكون خفيفاً إذا كان الدعاء سلاحاً وقائياً، فمن تعرّف على الله في الرخاء، يعرفه سبحانه في الشدة.

وما من شك بأن تلاوة القرآن الكريم تعدّ من دعائم الوقاية أيضاً، وقراءة القرآن أكثر نهياً عن معصية الله من الصلاة، قال تعالى:(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ) [2]. فالقرآن كلام الله سبحانه. فكأن من يقرأ القرآن يتكلم مع الله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "مَنْ أَرَادَ يَتَكَلَم مَعَ الله فَلْيَقْرَأ القُرْآن"[3]. والكلام مع الله يبعث في نفس القارئ الأمن والشجاعة والجرأة، والبعد عن المخاوف، فلا يخاف سوى الله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "مَنْ خَافَ الله خَافَه كُل شَيء، وَمَن خَافَ غَيْر الله خَوّفَهُ الله مِن كُلِ شَيء" [4].

وقد صرّح القرآن الكريم بأن الإيمان بالله إيماناً صادقاً مقترناً بالعمل الصالح كان على مرّ الأزمان سفينة النجاة وضماناً للؤمن بالحياة الطيبة في الدنيا والآخرة، وأساس

---

(1) طه، 124.
(2) العنكبوت، 45.
(3) انظر: أسامة الراضي (1993)، نموذج إسلامي للعلاج النفسي، الثقافة النفسية،4(16)، ص 57-79.
(4) نقلاً عن المرجع السابق.

سعادته ونعيمه النفسي، قال سبحانه:(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [1].

ويصف ابن القيم في "مدارج السالكين" الدور الذي يلعبه الإيمان في وقاية الشخصية من الانحراف وعلاجها من أمراض القلوب، وبما يحقق لها الصحة النفسية، يقول في ذلك "وفي القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله. وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس بالله. وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته وصدق معاملته. وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه والقرار إليه. وفيه نيران حسرات لا يطفؤها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه ومعانقة الصبر على ذلك وقت اللقاء. وفيه فاقة لا يسدّها إلا محبته والإنابة إليه، ودوام ذكره وصدق الإخلاص له. ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تسدّ تلك الفاقة" [2]. ويضيف في كتابه "إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان" بأن "القلب محتاج إلى ما يحفظ عليه قوته، وهو الإيمان وأوراد الطاعات، وإلى حمايته من المؤذي والضار، وذلك باجتناب الآثام والمعاصي وأنواع المخالفات، وإلى استفراغه من كل مادة مفسدة تعرض له، وذلك بالتوبة النصوح، واستغفار غافر الخطيئات" [3].

وقد أكد الإسلام ضرورة ترجمة عقيدة التوحيد إلى ممارسات عملية في الحياة اليومية، ففرض سبحانه العبادات ليقوم بها المسلم في أوقات معينة، وبكيفية محددة للأداء. وتتكرر هذه العبادات في اليوم والسنة والعمر، ليبقى المسلم على تواصل دائم بخالقه، فيبقى قريباً منه، يقف بين يديه يناجيه، فيستمد منه القوة والراحة والأمن والأمان بمناجاته، ويعترف بذنبه، ويسأله الرحمة والمغفرة، ويعتذر عن التقصير في شكر النعمة.

والعبادات وسيلة لإشعار المسلم بأن الله سبحانه قريب منه يجيب دعوته، قال تعالى: (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) [4]، وأن الله معه في كل مكان، قال تعالى:(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) [5]. فالعبادات تجعل العقيدة حيّة في النفس، فهي تغذي الإيمان بمراقبة الله سبحانه، وتربي

---

(1) النحل، 97.

(2) ابن القيم، مدارج السالكين، ج2، ص 118.

(3) ابن القيم، إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، ص 16.

(4) البقرة، 186.

(5) الحديد، 4.

العواطف على الفضيلة، وتنفر من الرذيلة وفعل المنكر، وتحيي الضمير حتى يستشعر المؤمن بالله رقيباً في سرّه ونجواه، فهو يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، قال تعالى:(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)[1]. فالصلاة تقيم العبد على طاعة الله وخدمته، وتنهاه عن خلافه، لذلك كانت الصلاة علم الإيمان. والصلاة تكرّه الكفر والفسوق والعصيان، وتصرف صاحبها عن سفاسف الأمور، وتخفف حدّة الانشغال بالدنيا، وتطفئ حدّة السعار المادي الذي تؤجحه الشهوات والمطامع، وتقوي النفس على مواجهة الشدائد. فلا قوة أمام قوة الله ولا رادّ لقضائه.

وللصلاة دور هام في التأثير على الأخلاق، ويتضح ذلك في حكاية شعيب عليه السلام مع قومه، فعندما فوجئ قوم شعيب بالدعوة إلى التوحيد الذي ينكر الظلم، والنزاع والتطفيف في الاكتيال، أقبلوا على حياة شعيب يبحثون عن سبب الانقلاب في حياته، فكانت الصلاة المتقنة، لذلك سألوه(يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آَبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ)[2].

والمواظبة على الصلاة فيها ثلاث خصال: الإخلاص والخشية وذكر الله. فالإخلاص يأمر المصلي بالمعروف، والخشية تنهاه عن المنكر، وقال أبو عون الأنصاري" إذا كنت في صلاة فأنت في معروف، وقد حجزتك عن الفحشاء، والمنكر والذي أنت فيه من ذكر الله أكبر"[3].

وتقتضي الصلاة إدراك معاني القرآن الكريم وما ينجم عنها من أمل في رضا الله. كما تقتضي حركات الركوع والسجود. ففي السجود مثلاً استعلاء على كل ما سوى الله فتتساقط الكبرياء والتعالي والشعور بالعظمة. وتساعد هذه الأنشطة التي تقتضيها الصلاة زيادة جريان الدم فتنقيه، وتزيد نشاط الجسم وقوته. كما تساعد على الوقاية من مظاهر القلق والتوتر والاكتئاب. وتتكرر هذه الأنشطة خمس مرات يومياً بتوقيت نفسي، فكلما وصل الإجهاد النفسي والجسمي مداه، حلّت الصلاة جلباً للراحة الجسمية والنفسية، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "أرحنا بالصلاة يا بلال"[4].

---

(1) العنكبوت، 45.

(2) هود، 87.

(3) انظر مختصر تفسير ابن كثير: ج3، ص 38.

(4) سبق تخريجه.

وقد كشف رسول الله صلى الله عليه وسلم الأثر النفسي الذي تخلفه الصلاة وما يسبقها من وضوء بقوله "يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب على كل عقدة: عليك ليل طويل فارقد، فإذا هو قام فذكر الله انحلّت عقدة، وإذا توضأ انحلّت عقدة ثانية، فإذا قام إلى الصلاة انحلّت عقدة ثالثة، فأصبح طيب النفس نشيطاً، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان"[1].

وبعد انقضاء الصلاة، يأتي دور الذكر، قال تعالى: (فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا)[2]. وفي ذكر الله "استحضار عظمته وجبروته في النفس وتوسم لطفه وكرمه. أما عظمته وجبروته، فيوقعان في النفس الخوف منه، ويحولان دون انزلاق الإنسان في الفاحشة. كما تنبه القوى الرادعة لتحول بينه وبين تكرار الفاحشة، فيعصمانه منها حيث لا عاصّم إلا الله. أما لطفه وكرمه فيخففان عن النفس معاناتها للشعور بالذنب، ويلطفان من حدّة هذا الشعور، حتى تستعيد النفس توازنها وتماسكها وتعود سوية كما كانت من قبل"[3].

وتلعب صلاة الجماعة دوراً وقائياً من أشكال سوء التكيف، فهي تتخذ صورة تفاعل اجتماعي بين المؤمنين، تتحقق فيه الوحدة والمساواة. فهم يتوجهون إلى رب واحد، خلقهم من أصل واحد. فلا فرق بينهم إلا بالتقوى. وبذا تتحطم الفوارق الاجتماعية، والتعصب للون والجنس... كما أن اجتماعهم في مكان واحد يكون سبيلاً لتعارفهم، فتتوثق الصلة بينهم، وتتآلف قلوبهم، ويتفقد بعضهم بعضاً، ويلبون حاجات بعضهم. وتعمل صلاة الجماعة على تدريب المصلين على النظام والانضباط والمسؤولية، وتوثق فيها عرى التكافل والتناصح، فلا يشعر المصلي بالوحدة والانطواء والعزلة والاغتراب، وما ينجم عنها من مشاعر الإحباط والاكتئاب. فمثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد.

وصلاة الجمعة رسالة معرفية دينية، وإرشادات عملية توجه حياة المسلمين، وفيها أمر بالمعروف ونهي عن المنكر. فالجمعة ميزان الأسبوع، فهو يوم يقظة للنفوس الخامدة،

---

(1) رواه البخاري.

(2) النساء، 103.

(3) عز الدين إسماعيل، نصوص قرآنية في النفس الإنسانية، ص 208-209.

وتحريك للهمم الفاترة، وتفرغ للعبادة، وإجلاء لصدأ القلب. ويجد فيها المسلم حلاً للمشكلات النفسية والاجتماعية والاقتصادية، ودعوة للتسامح والعفو، وتدعيماً للروابط الاجتماعية.

وقد أودع الله في النفس الإنسانية حب التملك والتنوّع في المطاعم والمشارب. وغرس فيها فكرة الأمانة والخلافة، فقرر أن الله هو المالك الحقيقي والوارث الحقيقي. كما قرر أن للإنسان منصب الأمانة والخلافة، وأمر بالزكاة والإنفاق، قال تعالى(وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ)[1]. فليس لغنيّ أن يمن على فقير، ولا فقير يستجدى غني، ولا حرية مطلقة في التصرف بالمال، ولا رياء ولا بطر، فللّه أن يستردّ وديعته متى شاء. فمن يسدي الخير بإيصال الزكاة إلى مستحقيها لينهض بهم ويؤدي حق الله عليه، يشعر بالسعادة واللذة، وانشراح في النفس، لأنه لبّى نداء ضميره النابع من الإيمان، ونفّس عن مكروب، وأدخل السرور إلى قلب منكوب دون امتنان عليه. كما يشعر بأنه انتصر على ضعفه، وأثرته وشحّ نفسه. فالزكاة درس عملي دوري في تطهير النفس وتزكيتها من سمة البخل وحب التملك، قال سبحانه: (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا)[2].

والزكاة تعوّد النفس على الكرم وبذل المال والعطف على المحتاجين، وتدربها على البذل والنفقة وشكر النعمة. وهي وقاية للقلب من حب الدنيا وعبادة المال والأنانية وقسوة النفس وظلم حقوق الفقراء وإذلالهم. أما بالنسبة للفقير الآخذ لها، فالزكاة تطهر نفسه من الحسد والحقد والبغضاء والضغينة للأغنياء والصراع معهم. فلا يشعر الفقير بأنه وحيد معزول موكل لفقره، ضائع في المجتمع، بل يشعر بالطمأنينة لأن ما له من حق الله سيصله سنوياً دون انقطاع. فلا يخاف الفقر والحرمان. فالزكاة وسيلة من وسائل التكافل الاجتماعي. والإسلام يؤكد تأمين ضرورات الحياة من طعام وشراب وملبس ومسكن لكل مسلم. فإن لم يستطع الفرد تأمينها لنفسه، فالمجتمع يكفله ولا يدعه فريسة الجوع والعري. وبذا ففي الزكاة وقاية للنفس من العداء والكراهية والقطيعة، وتحصين للمجتمع من الجريمة. هذا فضلاً عن كونها وسيلة اجتماعية لتقريب الهوة بين الأغنياء والفقراء. فلا يدع الإسلام الغني يزداد غنى، والفقير يزداد فقراً، بل يعمل على تقريب

(1) الحديد، 7.

(2) التوبة، 103.

الفجوة بينهما للحدّ من طغيان الأغنياء، والرفع مـن مسـتوى الفقـراء، إذ لـيس المقصـود أن يعطى المحتاج مبلغاً زهيداً فيظل محتاجـاً دومـاً، بـل المقصـود أن يعطـى مـا يسـدّ عـوزه ويقضي حاجته، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه "إذا أعطيتم فأغنوا" [1]. وبذا يتمكن أفراد المجتمـع مـن أداء حقوق الله وحقوق العباد، فيسعد بذلك الفرد وتسعد الأمة.

وقال النخعي "كانوا يرون أن الرجل الظلوم إذا تصدّق بشيء دفع عنه الـبلاء". وقـال رسـول الله صلى الله عليه وسلم (الصَّدَقَةِ تسد سَبْعِينَ بَاباً مِنَ الشر) وعنه صـلى الله عليـه وسـلم قـال (رُدُوا صَدْمَة البَلاَء وَلَوْ بِمِثْلِ رَأْس الطَائِر مِنَ طَعام) وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم (اتَّقوا النارَ ولـو بِشـقِّ تَمرةٍ). وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (تَدَارَكوا الهُمُوم وَالغُمـوم بِالصَـدَقَات، يَدْفَع الله ضَرَكُمْ وَيَنْصُرُكُمْ عَلَى عَدُوكُم) " [2].

والصيام مدرسـة في تربيـة الـنفس وتهـذيبها ووقايتهـا مـن الانحـراف، والانقيـاد إلى الهـوى. فالمقصود من الصيام حبس النفس عن الشهوات، وفك الأغلال من العـادات والمألوفـات، وتحريرهـا من قيم الحياة المادية ولذاتها، وسرورها وبهجتها الآنية، وضبط قوتها الغريزيـة، لتتهيـأ إلى تحقيـق غاية سعادتها، وقبول ما تزكو به حياتها الأبدية.

ويكسر الصيام حدّة الشهوة، التي هي أداة الشـيطان؛ فيكسر حـدّة الجـوع والعطـش مـع وفرة الطعام والشراب، فيصحّ البدن، ويتحرر الصائم من سلطان غرائزه، فيتحكم بها ولا تتحكم بـه. فالصوم تدريب على الضبط الذاتي، وامتحان للعزيمة، وقوة الإرادة والصبر.
وفي أثناء الصيام، يشعر الصائم بالخضوع وبفراغ الخاطر وصفاء القلب ويقظة العقل والضمير، فتسهل عليه العبادة، ويتمكن من أداء رسالته التي لا يقوى على أدائها إلا بالتوسط والاعتدال والصبر والاحتمال. ويحفظ الصوم على القلب والجوارح صحتها ويعينها على التقوى - التي فيها الاحتماء عما يضر بفعل ما ينفع- قال سبحانه(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)[3]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "الصوم جنة"، أي وقاية تمنع من المعاصي، كالفحش من الكلام، والصخب والسب والنزاع. والصوم حاجز وستر من عقاب الله. وقد قال

---

(1) علال الفاسي، مقاصد الشريعة الإسلامية، ص 76.

(2) الإبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، ص 20-21.

(3) البقرة، 183.

الغزالي في صوم الصالحين "إنه كف الجوارح عن الآثام وتمامه بستة أمور؛ الأول: غض البصر وكفه عن الاتساع في النظر إلى كل ما يذم ويكره. والثاني: حفظ اللسان عن الهذيان والكذب والغيبة والنميمة والفحش والجفاء والخصومة والمراء. والثالث: كف السمع عن الإصغاء إلى كل مكروه، لأن كل ما حرّم قوله حرم الإصغاء إليه. والرابع: كف بقية الجوارح عن الآثام من اليد والرجل عن المكاره، وكف البطن عن الشبهات وقت الإفطار. والخامس: أن لا يستكثر من الطعام الحلال وقت الإفطار بحيث يمتلىء جوفه. والسادس: أن يكون قلبه بعد الإفطار معلقاً مضطرباً بين الخوف والرجاء، إذ ليس يدري أيقبل صومه فهو من المقربين، أو يرد عليه فهو من الممقوتين"[1]. فهو صوم عن المعاصي والآثام، يقرّب الصائم إلى الله، ويحقق له صفاء النفس وطهارة القلب.

والصوم تذكير عملي بجوع الجائع وبؤس البائس. ففيه اشتراك بين الغني والفقير في الإحساس بالجوع طيلة النهار، مما يبعث في نفس الصائم الإحساس بالمساواة بين الجميع، فضلاً عن استشعار الغني لحاجات الفقير، فيرّق قلبه، ويكون أسرع إلى الإحسان إليه. فالصيام فقر إجباري لجميع المسلمين؛ يجوعون جوعاً واحداً، ويتألمون ألماً واحداً، غنيّهم وفقيرهم، فتنشأ الرحمة وتحصل العدالة، وتزكي النفس، وتصفو الروح.

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من اشتدت عليه شهوة النكاح، مع عدم الاستطاعة عليه - بالصيام، قال صلى الله عليه وسلم "يا مَعْشَر الشَبَاب مَنِ استطاعَ منكم الباءَةَ فلْيَتَزَوَّجْ، ومنَ لم يَستَطِعْ فعلَيهِ بالصَّوْمِ، فإنهُ لَهُ وِجاء"[2]. فالصوم يلزم الصائم العفة، لأن صومه يذكره دائماً برقابة الله عليه ويدفعه إلى الإقبال على تنفيذ أوامره والابتعاد عما نهى عنه. فالصوم وجاء للصائم من الوقوع في الفاحشة، ووجاء له في حال الغفلة والنسيان وانشغال النفس بالخيالات وأحلام اليقظة انشغالاً وسواسياً، غير أنه -أي الصيام- لا يقضي على الرغبة الجنسية ذاتها. وهكذا يمكن القول بأن مصالح الصوم تشهد لها العقول السليمة والفطرة المستقيمة، لذلك شرع الله الصوم لعباده رحمة وحمية وجُنة ووجاء.

وأداء مناسك الحج وما يحيط بها من ذكريات وحوادث تعدّ مناسبة اجتماعية لالتقاء المسلمين على اختلاف ألوانهم وأجناسهم وطبقاتهم الاجتماعية والاقتصادية،

---

(1) الغزالي، إحياء علوم الدين، ج1، ص 234-235.

(2) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب ما جاء في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم من استطاع منكم الباءة فليتزوج، حديث رقم 4677.

وكفر بمعايير التفاضل بين الناس إلا بالتقوى، فتذوب الفروق بينهم؛ فالقول واحد والدعاء واحد والهدف واحد. والحج مناسبة للتعارف والتآلف واجتماع الهمم، وتنمية الروابط العاطفية وتوثيق الرابطة الإسلامية التي تسمو فوق العنصريات والقوميات، وتمرد على وثنية العادات والأعراف والمعايير، وتحرير من رق العباد، وإيمان بوحدة الله واعتراف بتنزيهه وخضوع له واستكانة لعزته واتباع لأوامره وتحدّ لعبّاد العقل والمادة.

والحج شحنة روحية تعمل على مجاهدة النفس بغية الوصول إلى السلوك الإنساني الأمثل. فالحاج يدخل مع ربه في عهد ووعد، فيدرك شموله سبحانه برحمته، فيوطن نفسه على تغيير سلوكه، ويصمم على مخالفة الهوى بعد أن فتح صفحة جديدة بيضاء مع ربه، فتسمو أحاسيسه ويستشعر رقابة الله.

ويتجرد الحاج من ثياب الزينة والسمعة، ويلبس الثياب غير المخيطة، وفي ذلك بداية العزم على التجرد عن الشهوات، والندامة عن الذنوب، فيستصغر ذاته، ويذوب في الجموع، ولا يلتفت إلا لذنبه، خاشعاً، راجياً رحمة ربه.

وفي الحج تدريب على الحلم والسلام؛ فالحاج لا يؤذي إخوانه ولا يفزعهم، وفي ذلك يقول القرضاوي "الحج طريقة فذة لتدريب المسلم على السلام، وإشرابه روح السلام، فهو رحلة سلام إلى أرض سلام، في زمن سلام. والمسلم حين يحرم بالحج يظل فترة إحرامه في سلام حقيقي مع من حوله وما حوله" [1].

وفي الحج تربية للمسلم على تحمّل الشدائد والصبر على المكاره والتضحية بالراحة والدعة التي ألفها في حياته اليومية. وفيه دعوات صادقة طلباً للرحمة والمغفرة. وفيه تحريك للقلوب القاسية، وخشوع للنفوس، وتطهير لها من آثار الذنوب لتصبح أهلاً لكرامة الله تعالى في الحياة الآخرة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من حجَّ هَذا البَيْت فلمَ يَرفُثْ ولم يَفْسُقْ خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ" [2] وقال صلى الله عليه وسلم "والحجُّ المبرورُ ليس له جَزاءٌ إلاّ الجنةُ" [3].

وباختصار، فإن العبادات، من صلاة وزكاة وصيام وحج، تنهى عن الفحشاء والمنكر وتعلّم الصبر واحتمال المشقة. كما تعلّم مجاهدة النفس وتزكيها، والتحكم بالأهواء والشهوات، فيشعر مؤديها بالأمن والطمأنينة.

---

(1) القرضاوي، العبادة في الإسلام، ص 291.

(2) متفق عليه.

(3) متفق عليه.

- **الوقاية في مجال العقل:**

العقل أفضل ما يكسبه الإنسان؛ فهو الذي يهديه إلى الهدى أو يرده عن الردى. وقد سمي العقل "عقلاً" لأنه يعقل صاحبه، أي يمنعه من إتيان ما يضره ويؤدي به إلى الانحراف والشذوذ. والعقل محل التكليف في الشخصية، وأساس المسؤولية، وسرّ تكريم الإنسان وتفضيله على كثير من المخلوقات، لذلك حث الإسلام على إعماله في التفكير والتفكر، قال سبحانه: (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (20) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)[1]. فبالعقل يهتدي الإنسان إلى خالقه، بتدبر آيات كتابه العزيز، قال تعالى: (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا)[2].

وبنعمة العقل اهتدى الأعرابي إلى الخالق عندما أدرك علاقة الأسباب بالنتائج، حينما نظر إلى ما حوله في الصحراء، فقال: "البعرة تدل على البعير، والروث تدل على الحمير، وآثار الأقدام تدل على المسير. فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، أما يدل ذلك على الصانع العليم القدير"؟ فبالتفكر يدرك الإنسان عظمة الخالق وقدرته، فيتحرر من قيود المفاهيم الخاطئة والمعتقدات السائدة، ويداوم على مراجعتها وتعديلها في ذهنه. ويعدّ الإسلام ذلك دليلاً على الإيمان.

وحفاظاً على الأداء العقلي، أمر الإسلام بتنمية العقل بالغذاء المناسب، وقدّم الطعام على الصلاة إذا اجتمعا، ذلك أن الجوع يحول دون التدبر والإدراك، وكرّه للقاضي أن يقضي- وهو جائع، كما أمر الإسلام بتنمية العقل بالعلم، قال تعالى:(وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا)[3].

فالإسلام حريص على تنمية العقل وتربيته تربية سليمة لتمكين الإنسان من القيام بحق الخلافة في الأرض بفاعلية وإيجابية، لذلك منح الإسلام العقل حرية الفكر بمظهريها: الداخلي والخارجي. فكان ميدان التزكية لكافة مظاهر الضغوط النفسية والعقلية، التي تتمثل في المعتقدات الخاطئة والأفكار المشوهة، وممارسات القهر والتسلط. كما يحرص الإسلام على حرية الفكر حتى في مجال المعتقد، فلا إكراه في الدين، قال سبحانه: (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ)[4]. ولم يقيد الإسلام العقل بالزمان ولا بالمكان

---

(1) الذاريات، 20-21.

(2) النساء، 82.

(3) طه، 114.

(4) البقرة، 256.

ولا بالموضوع. وفتح باب الاجتهاد فيما لم يرد فيه نص. ولكنه في الوقت ذاته، حرّم البدعة ومنع التضليل عن طريق بث الأفكار المنحرفة المضللة التي تثير الشكوك في المعتقدات، وتوجه عادة إلى ذوي المستويات العقلية المحدودة، لتحرفها عن معتقداتها الإسلامية النبيلة.

ويعدّ سبحانه من لا يفكر لا يدرك ولا يفقه، قال تعالى(لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ) [1]، وقال سبحانه: (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) [2]. وقد ورد في مختصر تفسير ابن كثير لهذه الآية "أي أفلا يسيرون بأبدانهم ويفكرون بعقولهم حتى يعتبرون مما حلّ بالأمم السابقة التي كذبت الأنبياء والرسل من نقم الله التي حلّت بهم. فليس المقصود بالعمى عمى البصر، بل عمى البصيرة، وإن كانت القوة الباصرة سليمة، فإنها لا تنفذ إلى العبر ولا تدري ما الخير" [3]. لذلك كان جواب أهل النار عندما سألهم خزنتها: ألم يأتكم نذير؟ قالوا: لو كانت لنا عقول ننتفع بها، أي نعقل بها وترشدنا الى اتباع الرسل لما كنا على ما كنا عليه من الكفر.

ويدعو الإسلام إلى التثبت وعدم التسرّع في إصدار الأحكام قبل التعرّف على جميع جوانب المشكلة، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) [4]. وقد جعل الإسلام الاقتناع بالدليل العقلي شرطاً للإيمان، فهو يدعو إلى الإيمان اليقيني وليس التلقيني، ويحث على طلب الدليل العقلي، قال سبحانه:(هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ)[5]. وعليه، فلا يكون المرء مسلماً، إلا إذا استدل.

وقد أمر الإسلام بعدم الغلو في الاعتماد على العقل في إدراك الحقائق، نظراً لمحدوديته وقصوره عن إدراك الحقيقة كلها. ولمّا كان العقل قاصراً عن إدراك حقيقة الأمور الغيبية، ربطه الله سبحانه بالوحي على أيدي رسل كرام يكشفون له عما عجز

---

(1) الحشر، 13.

(2) الحج، 46.

(3) مختصر تفسير ابن كثير للصابوني، ج2، ص 549.

(4) الحجرات، 6.

(5) الكهف، 15.

عن معرفته، ويزيلون حيرته وسقمه واضطراب قلبه. فالأنبياء أطباء أمراض القلوب. ولو كان العقل غير محدود ولا قاصر، لما كان للنبوة أو الوحي فائدة أو ضرورة. فالله خالق العقل وهو الأعلم بحدود إدراكه. وعليه، يكون من الظلم أن نكلفه فوق طاقته من إدراك لما لا تبلغه العقول البشرية، كما لا يجوز إطلاق العنان له بالتفكير في أمور هي ليست من اختصاصه. فلا يجوز التفكير في الذات الإلهية، كما لا يجوز التفكير في كيفية استواء الرحمن على العرش إلى غيرها من أمور غيبية، حجبها الله تعالى عن إدراك المكلفين في الحياة الدنيا. لكمال حكمته ولانقطاع النسبة بين الوجودين. والتفكير فيها عبث، لأن فيها سعي إلى ما لا تدركه العقول، ومهلكة لأنها تؤدي إلى التخبط في الاعتقاد. كل ذلك وقاية له من الانحراف في ظلمات الضلال. فقد أمر الإسلام بالتوقف عن التفكير في مثل هذه الأمور الغيبية والاستعاذة بالله من الشيطان، قال تعالى: (وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)[1]. وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "يأتي الشيطانُ أحدَكم فيقول: من خَلَقَ كذا ؟ من خَلقَ كذا ؟ حتى يقول: من خَلقَ ربَّك ؟ فإذا بلَغَهُ فَليَسْتعِذْ باللهِ ولْيَنْتَهِ"[2].

وليس المقصود من ذلك أن نمسك العقل عن البحث والتفكير في التعرف على الله سبحانه وتعالى، فهو الطريق الطبيعي لذلك. فالعقل طريق الإيمان، وهما متلازمان؛ فأصحاب العقول هم الذين اهتدوا إلى الإيمان، قال تعالى: (أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ)[3].وقال تعالى: :(فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آَمَنُوا[4]) وفاقد العقل ساقط عنه التكليف، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن الْقَلَمُ رُفِعَ عن ثَلاَثَةٍ: عن المَجْنُونِ حَتَّى يَفِيقَ، وَعن الصَّبِيِّ حَتَّى يَدرك، وعن النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ"[5].

وقد نهى الإسلام عن تعطيل العقل بالتقليد الأعمى، قال سبحان(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آَبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آَبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ)[6]..

كما نهى عن اتباع الظن لأنه لا يستند إلى دليل أو

---

(1) فصلت، 36.

(2) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) الطلاق، 10.

(4) رواه البخاري.

(5) البقرة، 170.

برهان عقلي، ويفضي إلى نتائج غير محمودة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إيّاكم والظنَّ فإن الظنَّ أكذَبُ الْحديث"
كما حرّم الإسلام كل ما من شأنه أن يلحق الضرر بالعقل، أو يضعف قدرته المتجددة، قال تعالى: :(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) [1]. فجاء النهي عن شرب الخمر وتعاطي الميسر، أي القمار، وما شابهها من أنصاب وأزلام، لأنها رجس من عمل الشيطان، وهي تلهي عن ذكر الله وعن الصلاة. وفيها امتهان لدور العقل في التخطيط والتفكير واتخاذ القرار. ففيها فساد للعقل يترتب عليه عدم انضباط السلوك والخروج عن إطار التكليف. وشرب الخمر، وكذلك شان المسكرات والمفترات الأخرى، يذهب بالعقل، أي يخامره، قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ) [2]. بعدها نسخت بآية تحريم الخمر، فجاءت بياناً شافياً؛ ذلك أن الفهم شرط التكليف، وشارب الخمر لا يدري معه ما يقول. فالمخمور فيه تخليط في القراءة وعدم تدبر وخشوع في الصلاة.

وورد في مختصر تفسير ابن كثير قول الزهري عن عثمان بن عفان أنه قال "اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث. إنه كان رجل فيما خلا قبلكم يتعبد ويعتزل النساء، فعلقته امرأة غوية، فأرسلت إلى جاريتها أن تدعوه لشهادة فدخل معها، فطفقت كلما دخل باباً أغلقته دونه، حتى أفضى إلى امرأة وضيئة، عندها غلام وباطية خمر، فقالت: إني والله ما دعوتك لشهادة، ولكن دعوتك لتقع عليّ، أو تقتل هذا الغلام، أو تشرب هذا الخمر، فسقته كأساً، فقال: زيدوني، فلم يرم حتى وقع عليها وقتل النفس. فاجتنبوا الخمر، فإنها لا تجتمع مع الإيمان أبداً، إلا أوشك أحدهما أن يخرج صاحبــه" [3]. وهكذا فإن شرب الخمر يؤدي إلى فقدان الإرادة وضبط النفس، مما يؤدي إلى جريمتي القتل والزنا، ويترتب على هاتين الجريمتين جرائم أخرى كالخيانة والتفكك الأسري. هذا فضلاً عن المشكلات الاجتماعية من ثأر وانتقام وحقد وبغضاء لأسرة المجني عليه، ومن مشاعر الخوف والقلق والذنب والاكتئاب لأسرة الجاني.

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر، حديث رقم 5604.

(2) المائدة، 90.

(3) النساء، 43.

(4) مختصر تفسير ابن كثير للصابوني، ج1، ص 548.

- **الوقاية في مجال النسل:**

يهدف الإسلام من حفظ النسل إلى وقاية الشخصية وحمايتها من الهلاك والضياع والانقراض، حتى تتمكن من عمارة الأرض، لذلك كان الهدف الأسمى للزواج الولد والنسل. فشرع الزواج ورغّب فيه، وجعله سنة من سنن الأنبياء وهدي المرسلين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "النكاح سُنَتي فَمَن أَحَب فطْرَتِي فَليستَن بِسُنَتِي"[1]. وتيسيراً للزواج، حبّب الإسلام المهر اليسير لما يترتب عليه من فوائد سماها الرسول صلى الله عليه وسلم بالبركة في قوله صلى الله عليه وسلم "إِنَّ أَعْظَمَ النِّكاحِ بَرَكَةً أَيسَرُهُ مَؤُنَةً"[2]. وقال أيضاً "إِنَّ مِنْ يُمْنِ المرأةِ تَيْسِيرَ خَطْبَتِها وَتَيْسِيرَ صَدَاقِها وَتَيْسِيرَ رَحِمِها"[3]. فارتفاع المهور يجعل الشباب يعزفون عن الزواج لعدم تمكنهم من الوفاء بشروط المهر. كما قد يكون سبيلاً للزواج غير الشرعي. وعلاوة على ذلك، فقد طالب الإسلام بعون الناكح الذي يريد العفاف، وجعل ذلك حقاً من حقوقه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ثَلَاثَةٌ حَقٌّ على الله عَوْنُهُمْ: المُجَاهِدُ في سَبِيلِ الله، والمُكَاتَبُ الَّذِي يُرِيدُ الأدَاءَ، والنَّاكِحُ الَّذِي يُرِيدُ العَفَافَ"[4].

والمنافع الوقائية للزواج أكثر من أن تذكر. فالزواج يصون الأعراض، ويقطع الطريق على منافذ الحرام والإغراء الجنسي، ويحفظ النسل، ويقي من اختلاط الأنساب. وبذلك يحاط الطفل بحصن اجتماعي آمن، يوفر له نسباً شريفاً، يحفظه من التشتت والضياع والغربة والعزلة، ويترعرع فيه من غير خوف يهدده.

ويحث الإسلام على الزواج المبكر إذا توفرت الظروف المادية، لأنه أغض للبصر عن المحرمات، وأحصن للفرج عن الزنا وغيره من المحرمات، ويدعو إلى الصوم كتدبير وقائي من الانحراف، في حال عدم الاستطاعة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "يَا مَعْشَر الشَباب مَن استطاعَ منكم الباءَةَ فلْيَتَزَوَّجْ، فإنَّه أغضُّ للبَصَر، وأحصَنُ للفَرْج. فمنَ لم يَستَطِعْ فعلَيهِ بالصَّوْمِ، فإِنهُ لَهُ وِجاء ". أي وقاية من الانحراف والوقوع في الفاحشة، ويحث الإسلام على التسامي بالغرائز الجنسية خاصة في مرحلة المراهقة، لتصريف الطاقة الزائدة، إضافة إلى تنمية القوة الجسدية، لذلك أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بتعليم الأبناء السباحة والرماية وركوب الخيل.

---

(1) سبق تخريجه.

(2) أخرجه أحمد عن عائشة رضي الله عنها.

(3) رواه أحمد.

(4) سبق تخريجه

ويأمر الإسلام بالاستعفاف وضبط الغريزة الجنسية والتحكم بها، للذين لا يجدون نكاحاً، حتى يغنيهم الله من فضله. كما يحث على توجيه الغريزة الوجهة الطبيعية لها، بمواقعة الزوجة، في مواقف الإغراء التي تثير شهوة الرجل حتى يرّد ما في نفسه، ويقيه من شر الوقوع في الفاحشة.

ويحض الإسلام على اختيار الزوج والزوجة في ضوء معيار الدين والخلق، دون غيرهما من معايير، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ، فَزَوِّجُوهُ. إِلاَّ تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وفَسَادٌ عرِيضٌ"[1]. فالزوج الصالح والزوجة الصالحة يعين كل منهما الآخر على أمور دينه، ويحصنه من كل إغراء، ويربطه برباط وجداني صادق ومودة ورحمة وأنس، ويجد كل منهما في الآخر متنفساً لأحزانه، ومكمناً لأسراره، وإشباعاً لحاجاته، دونما حاجة إلى كبت الغرائز، فيشعرا بالطمأنينة والسكينة، ويقبلا على عبادة الله بقلوب متفرغة من هموم الدنيا التي لا تنقطع. وعليه، فالزواج يهيئ أسباب العبادة، لا بل يعدّه الإسلام عبادة يؤجر العبد عليها لأنه يقيه من الحرام، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَة، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِّ، أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلاَلِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ"[2]. فالزوجة الصالحة تعفّ زوجها وتحصّنه من كل سوء، لان في ذلك تحصيناً للأسرة كلها من الاضطرابات التي قد تصل حدّ التفكك الأسري، واختلاط الأنساب، وما يرافقها من مشاعر الخوف والقلق.

وقد حرص الإسلام على اختيار الأزواج الذين يحملون الصفات الوراثية الجيدة، حتى يتمتع الأبناء بالصحة العقلية والنفسية، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "تَخَيَّرُوا لِنطِفِكُمْ فَإِنَ العِرْق دَسَّاس"[3]. وعني الإسلام بطهارة النسب، وسلامة أصل الزوجين، وحذّر من الزواج من المرأة الحسناء في المنبت السوء. وبذا يحفظ الإسلام الزوجين والأبناء من الانحرافات والاضطرابات الجنسية والاجتماعية، كما ينصح الإسلام بعدم الزواج من الأقارب، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "اغتربوا لا تضووا"[4]، أي لا تتزوجوا من الأقارب حتى لا تلدوا أولاداً ضعاف البنية الجسمية والعقلية.

---

(1) سبق تخريجها.

(2) سبق تخريجها.

(3) سبق تخريجها.

(4) سبق تخريجها.

كما أكد الإسلام ضرورة رضى الزوجين عن بعضهما، فالرضى شرط لصحة الزواج، ولا يصح الزواج مع الإكراه، ضماناً لديمومة الزواج واستقراره وتحقيق الغاية منه. كما حدّد الحقوق والواجبات الخاصة بكل من الآباء والأبناء، وبين الزوجين. فالحقوق والواجبات جاءت بمثابة الميثاق الذي يربط بين الزوجين، فيحمي من الانحراف ويهيئ البيئة الملائمة للإنجاب. كل ذلك لبناء علاقة سليمة وأسرة سعيدة يتمتع أفرادها بالصحة النفسية.

وأقام الإسلام العلاقة الزوجية على المودة والرحمة والثقة المتبادلة، وهي الأسباب التي تكفل استمرارها واستقرارها، لذلك كرّه الإسلام بالغيرة غير المحمودة التي تصل إلى درجة الشك وسوء الظن من غير ريبة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن من الغيرة غيرة يبغضها الله ورسوله، وهي غيرة الرجل على أهله في غير ريبة"[1]. كما نهى الزوج الغائب عن أن يطرق أهله ليلاً أو أن يفاجئهم بالعودة، كيلاً تشعر الزوجة بعدم ثقة زوجها بها، أو أنه يطلب عثراتها، فقد "نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أَنْ يَطْرُقَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ لَيْلاً يَتَخَوَّنُهُمْ أَوْ يَطْلُب عَثَرَاتِهِمْ"[2].

وأباح الإسلام تعدد الزوجات لحكم عديدة، حفظاً من الانزلاق في طريق الشهوات. فمن الرجال من تغلب عليه الشهوة فلا تحصنه امرأة واحدة. كما أن تعدد الزوجات يحفظ للمرأة كرامتها، ويقيها من الوقوع في الرذيلة. وعليه، فالتعدد إجراء وقائي يمنع الانحراف بشتى صوره، ويحفظ القيم الأخلاقية والفضائل في المجتمع، شريطة أن يعدل الزوج بين الزوجات.

وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنساء خيراً في حجة الوداع، في ضوء الدور الهام الذي تلعبه المرأة في التربية النفسية للناشئة. كما حرص على أن تكون الرضاعة طبيعية من ثدي الأم. فإن لم تستطع، فالرضاعة من ثدي آخر، قال تعالى:(وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى)[3]. فالرضاعة الطبيعية تحقق الاستقرار النفسي والتعلق العاطفي بين الأم وابنها. كما حدّد الإسلام فترة الرضاعة المشبعة بحولين كاملين. ويقرر حقاً للرضاعة وأجراً، ويرتب مسؤولياتها، قال تعالى(فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ)[4].

---

(1) رواه أحمد في مسنده 545/5، وابن ماجة في سننه 643/1.

(2) رواه البخاري ومسلم، تخريج أحاديث الإحياء، الحافظ العراقي، 58/2.

(3) الطلاق، 6.

(4) الطلاق، 6.

وقد أحاط الإسلام علاقة الذكر والأنثى بجملة من الآداب تكفل لها الطهر والنقاء، وتهيئ المناخ الملائم للعفة من خلال التدابير الوقائية من المثيرات التي قد تؤدي إلى الإثارة الجنسية، أو تفضي إلى الوقوع في الفاحشة، ومن هدي الإسلام في ذلك:

- في تحريم المغيبات، يقول صلى الله عليه وسلم "حُرْمَةُ نِسَاءِ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ، كَحُرْمَةِ أُمهَاتِهِمْ"[1].
- في تحريم الأعراض، يقول صلى الله عليه وسلم "كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ. دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ"[2].
- في تحريم الإغراء، يقول صلى الله عليه وسلم "لا تُباشِرُ المرأةُ المرأةَ فَتنعَتها لِزَوجِها كأنه ينظُرُ إليها" [3].

في تحريم التبرج، قال تعالى:(وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى) [4] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إِنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا بَلَغَتِ المَحِيضَ لَمْ يَصْلُحْ لَها أنْ يُرَى مِنْهَا إلاَّ هذَا وَهذَا، وَأَشَارَ إلى وَجْهِهِ وَكَفَّيْهِ" [5]. وقال تعالى: (وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ) [6]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أَيُّمَا امْرَأَةٍ اسْتَعْطَرَتْ فَمَرَّتْ عَلَى قَوْمٍ لِيَجِدُوا مِنْ رِيحِهَا فَهِيَ زَانِيَةٌ" [7].

- في تحريم الخلوة والاختلاط (بشكل مطلق وبدون قيود) كأسلوب للتحصين ضد وساوس الشيطان، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لاَ يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلاَّ كَانَ ثَالِثَهُمَا

(1) رواه النسائي في كتاب الجهاد، باب حرمة نساء المجاهدين، حديث رقم 3138.

(2) رواه البخاري ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم واحتقاره وخذله، حديث رقم 4650.

(3) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب لا تباشر المرأة المرأة، حديث رقم 4839.

(4) الاحزاب، 33.

(5) رواه أبو داود، كتاب اللباس، باب فيما تبدي المرأة من زينتها، حديث رقم 3580.

(6) النور، 30-31.

(7) أخرجه النسائي وأحمد، مسند الكوفيين، باب أبي موسى الأشعري، حديث رقم 18879.

الشَّـيْطَانُ" [1]. ووجـد رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم أن هنـاك بعـض الضـرورات لمثـل هـذه الخلوات، فقال "لا يخلوَنَّ رجلٌ بامرأةٍ إلاّ مع ذي مَحْرَم" [2].

في الدعوة إلى غض البصر، قال تعالى: (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (30) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ) [3] وقال صلى الله عليه وسلم "يَا عَلِيٌّ لا تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ، فإنَّ لَكَ الأُولَى وَلَيْسَتْ لَكَ الآخِرَةُ" [4]. وقال صلى الله عليه وسلم "عن نَظَرَةِ الْفَجْأَةِ فقال: اصْرِفْ بَصَرَكَ" [5]. كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لاَ يَنْظُرُ الرَّجُلُ إِلَى عَوْرَةِ الرَّجُلِ وَلاَ الْمَرْأَةُ إِلَى عَوْرَةِ الْمَرْأَةِ، وَلاَ يُفْضِـي الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، وَلاَ تُفْضِي الْمَرْأَةُ إِلَى الْمَرْأَةِ فِي الثَّوْبِ الْوَاحِدِ" [6].

الاستئذان عند الدخول على الوالدين في أوقات القيلولة، قال تعالى:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ) [7].

- التفريق في المضاجع في سن العاشرة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "مُرُوا أَوْلاَدَكُم بالصَّلاَةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي المَضَاجِعِ" [8].

النهي عن ترقيق صوت المرأة حتى لا يكون في نبرتها الخضوع واللين الذي يثير شهوة الرجال فيطمع الذي في قلبه مرض، قال تعالى: (يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا) [9].

---

(1) سبق تخريجه.

(2) رواه البخاري، الصحيح كتاب النكاح، باب لا يخلون رجل بامرأة إلا مع ذي محرم، حديث رقم 4832 .

(3) النور، 30-31.

(4) رواه الترمذي، السنن، كتاب الادب عن رسول الله، باب ما جاء في نظر المفاجأة، حديث رقم 2701، وقال ابو عيسى حديث حسن.

(5) أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي، ناصف، كتاب النكاح، باب ما يؤمر به من غض البصر، حديث رقم 1836.

(6) رواه مسلم في كتاب الحيض، تحريم النظر إلى العورات، حديث رقم 512.

(7) النور، 58.

(8) أخرجه أبو داود، النووي، كتاب الصلاة، باب متى يؤمر الغلام بالصلاة، حديث رقم 418.

(9) الأحزاب، 32.

- الأمر بحفظ اللسان من اللحن والهذر والإيحاء والدعابة... حتى يكون ذلـك ضـابطاً وقائيـاً لما قد يكون وراءه من انحراف، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ، أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ، إلاَ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ" [1].

وأحاط الإسلام الحياة الزوجية بسياج يصونها ويحافظ على استقرارها وديمومتها، فحرّم الاعتداء على الأعراض بإثارة الشائعات حول المحصنات الغافلات، لأنه يقوِّض بنيان الأسرة، ويمتهـن كرامة المرأة، وعدّ ذلك من الكبائر، وأعد لمرتكبه العذاب الأليم، قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) [2] ففي حادثة الإفك مثلاً، روّج المنافقون إشاعة مختلقة عن فاحشة وهمية. وقد بيّن الله سبحانه أن دافعهم وراء نشر الشائعة هو حبهم لإشباع الفاحشة بين المؤمنين، قال تعالـى: (إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) [3]. ففي نشر قصص الفاحشة إشاعة للفاحشة، ومن هنا تتجلى حكمة الله سبحانه في تحريم قذف المؤمنين والمؤمنات وإشاعة ارتكاب الفاحشة.

كما حدّد الإسلام عقوبة القاذف بالجلـد ثمـانين جلـدة وعـدم قبـول شـهادته حتـى لـو كـان صادقاً، فإنه آثم بإشاعة الفاحشة، إلا إذا تاب توبة صادقة. وفي إقامة حدّ القـذف تهـذيب للمسـلم من كف لسانه عن النطق بالمنكر، حفاظاً على كيان الأسرة مـن الانهيـار والـدمار، فـلا اتهـام بـدون شهود. كما حث رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمنين على ستر زلات بعضهم الـبعض، قـال رسـول الله صلى الله عليه وسلم "مَنْ سَتَرَ عَلَى مُسْلِمٍ سَتَرَ الله عَلَيْهِ فِي الدُّنْيا وَالآخِـرَةَ"[4]. وقـد أمـر صـلى الله عليه وسلم بأن يستتر العاصي إذا ابتلي بالمعصـية بـأن ضـعفت نفسـه ومالـت إلى الحـرام، حتـى لا يكون نموذجاً سيئاً يقتدى به. هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد يدفعه حياؤه إلى التوبة.

ومن التدابير الوقائية الأخرى بالنسبة للمتزوج أن الإسـلام لم يجعـل الـزواج أبـدياً، للحيلولـة دون وقوع أحد الزوجين في الخطيئة إذا فسدت العلاقة الزوجية بينهما. وأباح

---

(1) رواه الترمذي، السنن، كتاب الإيمان عن رسول الله، باب ما جاء في حرمة الصلاة، حديث رقم 2541، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

(2) النور، 23.

(3) النور، 19.

(4) رواه مسلم وأحمد والترمذي وابن ماجة وأبو داود.

للزوجة أن تطلب الطلاق من زوجها في حال الإعسار والمرض والضرر والغيبة. كما أباح الطلاق للزوج إذا اقتضت الضرورة ذلك.

ويضيّق الإسلام فرص الطلاق، ويجعله أبغض الحلال ويوصي باتخاذ التدابير التي تحول دون حدوثه، ومنها تدخل حكم من أهله وحكم من أهلها، عند بدء الشقاق، حفاظاً على كيان الأسرة من التفكك وحرصاً على استقرارها النفسي والاجتماعي، قال تعالى: (وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا) [1].

ويجعل الإسلام حضانة الطفل حقاً للأم المطلقة، وعلى الأب أن يدفع الأجر، وقاية للحياة النفسية للطفل من الدمار جرّاء الانفصال المبكر بين الأم وابنها. والأم أولى برعاية ابنها إن كانت مطلقة، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للمرأة المطلقة التي شكت طليقها لأنه أراد نزع طفلها منها بعد الطلاق " أَنْتِ أَحَقُّ بِهِ مَا لَمْ تَنْكِحِي" [2]. كما أكد الإسلام العدل بين الأولاد في الأمور كلها، حتى في العطايا والقبل، لما له من أهمية في ميدان الصحة النفسية. وبذا لا يشعر الأبناء بالقلق والتوتر، ولا تظهر بينهم أشكال الغيرة والحسد، وما ينطوي عليها من عداء وانتقام.

ويحرّم الإسلام الزنا، ويفرض له الحدّ؛ فقد أمرت الشريعة الإسلامية برجم الزاني دون رأفة، واشترطت أن يشهد الرجم طائفة من المؤمنين لوقايتهم من الوقوع في الفاحشة جراء العقوبة التي يتعرض لها الزاني وهي عقوبة رادعة مؤلمة تدعو إلى الخوف. وبهذا فقد أغلقت الشريعة أمام المتزوج باب الحرام من أشكال الانحراف الجنسي، لما تنطوي عليه من مشكلات اجتماعية (كالتفكك الأسري والمشكلات بين الأسر، والاختلاط في الأنساب...) ومشكلات صحية (كالسيلان والزهري والإيدز...)، قال تعالى:(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا) [3]. وبالمقابل فقد نهى الإسلام عن النظر إلى الشهوة الجنسية نظرة اشمئزاز أو احتقار أو ترفع، لذلك نهى عن التبتل والرهبانية والعزوبة والخصاء... لأن في ذلك كبتاً لغريزة فطرية، أمر الله سبحانه بإشباعها ضمن نطاق شرعي، وبالطرق المشروعة، لغاية سامية تتعلق بالولد والنسل، وبما يحقق وظيفة

---

(1) النساء، 35.

(2) رواه أحمد وأبو داود والبيهقي والحاكم وصححه، نيل الأوطار، 369/6.

(3) الإسراء، 32.

عمارة الأرض. كما نهى الإسلام عن العزل والإجهاض والتنظيم لمقصد غير مبرر شرعاً.

- **الوقاية في مجال النفس:**

كرّم الإسلام النفس الإنسانية وأعلى من شأنها ومكانتها، وسخّر لها ما في الكون جميعاً لخدمتها، قال تعالى:(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا) [1]. واختص الإسلام النفس الإنسانية من بين المخلوقات الأخرى لتكون خليفة الله في الأرض، وأمر الملائكة بالسجود لها (لآدم عليه السلام) تكريماً واحتراماً، ومنحها العقل والإرادة وحرية الاختيار. كما بيّن لها طريق التقوى والفجور. وعليه، فالمسلم لا يشعر بعقدة الذنب، أي الخطيئة الأولى، كما يشعر أصحاب الديانات الأخرى.

وقد كفل الإسلام للنفس الإنسانية كل ما من شأنه الحفاظ عليها ووقايتها من الأمراض النفسية والجسدية، ذلك أن حفظ النفس يعدّ المقصد الأسمى الذي من خلاله تتحقق مقاصد الدين الثلاثة: تصحيح الفكر والمعتقد، وتهذيب الأخلاق والوجدان، وتعديل السلوك. فقد حرص الإسلام على تلبية الحاجات الأساسية للإنسان من طعام وشراب ومسكن وملبس حتى تستقيم الحياة، ويتمكن من أداء رسالته وتحقيق الغاية من وجوده، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لَيْسَ لابنِ آدَمَ حَقٌّ فِي سِوَى هذِهِ الخِصَالِ: بَيْتٍ يَسْكُنُهُ، وَ ثَوْبٍ يُوَارِي عَوْرَتَهُ، وَجِلْفِ الْخُبْزِ وَالْمَاءِ" [2]. وأباح للمسلم السرقة ولكن في حدود سد الحاجة (وليس المتعة)، كما حصل في عام المجاعة، إذ لم يُقم الحد على السارق حفاظاً على حياة البشر. كما أوجب الإسلام سدّ الرمق على الخائف على نفسه من الهلاك ولو بأكل الميتة. ويحرّم الإسلام على الإنسان أن يمتنع عن الطعام والشراب، أو أن يحرم نفسه من المسكن والملبس إذا كان ذلك يؤول به إلى الهلاك، وأوجب وقوع العقوبة التعزيرية لمن يمتنع عمداً عن الطعام والشراب والدواء، حفاظاً على حياته. ويعدّ تأمين الحاجات الأساسية مسؤولية الدولة في حال عجزه عن توفيرها بنفسه. كما أوجب الإسلام الزكاة لسدّ حاجة الفقراء والمحتاجين.

---

(1) الإسراء، 70.

(2) سبق تخريجه.

ويقدم الإسلام مصلحة النفس على مصلحة الدين؛ فصحة الأبدان مقدمة على صحة الأديان، لذلك شرع الإسلام الرخص، ومنها: قصر الصلاة في السفر، والإفطار في رمضان للمريض والمسافر والحامل (إن خشيت على مولودها)، والتيمم للصلاة في حال المرض أو الخطر أو عدم توفر الماء. وقد شرع هذه الرخص تخفيفاً على النفس، لتتمكن من القيام بوظيفتها من خلافة وعمارة، وترك لها حرية الانتفاع من الرخصة أو تركها بحسب قدرتها. كما قدّم الإسلام حرمة النفس على حرمة المال، فأباح أكل مال الغير في حال الضرورة التي قد تفضي إلى هلاك النفس[1].

وقد أوجب الإسلام على الدولة توفير الأجهزة الأمنية لتلبية حاجة المسلم إلى الشعور بالأمن، والتحرر من الخوف والقلق والتوتر وأشكال العدوان على النفس، التي من شأنها أن تعيق المسلم عن أداء وظائفه في الحياة، وعن تحقيق الغاية من وجوده. فالخائف لا يشعر بالراحة ولا بالطمأنينة، لذلك كان الأمن مطلباً إنسانياً لصلاح أحوال الدنيا والآخرة.

ويكون ابتلاء الإنسان بالجوع والخوف، قال تعالى:(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ)[2]. ويقرن سبحانه الأمن بالطعام، الذي لا حياة للإنسان بدونه، قال تعالى(فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (3) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ(4) [3]. وقد أنعم الله سبحانه على عباده بالأمن الشامل (المرتبط بالإيمان) حتى يتمكنوا من عبادته، وشكر نعمته. وتكريماً لحقّ الإنسان في العيش الآمن، شرع الإسلام العقوبة على قاطع الطريق، الذي يروّع المسلم ويسلب ماله أو يقتله، قال تعالى:(إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ) [4] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُرَوِّعَ مُسْلِماً" [5].

---

(1) انظر: محمد عقلة، الإسلام: مقاصده وخصائصه، ص 173-174.

(2) البقرة، 155.

(3) قريش، 3-4.

(4) المائدة، 33.

(5) سبق تخريجه.

ويؤكد الإسلام احترام إنسانية الإنسان؛ صغيراً وكبيراً، رجلاً وامرأة، غنياً وفقيراً، سليماً ومعوقاً. والتفاضل بين الناس لا يكون إلا بالتقوى. ولا تجوز السخرية بالآخرين والتعدي على كرامتهم. وعليه، فلا يشعر المسلم بعقد النقص الناشئة عن الفروق الفردية في اللون والجنس والطبقة الاجتماعية...الخ.

وقد منح الإسلام الإنسان حق الحياة، وأحاطه بإطار مرجعي يكفل صيانته، ويعدّ الاعتداء على هذا الحق جريمة بحق البشرية جمعاء، قال سبحانه: (مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا) [1]. كما يعدّه من السبع الموبقات، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " اجتنِبوا السَّبعَ الموبقات. قالوا: يا رسولَ اللهِ، وما هُنَّ ؟ قال: الشِّركُ باللهِ، والسِّحرُ، وقتْلُ النَّفسِ التي حَرَّمَ اللهُ إلاّ بالحقّ؛ وأكلُ الرِّبا، وأكلُ مالِ اليَتيم، والتَّولِّي يوم الزَّحفِ، وقذفُ المُحصناتِ المؤمناتِ الغافِلاتِ" [2]. ولعن الله سبحانه القاتل المتعمد للنفس البريئة وغضب عليه ووعده بالعقاب الشديد، قال تعالى:(وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا) [3].

وقد أرسى الإسلام من التشريعات ما يكفل حماية النفس ووقايتها من الاعتداء؛ فأوجب القصاص والدّية والكفارة، على من يعتدي عليها بالقتل. كما شرع الدفاع عنها في حال اعتداء الغير على النفس والمال والدين والعرض، قال تعالى: (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا) [4]. وشرع الجهاد حفظاً للنفوس، وحماية للمستضعفين من النساء والرجال والأطفال، قال تعالى: (وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا) [5].

كما أوجب دفاع المسلم عن أخيه المسلم، إذا تعرّض للقتل ظلماً. ويحرّم الإسلام الاعتداء على الذات بالانتحار، فحياة الإنسان ليست ملكاً له، قال تعالى: (وَلَا

(1) المائدة، 32.

(2) رواه البخاري ومسلم في الصحيحين.

(3) النساء، 93.

(4) البقرة، 190.

(5) النساء، 75.

تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ)[1]. ويعدّه رسول الله صلى الله عليه وسلم جريمة تقود صاحبها إلى النار، قال صلى الله عليه وسلم " مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَتَوَجَّأُ بِهَا[2] فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدا فِيهَا أَبَدا. وَمَنْ شَرِبَ سَمّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدا مُخَلَّدا فِيهَا أَبَدا. وَمَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ يَتَرَدَّى فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدا مُخَلَّدا فِيهَا" [3]. كما حرّم الإسلام الاعتداء على الذات بقطع بعض الأعضاء دون مبرر شرعي لذلك، قال تعالى: (وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ) [4].

ويمنع الإسلام الاعتداء اللفظي على المسلم بالسب عليه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "سباب المؤمن فسق، وقتاله كفر" [5]، أو بلعنه أو بطعنه في عرضه، قال صلى الله عليه وسلم "لَيْسَ المُؤْمِنُ بالطَّعَّانِ ولاَ اللَّعَّانِ ولا الفَاحِشِ ولا البَذِيِّ" [6]. كل ذلك احتراماً لكرامة المسلم وإنسانيته.

ويحث الإسلام على الاشتغال بعيوب النفس عن عيوب الناس، بغية وقايتها من الانحرافات النفسية الباطنية (من حسد ومكر وانتقام وغيبة ونميمة...) التي تنتج عن نسيان عيوب النفس والاشتغال بعيوب الآخرين. وعليه، فلابد من وقفة إيمانية محاسبية ناقدة للذات، بين الحين والآخر، لتفقد النقص في النفس، يراجع فيها الفرد ما قام به من أخطاء وما ارتكبه من ذنوب ويحاسب نفسه عليها قبل أن تتراكم. فمحاسبة النفس ونقد أخطائها أولاً بأول، تدفعها إلى طريق التوبة والاستغفار، وتبعدها عن طريق الغواية والضلال. وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه "حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وتزينوا للعرض الأكبر، وإنما يخفّ الحساب يوم القيامة على من حاسب نفسه في الدنيا" [7].

وما من شك في أن شغل أوقات الفراغ بأعمال البر والتقوى يجنب الإنسان أعمال الإثم والعدوان؛ ذلك أن النفس الإنسانية كالرحى الدائرة لابد أن تطحن شيئاً. فإذا

---

(1) النساء، 29.

(2) أي يطعن بها.

(3) رواه مسلم في صحيحه بهامش شرح النووي، 118/2.

(4) البقرة، 195.

(5) رواه البخاري ومسلم في الصحيحين وأحمد والترمذي والنسائي وابن ماجة عن ابن مسعود، الجامع الصغير، 302.

(6) رواه البخاري، وأحمد في الأدب المفرد وابن حبان، والحاكم عن ابن مسعود، ورمز له السيوطي بإشارة الصحيح، الجامع الصغير.

(7) الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 52/1.

انصرف الإنسان إلى أعمال الخير، لن تجد خواطر الشر مكاناً لها. فبالعمل بعد عـن الرذائـل، فمن لا يشغله شاغل مآله إلى الرذائل. وبالعمل بعد عن الملل والسأم الذي من شأنه إحداث القلـق في النفس والاستسلام لليأس. وبالعمل يـؤمن الإنسـان متطلبـات حياتـه، بمـا يغنيـه عـن النـاس. ولا يستهان بما في حاجة الناس من ذل وانكسار وإهانة، تؤول إلى تصدع نفسي وهبوط معنوي. ويحبـذ إشغال النفس بالتفقه الدائم لاستبصار آفاق النفس وعيوبها، وللتعرف إلى مـداخل الشـيطان إليهـا. كما لابد من التثبت من خواطر النفس قبل ترجمتها إلى أفعال؛ فإذا حسد المرء لا يبغـي، وإذا تطـيّر يمضي.

ولما كان الإنسان بحاجة إلى غيره، ولا تستقيم حياته بمعزل عن الآخرين، ولتمكينه من التكيف الاجتماعي بما يكفل تحقيق الخلافة وإعمار الأرض، وحفاظاً على النوع البشري من الانقراض، جاءت دعوة الإسلام إلى الزواج. كما جاءت دعوته إلى إقامة علاقات اجتماعية طيبة –مع الآخرين- تسودها المحبة والألفة والتكافل والتعاون، ليشعر بالانتماء إلى الأمة الإسلامية، فالمؤمن ألف مألوف، وخير الناس أنفعهم للناس.

ويلخص الشاطبي معاني حفظ النفس في: إقامة أصله بشرعية التناسل، وحفظ بقائه بعد خروجه من العدم إلى الوجود من جهة المأكل والمشرب، وذلك ما يحفظه من داخل، والملبس والمسكن وذلك ما يحفظه من خارج"[1].

- **الوقاية في مجال المال:**

المال نعمة أنعمها الله على الإنسان لتلبية حاجاته وتأمين العـيش الكـريم، الـذي يمكنـه مـن أداء رسالته في الحياة وتحقيق العبودية لمالك الملك. والمال أمانـة مـن الأمانـات التـي اسـتخلف الله فيها الإنسان؛ فهو مسؤول عن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه. والمال زينة الحياة الدنيا، والإنسـان مجبول على حب المال، حتى لو أن له وادياً من ذهب لأحبّ أن يكـون لـه واديـان. وحـب التملـك واحد من دافعين أوهم الشيطان بهما آدم عليه السلام، فعصى ربه.

لهذا كله شرع الإسلام أحكام تنظيم التملك المشروع (مـن أحكـام المـيراث والصـدقة والبيـع والشراء وأعمال الكسب المشروع...). كما رفض أساليب التملك غير المشـروعة كالربـا والغـش، وعـدّ الربا من الكبائر.

---

(1) الشاطبي، الموافقات، ج4، ص 28.

ويحذّر الإسلام من فتنة المال، لأنه سبباً في هلاك الفرد والأمة، قال تعالى: (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا) [1]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "مَا الفَقْرُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا فَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ" [2]. وينهى الإسلام عن الغرور والتكبّر بالمال على الناس، لأن المال مال الله وما يملكه الإنسان محدود الأجل في الدنيا؛ فلا حسرة ولا ندامة لمن ينفقه. فإنفاق المال لا ينقصه، بل يضاعفه عند الله يوم القيامة.

والنفس الإنسانية مجبولة على الشح والبخل وحب التملك، لذلك اتخذ الإسلام كافة التدابير الوقائية لحماية النفس وتطهيرها من الشح وكنز المال، فقد دعا إلى التصدق على المحتاجين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أنفقْ يا ابن آدمَ أُنْفِقْ عليكَ" [3]. وعد صلى الله عليه وسلم الكرم من الإيمان، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أفضل الناس إيماناً أبسطهم كفاً" [4]. وفضّل المتصدق على الآخذ، قال صلى الله عليه وسلم "اليدُ العليا خيرٌ من اليدِ السُفلى" [5]. وجعل سبحانه ثواب النفقة أضعافاً، قال تعالى: (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) [6]، وقال تعالى:(إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ) [7]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "مَا تَصَدَّقَ أَحَدٌ بِصَدَقَةٍ مِنْ طَيِّبٍ، وَلاَ يَقْبَلُ الله إِلاَّ الطَّيِّبَ، إِلاَّ أَخَذَهَا الرَّحْمنُ بِيَمِينِهِ. وَإِنْ كَانَتْ تَمْرَةً. فَتَرْبُو فِي كَفِّ الرَّحْمَـنِ حَتَّى تَكُونَ أَعْظَمَ مِنَ الْجَبَلِ. كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ أَوْ فَصِيلَهُ" [8]. وقد حث سبحانه على التصدق بما يزيد على الحاجة مـــن المال، قال تعالى: (وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ

---

(1) الإسراء، 16.

(2) سبق تخريجه.

(3) أخرجه البخاري في كتاب النفقات، ومسلم في كتاب الزكاة/ النووي، باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف، حديث رقم 1658.

(4) رواه الطحاوي.

(5) رواه البخاري في كتاب الزكاة، باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى، حديث رقم 1338.

(6) البقرة، 261.

(7) الحديد، 18.

(8) أخرجه الشيخان والترمذي والنسائي/ ناصف، كتاب الصدقة، باب ما جاء في فضل الصدقة، حديث رقم 597.

الْعَفْوَ) [1]، أي أن ينفق المرء ما يزيد على حاجته من مال، طواعية في سبيل الله. وينطوي هذا التوجيه على ابتلاء شح النفس بما تملك من مال.

أما بالنسبة لمن تحركه دوافع البخل، بعيداً عن إنفاق ما زاد على الحاجة، في سبيل الله طوعاً، فقد فرض الله في أمواله حداً أدنى هو الزكاة، تؤخذ طوعاً أو كرهاً. وفي ذلك تطهير لنفس المعطي من دوافع البخل وتطهير لنفس المستحق لها من دوافع الحسد. وينبغي أن لا ينحرف الكرم ليصبح إسرافاً، فقد حرّم الإسلام التبذير والإسراف، قال تعالـى(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) [2]. كما نهى عن بسط اليد كل البسط تجنباً للملامة والحسرة، قال تعالى: (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا) [3].

كما نهى الإسلام عن الشح والبخل، وبيّن ما يترتب عليها من عقوبة، قال تعالى: (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ [4] وقال تعالى:(وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) [5]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ما مِن يومٍ يُصبحُ العِبادُ فيه إلاَّ مَلَكانِ يَنزِلانِ فيقولُ أحدُهما: اللَّهمَّ أعطِ مُنفِقاً خَلَفا، ويَقولُ الآخَرُ: اللّهمَّ أعطِ مُمسِكاً تلَفاً" [6]. كما نهى الإسلام عن كنز المال، وبيّن ما يترتب عليه من عقوبة، قال تعالى:(وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (34)يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ) [7]. ويعدّ الإسلام البخل من شر خصال الإنسان، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "شَرُّ مَا فِي رَجُلٍ شُحٌّ هَالِعٌ وَجُبْنٌ خَالِعٌ" [8]. والبخل أحد صفتين لا يكونان في المؤمن، قال صلى الله عليه وسلم "خَصْلَتَانِ لا تَجْتَمِعَانِ فِي مُؤْمِنٍ: البُخْلُ، وسُوءِ

---

(1) البقرة، 219.

(2) الأعراف، 31.

(3) الإسراء، 29.

(4) آل عمران، 180.

(5) التغابن، 16.

(6) أخرجه الشيخان والنسائي/ ناصف، كتاب الزكاة، باب في المنفق والممسك، حديث رقم 1678.

(7) التوبة، 34-35.

(8) أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد، باب الجرأة والجبن، حديث رقم 2150.

الْخُلُقِ" [1]، والبخيل لا يدخل الجنة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ خَبٌّ ولا بَخِيلٌ ولا مَنَّانٌ" [2].

ويحذر الإسلام من فتنة المال، قال تعالى:(إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ) [3] والنهي عن الغرور به، قال تعالى: (وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ) [4]. والبخل لن ينفع صاحبه يوم القيامة، قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا) [5]، وأنه سيكون عبداً للمال، قال صلى الله عليه وسلم " تَعِسَ عبدُ الدينارِ والدرهم والقَطِيفةِ والخميصةِ إنْ أُعطى رضي وإن لم يُعطَ لم يَرْضَ "[6].

ويشير الإسلام إلى محدودية أجل ما يمتلكه المسلم في الدنيا، فلا حسرة ولا ندامة لمن ينفق، قال تعالى: (قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى) [7]، وقال سبحانه(قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ) [8]. وقال أيضاً(وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ) [9]. فإنفاق المال لا ينقصه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْداً بِعَفْوٍ إِلاَّ عِزًّا. وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلاَّ رَفَعَهُ اللَّهُ" [10].

ويشرع الإسلام تنظيم التملك المشروع كأحكام الميراث والصدقة والبيع والشراء وأعمال الكسب المشروع والهبات... ويجعل المال أمانة من الأمانات التي استخلف فيها الإنسان، فهو مسؤول عن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه.

---

(1) رواه الترمذي في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في البخيل، حديث رقم 1885.

(2) رواه الترمذي في كتاب البر والصلة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في البخيل، حديث رقم 1886.

(3) التغابن، 15.

(4) التوبة، 85.

(5) آل عمران، 10.

(6) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد وفي الرقاق/ النووي، باب ما يتبقى من فتنة المال، حديث رقم5955.

(7) النساء، 77.

(8) إبراهيم، 31.

(9) المنافقون، 10.

(10) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة/ النووي، باب استحباب العفو والتواضع، حديث رقم 4689.

ويرفض الإسلام أساليب التملك غير المشروعة كالربا والغش، فيحرم الربا، قال تعالى:(وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا) [1]، ويعدّه رسول الله صلى الله عليه وسلم من السبع الموبقات، قال " اجتنِبوا السَّبعَ الموبقات. قالوا: يا رسولَ اللهِ، وما هُنَّ ؟ قال: الشِّركُ باللهِ، والسِّحرُ، وقتْلُ النَّفسِ التي حَرَّمَ اللهُ إلاّ بالحقّ؛ وأكلُ الرِّبا، وأكلُ مالِ اليَتيم، والتَّولِّي يوم الزَّحفِ، وقذفُ المُحصناتِ المؤمناتِ الغافِلاتِ" [2]. وقال النبي صلى الله عليه وسلم "من غشّنا فليس منّا" [3]. وفي سنن الترمذي "من غشّ فليس منّا".

وعلى الرغم من أن الإسلام منح الإنسان حرية التصرف في المال، إلا أنه قيّد هذه الحرية بالمصلحة العامة؛ فمنع أكل مال الناس بالباطل، وحرّم أعمال الكسب غير المشروع كالاحتكار والتلاعب بالأسعار... كما قيّد إنفاق المال في الوجوه المشروعة.

ولمّا كان المال عصب الحياة، وأحد مقاصد الإسلام، شرع الإسلام الوسائل الكفيلة بالتحصيل الحلال له، فحث على العمل والسعي لكسب الرزق الحلال، وأباح المعاملات والمبادلات والتجارة والمضاربة، وسخر ما في الكون لتسهيل معاش الإنسان، قال تعالى: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ) [4]. وقرر الإسلام حق العمل لكل إنسان، وأوجب على الدولة توفير الفرص للعمال. ورفع من قيمة العمل وشأن العامل، ووضع من التشريعات ما يحفظ للعامل كرامته وما يحفظ حقوقه المادية والمعنوية. وقد قرر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أجر العامل يجب أن لا يقل عن مقدار ما يسدّ حاجته من الطعام والشراب والملبس والمسكن، وأن لا يكلف العامل فوق طاقته.

وشرع الإسلام الأحكام التي تضمن الحفاظ على المال وحمايته، فحرّم الغش والخيانة، وأكل أموال الناس بالباطل. كما منع الاعتداء على مال الغير بالسرقة أو الغصب، ورتب عقوبة زاجرة على المعتدي، وهي قطع اليد، وشرع الحد لقاطع الطريق، كما حرّم إتلاف مال الغير، وأوجب الضمان على من يتلفه. وشرع الإسلام حق الدفاع عن المال في حال اعتداء الآخرين عليه. ووضع الأحكام التي تكفل عدم تبريره في غير

(1) البقرة، 275.

(2) أخرجه الشيخان وأبو داود والنسائي واللفظ للترمذي/ ناصف، كتاب الوصايا، باب اجتناب أكل مال اليتيم، حديث رقم 3611.

(3) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب قول النبي من غشنا فليس منا، حديث رقم 146.

(4) الملك، 15.

المصلحة، إن كان صاحبه لا يحسن التصرف فيه، كأن يكون صغيراً لم يـؤنس منـه الرشـد، أو كان مجنوناً أو سفيهاً، أو حتى مريضاً مرض الموت[1].

وهكذا يمكن القول بأن الإسلام اتخذ كافة التدابير الوقائية للحفاظ على المال وتطهير النفوس من دوافع حب التملك والأنانية والجشع والشح والبخل، ليتحقق لها الفلاح، قال تعالى:(وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) [2]. وليسعد المجتمع بتكافل أبنائه حيث لا يبقى منهم فقير ولا محروم، وتضيق الفروق الاقتصادية بين أفراده، وتتحرر النفوس من الضغائن والحسد والبغض والانتقام والسرقة والجريمة.

- **الأساليب الوقائية من الانحرافات النفسية:**

يتنوع الأسلوب القرآني والأسلوب النبوي الشريف في الدعوة إلى الله وحث الناس على مكـارم الأخلاق بما يقيهم من كافة أشكال الانحرافات والاضطرابات الفكرية والوجدانية والسـلوكية. وفـيما يلي عرض لأبرز هذه الأساليب:

– القدوة الحسنة:

فالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم قدوة المسلمين؛ يتعلمون منه ما فيه صلاحهم في الدنيا والآخرة من عبادات ومعاملات ومكارم أخلاق، قال تعالى:(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآَخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) وتشير هذه الآية الكريمة إلى أهمية القدوة الحسنة في تنشئة المسلم التنشئة السليمة. فالقدوة الحسنة تقي المسلم من الوقوع في المعصية والانحراف عن النهج القويم، وتدفعه إلى الالتزام بأوامر الله والتحلي بمكارم الأخلاق. وقد تعلّم الصحابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم أداء العبادات، بملاحظة أدائه وتقليده، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "صَلُّوا كما رأيتموني أصلِّي" [3]. كما قال صلى الله عليه وسلم "خُذُوا عَني مَنَاسِكَكُمْ " [4].

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم أصحابه الإسلام ويطبـق أحكامـه ليقتـدوا بـه، وكان يطابق قوله فعله. يقول الجلندي ملك عُمان لمّا بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوه إلى الإسلام "والله لقد دلني على هذا النبي الأمي أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به، ولا ينهى عن

---

(1) انظر: محمد عقلة، الإسلام: مقاصده وخصائصه، ص 216-219.

(2) التغابن، 16.

(3) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب الأذان للمسافرين، حديث رقم 631، 135/2.

(4) رواه أحمد في مسند المكثرين، باب مسند جابر بن عبد الله، حديث رقم 13899.

شر إلا كان أول تارك له، وأنه يَغلب فلا يبطر، ويغُلب فلا يضجر، ويفي بالعهد وينجز الموعود، وأشهد أنه نبي" [1]. وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه بالاقتداء به وبالخلفاء الراشدين من بعده، قال صلى الله عليه وسلم "عَلَيْكُم بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاء الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذ" [2]. ويرى ابن تيمية أن "لزوم السنة يحفظ من شرّ النفس والشيطان" [3].

كما دعا سبحانه إلى الاقتداء بالأنبياء والرسل السابقين، قال تعالى: (أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ)[4]. فقد دعا إلى الاقتداء بسيدنا إبراهيم عليه السلام والذين معه في تبرئهم من قومهم المشركين، ورفضهم التقليد الأعمى لهم، قال تعالى: (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ) [5].

وكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم أهمية القدوة في غرس العقيدة في قوله صلى الله عليه وسلم "ما من مَولودٍ إلاَّ يولَدُ على الفِطرةِ، فأَبَواهُ يُهوِّدانه أو يُنَصِّرانهِ أو يُمجِّسانهِ" [6]. أي أن الطفل يولد على الفطرة السوية المستقيمة، فإذا ترك وشأنه دون وجود مؤثرات أسرية أو اجتماعية تخالف الفطرة التي ولد عليها، فإنه بلا شك سينقاد إلى توحيد الله سبحانه ويلتزم بأوامره ونواهيه. فالأبناء كالعجين بين يدي آبائهم ومربيهم يشكلونهم كيف يشاؤن. لذلك يحتم الإسلام على الآباء أن يكونوا قدوة صالحة لأبنائهم، وأن يغرسوا فيهم الإيمان، الذي يعدّ أساس صلاحهم في الدنيا والآخرة. وعليه، فإن القدوة الحسنة من الوالدين تقي الأبناء من انحراف العقيدة، وتنمي لديهم القيم الإسلامية، وتحثهم على مكارم الأخلاق.

ويحث الإسلام على توسيع دائرة القدوة لتشمل الأصدقاء. ويحرص الإسلام على اختيار الصديق الصالح لما له من أثر على صاحبه من حيث اكتساب الأخلاق والقيم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "مَثَلُ الجَليسِ الصالحِ والجليسِ السُّوءِ كمثَلِ صاحبِ المِسك وكِيرِ الحدّادِ: لا يَعدَمُكَ من صاحب المسكِ إمّا تَشتَرِيهِ أو تَجِدُ رِيحَه وكِيرُ الحدّادِ يَحرِقُ بدنكَ

(1) انظر: سعيد حوى، الرسول، ص 55-56.

(2) أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب في لزوم السنة، حديث رقم 3991.

(3) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج1، ص 568.

(4) الأنعام، 90.

(5) الممتحنة، 4.

(6) سبق تخريجه.

أو ثَوبَك أو تَجِدُ منه رِيحاً خبيثةً" [1]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "المرء عَلَى دِيـنِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ" [2] وقال أيضاً "لا تُصَاحِبْ إلاَّ مُؤْمِناً" [3]. وعليه، ينبغـي أن يصـادق الإنسان من يجانسه في حب نيل الفضائل ويضعه رقيباً عليه؛ يلاحظ أفعاله وأحواله، فإن كـره منـه شيئاً ينبهه عليها، ويحذّر من مصادقة أهل الشر الـذين يجـاهرون بركـوب الفاحشـة والسـعي وراء الملذات، ومن حضور مجالسهم والاستماع إلى أخبارهم.

- **الترغيب والترهيب:**

الترغيب والترهيب أسلوبان تربويان ينسجمان مع فطرة الإنسان عـلى الرغبـة في الحصـول على اللذة، ورهبة مما يؤدي إلى الألم. فالترغيب وعـد بلـذة أو متعـة آجلـة مقابـل عمـل صـالح، أو الامتناع عن عمـل سـيئ. والترهيـب وعيـد بعقوبـة تترتـب عـلى ارتكـاب ذنـب، أو التهـاون في أداء فريضة. وبذلك يتحقق التوازن النفسي للمسلم؛ فهو يعبد الله رغبة في جنته، ويجتنب ما نهـاه عنـه رهبة من جحيمه.

وقد رغّب الإسلام بالقيام بالأعمال الصالحة في سبيل مرضاة الله عز وجل، وأجزل لها الثواب في الآخرة، ورهّب من ارتكاب الذنوب خوفاً من عقاب الله سبحانه. ويزخر القرآن الكريم بآيات الترغيب والترهيب لغرس عقيدة التوحيد والعمل بمقتضاها. فاقترن الخوف من عذاب الله بالرجاء في رحمته وثوابه في الدنيا والآخرة، قال تعالى: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (9) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)[4]، وقال سبحانه:(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) [5]. وقال تعالى(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ) [6].

وتفتح أساليب الترغيب والترهيب أمام المسلم باب محاسبة النفس والاعتراف بارتكاب الذنوب والاستعداد للرجوع عن الخطأ بالاستغفار والتوبة النصوح وحسن الظن بالله، قال تعالى:(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب في العطار وبيع المسك، حديث رقم 1959.

(2) سبق تخريجه.

(3) سبق تخريجه.

(4) المائدة، 9-10.

(5) الزلزلة، 7-8.

(6) الرحمن، 46.

إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُالذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) [1]. وقال سبحانه: (وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا) [2]، وقال أيضاً(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا) (10)يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا(11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا)[3]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ، مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ، مَا قَنِطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ" [4].

– **ضرب الأمثال:**

يفيد ضرب الأمثال في عرض الماضي في صورة الحاضر لأخذ العبر دون الحاجة إلى المرور بالخبرة ذاتها. ففيه تذكير للغافل وزجر للمعاند. وهو أبلغ في الوعظ وأقوى في الإقناع والزجر، وأوقع في نفس المتلقي، لذلك ضرب الله الأمثال للناس حتى يعقلوها ويأخذوا الدروس والعبر، قال تعالى: (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ) [5]. وقد ضرب الله الأمثال في كتابه العزيز وجعلها من دلائل رسله، وأوضح الحجة على خلقه، لأنها مقبولة في القلب ومعقولة في العقل. فهي تجسد المعاني المجردة لتصويرها مادياً بحيث يسهل إدراكها.

ويرى الماوردي "أن للأمثال من الكلام موقعاً في الأسماع، وتأثيراً في القلوب. لا يكاد الكلام المرسل يبلغ مبلغها، ولا يؤثر تأثيرها، لأن المعاني بها لائحة، والشواهد بها واضحة، والنفوس بها عالقة، والقلوب بها واثقة، والعقول لها موافقة" [6]. ويستند الماوردي في رأيه هذا حول جدوى ضرب الأمثال في التذكير والزجر إلى قوله تعالى في كتابه العزيز: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (24) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (25) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ

---

(1) الزمر، 53.

(2) الفرقان، 71.

(3) نوح، 10-12.

(4) رواه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة/ النووي، باب في سعة رحمة الله وأنها سبقت غضبه، حديث رقم 4948.

(5) العنبكوت، 43.

(6) الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص 259.

مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ)[1]، وقوله تعالى في وصف المنافقين: (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا)أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ(17) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (18) أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (19)يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [2]، وقوله تعالى معرّضاً بأهل مكة:(وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ) [3]. فضرب الله المثل بالقرى التي طغت وكفرت نعمة الله فأخذها بالعذاب، بأن دثر ديارها فعادت خراباً لا أحد فيها. وفي ذلك إنذار للفرد والأمة، ووقاية من الطغيان وكفر النعمة.

وقد استخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمثال في تعليم الصحابة أمور دينهم وتقريب المعاني المجردة إلى أذهانهم بتثبيتها بصورة مادية محسوسة. ففي باب "فضل من استبرأ لدينه" قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "الحَلالُ بَيِّنٌ، وَالحَرامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهما مُشَبَّهاتٌ لا يَعْلَمُها كَثيرٌ منَ الناسِ. فمنِ اتَّقى المُشَبَّهاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِه وعِرْضِه، ومَنْ وَقَعَ في الشُّبُهاتِ: كراعٍ يَرْعَى حَوْلَ الحِمى يُوشِكُ أَنْ يُواقِعَه. ألا وإِنَّ لِكلِّ مَلكٍ حِمى، ألا إِنَّ حِمَى اللهِ في أرضِهِ مَحارِمُه. أَلا وإِنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً: إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسدُ كلُّه، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجسَدُ كله، أَلا وهِيَ الْقَلْبُ" [4]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "مَثَلُ المؤمنِ الذي يَقرأ القرآن كالأترُجةِ[5] طعمها طيب وريحها طيب، والمؤمن الذي لا يقرأ القرآن ويعمل به كالتمرة طعمها طيب ولا ريح لها. ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كالحنظلة طعمها مرّ أو خبيث وريحها مرّ" [6].

واستخدم أبو حنيفة – رحمه الله- الأمثال مع الملحدين لإثبات وجود الله، فقال لهم "ما تقولون في رجل يقول لكم" إني رأيت سفينة مشحونة بالأحمال مملوءة بالأثقال وقد احتواها في لجَّة البحر أمواج متلاطمة ورياح مختلفة، وهي تجري مستوية ليس لها ملاّح ولا متعهد يدفعها. هل يجوز ذلك في العقل؟ قالوا: هذا شيء لا يقبله العقل، فقال

(1) إبراهيم، 24-26.

(2) البقرة، 17-20.

(3) القصص، 58.

(4) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب من استبرأ لدينه، حديث رقم 50.

(5) نوع من الثمار.

(6) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب من راءى، بقراءة القرآن أو تآكل به أو فخر به، حديث رقم 4671.

أبو حنيفة: يا سبحان الله! إذا لم يجز في العقل سفينة تجري في البحر مستوية من غير متعهد ولا قبطان، فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها وسعة أطرافها من غير صانع ولا حافظ؟ فبكوا جميعاً وقالوا: صدقت" [1].

هذا وتستخدم الأمثال لغايات أخذ الدروس والعبر ذات العلاقة بتهذيب الأخلاق وتعديل السلوك، وتنمية الاتجاهات الإيجابية والقيم الإسلامية؛ بما ييسر عملية التكيف مع البيئة، ويقيها من الانحراف. وعليه، ينبغي مداومة تعلم القرآن الكريم، وتدبر آياته حتى يتحقق الانتفاع من الأمثال التي ذكرها سبحانه في كتابه العزيز.

- **الموعظة:**

يقصد بها النصيحة والتوجيه والإرشاد إلى الخير، بما يلين القلوب، ويقي النفوس من الجنوح، بأسلوب لين مؤثر بالنفس، مقنع للعقل، يوازن بين الثواب والعقاب، والخوف والرجاء، ويؤلف بين القلوب على محبة الله وخشيته، وينمي الشعور بالمسؤولية الجماعية.

ويرى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الدين هو النصيحة، قال صلى الله عليه وسلم "الدِّينُ النَّصِيحَةُ قُلْنَا: لِمَن يا رسول الله؟ قَالَ: لله ورَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ" [2]. فالنصيحة تقي المسلم من الوقوع في المهالك، لذلك كان سبحانه لا يهلك أحداً، ظالماً له، بل كان يهلكه بعد أن يقيم الحجة عليه؛ أي بعد أن يرسل الرسول مبشراً ومنذراً ، قال تعالى: (مَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آَيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ) [3].

وقد أشار القرآن الكريم إلى أهمية الموعظة في الدعوة إلى الله، قال سبحانه(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) [4]. وقد وعظ لقمان ابنه بتجنب الشرك، وبرّ الوالدين، وشكر الله، وإقامة الصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر...الخ. قال سبحانه على لسان لقمان: (وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (13) وَوَصَّيْنَا

---

(1) نقلاً عن الخوالدة وعيد، ص 57-58.

(2) يوسف القرضاوي، الحلال والحرام في الإسلام، ص211.

(3) القصص، 59.

(4) النحل، 125.

الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (14) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (15) يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (16) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)[1].

وفي ذلك دعوة لاستخدام الموعظة في زجر المشاعر وأداء العبادات، وتحذير من بأس الله سبحانه وتعالى، فضلاً عن العبر التي جعلها الله حجة على الناس.

وقد استخدم الرسول صلى الله عليه وسلم الموعظة لغرس أحكام العقيدة والأحكام الشرعية (الواجب والمباح والمكروه والحرام) وطريق الخير والشر في نفوس أصحابه رضوان الله عليهم، فعن العرباض بن سارية، قَال: وَعَظَنَا رسول الله صلى الله عليه وسلم مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فقَالَ قَائِلٌ يَا رَسُولَ الله كَأَنَّ هذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا فقَالَ أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى الله وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْداً حَبَشِيًّا فَإِنَّهُ مَنْ يَعِش مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافاً كَثِيراً، فَعَلَيْكُم بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاء الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكَلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ"[2].

وينبغي تكرار الموعظة لأن الاستعداد لتلقيها استعداد مؤقت في الغالب. كما ينبغي تدعيمها بالقدوة الصالحة، وتهيئة البيئة المناسبة التي تسمح بتقليد القدوة حتى تكون النصيحة أكثر وقعاً في النفس. ويجب اختيار الوقت الملائم للوعظ، وعدم الإثقال على من يتم وعظه، وانتهاز المناسبة في تقديم الموعظة، والتفاعل مع الموقف. فقد كان يعلو صوت الرسول صلى الله عليه وسلم ويشتد غضبه وتحمرّ عيناه عندما يكون الوعظ متعلقاً بالمسّ بالمحارم.

وتتنوع أساليب الموعظة في القرآن الكريم والحديث الشريف، بين الأمر والنهي، والترغيب والترهيب، والعرض والبيان، والسؤال والجواب. كما قد تتخذ شكل القصص القرآني، وضرب الأمثلة، والحوار. وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبدأ مواعظه بالقسم، أحياناً،

---

(1) لقمان، 13-17.

(2) رواه أبو داود والترمذي، كتاب السنة، باب في لزوم السنة، حديث رقم 3991.

لاستثارة انتباه المستمع لأهمية المقسم عليه، كما في قوله صلى الله عليه وسلم "وَالذِي نَفْس مُحَمَد بِيَدِهِ لَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا. وَلاَ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا"[1].

- **القصة:**

استخدم القرآن الكريم القصص لاستثارة النفوس بأسلوب عقلي وعاطفي مؤثر، لأخذ العبر والمواعظ التي تحملها في ثناياها، قال تعالى: (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) [2]. فقصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح، الواردة في سورة الكهف تثبت بصورة جلية أن وراء المكتشفات في العالم الكثير من المجهول. وأن ما يجهله الإنسان أكثر مما يعلمه، فلم يؤت من العلم إلا القليل. وأنه يبني أحكامه على ما يراه ويحسّ به، لذلك كثيراً ما يخطئ في أحكامه. ولو انكشف له المجهول لتغيرت أحكامه تلك فلا إحاطة له بهذا الكون الواسع.

وقد أفرد الله سبحانه في كتابه العزيز سورة كاملة أسماها سورة "القصص"، قصّ فيها سير الأنبياء والمرسلين وقصص الأمم السابقة، واستخدم في القصة أسلوب الترغيب والترهيب، وبيّن ثواب المؤمنين الذين يتمسكون بعقيدتهم. ويشغل القصص القرآني، حيزاً يصل إلى حوالي ربع القرآن الكريم. وفي ذلك إشارة إلى أهمية القصة في استثارة الدافعية والتشويق لمعرفة ما جرى من حوادث، وأخذ العبر والمواعظ التي تضمها بين جنباتها.

واستخدم القرآن الكريم القصة التاريخية الواقعية، وحدّدها بشخوصها وأماكنها وأحداثها، كقصة موسى مع فرعون، وقصة عيسى مع بني إسرائيل، وقصص الأمم السابقة التي كذبت الرسل؛ كقوم عاد وثمود وقوم لوط. كما استخدم القصة التمثيلية التي تعرض نموذجاً لحالة بشرية كقصة قابيل وهابيل، التي لا تمثل واقعة بعينها، بل يمكن أن تقع في أية لحظة، أو في أي عصر من العصور، كقصة صاحب الجنتين.

وتهدف القصة في القرآن الكريم إلى إبراز حقيقة وحدة الرسالات حول عبادة إله واحد، وتصور الصراع بين الحق والباطل، وتكشف زوال الباطل لا محالة. فتثبت العقيدة، وتربط على القلوب. فقد نصر الله أنبياءه عندما تمسكوا بالإسلام وثبتوا على

---

(1) سبق تخريجه.

(2) يوسف، 111.

العقيدة. فقد استجاب لدعاء زكريا، ونجى إبراهيم ويونس، وأنعم على داود بالنصر وسليمان بالملك. كما أنعم على رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم بالفتح.

وقد استخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم القصة لغرس عقيدة التوحيد، وحسن المعاملة والتحلي بمكارم الأخلاق. وبذا تشترك القصة النبوية مع القصة القرآنية في أهدافها. فهي تزخر ببيان ثواب المؤمنين الذين يلتزمون بالعقيدة. والأمثلة كثيرة في هذا المجال، ومنها قصة الثلاثة الذين أواهم المبيت إلى الغار، فسدّت عليهم الصخرة، فنجاهم الله بصالح أعمالهم. كما استخدم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم القصة في الدعوة إلى التوحيد، وغرس مكارم الأخلاق، فكانوا يقصّون أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبار الأمم السابقة، وكانت قصصهم تضم في ثناياها العبر والمواعظ.

- **الحـوار:**

الحوار شكل من أشكال المناظرة، وهو حديث يجري بين شخصين أو أكثر، يتم فيه تبادل الأفكار ووجهات النظر حول موضوع ما. وغالباً ما يبدأ الحوار بطرح مشكلات أو سؤال لاستثارة التفكير. وقد يصل المتحاورون إلى نتيجة، وقد يقنع كل منهم الآخر، غير أن المستمع يأخذ العبرة ويكّون له موقفاً إزاء القضية المطروحة. والحوار يخاطب العقل، كما يستثير العاطفة.

وقد ورد الحوار في القرآن الكريم في غير موضع، ومن أمثلته الحوار الذي جرى بين أهل النار وهم يساقون إلى جهنم زمراً حتى إذ جاؤها فتحت أبوابها فقال لهم خزنتها: ألم يأتكم نذير؟ تأنيباً لهم وتقريعاً على كفرهم بآيات الله ورسله واليوم الآخر، فيعترفون بعد أن رأوا جهنم مثوى لهم، قال سبحانه: (وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْهَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (71) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ) [1]. وهكذا يلاحظ أن أسلوب الحوار يضفي على الموقف حيوية وواقعية، تكشف العبرة لأولي الألباب.

والحوار أسلوب الأنبياء في الدعوة إلى الله، وتوجيه الناس إلى ما فيه صلاحهم ووقايتهم من الانحراف والوقوع في المشكلات. ومن أمثلة ذلك الحوار المتعلق بقضية

(1) الزمر، 17-72.

الغلام الأسود. فقد جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: يا رسول الله إن امرأتي ولدت غلاماً أسود، فقال "هل لك من إبل؟ فقال: نعم، قال: ما ألوانها؟ قال: حمر، قال: هل فيها من أورق؟ قال: نعم، قال: فأنّى كان ذلك؟ قال: أراه عرق نزعه، فقال: فلعل ابنك نزعه عرق" [1]. وفي هذا الحديث الشريف يشك الرجل في أبوته للطفل ويتهم زوجته، فيحاوره الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم حول امتلاكه للإبل وألوانه، وهل تشترك جميعاً في اللون، إلى أن ينتهي به المطاف، وينتزع منه تفسير وجود أحد إبله بلون مخالف لبقية الإبل، فيقول الرجل: لعله نزعه عرق، فيأتي جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم – الذي أكدّ فيه نسب الطفل ونفى فيه الشك عن الزوجة، حاسماً، عندما قال له "لعل ابنك نزعه عرق". وهكذا فقد انتهى الحوار بإقرار الرجل الذي يشكّ في أبوّة الطفل بأنه (أي الطفل) ورث اللون الأسود من أجداده، وأنه ابنه حقاً.

وقد استخدم رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم أسلوب الحوار لوقاية الفتى الشاب من ارتكاب جريمة الزنا، بإقناعه بفحشها وقبحها وتوعيته بعواقبها. فعن أبي أمامة قال: إن فتى شاباً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا. فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مَهْ مَهْ، فقال: أدنه، فدنا منه قريباً، قال: فجلس. قال: أتحبه لأمك؟ قال: لا، والله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم. قال: أفتحبه لابنتك؟ قال: لا، والله يا رسول الله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم. قال: أفتحبه لأختك؟ قال: لا، والله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم. قال: أفتحبه لعمتك؟ قال: لا، والله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم. قال: أفتحبه لخالتك؟ قال: ولا، والله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم. قال: فوضع يده عليه وقال: اللّهم اغفر ذنبه، وطهِّر قلبه، وحصِّن فرجه" [2].

كما أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حوار ابن آدم مع الله سبحانه في أداء الفضائل وقاية له من الانحراف، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي. قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلاَناً مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ. أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي. قَالَ: يَا رَبِّ وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ؟ وَأَنْتَ

(1) رواه البخاري في الصحيح، كتاب الحدود، باب ما جاء في التعريض، حديث رقم 6341.

(2) رواه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث أبي أمامة الباهلي، حديث رقم 22185، وقال أحمد شاكر في مسند الإمام أحمد، حديث رقم 22112، إسناده صحيح.

رَبُّ الْعَالَمِينَ. قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذلِكَ عِنْدِي؟ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي. قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ. أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذلِكَ عِنْدِي"[1].

هذا وقد حث الإسلام على دوام الحوار الداخلي وطرح الأسئلة والتفكّر في النفس الإنسانية وفي الكون وعلاقاتها، لإدراك عظمة الخالق. والتفكر – أي الحوار الداخلي- يحرّر الشخصية من قيود المفاهيم السائدة، ويجعلها في مراجعة دائمة لها لتعديلها. وقد أعلى سبحانه من شأن التفكر وأهله، لأن فيه إدراك الحقيقة ووقاية من العذاب، قال تعالى:(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) [2].

وهكذا يمكن القول بتعدد الأبواب التي تؤدي إلى القلق والتوتر والانحراف الفكري والعاطفي والسلوكي، والتي تجعل الإنسان في حيرة وعدم استقرار وخوف ورعب دائم، إلا أن الإيمان وصلاح العقيدة كفيل بإغلاق هذه الأبواب. وقد تعددت الأساليب القرآنية والنبوية الشريفة بين القصة والحوار وضرب الأمثال والترغيب والترهيب وغيرها، لغرس الإيمان في النفوس، وتصحيح الأفكار والمعتقدات الخاطئة، وتهذيب المشاعر، وتعديل السلوك. كل ذلك حماية للشخصية من الانحراف.

(1) رواه مسلم في الصحيح، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل عيادة المريض، حديث رقم 4661.

(2) آل عمران، 190-191.

خلاصة

يستند المنهج الوقائي من الانحرافات النفسية في الإسلام، إلى باب سدّ الذرائع. ويشمل حفظ الأصول الخمسة التي تمثل مقاصد الشرع من الخلق وهي: الدين والعقل والنفس والنسل والمال. وللوقاية في مجال الدين حذر الإسلام من الشرك ومن الغلو في الدين، وحرّم الابتداع... كل ذلك وقاية للنفس من الانحراف عن النهج القويم. وحدّد الإسلام تصوره عن الإنسان والحياة والموت والكون ونظم علاقة الإنسان بخالقه وبنفسه وبالآخرين وبالكون. ودعا إلى الإيمان اليقيني والتزام الذكر والصبر، وتجسيد الإيمان عملياً بممارسة العبادات من صلاة وصوم وزكاة وحج.

وفي مجال العقل، حض الإسلام على إعماله، ومنحه حرية التفكير بمظهريها الداخلي والخارجي، ولم يقيده بالزمان أو المكان أو الموضوع، وفتح باب الاجتهاد ومنع التضليل وبث الأفكار المنحرفة، وأمر بعدم الغلو في الاعتماد على العقل. ونهى الإسلام عن تعطيل العقل بالتقليد الأعمى. وحرّم كل ما يلحق به من ضرر أو يضعف قوته؛ فحرّم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام.

وفي مجال النسل، حث الإسلام على الزواج ورغّب فيه ويسّره، وحثّ على الزواج المبكر وحرّم الزنا، ودعا إلى الصوم في حال عدم الاستطاعة، وحض على اختيار الزوج والزوجة الصالحين، وأكّد رضا الزوجين، وحدّد حقوق كل منهما وواجباته، وأباح تعدد الزوجات، وأحاط علاقة الذكر والأنثى بجملة آداب تكفل لها الطهر والنقاء. وسداً للذرائع، حرّم الإسلام إظهار زينة المرأة والتبرج والخلوة والاختلاط ومنع سفرها بغير محرم، وقرر حماية البيوت والمخادع دون استئذان، وحرّم الاعتداء على الأعراض بإثارة الشائعات، وحدد عقوبة القاذف، وضيّق فرص الطلاق.

وفي مجال النفس، منح الإسلام الإنسان العقل والإرادة وحرية الاختيار، وحرص على تلبية حاجاته الأساسية، وقدّم مصلحة النفس على مصلحة الدين، وأوجب توفير الأمن لها واحترام إنسانيتها؛ صغيرة وكبيرة وفي طور الجنين. وعدّ الاعتداء عليها جريمة بحق البشرية جمعاء، وأوجب القصاص والديّة والكفارة على من يعتدي عليها بالقتل. ومنع الاعتداء على الذات بقطع بعض الأعضاء دون مبرر شرعي. وحث على الاشتغال بعيوب النفس عن عيوب الناس.

وفي مجال المال، حذر الإسلام من فتنة المال، واتخذ التدابير الكافية لوقاية النفس من الشح وكنز المال، وحرّم التبذير، وقيّد حرية التصرف في المال بالمصلحة العامة. كما قيّد إنفاق المال في الوجوه المشروعة، وحث على العمل، وأباح المعاملات والمبادلات والتجارة والمضاربة، فيما حرّم الغش والخيانة وأكل أموال الناس بالباطل. ومنع الاعتداء على مال الغير بالسرقة، ورتب عقوبة زاجرة على المعتدين وشرع الحدّ لقاطع الطريق.

ويتنوع الأسلوب القرآني والنبوي الشريف في وقاية النفس من الانحراف بين: القدوة الحسنة، والترغيب والترهيب وضرب الأمثال والموعظة والقصة والحوار لغايات غرس الإيمان في النفوس وتصحيح الفكر والمعتقد وتعديل السلوك حماية للشخصية من الانحراف.

الفصل السابع

المنهج العلاجي للأمراض النفسية

- مقدمة
- مفهوم المرض النفسي وخطورته
- تصنيف الأمراض النفسية
- أسباب الأمراض النفسية
- العلاج النفسي : مفهومه وأهدافه
- خصائص العلاج النفسي في الإسلام
- أساليب العلاج النفسي في الإسلام
- بعض الأمراض النفسية وعلاجها من منظور إسلامي




الفصل السابع

المنهج العلاجي للأمراض النفسية

مقدمة

يتعرض الإنسان في مختلف مراحل حياته إلى أشكال من الضغوط النفسية، تتفاوت في الشدة، جرّاء ما يمر به من أحداث ضاغطة، وما يتعرض لها من إحباطات وصراعات نفسية، وما يحيط به من ظروف، مما قد يفضي به إلى الإصابة بالأمراض النفسية. ويتم التعرّف إلى الأمراض النفسية من خلال الأعراض المرضية المتعددة، التي منها ما يقع ضمن حيز الشعور الداخلي للمريض النفسي، ومنا ما يظهر على شكل اضطراب في واحد أو أكثر من أجهزة الجسم. ومنها ما ينعكس على سلوك الفرد، ومنها ما ينعكس على علاقاته مع الآخرين. وتشير هذه الأعراض المرضية، في مجموعها، إلى حال من عدم الاستقرار الداخلي للمريض وحاجته إلى استعادة حالة الاستقرار.

ويعاني المريض النفسي من تشوه في إدراك ذاته وإدراك الآخرين. وينعكس هذا الإدراك المشوه على سلوك المريض، فيبدو شاذاً أو منحرفاً من وجهة نظر الآخرين. ويشعر المريض بالتعاسة، ويكون تقديره لذاته متدن، جرّاء ما يعانيه من قلق ناشئ عن حال الصراع التي يعيشها، الأمر الذي يفضي إلى تدني مستوى أدائه العام، وضعف قدرته على التكيف مع البيئة.

هذا وسيتم، في هذا الفصل، توضيح مفهوم المرض النفسي وتحديد خطورته، وتصنيفات الأمراض النفسية وأسبابها، بعدها سيتم الحديث عن مفهوم العلاج النفسي وأهدافه وخصائصه وأساليبه. كما سيتم توضيح مفهوم بعض الأمراض النفسية وطرق علاجها من منظور إسلامي.

- **مفهوم المرض النفسي وخطورته:**

ذكر الله سبحانه مرض القلوب في مواقع عديدة من كتابه العزيز، قال تعالى:(فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا)[1]، وقال تعالى(فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ) [2]. وقد تعددت تعريفات مرض القلوب؛ فيعرفه النراقي في كتابه

(1) البقرة، 10.

(2) المائدة 52.

"جامع السعادات" بأنه "انحراف بالزيادة أو النقصان عن الاعتدال". أو هو "انحراف في إحدى أو بعض قوى النفس كالغضب والشهوة". وهذا التعريف لمرض القلب يقابل ما يقصد به بالمرض النفسي في المفهوم المعاصر. كما يعرفه ابن مسكويه في كتابه "تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق" بأنه البعد عن الاعتدال والوسطية إلى الأطراف (أي الرذائل)[1].

أما ابن تيمية فقد خصص فصلاً في المجلد العاشر لمجموع الفتاوى، للحديث عن أمراض القلوب وشفائها. ومرض القلب عنده "نوع فساد يحصل له يفسد به تصوره وإرادته، فتصوره بالشبهات التي تعرض له حتى لا يرى الحق، أو يراه على خلاف ما هو عليه، وإرادته بحيث يبغض الحق النافع ويحب الباطل الضار. فلهذا يفسر المرض تارة بالشك والريب، كما في قوله تعالى: (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) أي شك، وتارة يفسر بشهوة الزنا كما في قوله سبحانه (فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ) [2]. وهذا هو الفهم المعاصر للمرض النفسي.

ويذهب ابن القيم إلى ما ذهب إليه ابن تيمية، فيعرّف مرض القلب في كتابه "إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان " بأنه" فساد يحصل للقلب يفسد به تصوره للحق وإرادته له، فلا يرى الحق حقاً، أو يراه على خلاف ما هو عليه، أو ينقص إدراكه له، فيبغض الحق النافع بالشك والريب (مرض الشبهة)، أو يحب الباطل الضار بشهوة الزنا (مرض الشهوة)، أو يجتمعان له، وهو الغالب" [3].

وهكذا يمكن القول بأن المرض النفسي عبارة عن اضطراب وظيفي في الشخصية يؤدي إلى تشوه في الإدراك قد يصل إلى حدّ الانفصال عن الواقع والعيش في عالم الخيال. ويؤدي تشوه الإدراك إلى فساد في الإرادة وانحراف في المشاعر يعيق التوافق النفسي للشخص ويعوقه عن ممارسة حياته في المجتمع بشكل طبيعي. وقد يعزى اضطراب الشخصية إلى إنحراف إحدى أو بعض قوى النفس عن السواء نحو الرذائل.

ويؤكد ابن حزم خطورة الأمراض النفسية، وأهمية علاجها بقوله "ولا شك أن صلاح النفس ومداواتها عن فسادها أنفع من مداواة الجسد وإصلاحه، لأن مداواة

(1) انظر: العاني، الشخصية الإنسانية في التراث الإسلامي، مرجع سابق.

(2) انظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج10، ص 93-95.

(3) ابن القيم، إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، ص 16.

الجسد تابعة لمداواة النفس، إذ في مداواة النفس إيجاب ألا يدخل الإنسان على جسده ما يؤلمه من مرض، فيقطع من مصالحه ما عمّ إصلاح النفس والجسد من معاصٍ، أفضل وأولى بالاهتبال به مما خصّ إصلاح الجسد فقط" [1].

ويؤكد ابن تيمية خطورة مرض القلب (مقارنة بمرض البدن) بقوله "وحياة القلب ومرضه وشفاؤه أعظم من حياة البدن وموته ومرضه وشفائه". ويضيف و"لذة القلب وألمه أعظم من لذة الجسم وألمه، أعني ألمه ولذته النفسانيتان، وإن كان قد يحصل فيه من الألم من جنس ما يحصل في سائر البدن بسبب مرض الجسم فذلك شيء آخر، فلذلك كان مرض القلب وشفاؤه أعظم من مرض الجسم وشفائه. فكما أن الإنسان إذا صار لا يسمع بأذنه ولا يبصر بعينه ولا ينطق بلسانه كان ذلك مرضاً مؤلماً له، يفوته من المصالح ويحصل له من المضار، فكذلك إذا لم يسمع ولم يبصر ولم يعلم بقلبه الحق من الباطل ولم يميز بين الخير والشر، والغي والرشاد، كان ذلك من أعظم أمراض قلبه وألمه... " [2].

ويشبه ابن تيمية مرض القلب، أي الألم الذي يحصل في القلب، بالغيظ من عدو استولى على الإنسان، فإن ذلك يؤلم القلب، ويستشهد بقوله سبحانه:(وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (14) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ)فشفاؤهم يكون بزوال ما حصل في قلوبهم من الألم. فهذا شفاء من الغم والغيظ والحزن، وكل هذه الآلام تحصل في النفس، وكذلك "الشك والجهل" يؤلم القلب، قال النبي صلى الله عليه وسلم (ألا سَألُوا إذْ لَمْ يَعْلَمُوا فإنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ). والشاكّ في الشيء المرتاب فيه يتألم قلبه حتى يحصل له العلم واليقين. ويقال للعالم الذي أجاب بما يبين الحق: قد شفاني بالجواب، والمرض دون الموت. فالقلب يموت بالجهل المطلق ويمرض بنوع من الجهل، فله موت ومرض... وإذا ورد على القلب المريض شبهة أو شهوة قوّت مرضه، وإن حصلت له حكمة وموعظة كانت من أسباب صلاحه وشفائه، قال تعالى:(لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ)لأن ذلك أورث شبهة عندهم. فأولئك قلوبهم ضعيفة بالمرض. فصار ما ألقى الشيطان فتنة لهم" [3].

---

(1) ابن حزم، الفصل في الملل والنحل، ج4، ص 134.

(2) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج10، ص 140-141.

(3) المرجع السابق، ص 93-95.

ومن الجدير بالذكر أن خطورة الأمراض النفسية نابعة من كونها تصيب بنية الشخصية وتؤثر في تكامل عناصرها الباطنية والظاهرية (القلب والجسد) ووحدتها. فأمراض القلب تؤثر في الجسد، وأمراض الجسد تؤثر في القلب. وفي ذلك يقول ابن القيم "كما أن القلب يتألم به البدن، ويشفى بما يشفى به البدن، فكذلك البدن يتألم بما يتألم به القلب، ويشفيه كما يشفيه، وأمراض القلوب التي تزول بالأدوية الطبيعية من جنس أمراض البدن"[1].

ويشير ابن مسكويه إلى العلاقة بين الاضطرابات النفسية والأمراض الجسمية (التي تسمى بالأمراض السيكوسوماتية في المفهوم المعاصر). فهو يرى أن النفس تتأثر بأمراض البدن وأن البدن يتأثر بأمراض النفس، وفي ذلك يقول "وجب أن نعلم أن أحدهما متعلق بصاحبه متغير بتغيره، فيصحّ بصحته ويمرض بمرضه. ونحن نرى ذلك مشاهدة وعياناً إن كان سبب مرضه الدماغ، والقلب يتغير عقله ويمرض حتى ينكر ذهنه وفكره وتخيله وسائر قوى نفسه، ويحس هو من نفسه بذلك. كذلك نرى المريض من جهة نفسه، إما بالغضب وإما بالحزن، وإما بالعشق... تتغير صورة بدنه حتى يضطرب ويرتعد ويصفّر ويحمّر، ويهزل ويسمن، ويلحقه ضروب التغير المشاهدة بالحس"[2]. ويؤيده في ذلك ابن سينا الذي يرى أن "مرض القلب والضجر يتسببان في أمراض جسمية كثيرة، أشدها القرحة وارتفاع ضغط الدم المؤهل لمرض السكر، فالجسد موصول بالنفس[3].

كما يؤكد الرازي أثر العامل النفسي في أمراض الجسد. فهو يعدّه المدخل الحقيقي لعلاج الأمراض العضوية. ففي كتابه "الطب الروحاني" الذي اعتنى به المستشرق "بول كراوس"، يؤكد الرازي أن على الطبيب أن يوهم مريضه الصحة ويرجيّه بها، وإن لم يثق بذلك، فمزاج الجسم تابع لأخلاق النفس.

- **تصنيف الأمراض النفسية:**

يتعدد تصنيف الأمراض النفسية في الفكر الإسلامي، فيرى ابن القيم، مثلاً، أن أمراض القلوب نوعان: نوع لا يتألم به صاحبه في الحال كالجهل، ومرض الشبهات والشكوك ومرض الشهوات، ومرض الشبهات أشد ألماً، ولكن لفساد القلب لا يحس

(1) ابن القيم، إغاثة اللهفان، ص 18.

(2) ابن مسكويه، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، ص 179.

(3) انظر: العاني، مرجع سابق، ص 155.

صاحبه بالألم، ولأن سكرة الجهل والهوى تحول بينه وبين إدراك الألم، وعلاجه إلى الرسل وأتباعهم، فهم أطباء هذا المرض. والنوع الثاني مرض مؤلم له في الحال كالهم والغم والحزن والغيظ. وهذا النوع يمكن مداواته بأدوية طبيعية لإزالة أسبابه بما يضاد تلك الأسباب وما يدفع موجبها مع قيامها. فالغيظ يؤلم القلب، ودواؤه في شفاء غيظه، فإن شفاه بحق اشتفى، وإن شفاه بظلم وباطل زاده مرضاً" [1].

فيما يرى النراقي[2] في كتابه "جامع السعادات" أمراض النفس في أربعة أنواع هي:

1. **الأمراض المتعلقة بالقوى العاقلة:** ومن أمثلتها الجهل البسيط والمركب والوساوس والحيرة والشك والجربزة...الخ.
2. **الأمراض المتعلقة بالقوى الشهوية:** ومن أمثلتها: الشره والبخل والخيانة وحب المال والزنا وشرب الخمر...الخ.
3. **الأمراض المتعلقة بالقوى الغضبية:** ومن أمثلتها: التهور والكبر والغرور، والمخاوف المرضية والحقد والغضب والعدوان والذل...الخ.
4. **الأمراض المتعلقة بمركب القوى الثلاث (العاقلة والشهوية والغاضبة) أو بمركب قوتين منها:** ومن أمثلتها: الحسد والنميمة والظلم والمداهنة والفساد بين الناس والغيبة وحب الحياة والنفاق والكذب والشماتة...الخ.

ويورد معروف زريق[3] في كتابه "علم النفس الإسلامي" التصنيف التالي للأمراض النفسية:

1. **أمراض ناشئة عن اضطرابات نفسية**، ومن أمثلتها: الوساوس، والظن والشك والريب، والتشاؤم، والشعور بالضيق، والمخاوف، والحزن والغم، والحقد، واليأس.
2. **أمراض ناشئة عن تطرف حب الذات**، ومن أمثلتها: التبجح والإدعاء، والتكبر، والأنانية، والغرور، والبطر، والشعور بالنقص.
3. **أمراض ناشئة عن تطرف حب الاستطلاع**، ومن أمثلتها: النميمة، والغيبة، والتجسس، والكذب.
4. **أمراض ناشئة عن الخبث**، ومن أمثلتها: الحسد، والمكر، والشماتة.

---

(1) المرجع السابق، ص 189.

(2) المرجع السابق، ص 174.

(3) معروف زريق، علم النفس الإسلامي، ص 145-153.

5. **أمراض ناشئة عن التطرف في حب الآخرين**، ومن أمثلتها: النفاق، والرياء، والغيرة.
6. **أمراض ناشئة عن تطرف العلاقة بالجن**، ومن أمثلتها: المس.

هذا ويمكن تصنيف الأمراض النفسية، في ضوء مصدرها في فئتين هما: أمراض ظاهرية، أو ما يسمى في الإسلام "ظاهر الإثم" من مثل: الوساوس القهرية والاكتئاب والمخاوف المرضية والعدوان... وأمراض باطنية، أو ما يسمى في الإسلام "باطن الإثم" من مثل: الغضب والكبر والنميمة والحقد والحسد والجهل... وتعدّ هذه الأمراض من مصادر التوتر والقلق، وتوهن الصحة النفسية، وهي محرّمة، قال تعالى(وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ)هذا ويتم التعرّف على الأمراض الباطنية من خلال الأعراض الظاهرية لها.

- **أسباب الأمراض النفسية:**

يتحدث ابن القيم في كتابه "الجواب الكافي" عن الفتن والذنوب كأسباب لأمراض القلوب. وفي ذلك يقول "وكذلك النفس فإنها تخبث بالشهوات والمعاصي وتضعف، أعني النفس المطمئنة، وإن كانت الأمارة تقوى وتتأسد. وكلما قويت هذه ضعفت تلك"[1]. ويستند في ذلك إلى حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه. فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (تعرض الفتن على القلوب عرض الحصير، فأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، وأي قلب أُشْرِبها نكتت فيه نكتة سوداء، حتى يصير القلب على قلبين، أبيض مثل الصفا لا يضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مرباداً (أي غلب عليه السواد) كالكوز مجخياً (أي منكوساً) لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أُشْرِبَ من هواه)[2]. فالذنوب والفتن تزرع أمثالها وتضعف القلب وتهين العبد وتذهب الحياء وتعمي البصيرة وتفتح باب الهم والشؤم والذل وفساد العقل والفساد في الأرض، الأمر الذي يفضي إلى هلاك صاحبها في الدنيا والآخرة.

وقد ألف ابن القيم كتاباً أسماه "إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان"، وفصّل فيه حول خطورة الشيطان، ويعدّه أكثر خطورة من النفس الأمارة بالسوء، لذلك كثر ذكره والدعوة إلى الاستعاذة منه في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

---

(1) ابن القيم، الجواب الكافي، ص 136.

(2) سبق تخريجه.

أما ابن مسكويه فيصنف أسباب الأمراض النفسية في مجموعتين: أسباب جسمية مصدرها المزاج والحواس، وتنتج عن البعد عن الاعتدال في المزاج، أو خلل في عمل الحواس، وأسباب نفسية مصدرها الذات، وتنتج عن التفكير في الأمور الرديئة التي تفضي إلى الخوف من الأمور العارضة والمرتقبة[1].

وتتعدد أسباب الأمراض النفسية بتعدد الأمراض نفسها. فقد يعود الشعور بالقلق والضيق إلى أسباب من مثل: الصراع بين الدوافع، أو الفشل في إشباع الدوافع، أو الهروب من الواقع، أو التواكل، أو كثرة الشكوى والضجر لمسائل عارضة أو تافهة، أو الإدراك المشوه، أو حب المديح...الخ، فيما قد يعود اليأس إلى أسباب منها: زوال النعمة أو الرحمة أو الإصابة بالشر. وقد ينشأ الكبر من غرور العلم... وهكذا.

ويمكن القول بأن عجز الشخصية عن التعامل مع ما يحلّ بها من نوازل أو مكروهات يؤدي بها إلى المرض النفسي، والمكروهات ثلاثة: الحزن (الذي يكون من أمر ماض) والغم الذي يكون من أمر حاضر) والهمّ (الذي يكون من أمر مستقبلي). وقد كان رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم يعوذ بالله من الهم والحزن. أما عجز الشخصية عن استقبال ما ينزل بها من مصائب فيكون لسببين: الجهل والبعد عن الدين. فالجاهل لا يعرف حقيقة وجوده، ولا وظيفته في الحياة، ولا الغاية من خلقه، ولا يعرف حقيقة الحياة والابتلاء والموت. كما يعجز عن التعامل مع المصائب، فييأس بسرعة، ويتعرض لأشكال القلق والحزن والهم... والإسلام لا يعذر الجاهل، بل يأمره بسؤال أهل الذكر، قال تعالى(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)[2]. وقد جاءت رسالة الإسلام حرباً على الجهل، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلاَّ ذِكْرُ الله وَمَا وَالاَهُ وَعَالِمٌ أَو مُتَعَلِّمٌ"[3]. كما بدأت رسالة الإسلام بالعلم، قال سبحانه: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)[4]. أما البعد عن الدين فشقاء لصاحبه لأنه يظلم نفسه باتباع الهوى. فإذا نزل به البلاء عجز عن الصبر ويئس ودعا بالويل، وإذا أصابته النعماء تمتع بها دون أن يشكر المنعم.

---

(1) العاني، مرجع سابق، ص 155-156.

(2) النحل، 43.

(3) رواه الترمذي، حديث رقم 20359، ج6، ص 588.

(4) العلق 1.

هذا ومن الجدير بالذكر أن للتنشئة الأسرية دوراً هاماً في توليد الأمراض النفسية للأبناء، كما أن لها دوراً في وقايتهم منها. فكل مولود يولد على الفطرة السوية المستقيمة، فأبواه قد يحرفانه عنها، فيهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، فالتربية هي صمام الأمان، والوسيلة الهامة في تقويم الشخصية؛ فهي التي تنمي الضوابط وتربي الدوافع، وهي الكفيلة بتوجيهها الوجهة الصحيحة.

- **العلاج النفسي: مفهومه وأهدافه:**

نزل القرآن الكريم ليهدي الناس إلى عقيدة التوحيد، ويحررهم من الجهل والضلال والأخلاق الرذيلة، ويعلمهم أنماطاً جديدة في التفكير وفي إدراك الذات والآخرين، وفي النظر إلى الكون... كما يعلمهم القيم الإنسانية النبيلة، والسلوكات المرغوبة، ويعدّل سلوكاتهم غير المرغوبة، ليحيوا حياة كريمة آمنة تخلو من الأمراض النفسية، وبما يحقق لهم السعادة في الدنيا والآخرة. وقد ذكر سبحانه شفاء القلوب في كتابه العزيز، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ) [1]. وقال سبحانه: (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ)[2]، وقال أيضاً: (وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (14) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ) [3].

ويغدو طلب العلاج ملزماً والسعي إليه واجب. وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتداوي، قال صلى الله عليه وسلم " تَدَاوَوْا عِبادَ الله، فَإِنَ الذَي أَنْزَلَ الدَّاءَ أَنْزَلَ لَهُ الدَّوَاءَ" وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "مَا أَنْزَلَ الله دَاء إلا وَلَهُ دَواء عَرَفَهُ مَنْ عَرَفَه، وَجَهَلَهُ مَنْ جَهَلَهُ"، وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عَنْ الدَاء وَالرُقِي هَلْ يَردانِ شَيْئاً مِنْ قَضَاءَ الله تَعَالَى، قال: هما مِنْ قَدَر الله تَعَالَى" [4].

ويهدف العلاج النفسي في الإسلام إلى تنمية وعي المريض واستبصاره وفهمه لذاته فهماً صحيحاً عن طريق تعديل الإدراك المشوه له عن نفسه وعن الآخرين وعن الحياة والموت، والمشكلات التي واجهها وكانت سبباً في مرضه، وذلك بغية تمكينه من مواجهة تلك المشكلات بكفاءة واقتدار. ومما لا شك فيه أن تعديل الأفكار والمعتقدات لا يكفي

(1) يونس، 75.

(2) الإسراء، 82.

(3) التوبة، 14- 15.

(4) انظر الإبشيهي، المستطرف كل فن مستظرف، ص 782.

وحده للعلاج النفسي، بل لابد من تعريض المـريض إلى خبرات جديدة تمكنه مـن تطبيـق أفكاره الجديدة عن نفسه، وعن الآخرين وعن الحياة والمـوت، حتـى يـدرك بنفسـه مـا حققـه مـن تقدم ملموس في علاقاته مع نفسه ومع الآخرين. وفي علاقات الآخرين معه، وفي علاقاته مـع خالقـه بأن ترجم الإيمان بالعبادات والصبر ومجاهدة النفس والتوبة... وبعد أن يتحرر المريض من صراعاته وأزماته، يغدو أكثر قبولاً لذاته ورضا عنها، كما يصبح أكثر قدرة على التكيف مع البيئة التي يعيشـها وأكثر أمناً وطمأنينة.

وهكذا يمكن القول بأن العلاج النفسي في الإسلام نشاط مـنظم مخطـط لـه مسـبقاً لإحـداث تعديل في معتقدات الفرد ومشاعره وسلوكه، وبالتالي شخصيته، ليصـبح قـادراً عـلى أداء وظيفتـه في الحياة، وتحقيق الغاية من وجوده، وبالتالي تصبح حياته أكثر سعادة وطمأنينة.

- **خصائص العلاج النفسي في الإسلام:**

يتسم العلاج النفسي في الإسلام بعدد من الخصائص[1]، لعل أبرزها التالية:

1. **إنـه عـلاج إيمـاني** يرسـخ دعـائم الإيمـان في نفـس المـريض فيجعلـه يشـعر بـالأمن والطمأنينـة والسكينة والزهد في متاع الدنيا، والقناعة والرضا بقضاء الله وقدره.
2. **إنه علاج اجتماعي** يدعو المريض إلى الامتثال بقيم المجتمع ومبادئه ومثلـه والأعـراف السـائدة فيه، وبذا يصبح المريض أكثر قدرة على التكيف الاجتماعي.
3. **إنه علاج معرفي** يعمل على تعديل إدراك المـريض لذاتـه وللآخـرين، وينمـي وعيـه واستبصـاره لذاته، ويعدّل صورته ومعتقداته حول الكون والحياة والموت.
4. **إنه علاج سلوكي** يهـدف إلى تعـديل سـلوك المـريض لتصـبح أعمالـه صـالحة، فيـؤدي الفـرائض ويتجنب المعاصي.
5. **إنه علاج تعضيدي** يعمل على تقديم الدعم والتشجيع للمريض حتى تزيد ثقته بنفسه ويصبح أكثر قبولاً لذاته.
6. **إنه علاج أخلاقي** يعمل على احترام إنسانية الإنسان وكرامته ويعززها لدى المريض ويـدعوه إلى مكارم الأخلاق ويحرره من الأخلاق الرذيلة.
7. **إنه علاج واقعي** يرتبط بحاجات المريض ودوافعه ومشـكلاته وتطلعاتـه، ويعمـل عـلى تعـديل الواقع وتطويره.

---

(1) لمزيد من المعلومات، انظر: العيسوي، مرجع سابق، ص 46.

8. **إنه علاج شمولي** يشمل جميع جوانب الشخصية: الجسمية والعقلية والاجتماعية والانفعالية والدينية، ويشمل الإنسان في جميع مراحل حياته، كما يشمل علاقاته مع نفسه ومع ربه ومع الآخرين.

- **أساليب العلاج النفسي في الإسلام:**

تتنوع أساليب العلاج النفسي في الإسلام باختلاف طبيعة الأمراض النفسية. ويمكن تمييز أربعة أساليب هي: العلاج المعرفي، والعلاج الإيماني، والعلاج بالتحليل النفسي، والعلاج بالأدوية. وفيما يلي عرض لكل أسلوب منها، هذا ومن الجدير بالذكر أننا عندما نتحدث عن العلاج النفسي في الإسلام فلا نقصد به أسلوباً واحداً بعينه، بل يمكن أن نجمع بين أكثر من أسلوب لتعديل أكثر من جانب من جوانب الشخصية (التفكير أو الانفعال أو السلوك):

- **العلاج المعرفي:**

ينطلق العلاج المعرفي في الإسلام من مسلمة مفادها أن المرض النفسي ينشأ نتيجة انحراف النفس عن الفطرة السوية المستقيمة التي خلقها الله سبحانه عليها، وذلك عندما تعرض الفتن على القلوب فتشربها ولا تنكرها، ويحكمها هواها وملذاتها، فلا تعرف معروفاً ولا تنكر منكراً. وتشمل الفتن فتن الشهوات وفتن الشبهات والبدع والمعاصي وفتن الجهل والظلم... مما يقود إلى فساد الاعتقاد، فتفسد الإرادة والنية ويفسد السلوك تبعاً لذلك. وعليه، يكون الهدف من العلاج المعرفي إعادة النفس إلى فطرتها السوية عن طريق تعديل أفكارها ومعتقداتها أولاً.

وكما هو معلوم، فإن أول جانب سعى الإسلام إلى تغييره في الشخصية العربية هو جانب العقيدة. فقد ركزت الدعوة الإسلامية - في بداية أمرها - على تغيير عقيدة الشرك وتأكيد عقيدة التوحيد. فقد بعث الله سبحانه رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم ومعه كتاب الله يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويبصرهم بحقيقة الإسلام، ليهذب نفوسهم ويطهرهم من الضلال، وينير لهم طريق الهداية التي فيها سعادتهم، قال سبحانه(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آَيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)[1].

(1) الجمعة، 2.

والتعلم في الإسلام فريضة شرعية، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "طلب العلم فريضة على كل مسلم"[1]. لذلك جاء الإسلام حرباً على الجهل، داعياً إلى العلم الذي يدفع الجهل. ذلك أن الله سبحانه لا يقبل العبادة عن جهل. فالجهل مصدر متاعب البشر وصراعاتهم النفسية وسخطهم وشقائهم، وحتى أمراضهم النفسية.

وكثير من الناس يجهل عيوب نفسه، أو يتجاهلها ولا يريد الاعتراف بها حتى مع نفسه. وتتعدد أساليب التعرّف على عيوب النفس. فالمؤمن مرآة أخيه، والدين النصيحة. فعلى المسلم أن يتخذ صديقاً صدوقاً بصيراً رقيباً، ينبهه على أفعاله وأقواله وسلوكاته، وقد قال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، "رحم الله إمرءاً أهدى إليّ عيوبي". كما ينبغي توسيع دائرة العلاقات الاجتماعية ومخالطة الآخرين، حتى يتعرف المسلم على الأخلاق الحسنة والمذمومة، فقد قيل لسيدنا عيسى عليه السلام: من أدبك؟ قال: ما أدبني أحد، ولكن رأيت جهل الجاهل سيئاً فاجتنبته". ويمكن الاستفادة من ألسن الأعداء لمعرفة عيوب النفس، فعين العدو تبدي المساوئ.

وكان الغزالي دقيق الملاحظة لسلوك الآخرين، لا سيما المنحرفين منهم، فهو يقول في كتابه "المنقذ من الضلال" "فإني تتبعت مدة آحاد الخلق أسأل من يقصّر منهم في متابعة الشرع وأسأله عن شبهته، وأبحث عقيدته وسرّه". وكان يعتمد هذا المنهج في التعرّف على عيوبهم ونقائصهم وقياسها على عيوبه.

والجاهل ضائع، لا يعرف نفسه، ولا يعرف ما يريد،ولا ما يضره وما ينفعه، وليس لحياته هدف وغاية. والجاهل ضعيف، سريع اليأس، عاجز عن مواجهة المشكلات، لذا لابد من تبصيره بحقيقة نفسه وإمكاناته وقدراته ونواحي الضعف والقوة لديه، وبالغاية من وجوده، وماله وما عليه، وبمعنى الحياة والموت. كما لابد من تصحيح معتقداته الخاطئة حول الإنسان والكون والحياة والموت. ولو لم يكن أمر تبصير الناس بحقيقة أنفسهم وتصحيح معتقداتهم على هذا القدر من الأهمية لما كان للدعوة الإسلامية إلى الله جدوى، مع أمر الله سبحانه بها، قال تعالى:(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ)[2].

(1) سنن ابن ماجة، كتاب المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، حديث رقم (220).

(2) النحل، 125.

وقد تمكنت الدعوة الإسلامية من تأكيد عقيدة الإسلام في نفوس الناس من خلال الأساليب القرآنية المتنوعة التي خاطبت العقل وحثته على التفكير والتفكر في النفس للتوصل إلى الحقائق، والاستفادة مما حصل للأمم السابقة. فتقبل الناس الدين الجديد الذي أحدث لديهم تغيراً في معتقداتهم. وقد أدى هذا التغيير في المعتقد إلى تغيير في العواطف والمشاعر؛ فقد ملأ حب الله ورسوله والمؤمنين قلوبهم، وتحولت العداوة إلى أخوّة ومحبة، بنعمة الإسلام الذي أزال الأحقاد، وألّف بين قلوب المؤمنين. وقد انعكس هذا التغيير في المعتقد والمشاعر على سلوكاتهم، فعملوا الصالحات وتجنبوا المعاصي، بفضل الله سبحانه.

ويدور العلاج المعرفي حول تعديل الإدراك المشوه للمريض بتبصيره بنفسه. وقد حثّ سبحانه على استبصار النفس في قوله تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [1]. واستبصار الفرد بنفسه هو أساس معرفة الإنسان حقيقة نفسه وأفكاره وسلوكاته وأسباب شقائه النفسي ومشكلاته النفسية والدوافع التي أدت إلى ارتكاب الخطيئة والذنوب. والتبصّر يعني التأمل والتعرّف. وعليه، لابد من أن يتأمل المريض أفكاره وعاداته وسلوكاته، وأن يربطها بالانفعالات المصاحبة، لتنمية وعيه بحجم الأفكار السلبية والمشوهة عن الذات، وتأثيرها على حالته النفسية وعلى سلوكه. كما يبصّر بعلاقة هذه الأفكار السلبية والمشوهة بما ينتابه من انفعالات واضطرابات غير مرغوبة. فالمريض يصبح قادراً على تعديل أفكاره وسلوكاته إذا أدرك الشروط والظروف المحيطة بالسلوك المشكل، ولا يتم ذلك إلا باستبصاره لنفسه عن طريق: جمع المعلومات عن الأفكار والتصورات السلبية والمشوهة التي تسبب الاضطرابات النفسية، وتقصي محتوى تلك الأفكار والتصورات، ثم ربطها بالانفعالات المصاحبة التي تثيرها مع تحديد ماهية تلك الانفعالات وشدتها. وفي ضوء ذلك يمكن للمريض تحديد الأعراض وتشخيصها مبدئياً، الأمر الذي يزيد وعيه بالمشكلة وشدتها. وبكيفية علاجها. وأخيراً يتمكن المريض من إعاقة ظهور الانفعال والسلوكات غير المرغوبة بصورة مباشرة أثناء ملاحظتها. ويمكن القول بأن استبصار النفس على النحو الذي ذكرناه يمثل ترجمة لعملية محاسبة النفس وإدراك أخطائها ثم تصحيحها. فالتعرف إلى الأفكار المشوهة والسلوكات غير المقبولة وتسجيلها يجعلها دائماً في حيز الشعور، مما يقتضي تعديلها ومجاهدة النفس بصورة دورية لتطهيرها من الأخطاء.

---

(1) الذاريات، 21.

هذا ويمكن عمل جدول تقييم ذاتي خاص لاستبصار النفس يتم فيه تسجيل دوري (يومي مثلاً) لنوع الانفعال (من قلق وحزن واكتئاب وغضب وعدوان...) وشدته، ثم تحديد الأفكار المشوهة والتصورات السلبية التي سبقت الانفعال أو رافقته. وأخيراً تحديد الأعراض النفسية وتشخيص الاضطراب. ويمكن تقدير شدة الانفعال على تدريج خماسي أو عشري. ويفيد هذا التقييم الذاتي في حال الاضطرابات غير الحادة من قلق واكتئاب وخوف مرضي ووساوس قهرية... إذ ينمي وعي المريض بمشكلته وبتصنيفها بين الأمراض النفسية وعلاجها بإعاقة ظهور الانفعال غير المرغوب به فور ملاحظته[1].

كما يتضمن العلاج المعرفي تعديل الإدراك المشوه للمريض بتبصيره بالتصور الإسلامي للإنسان والغاية من وجوده وصورته عن الحياة والموت والكون، وإعطائها معانٍ جديدة صحيحة. هذا إضافة إلى تغيير أفكاره عن المشكلات التي عجز عن مواجهتها من قبل وكانت السبب في قلقه وحزنه، حتى يصبح أكثر قدرة على مواجهة مشكلاته وحلّها. وغالباً ما يرى المريض أن مشكلاته التي أدت إلى مرضه لم تكن بالضخامة التي كان يتصورها. ويؤدي هذا التغيير إلى عودة المريض إلى ممارسة حياته بصورة أكثر فاعلية، فيشعر بالسعادة والرضا.

ويمكن اعتماد العلاج النفسي الجماعي[2] لهذه الغاية. بحيث تعقد جلسات العلاج في المسجد بمعدل جلسة واحدة في اليوم، وبحيث تتراوح مدة الجلسة بين ساعة إلى ساعة ونصف. ويدير الجلسة مرشد ديني يوضح التصوّر الإسلامي للإنسان وغاية خلقه وأهدافه في الحياة وصورة الإسلام عن الحياة والموت والكون... كما سيرد شرحه لاحقاً، وبما يتناسب مع الحالة المرضية للمريض. كما يكون في الجلسة متخصص في الطب النفسي ومتخصص اجتماعي. وبعد الانتهاء من الحديث الديني يفتح باب الحوار حول موضوع الجلسة، مع التأكيد على ضرورة إقامة علاقات تعاطف ومودة وألفة واحترام متبادل بين مجموعة العلاج، وتحليل المشاعر السيئة داخل المجموعة وصرف الأفكار عنها تدريجياً وبصورة غير مباشرة. أما دور الطبيب النفسي فيكمن في إحداث التغيير المطلوب من تحرير المريض من أعراض المرض، والتغلب على شعوره بالوحدة، وتعديل سلوكه

(1) لمزيد من المعلومات، انظر: رامز طه محمد، العلاج النفسي بالقرآن، كتاب اليوم الطبي، العدد 235.

(2) لمزيد من المعلومات، انظر: أسامة الراضي، نموذج إسلامي للعلاج الجماعي.

عن طريق إحداث الضبط الواعي من المريض بمساعدة المجموعة، بما يمكنه من تعزيز الوعي السليم بالنفس والحياة والكون والموت... بالاستناد إلى القيم والمبادئ الإسلامية، بحيث تصبح هذه القيم والمبادئ بمثابة قوة جاذبة لجميع سلوكاته المستقبلية. وعندما يستمع الطبيب النفسي إلى حوارات المرضى وينتبه إلى كل ما يقولونه ويفعلونه، ويسمح لهم بالتعبير عن أفكارهم ومشاعرهم، فإنه يساعدهم على التنفيس عن انفعالاتهم المكبوتة، فتخفّ حدة المشكلات لانفعالية لديهم، كما تخفّ حدّة اللجوء إلى آليات الدفاع النفسي (أو ما نسميها بالحيل اللاشعورية). هذا ويمكن للمرضى أن يتمثلوا (أي يتقمصوا) الطبيب النفسي أو المرشد الديني، فيقوموا بتقليده ويرفضوا السلوكات المرضية. ومن الجدير بالذكر أن الإسلام تمكن من علاج شرب الخمر، كما حرّر البشر من سجن معتقداتهم الخاطئة، وعالج مشكلة الزنا. فالعلاج المعرفي في الإسلام يعدّ بمثابة إيقاظ للضمائر التي لديها الاستعداد لتقبل النصيحة، وفيه أيضاً تنبيه من الغفلة والخطيئة.

هذا وكنا قد تعرضنا في الفصل الأول للحديث عن التصوّر الإسلامي للإنسان والغاية من خلقه، ولا داعي لتكراره هنا. أما الحياة في الإسلام فعرض زائل. وما فيها من نعيم وملذات ما هي إلا متعة عابرة، مصداقاً لقوله تعالى:(اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)[1]. والحياة الدنيا مزرعة للآخرة، فهي بذلك وسيلة لغاية سامية. وهي دار فناء وليست دار بقاء، مصداقاً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم "مَالِي وَلِلدُّنْيَا، ما أَنَا في الدُّنْيَا إِلاَّ كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا" [2]. وزينة الحياة الدنيا وزخرفها ومتاعها قليل تافه إذا ما قورن بثواب الآخرة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مِثْلَ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعُه فِي الْيَمِّ فَلْيَنْظُرْ بِمَاذَا يرجع" [3]. لذلك جاء تأكيد الإسلام على العمل للآخرة والمنافسة في ذلك، على أن لا ينسى الإنسان نصيبه من العمل للدنيا، وبما يمكنه من عمارة الأرض بالعمل على استمرار مسيرتها حيّة، وخلافة الله في الأرض بالعلم والعدل والبناء والإبداع. والمنهج الإسلامي الذي يقود إلى صلاح

(1) الحديد، 20.

(2) أخرجه الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في قصر الأمل (567/4) رقم 2333، وقال ابن عيسى حديث حسن صحيح.

(3) رواه ابن ماجة في سننه، ج2، ص 1376.

النفوس وصحتها، وبالتالي الفوز بثواب الآخرة، واضح محدد في قوله سبحانه: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ) [1].

والحياة دار ابتلاء وامتحان، قال سبحانه:(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)[2]. والغاية من الابتلاء تمييز الشاكر من الكافر، قال سبحانه على لسان سليمان عليه السلام لما رأى عرش بلقيس عنده: (قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ)[3].

ويذكر الإبشيهي قول أبي عياض "لو كانت الدنيا ذهباً يفنى والآخرة خزفاً يبقى، لوجب علينا أن نختار ما يبقى على ما يفنى. ثم تأمل بعقلك هل أتاك الله من الدنيا مثل ما أوتي سليمان عليه السلام، حيث ملّكه الله تعالى جميع الدنيا من إنس وجن، وسخّر له الريح والطير والوحوش، ثم زاده الله تعالى أحسن منها حيث قال: (هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)[4]، فوالله ما عدّها نعمة مثل ما عددتموها، ولا رفعة مثل ما حسبتموها، بل خاف أن يكون استدراجاً من حيث لا يعلم فقال(قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ) [5]. وهذا فصل الخطاب لمن تدبر هذا... وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال "لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ الله جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِراً مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ" [6].

والإبتلاء سنة من سنن الله، قال تعالى:(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ)[7]، وعليه، فلابد من حصول الابتلاء لكل نفس بشرية، سواء كانت مؤمنة أم كافرة، لحكمة سبق علم الله بها، وهي أن تزكية النفس لا تتم إلا بعد أن تبتلى، كالذهب الذي لا تستخلص شوائبه إلا بعد أن يفتن في كير الامتحان. فقد ابتلى الله تعالى أنبياءه عليهم السلام، فلما صبروا على تحمل المشاق، مكّنهم في الأرض؛ فقد ألقي إبراهيم عليه السلام في النار لولا أن تداركته رحمة الله، وأوذي يوسف عليه السلام من إخوته بإلقائه في اليم وبيعه بثمن بخس دراهم معدودة، وتعرضه للفتنة من امرأة العزيز.

(1) الأنعام، 153.
(2) الكهف، 7.
(3) النمل، 40.
(4) ص، 39.
(5) النمل، 40.
(6) الإبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، مرجع سابق، ص 806.
(7) العنكبوت، 2-3.

كما ابتلي أيوب عليه السلام بالمرض، وتعرّض عيسى عليه السلام لاضطهاد اليهود، وقوبل رسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم بالتكذيب والسخرية ومحاولات القتل.

وثمة حكمة من ابتلاء الله تعالى أنبياءه بالمصائب والأحزان، فقد أراد سبحانه أن تتعرض نفس الإنسان إلى جميع الخبرات الحياتية، خيرها وشرها، حلوها ومرّها. ويكون في ذلك فحص لها أتشكر أم تكفر. وفيه تمحيص وتطهير وتزكية، فتقلع النفس عن المعصية وتقبل على طاعة خالقها، فتتهيأ للقائه بنفس مطمئنة.

والابتلاء يكون بالنعم كما يكون بالنقم، قال تعالى: وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً[1]. والابتلاء بالنعم أشد من الابتلاء بالنقم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا الفقرَ أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تُبسَطَ عليكم الدنيا كما بُسِطت على من كان قبلَكم، فتنافَسوها كما تَنافسوها، وتُهلكَكم كما أهلَكَتْهم"[2].

ونزول المصائب على الإنسان لا يدل على غضب الله وسخطه، بل دليل على حب الله له، فعن أنس بن مالك قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "وَإِنَّ الله إِذَا أَحَبَّ قَوْماً ابْتَلاَهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَى، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ"[3]. وقال أيضاً "يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه"[4]. وبالمقابل فإن إقبال الحياة على الإنسان لا يدل على رضا الله وحبه له، قال سبحانه: (وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ)[5].

وهكذا فإن الحياة دار امتحان للمؤمن، لن يجتازه إلا بالجهاد والصبر، قال تعالى:(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ)[6]. فقد حفت الجنة بالمكاره. والمؤمن قصير الأمل في الحياة، راغب في الخروج منها والراحة من أعبائها، راغب في نعيمه سبحانه، فهي سجن للمؤمن. لذا يتوجب عليه أن يستجيب لها بخيرها وشر ما فيها، بحكمة واتزان. فلا تحمله النعمة على البطر، ولا المصيبة على

---

(1) الأنبياء، 35.

(2) رواه البخاري في صحيحه، ج8، ص 112.

(3) رواه الترمذي في سننه، ج4، ص 601، وقال حسن غريب.

(4) رواه الترمذي في سننه، ج4، ص 602، وقال حسن صحيح.

(5) التوبة، 85.

(6) آل عمران، 142.

اليأس والحزن. فأمر المؤمن كله خير، إن أصابته نعماء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته مصيبة صبر فكان خيراً له.

كما علَّمنا الإسلام أن الله هو المبتلي وهو الشافي وحده، وهو النافع وهو الضار. وأن الناس لن ينفعونا بشيء قد كتبه الله لنا، ولم يضرونا إلا بشيء قد كتبه الله علينا، وما من مصيبة تحلُّ بنا إلا في كتاب من قبل أن يخلق الله الخلائق، قال سبحانه: (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (22) لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ)[1]. فعلى المرء أن يدرك أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وبذا يهون عليه بلاؤه.

ويصف ابن القيم في "مفتاح دار السعادة" التصور الإسلامي للحياة، وخلق الإنسان في عالم الابتلاء الذي فيه تدفع بعض الآم الحياة ببعض، بصورة ديناميكية حيّة، بقوله "الله تعالى خلق الإنسان في عالم الابتلاء والامتحان من مادة ضعيفة. فهي عرضة للآفات. وركّبه تركيباً معرضاً لأنواع من الآلام. وجعل فيه الأخلاط الأربعة التي لا قوام له إلا بها، ولا يكون إلا عليها. وهي –لا محالة – توجب امتزاجاً واختلاطاً وتفاعلاً يبغي بعضها على بعض بكيفيته تارة، وبكميته تارة، وبهما تارة، وذلك موجب للآلام قطعاً، ووجود الملزوم بدون لازمه محال. ثم إنه سبحانه ركّب فيه من القوى والشهوة والإرادة ما يوجب حركته الدائبة، وسعيه في طلب ما يصلحه ودفع ما يضره، بنفسه تارة وبمن يعينه تارة. فأحوج النوع بعضه إلى بعض، فحدث من ذلك الاختلاط بينهم، وبغى بعضهم على بعض، فيحدث من ذلك من الآلام والشرور بنحو ما يحدث من امتزاج أخلاطه واختلاطها، وبغي بعضها على بعض. والآلام لا تتخلف عن هذا الاختلاط والامتزاج أبداً إلا في دار البقاء والنعيم المقيم، لا في دار الابتلاء والامتحان... " ويضيف "واقتضت الحكمة البالغة أن تكون هذه الدار ممزوجة عافيتها ببلائها، وراحتها بعنائها، ولذاتها بآلامها، وصحتها بسقمها، وفرحها بغمّها. فهي دار ابتلاء تدفع بعض آفاتها ببعض... فإذا فكرت في الأكل والشرب واللباس والجماع والراحة وسائر ما يستلذ به، رأيته يدفع بها ما قابله من الآلام والبليات. أفلا تراك تدفع بالأكل ألم الجوع، وبالشرب ألم العطش، وباللباس ألم الحرّ والبرد، وكذا سائرها" [2].

(1) الحديد، 22-23.

(2) ابن القيم، مفتاح دار السعادة، ص 384-385.

- **العلاج الإيماني:**

ما من شك بأن العلاج النفسي في الإسلام يقوم بالدرجة الأولى على الإيمان بالله سبحانه وتوحيده والالتزام بمنهجه، والتقرب إليه بالعبادات والنوافل، وتجنب ما نهى عنه، واتباع سنة رسوله صلى الله عليه وسلم. ويشمل الإيمان المعتقدات الباطنة والأعمال الظاهرة، كما يتضح ذلك في حديث الشُّعَب، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال " الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ، أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لاَ إِلهَ إِلاَّ الله، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ" [1]. وهكذا فإن الإيمان يشمل الشخصية ككل، فهو يشمل المعتقد (كالشهادتين)، والسلوك الظاهري (كإماطة الأذى عن الطريق)، إضافة إلى الجانب الوجداني في الشخصية (كالحياء). وعليه، فإن تنمية الإيمان في النفس الإنسانية لابد وأن يقود إلى تعديل الفكر والسلوك، كما يعالج أمراض القلوب. فالإيمان بالله تعالى يحرر صاحبه من الأمراض الباطنة كمرض الحسد مثلاً، كما في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم "وَلاَ يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ الإِيمَانُ والحسد" [2]. كما يحرره من القلق والمخاوف بأن يبعث في قلبه الطمأنينة، قال سبحانه:(الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)[3].

هذا وسنتحدث تحت العلاج الإيماني عن العلاج بالعبادات، والعلاج بالذكر والعلاج بالقرآن الكريم والعلاج بالتوبة والعلاج بالصبر.

- **العلاج بالعبادات:**

لا يقتصر العلاج النفسي في الإسلام على العلاج المعرفي، الذي يدور حول تبصير المريض بمشكلاته وتعديل إدراكاته المشوهة وتصويب صورته عن نفسه وعن الحياة والموت والكون...، بل يتعدى ذلك إلى ترجمتها عملياً في الواقع المعيش، لذلك لابد من إرشاد المريض وتوجيهه إلى أداء العبادات المفروضة، بإخلاص النية لله، وفي أوقاتها المحددة وبالكيفية المفروضة. فأداء العبادات المفروضة من صلاة وصيام وزكاة وحج، تطهر القلوب من أمراضها، وتزكي النفوس وتحررها من المخاوف والقلق جراء الذنوب التي ترتكبها، مصداقاً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم " فتنة الرجلِ في أهله ومالِهِ وَوَلَدِهِ وجارِهِ

(1) متفق عليه.

(2) رواه مسلم.

(3) الرعد، 28.

يكفِّرُها الصلاة والصدَقة والأمرُ بالمعروفِ والنهي عنِ المنكر" [1]. وبالممارسة الفعلية للعبادات، يتعلم المريض القيم الإسلامية النبيلة كالصبر ومجاهدة النفس والطاعة والتعاون وحب المسلمين والإحسان... وفيما يلي وصف مقتضب للعلاج الإيماني بالعبادات:

أ. العلاج بالصلاة:

الصلاة عماد الدين، وهي التي تفرّق بين المسلم والكافر، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ" [2]. وتقتضي الصلاة طهارة البدن، وتتكرر في حياة المسلم موجبات الغسل والوضوء. وفضلاً عن ما ينطوي عليه الوضوء من نظافة البدن، فإنه يعدّ أسلوباً في علاج الغضب، مصداقاً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم "إِنَّ الْغَضَبَ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ خُلِقَ مِنَ النَّارِ، وَإِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ بالمَاءِ، فإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُم فَلْيَتَوَضَّأْ" [3]. وتكرار الوضوء في اليوم الواحد يساعد على الاسترخاء العضلي، ويخفف حدة الغضب والتوتر النفسي، ويخرج المتوضئ نقياً من الذنوب. والصلاة تطفي النار التي تستوجب غضب الله سبحانه بفعل ذنوب العبد، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن لله ملكاً ينادي عند كل صلاة يا بني آدم قوموا إلى نيرانكم التي أوقدتموها فاطفئوها" [4].

ويقف المصلي بين يدي خالقه، يناجي ربه في خشوع واستسلام، معترفاً له بذنبه، يلتمس منه الهداية فيجد من صفاء النفس ويقظة المشاعر ما يجعله موصول السبب بالله سبحانه. ومن المعلوم أن التنفيس عن مشاعر الذنب والهفوات والزلات والهموم يحسن الحالة النفسية لصاحبها، لذلك كثيراً ما يفضي الإنسان بمشكلاته وهمومه إلى صديق يثق به حتى يشعر بالراحة. وإن كان الأمر كذلك، فما من شك بأن تحسنه سيكون أكبر إذا أفضى بهمومه وزلاته إلى خالقه سبحانه، الذي يستجيب له إذا دعاه، فتكون الاستجابة حافزة له على التوبة وإصلاح ما فسد من أعماله.

وبالصلاة يمحو الله الخطايا، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أرأيتُمْ لو أنَّ نهراً ببابِ أحدِكم يَغتسِلُ فيه كلَّ يومٍ خَمساً ما تَقولُ: ذلك يُبقي من دَرَنه؟ قالوا: لا يُبْقي من دَرَنِه شيئاً.

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، ج8، حديث رقم 1895.

(2) رواه مسلم في صحيحه عن جابر رضي الله عنه.

(3) رواه ابو داود في سننه، حديث رقم 4784.

(4) رواه الطبراني في الأوسط والصغير ورجال إسناده محتج بهم في الصحيح كما في الترغيب.

قال: فذلك مَثَلُ الصلواتِ الخمسِ يَمحو اللهُ بها الْخَطايا" [1]. فكان للمصلي في كل صلاة توبة وباب إلى مغفرة الله؛ كما في قوله تعالى: وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ[2]. والصلاة تبعث الأمل في مغفرة الله سبحانه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "مَا مِنِ امْرِىءٍ مُسْلِمٍ تَحْضُرُهُ صَلاَةٌ مَكْتُوبَةٌ. فَيُحْسِنُ وُضُوءَهَا وَخُشوعَهَا وَرُكُوعَهَا. إِلاَّ كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ. مَا لَمْ تُؤْتَ كَبِيرَةٌ. وَذلِكَ الدَّهْرَ كُلَّهُ" [3]. وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بصلاة التسابيح طلباً للمغفرة من جميع الذنوب. وقد شرح صلى الله عليه وسلم لعمه العباس كيف يصليها وحثه على صلاتها حسب طاقته. كما أن قيام رمضان إيماناً واحتساباً يكون سبباً في مغفرة الذنوب، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "مَنْ قامَ رَمَضانَ، إِيماناً واحْتِساباً، غُفِرَ له ما تَقدَّم مِنْ ذَنْبِه" [4].

وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بصلاة الاستخارة لقضاء الحاجة وحل المشكلات الحياتية والاهتداء إلى اتخاذ القرار المناسب في حال العجز عن اتخاذه. وبذا يتحرر المسلم من مشاعر القلق والهم المرتبطة بالمستقبل، ومن حالات صراع الإقدام والإحجام بالاستخارة. كما أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصلاة لعلاج البدن، فقد شكى أبو هريرة وجعاً في بطنه، فالتفت إليه النبي صلى الله عليه وسلم وقال: أشِكَمَتْ دَرْدْ[5]؟ قال: نعم يا رسول الله، قال: قم فصلّ، فإن الصلاة شفاء" [6]. وقد أمرنا الله سبحانه وتعالى بالاستعانة بالصبر والصلاة عند الشدائد، قال تعالى:(وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ)[7]. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلجأ إلى الصلاة عند الشدائد، فقد كان "إذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى" [8]"وإذا كان ليلة ريح شديدة كان مفزعه صلى الله عليه وسلم إلى المسجد حتى يسكن الريح، وإذا حدث في السماء حدث من خسوف شمس أو قمر كان مفزعه إلى الصلاة حتى ينجلي" [9].

---

(1) أخرجه الشيخان (ناصف، ج1، ص 134).

(2) هود، 114.

(3) أخرجه مسلم (ناصف، ج1، ص 135).

(4) متفق عليه.

(5) أتشتكي بطنك؟

(6) أخرجه ابن ماجة، كتاب الطب، ج2، حديث رقم 3458.

(7) البقرة، 45.

(8) رواه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب وقت قيام النبي صلى الله عليه وسلم، حديث رقم 1124.

(9) رواه الطبراني في الكبير وفيه زياد بن صخر.

فعندما يقف المصلي بين يدي ربه لا يحدث نفسه بشيء، إلا فيما يقرأه من القرآن الكريم، يدرك ما يقرأ ويعي ما يفعل، متجرداً من مشاغل الحياة ومشكلاتها وهمومها، فإنه يشعر براحة البال وهدوء النفس، مما يخفف حدّة التوترات النفسية التي تنشأ عن ضغوط الحياة، ويخفض حدّة القلق لديه. ولعل طمأنة النفس وانشراح الصدر والسكينة، التي تجلبها الصلاة للنفس، تعدّ من أهم الأسباب التي جعلت الصلاة قرة عين رسول الله صلى الله عليه وسلم وراحته، فقد كان صلى الله عليه وسلم يقول لبلال "أرحنا بالصلاة"[(1)].

وتعالج الصلاة مظاهر الشرك وعبودية غير الله وطاعته ورهبته وتمجيده وتقديسه كما هو شائع في عصرنا الحالي. ففي قول المصلي "إياك نعبد وإياك نستعين" اعتراف بأن لا رب غير الله سبحانه، ولا حمد ولا استعانة إلا به. والصلاة حمد وثناء لله وحده، وإعلان للرضا عنه تعالى، وهي حصن يحمي المصلي من الشرك الأصغر. والمعتكف يلجأ إلى بيت الله يستمد منه قوة تعينه على التحرر من قيود المجتمع وضغوطه التي قد تعيق نموه النفسي وتحقيق ذاته.

والصلاة تعيد ثقة المسلم بنفسه، فإذا أدى حق ربه في الخشوع والحمد والثناء عليه، وحق رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه والدعاء له، كان له حظه من السلام المقصود بقوله في صلاته "السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين". فهو من عباد الله الصالحين، ومن هذا الحكم التقويمي يتشكل بناء الذات للمصلي، وبالتالي، مفهوم المصلي عن ذاته.فهو عبد من عباد الله الصالحين. ويتعارض هذا المفهوم للذات مع فكرة الوقوع في الفاحشة، لأن من يقع فيها يكون عبداً عاصياً يطيع هواه ويسعى وراء شهواته. أما إذا وقع المصلى في المعصية، فسرعان ما يدرك أن سلوكه هذا لا يتسق مع مفهومه عن ذاته ولا ينتمي له، فيدرك سلوكه على أنه تهديد لبناء الذات. عندئذ تقيم الذات دفاعاتها ضد هذه الخبرة المهددة لها عن طريق إنكارها، والامتناع عن الوقوع بها مستقبلاً في ضوء ما تسببه من التنافر المعرفي. فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر. وهذا هو حال المتقين الذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله.

وهكذا يمكن القول بأن الصلاة تولّد دوافع نفسية تعارض الميل إلى الوقوع في الفاحشة؛ فهي تنهى عن الغفلة والاستجابة للشهوات، وتزيد اليقظة، وإدراك حقائق

---

(1) رواه أحمد، كتاب باقي مسند الأنصار، باب أحاديث رجال من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، حديث رقم 22009.

الإيمان، وتبقي صاحبها في حالة من التقوى. ولكنها في الوقت ذاته لا تسلبه الإرادة ولا تلغي نوازعه البشرية. فلا تحول دون وقوعه في الفاحشة أبداً. فقد يضعف المصلي فيرتكب الفاحشة أو يظلم نفسه عن غفلة أو نسيان. ولا يعني ذلك أن صلاته لم تنفعه، بل هي الطبيعة البشرية، فالإيمان يزيد وينقص.

والصلاة بما فيها من أقوال وأفعال وخشوع قلب تكسب المصلي شعوراً بالإنجاز، وتعزز قدرته على أداء العمل الصالح - ذي المعنى لديه - في الدنيا والآخرة. وبهذا تكون الصلاة فاعلة في علاج الشعور باللامعنى والفراغ، وخلوّ الحياة من الإنجاز والتحصيل، وتعارض أي مشاعر للإحباط والسخط والنقص.

ولصلاة الجماعة دور هام في علاج مشكلات التكيف الاجتماعي والشعور بالوحدة والعزلة والوحشة وضعف الانتماء. ولخطبة الجمعة دور وقائي علاجي في تنمية وعي المصلين واستبصارهم بذاتهم وبما يعانون من مشكلات، وفي تعزيز إرادتهم لمواجهة تلك المشكلات بكفاءة واقتدار.

هذا ومن الجدير بالذكر أن أداء الصلاة التي نتحدث عنها، والتي تعدّ شفاء للنفوس لا يقصد بها مجرد أداء الحركات من ركوع وسجود، بل الصلاة التي تشترك فيها كافة عناصر الشخصية (الجسم في الركوع والسجود، والعقل في إدراك المقروء وتدبره، والقلب في الخشوع) بتناغم وانسجام وتكامل. وقد حث رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم المصلين على أداء الصلاة بخشوع وتعقل، فجعل لمن ينجح في أداء ركعتين لا يحدِّث فيها نفسه جائزة عظيمة هي أن يغفر الله له ما تقدّم من ذنبه، فقد روى عثمان بن عفان أن النبي صلى الله عليه وسلم توضأ ذات مرة ثم قال: "مَنْ تَوَضَّأ مِثْلَ وُضُوئِي هَذَا، ثُمَّ قامَ فصَلَّى رَكْعَتَيْنِ لاَ يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ بِشَيْء غَفَرَ الله لَهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ"[1]. وهكذا يكون أداء الصلوات الخمس بمثابة حقن تعالج القلوب والأبدان، شرعها سبحانه خالق النفوس وطبيبها. فهي غذاء للروح، وأمان للخائف، ونصرة للضعيف، وإغاثة للملهوف، وكاشفة للغم، ودافعة للشهوات، وباعثة للطمأنينة.

ويلخص ابن القيم في كتابه "الطب النبوي" الدور العلاجي للصلاة بقوله "هي صلة بين العبد وخالقه، فهي حافظة للصحة، دافعة للأذى، مطردة للأدواء، مقوية للقلب، مفرّحة للنفس، مذهبة للكسل، منشطة للجوارح، ممدة للقوى، شارحة للصدر،

(1) رواه النسائي في السنن، كتاب الطهارة، حديث رقم (116).

مغذية للروح، منورة للقلب، حافظة للنعمة، دافعة للنقمة، مبعدة عن الشيطان، مقربة للرحمن. وبالجملة، ففيها تأثير عجيب في حفظ صحة البدن والقلب، ودفع المواد الرديئة عنهما. وما ابتلى رجلان بعاهة أو داء أو محنة أو بليّة، إلا وكان حظ المصلي منهما أقل وعاقبتهما أسلم" [1].

ب. العلاج بالصيام:

الصوم موسم اجتماعي عالمي للعبادة؛ فيه ترقّ القلوب القاسية وتخشع النفوس. ورمضان شهر القرآن وموسم ترتيله، يتلوه الصائم فيذهب همه وينجلي غمه، وينشرح صدره للإيمان، ويشفى مما فيه من حزن وكرب. فحياة الإنسان تعجّ بالصراعات النفسية الدائمة بين الشهوات التي زينها الله في النفس والمنافع المقررة عند العقل، وليست الشهوات هي التي تغلب دائماً. فالصوم شحنة إيمانية تقاوم إغراء الشهوات، وتمنع الإشباع الفوري لبعض الحاجات البدنية. وفي هذا الامتناع والمقاومة تدريب للنفس على تأجيل إشباع الدوافع. فالصيام تدريب سنوي على الصبر. والصوم شطر الصبر والاحتمال، والصبر شطر الإيمان ودليل نضج الشخصية. وبالصبر تهون المعاناة والمصائب. وليس مقصود الشرع من الصيام مجرد الامتناع عن الطعام والشراب، بل ما يحقق حكمته وفوائده الروحية والأخلاقية من مجاهدة النفس وضبط شهواتها، مصداقاً لقوله تعالى(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)[2]. أي فرض الله عليكم الصيام لعلكم تتقون المعاصي بكسر الشهوات التي تقود إليها. فالصيام الحق مرتبط بسياج من الأدب وعفة اللسان والنفس والتقوى، مصداقاً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم "إذا كانَ يومُ صومِ أحدِكم فلا يَرفُثْ ولا يَصخَب، فإن سابَّهُ أحدٌ أو قاتَلهُ فلْيَقُلْ إني امروٌّ صَائِم" [3]. وقوله صلى الله عليه وسلم " مَن لم يَدَعْ قولَ الزُّورِ والعملَ بهِ فليسَ للهِ حاجةٌ في أن يَدَعَ طعامَهُ وشَرابَه" [4]. وعليه، فإن الصيام مدخل إلى حسن الخلق. فالصائم في عبادة، يكظم غيظه ويضبط نفسه ويعفو عن المسيء. وإذا سابّه أحد

---

(1) نقلاً عن: أسامة الراضي، نموذج إسلامي للعلاج النفسي، ص 69.

(2) البقرة، 183.

(3) متفق عليه.

(4) رواه البخاري.

أو شاتمه يقول: إني صائم، فلا يردّ على الإساءة بمثلها، بل يتسامى ويترفع عن الردّ على من يشتمه، ولا يدخل معه في شجار.

والصيام علاج لمشاعر الذنب، وما تفضي إليه من مخاوف من الموت والقلق المرتبط به، ذلك أن جزاء صيام رمضان إيماناً واحتساباً مغفرة من الله، مصداقاً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم "مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَاناً وَاحْتِسَاباً غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ"[1]. وقد روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال "كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ، الحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ"، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِلاَّ الصَّوْمَ. فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ. يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي. لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ، وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ"[2]. وجزاء الصوم الفوز بالجنة، فقد روى سهل بن سعد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال "إنّ فِي الجَنَّةِ لباباً يُدْعَى الرَّيَّانُ يُدْعى لَهُ الصَّائِمُونَ فَمَنْ كانَ منَ الصَّائِمِينَ دَخَلهُ، وَمَنْ دَخَلَهُ لمْ يَظْمأ أبداً"[3].

والصيام علاج لأمراض النفوس الناتجة عن القيم السلبية، من كبر وعجب بالنفس، فالصائم يشعر بالحاجة إلى الطعام والشراب، ويفرح عند الفطور، فيستشعر ضعفه وتتطهر نفسه من مشاعر الغرور والعجب بالنفس. وفي الصوم تعزيز للقيم الإيجابية كالرحمة والشفقة على الفقراء والإحسان إليهم والتعاون والتكافل الاجتماعي والخضوع لله.

والصيام تدريب على الجوع والتزام وضبط للذات يمارسه الصائم برضاه وليس رغماً عنه، ويؤثر هذا الالتزام برّد الفعل الفسيولوجي للجسم على الصبر دون طعام أو شراب لساعات طويلة، وحتى لا يبلغ الجوع مداه، نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تأخير الفطور، فيما حثّ على تأخير السحور لتخفيف مشقة الصيام، فضلاً عن بركته وثوابه لأنه سنة من سنن الرسول صلى الله عليه وسلم.

ومن الجدير بالذكر أن الصيام علاج لأمراض البدن، فقد أسرف الناس في الطعام والشراب واتخموا بأنواعها، فأصيبوا بأمراض جسدية كالسمنة المفرطة وأمراض القلب والضغط. ومن المعلوم أن صحة البدن تؤثر في صحة العقل، فالعقل السليم في الجسم السليم.

---

(1) أخرجه البخاري ومسلم (ناصف، ج2، ص 48).

(2) رواه الستة.

(3) رواه الشيخان.

ج. العلاج بالزكاة:

الزكاة عبادة خالصة لله تعالى، وفريضة على المسلم تقتضي إخراج قدر معلوم من المال لإعطائه لمن يستحقه. والزكاة عطاء متجدد يمثل قمة نضج الشخصية. وروح الزكاة خشية الله سبحانه وطاعته وابتغاء رضوانه، ونيل الأجر والثواب منه، والتحرر من الخوف والحزن، مصداقاً لقوله تعالى:(الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)[1]. والزكاة عمل يدخل صاحبة الجنة، فعن أبي أيوب أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم: أخبرني بعمل يدخلني الجنة، قال "تَعبُدُ اللّهَ ولا تُشرِكُ به شيئاً، وتُقيمُ الصلاةَ وتُؤْتِي الزكاةَ وتَصِلُ الرّحِمَ"[2].

والزكاة عبادة تطهّر نفوس الأغنياء من أمراضها كقسوة القلب ومعصية الله والشح والبخل وحب التملك والحرص على المال، والعمل على تضخيمه، والأثرة والأنانية والنهمة، والسخط، وظلم حق الفقراء والقسوة عليهم. لذلك ينبه سبحانه البشر إلى أنهم مجبولون على حب المال والرغبة في تملكه، ويحذرهم من مغبة فتنته، ويحث على إنفاقه. ويبصرهم بأنه سبحانه رزقهم المال ليبلوهم فيه، فمن يوق شح نفسه ببذل الصدقات يجتاز الامتحان ويكون من المفلحين، قال تعالى:(وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)[3]. كما تطهّر الزكاة نفوس الفقراء من أمراضها كالحسد والعداوة والبغضاء والقلق والعزلة والعجز. فضلاً عن تطهير مشاعر الحقد الطبقي والعداء نحو الأغنياء. تلك المشاعر السلبية التي تنشأ جراء الإحباط والحرمان الزائد. فالزكاة مصدر أمن نفسي للغني والفقير، وسبب أمن المجتمع من الجريمة التي قد تنتج عن الحرمان والحقد والحسد.

والزكاة تدرب النفوس على خشية الله وطاعته، ورقة القلب والعطف على الفقراء ومواساتهم ومساعدتهم على تلبية حاجاتهم الأساسية، والعمل على إسعادهم ومشاركتهم الوجدانية وصلة الرحم، مما يفضي إلى الشعور بالانتماء الاجتماعي وبالرضا عن النفس، لأن المعطي يدخل السرور في نفوس الفقراء. وفي ذلك تحقيق للذات وأداء لدور الخلافة في الأرض.

---

(1) البقرة، 262.

(2) متفق عليه.

(3) الحشر، 9.

والصدقة تطفي الخطيئة، كما يطفئ الماء النار، لذلك يزكو بها القلب. وزكاته تزيد من طهارته من الذنب. والزكاة تكفّر الذنوب، قال تعالى:(لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ) [1]. وهي سبيل إلى رحمة الله، قال تعالى:(وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآَيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ) [2]. وقد أشار القرآن الكريم في سورة التوبة إلى الفئة التي أذنبت ولكنها عادت فاعترفت بذنبها. فخلطت عملاً صالحاً وآخر سيئاً. وعندما طلبت المغفرة من ربها، أمر الله سبحانه رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم بأن يأخذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها حتى يقبل توبتهم، قال تعالى:(وَآَخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآَخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (102) خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (103) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ).
وبذلك تكون الصدقة تطهيراً للنفس وتزكية لها. ولا تخلو الصدقة من دعاء للمتصدق. وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم "إذا أتي بصدقة قوم صلى عليهـم... " [3]. والدعاء لا يرد، وفي ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم "حصنوا أموالكم بالزكاة، وداووا مرضاكم بالصدقة، واستقبلوا أمواج البلاء بالدعاء والتضرع" [4].

ويذكر أن المسلمين أقدموا بنشاط وحماس على إنفاق الفضل في سبيل الله بعد أن أدركوا حقيقة هامة وهي أن المال لله، استخلفهم فيه، فهان عليهم كل شيء، حتى أن منهم من أنفق المال على خصاصة وحاجة، وآثروا غيرهم على أنفسهم وأولادهم، مصداقاً لقوله تعالى:(وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ) [5]. فقد سجّل التاريخ من أبي طلحة الأنصاري مثالاً نادراً للسخاء والإيثار، فقد روى البخاري عن أبي هريرة قال "أتى رجلٌ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسولَ الله، أصابني الجَهدُ. فأرسلَ إلى نسائه فلم يجدْ عندهنَّ شيئاً، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: ألا رجلٌ يُضيفُهُ الليلة يرحمُهُ الله؟ فقام

(1) المائدة، 12.

(2) الأعراف، 156.

(3) نقلاً عن مختصر تفسير ابن كثير للصابوني، ج2، ص 167.

(4) نقلاً عن أسامة الراضي، مرجع سابق، ص 71.

(5) الحشر، 9.

رجلٌ من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله. فـذهب إلى أهلـه فقـال لامرأتـهِ: ضـيفُ رسـول الله صلى الله عليه وسلم لا تَدَّخريه شيئاً. فقالت: واللَّهِ ما عندي إلاّ قُوتُ الصِّبْية. قال: فـإذا أراد الصِّـبية العَشاءَ فَنَوِّميهم، وتعالَيْ فأطفِئي السِّراجَ ونَطْوي بُطونَنا الليلةَ. ففَعلَتْ" [1].

د. العلاج بالحج:

الحج مؤتمر سنوي للمسلمين يلتقون فيه على صعيد واحد من العقيدة والغاية والمشاعر، في جوّ ديني إيماني، يستمدون منه دفعة روحية يصححون فيها ما وقع من انحراف في عقيدتهم، وفساد في سلوكاتهم، وما اعتراهم من وهن بتأثير الحضارات الأخرى، وتقليد شعوبها على غير بصيرة.

والحج علاج لأمراض القلوب؛ فهو علاج للكبر والزهو والعجب بالنفس والتعالي على الآخرين. يتعلمون فيه التواضع وهم يخلعون ثيابهم الفاخرة ويلبسون ثياب الحج البسيطة، وتتذلل أنفسهم خاشعة لله بترك الملذات والشهوات، فيتساوى الناس فيها جميعاً؛ غنيهم وفقيرهم، رئيسهم ومرؤسهم، عربهم وعجمهم، أبيضهم وأسودهم، كلهم في مظهر إحرام واحد. يهتفون بلغة واحدة وبصوت واحد "لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيّك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك". كما يحرر الحج القلوب من الحقد والحسد والكراهية، ويقوي روابط المحبة والمودة.

والحج علاج للجبن والضعف، فقد روى الحسن بن علي أن "رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إِني جَبان، وَإِني ضَعِيف، فقال: هَلُمَ إلى جِهاد لا شَوْكَه فِيه: الحَـجُ" [2]. فالحَج جِهاد لِلنَفْسِ وَتَدْرِيب عَلَى تَحمّل المَشَاق، وَالتَعَب والتَشَعث والتَغَبر لله. كما يتعود الحاج ضبط النفس وتهذيبها والسيطرة على الشهوات؛ فيحرّم عليه أن يباشر النساء أو أن يجادل أو يؤذي أحداً أو يخاصم أو يسب أو يرتكب المعاصي، بل عليه أن يستغل هذه المناسبة لفعل الخيرات، ومعاملة الناس بالحسنى، مصداقاً لقوله تعالى:(الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ)[3].

---

(1) رواه البخاري.

(2) السيد سابق، مرجع سابق، ص 626، صحيح مسلم، حديث رقم (3306) رواه قتيبة بن سعيد.

(3) البقرة، 197.

والحج يحرر القلوب من كل رق، ويحررها من قيود المجتمع، والتمرد على الانقياد والخضوع لغير الله، والاعتراف بالعجز والخشوع والتضرّع لله والاعتراف بتنزيهه. والحج يرسخ الهوية الإسلامية التي ارتضاها الحاج لنفسه، فهم مسلم مع ملايين المسلمين الذين جاءوا من كافة أنحاء الأرض ليؤدوا هذه الشعيرة، تجمعهم وحدة العقيدة، ووحدة الألوهية ووحدة الغاية. فهم يؤمنون بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً. وفي ذلك ضمان انتصار الهوية الإسلامية على القوميات والعنصريات والوطنيات المحدودة.

كما أن الحج المبرور يحرر النفوس من مشاعر الذنب؛ ففيه مغفرة شاملة وعافية نفسية، وفيه الفوز بالجنة، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من حجَّ للَّهِ فلمَ يَرفُثْ ولم يَفْسُقْ رَجَع كيومِ ولدَتْهُ أمُّه"[1]. وبذا تطمئن النفوس إلى أنها رجعت من الحج كيوم ولادتها، نقية من الذنوب والخطايا. فقد غفر الله لها، فلا شعور بالذنب ولا لوم للنفس ولا قلق واكتئاب. وروى عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " تابِعُوا بَيْنَ الحَجِّ والعُمْرَةِ فإنهُما يَنْفِيَانِ الفَقْرَ والذنُوبَ كَمَا يَنْفِي الكِيْرُ خَبَثَ الحَدِيدِ والذهَبِ والفِضةِ، ولَيْسَ للحَجَّةِ المبرُورَةِ ثَوَابٌ دُونَ الجَنَّةَ"، "وَمَا مِن مُؤمِن يَظَلُّ يَوْمَهُ محْرُماً إلا غَابَتِ الشَّمْسُ بِذنُوبِه"[2]. وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة"[3]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إنَ مِنَ الذنُوب ذُنوباً لا يُكَفِّرها إلا الوُقُوف بِعَرَفَةَ"[4]. وبذا تزداد صلة العبد بربه ويزداد تقرباً إليه، فينشرح صدره للإيمان، ويشعر بالأمن والطمأنينة وراحة البال.

ويشعر الحاج بأن حياته لها معنى، وأنه تمكّن بفضل الله، من تحقيق إنجاز هام فيها. فالحج المبرور إنجاز باق ثوابه الجنة، فيشعر بالرضا عن نفسه وعن ما حققه، ويزداد ثقة بنفسه واحتراماً لذاته. كما يستشعر الحاج اقتراب شخصيته الواقعية من الشخصية التي كان يتمناها لنفسه. ويجسد هذا الإنجاز الالتزام بطاعة الله، ويرسخ التقوى في نفسه، ويحثه على الحفاظ على صفحته النفسية بيضاء نقية من المعاصي بعد أن قطع عهداً على نفسه بأن لا يعصي الله أبداً. كما يستثير الحج دافعيته لتحقيق المزيد من الطاعات بعد أن استشعر قيمة ما حققه من إنجاز.

(1) رواه البخاري ومسلم.
(2) رواه النسائي (انظر السيد سابق، ص 626-627).
(3) رواه مسلم، صحيح مسلم، حديث رقم (3242).
(4) نقلاً عن الإبشيهي، مرجع سابق، ص 24، حديث رقم (3631)، رواه زهير بن حرب.

وعندما يقف الحاج في المواقع التي وقف فيها رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم والشـهداء والصديقون والسابقون تتضح لديه السيرة النبوية العظيمـة، وتتعـزز لديـه الـروابط العاطفيـة مـع النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الأبرار، فيزداد ثقة بتاريخه المجيد ويستمد منه الإيمان الصادق والعزيمة والبطولة والشهادة في سبيل الله، فتهون عليـه الـدنيا وزخرفهـا، ويمـارس الطاعـة الحقيقيـة الخالصة لوجه الله تعالى.

- **العلاج بالذكر:**

يقول الله سبحانه وتعالى(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ) [1]، أي اذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي وبرحمتي. وفي الحديث الصحيح يقولُ اللَّه تعالى: "أنا عندَ ظنِّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرَني في مَلأٍ ذكرته في مَلأٍ خيرٍ منهم، وإن تَقرَّب إليَّ شِبراً تقرَّبتُ إليه ذراعاً، وإن تقرب إليَّ ذِراعاً تقرَّبتُ إليه باعاً، وإن أتاني يَمشي أتيته هَرْوَلة" [2]. وعليه، فإن من أفضل حال الإنسان ذكره لله رب العالمين والاشتغال بالأذكار الواردة عن رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم.

وذكر الله ليس كلمة تجري على اللسان، بل ذكر الله في النفس، رغبة ورهبة، وخوفاً وطمعاً ودون الجهر من القول، قال سبحانه:(وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ (205) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَايَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ)[3]. فهو الذكر الذي يتمثل في التضرع إلى الله والابتهال إليه وفي الخوف من عقابه، والرغبة في استجابته، فهو القادر على كل شيء وعنده خزائن كل شيء. وهو ذكر كذكر الملائكة في الليل والنهار دون انقطاع. وهو ذكر في النفس دون الجهر من القول، أي ليس نداء وجهراً بليغاً، فالله سبحانه سميع قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه. والدعاء لا يرّد صاحبه، قال تعالى:(ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)[4]. وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال "يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ وَمَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، وَمَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرُ لَهُ" [5]. وقد ذهب إلى هذا المعـنى

---

(1) البقرة، 152.

(2) أخرجه الشيخان والترمذي (الشيباني، ج2، ص 105).

(3) الأعراف، 205-206.

(4) غافر، 60.

(5) نقلاً عن سنن أبي داوود، حديث رقم (1315).

عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين قال "إني والله لا أخشى من عدم الإجابة ولكن أخشى أن لا أوفق للدعاء. فإن وفقت للدعاء فالإجابة مضمونة" [1].

ولا تنحصر فضيلة الذكر في التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل ونحوها، بل تشمل كل عمل يقصد به طاعة الله سبحانه وتعالى. ويكون الذكر بالقلب واللسان معاً، فإن اقتصر على أحدهما فالقلب أفضل، ذلك أن المراد من الذكر حضور القلب، لذا ينبغي أن يحرص المسلم على تدبر ما يذكر ويدرك معناه، فالتدبر في الذكر ضروري كما في قراءة القرآن الكريم لاشتراكهما في الغاية والهدف.

فالذكر يقرّب المؤمن من ربه، فيشعر بالطمأنينة والسكينة وهدوء البال فيبعد القلق والهم وتبعد الأفكار الوسواسية. كما يشعر المؤمن بالقوة والثقة لأنه في حماية الله ورعايته، قال سبحانه:(الَّذِينَ آَمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)[2]، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لاَ يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِلاَّ حَفَّتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ" [3].

والاشتغال بذكر الله سبيل إلى مغفرة الذنوب ونيل الأجر، قال تعالى: (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا)[4]. وهو السبيل إلى كسب الحسنات ومحو السيئات، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " كلمتانِ خفيفتانِ على اللسانِ، ثقيلَتانِ في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحانَ الله العظيم، سبحانَ اللهِ وبحمده، سبحان الله العظيمِ" [5].

---

(1) نقلاً عن أسامة الراضي، مرجع سابق، ص 70.

(2) الرعد، 28.

(3) أخرجه مسلم والترمذي (النووي، ج2، حديث رقم، 1449).

(4) الأحزاب، 35.

(5) رواه البخاري.

والــذكر طريــق تزكيــة الــنفس وطهارتهــا ونقــاء جوهرهــا وطريــق الفــلاح، قــال تعالـــى:(وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)[1]. فهو يطرد اليأس ويجـدد الحيـاة في القلـوب، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "مَثَلَ الذي يَذكرُ ربَّه والذي لايَذْكرُ ربه مَثلُ الحي والميِّت"[2].

وفي الذكر علاج لأمراض القلوب، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ذِكْرُ الله شِفَاء القُلـوب"[3] وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم أصحابه كثيراً من الأذكار لتكون لهم شفاء مـن أمـراض القلوب والأبدان. ومن الجدير بالذكر أن الرقية الشرعية تقتضي الاعتقاد الصادق من كل من الراقـي والمرقي بأن الله وحده الشافي، وأن لا شفاء إلا شفاؤه. كما تقتضي أن تكون مـادة الرقيـا مـن القـرآن الكريم أو ما أثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم. وقد ورد في الطب النبوي لابن القيم أن كل مرض له رقية خاصة به، وهناك ما هو عام لكل شكوى، ولكن لا يتسع المقام لذكرها جميعاً، لذلك سـيتم إيراد بعض منها فقط.

- **في علاج الفزع:**

روى عمرو عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليـه وسـلم كـان يعلّمهـم مـن الفـزع كلمات "أعُوذُ بِكَلِمَاتِ الله التَّامَّةِ مِنْ غَضَبِهِ وَشَرِّ عِبَادِهِ وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُونَ"[4].

- **في علاج الخوف:**

يتم علاج الخوف بالثناء على المريض بمحاسـن أعمالـه ليـذهب خوفـه ويحسـن ظنـه بربـه سبحانه، فعن ابن عباس أنه قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين طعن وكأنه يجزِّعـه "يـا أمـير المؤمنينّ! ولا كلّ ذلك، فقد صحبت رسول الله صلى الله عليـه وسـلم فأحسـنت صـحبته، ثـم فارقـك وهو عنـك راض، ثـم صـحبت المسـلمين فأحسـنت صـحبتهم، وإن فـارقتهم لتفـارقنهم وهـم عنـك راضون. وقال عمر رضي الله عنه "ذلك من منّ الله تعالى" [5].

وقد استأذَنَ ابنُ عباسٍ ـ قَبْل موتها ـ على عائشةَ وهي مَغلوبةٌ، قالت: أخشى أن يُثنى عـليّ، فقيل: ابنُ عمٍّ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ومِن وُجوهِ المسلمين، قالت: ائذَنوا له. فقال:

---

(1) الجمعة، 10.

(2) رواه البخاري (النووي، ج2، حديث رقم 27/ 1435). (2) رواه البخاري.

(4) رواه البخاري والترمذي في السنن، حديث رقم (3893) رواه موسى بن إسماعِيل عن حمَّاد عن محمد بن إسحاق عن عمـرو بنِ شعيب.

(5) رواه البخاري.

كيفَ تجِدينَكِ؟ قالت: بخيرٍ إنِ اتقيتُ الله. قال: فأنتِ بخيرٍ إن شـاء الله، زوجـةُ رسـولِ الله صـلى الله عليه وسلم، ولم يَنكِحْ بِكراً غيرَكِ، ونزَلَ عُذرُكِ من السماء" [1].

- **في علاج الأرق:**

عن زيد بن ثابت قال: شكوت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أرقاً أصابني، فقال "قـل: اللَّهُمَّ غَارَتِ النُّجُومُ، وَهَدَأتْ الْعُيُونُ، وَأَنْتَ حَيٌّ قَيُّومٌ، لاَ تَأْخُذُك سِنَّةٌ وَلا نَوْمٌ، يَا حَيْ يَـا قَيـوم أهـدِ لَيْلِي وَأَنِم عَيْنِي، فَقُلْتَها، فَأَذْهَبَ الله عَنِي مَا كُنْتُ أجِد" [2].

- **في علاج الكرب والغم:**

عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول عند الكـرب "لاَ إِلـهَ إِلاَّ اللّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ الْكَرِيمُ، لاَ إِلهَ إِلاَّ اللّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِـيمُ، لاَ إِلـهَ إِلاَّ اللّهُ رَبُّ السَّـمَاوَاتِ وَرَبُّ الأَرْضِ ورَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لاَ إِلهَ إِلاَّ اللّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمُ، لاَ إِلهَ إِلاَّ اللّهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَرَبُّ الأَرْضِ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمُ" [3]، وفي رواية لمسلم إن النبي إذا حزبه[4] أمر قال ذلك. وعن أنس عن النبي صـلى الله عليـه وسلم أنه كان إذا كربه أمر قال "يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أسْتَغِيثُ" [5].

- **في علاج الوساوس القهرية:**

قال سبحانه:﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[6]. وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "يأتي الشيطانُ أحدَكم فيقول: من خَلَقَ كذا ؟ من خَلقَ كذا ؟ حتى يقول: من خَلقَ ربَّك ؟ فإذا بلَغَهُ فَليَسْتعِذْ باللهِ ولْيَنْتَهِ" [7]. وعن عثمان بن أبي العاص قال: قلت يَا رَسُولَ اللّهِ إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ صَلاَتِي وَقِرَاءَتِي. يَلْبِسُهَا عَلَيَّ. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ : "ذَاكَ شَيْطَانٌ يُقَالُ لَهُ خِنزَبٌ. فَإِذَا أَحْسَسْتَهُ فَتَعَوَّذْ بِاللّهِ مِنْهُ. وَاتْفِلْ عَلَى يَسَارِكَ ثَلاَثاً. قَالَ: فَفَعَلْتُ ذلِكَ فَأَذْهَبَهُ اللّهُ عَنِّي"[8].

---

(1) رواه البخاري.

(2) ورد في كتاب ابن السني، نقلاً عن محيى الدين أبي زكريا النووي، الأذكار، ص 81.

(3) رواه البخاري.

(4) أي أصابه غم.

(5) رواه الترمذي في سننه، وقال الحاكم هذا حديث صحيح الإسناد.

(6) الأعراف، 200.

(7) رواه البخاري ومسلم.

(8) رواه مسلم.

وعن أَبِي الدَّرْدَاءِ ، قَالَ: "قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يُصَلِّي فَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ". ثُمَّ قَالَ: أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللَّهِ ثَلاَثاً. وَبَسَطَ يَدَهُ كَأَنَّهُ يَتَنَاوَلُ شَيْئاً فَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الصَّلاَةِ قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ سَمِعْنَاكَ تَقُولُ فِي الصَّلاَةِ شَيْئاً لَمْ نَسْمَعْكَ تَقُولُهُ قَبْلَ ذلِكَ وَرَأَيْنَاكَ بَسَطْتَ يَدَكَ قَالَ: "إِنَّ عَدُوَّ اللَّهِ إِبْلِيسَ جَاءَ بِشِهَابٍ مِنْ نَارٍ لِيَجْعَلَهُ فِي وَجْهِي فَقُلْتُ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ. ثُمَّ قُلْتُ أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللَّهِ فَلَمْ يَسْتَأْخِرْ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ أَرَدْتُ أَنْ آخُذَهُ وَاللَّهِ لَوْلاَ دَعْوَةُ أَخِينَا سُلَيْمَانَ لأَصْبَحَ مُوثَقاً بِهَا يَلْعَبُ بِهِ وِلْدَانُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ" [1]. وعليه، فإن أحسن ما يقوله من بُلي بوسوسة الشيطان هو ما أمرنا بقوله سبحانه وأدبنا به.

وروى النووي في الأذكار بإسناد صحيح في رسالة أبي القاسم القشيري عن أحمد بن عطاء الروذباري، قال "كان لي استقصاء في أمر الطهارة، وضاق صدري ليلة لكثرة ما صببت من الماء ولم يسكن قلبي، فقلت: يا رب عفوك عفوك، فسمعت هاتفاً يقول: العفو في العلم، فزال عني ذلك. وقال بعض العلماء، يستحب قول لا إله إلا الله لمن ابتلي بتكرار الوضوء" [2].

- **في علاج ما استصعب من أمور:**

عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "اللَّهُمَّ لا سَهْلَ إلا مَا جَعَلْتَهُ سَهْلاً، وَأَنْتَ تَجْعَلَ الحزْنَ[3] سَهْلاً" [4].

- **في علاج الغضب:**

عن سليمان بن صُرَد قال: كنت جالساً مع النبي صلى الله عليه وسلم ورجلان يستبان وأحدهما قد احمّر وجهه، وانتفخت أوداجه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إِنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَها لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ، لَو قال: أَعُوذُ باللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، ذَهَبَ عنه مَا يَجدُ، فقالوا له: إِنَ النَبِي صلى الله عليه وسلم قال: تعوذ بالله مِنَ الشَيطانِ الرَجِيم، فقال: وَهَلْ بِي مِنْ جُنُون" [5]؟ وَعَنْ عَائِشَة رَضِي الله عَنْها قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيّ النبي صلى الله عليه وسلم وَأَنَا غَضْبَى، فَأَخَذَ بِطَرَف المِفْصَل مِنْ

---

(1) رواه مسلم.

(2) انظر: النووي في الأذكار، مرجع سابق، ص 108-109.

(3) غليظ الأرض وخشنها.

(4) رواه ابن حبان في صحيحه، رقم 2427/ موارد، وهو حديث صحيح، حديث رقم (2892) رواه أبو غسان المسمعي.

(5) رواه مسلم، حديث رقم (6599) رواه نصر بن علي الجهضمي ورواه البخاري (5909).

أَنْفِي فَفَرَكَهُ، ثم قال "يَا عُوَيْش قولي: اللَّهُمَّ اغْفِر لِي ذَنْبِي، واذْهَب غَيْظ قَلْبِي، وَأَجِرْنِي مِنَ الشيطانِ" [1].

– **العلاج النفسي بالقرآن الكريم:**

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لِكُلِّ داءٍ دَوَاءٌ" [2] و"خير الدواء القرآن" [3]، وقال سبحانه:(وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ)[4]. فالقرآن الكريم شفاء لما في الصدور من مرض الجهل والغي. فالجهل مرض دواؤه العلم، والغي مرض دواؤه الرشد. فكلامه سبحانه هدى ورحمة لمن آمن به وشفاءً تاماً لما في الصدور. فالقرآن الكريم خير دواء إذا أحسن المريض الاستشفاء به، ووضعه على الداء بإيمان صادق واعتقاد جازم واستكمال لشروطه. وفيما يلي أمثلة لرقى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بها إذا حلّ المرض بالمريض أو توهمه.

أ. الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم:

ب. **قراءة آية الكرسي**[5] **قبل النوم:** فعن أبي هريرة قال "وكّلني رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آتٍ وجعل يحثو من الطعام...، فقال: دعني فإني أعلمك كلمات ينفعك الله بها، قلت: ما هن؟ قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي فإنه لا يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فخليت سبيله، فأصبحت. فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما فعل أسيرك البارحة؟ فقلت: يا رسول الله زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها فخليت سبيله، قال: ما هي؟ قلت: قال لي: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية:(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)وقال لي: "لا يزال عليك من الله حافظ، ولن يقربك شيطان حتى تصبح، فقال النبي: أما إنه قد صدقك وهو كذوب، تعلم من تخاطب منذ ثلاث يا أبا هريرة؟ قلت: لا، قال: ذلك شيطان" [6].

---

(1) انظر: ابن السني، حديث رقم 449، النووي في الأذكار، ص 257.

(2) رواه مسلم في صحيحه عن جابر ابن عبد الله.

(3) رواه ابن ماجة في سننه، من حديث علي، حديث رقم 3501، وإسناده حسن.

(4) الإسراء، 82.

(5) البقرة، 255.

(6) رواه البخاري، كتاب الوكالة.

ج. **قراءة الآيتين الأخيرتين من سورة البقرة:** فعن عبد الله بن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "مَنْ قَرَأَ الآيَتَيْنِ الأخِيرَتَيْنِ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ"[1]، أي كفتاه من قيام ليلة أو قيل كفتاة من الشيطان، أو كفتاه من بقية أذكار النوم.

د. **قراءة سورة الإخلاص والمعوذتين ثلاث مرات:** فعن معاذ بن عبد الله بن خبيب عن أبيه قال: "خَرَجْنَا فِي لَيْلَةٍ مَطِيرَةٍ وظُلْمَةٍ شَدِيدَةٍ نَطْلُبُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يُصَلِّي لَنَا قَالَ فَأَدْرَكْتُهُ فقالَ: قُلْ . فَلَمْ أَقُلْ شَيْئاً. ثُمَّ قالَ: قُلْ فَلَمْ أَقُلْ شَيْئاً. قالَ قُلْ. فَقُلْتُ مَا أَقُولُ قال قُلْ: قُلْ {هُوَ الله أَحَدٌ} وَالمُعَوِّذَتَيْنِ حِينَ تُمْسِي وتُصْبِحُ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ تَكْفِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ"[2]. وعن عائشة رضي الله عنها قالت "إن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث"[3].

هذا وهناك أحاديث كثيرة وردت في فضل قراءة سور من القرآن الكريم في اليوم والليلة، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "مَنْ قَرَأَ يَس فِي يَوْمٍ وَلَيْلَة غُفِرَ لَهُ"[4].

ويصور ابن تيمية آلية الشفاء بالقرآن الكريم بقوله "والقرآن شفاء لما في الصدور، ومن في قلبه أمراض الشبهات والشهوات. ففيه من البينات ما يزيل الحق من الباطل، فيزيل أمراض الشبهة المفسدة للعلم والتصور والإدراك، بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه. وفيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب والقصص التي فيها عبرة ما يوجب صلاح القلب، فيرغب القلب فيما ينفعه ويرغب عما يضره. فيبقى القلب محباً للرشاد مبغضاً للغيّ، بعد أن كان مريداً للغيّ مبغضاً للرشاد. فالقرآن مزيل للأمراض الموجبة للإرادات الفاسدة، حتى يصلح القلب فتصلح إرادته، ويعود إلى فطرته التي فطر عليها، كما يعود البدن إلى الحال الطبيعي. ويغتذي القلب من الإيمان والقرآن بما يزكيه ويؤيده، كما يغتذي البدن بما ينميه ويقوّمه، فإن زكاة القلب مثل نماء البدن"[5].

وهكذا يمكن القول بأن الرقيا بالقرآن الكريم تعدّ خير علاج لأمراض القلوب فهو أفضل الذكر. ويفضل سماع المريض للقرآن الكريم أكثر من قراءته بنفسه. فالمريض متعب يشقّ عليه جمع أعباء القراءة والاستيعاب معاً، لذا ينصح بسماعه من قارئ حسن

(1) رواه البخاري.

(2) رواه الترمذي في سننه.

(3) رواه البخاري ومسلم.

(4) رواه ابن السني في علم اليوم والليلة والدارمي في سننه، حديث رقم (3222) رواه يحيى بن يحيى عن مالك عن سعيد بن أبي سعيد المقبري.

(5) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ص 95-96.

الصوت هادئه، ليخلد المريض إلى الراحة ويشعر بالطمأنينة. وقد طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عبد الله بن مسعود أن يقرأ عليه القرآن، فقال له: يا رسول الله: أأقرأه عليك وعليك نزل؟ فقال صلى الله عليه وسلم: "إني أحب أن أَسمَعَهُ من غيري"[1].

وإضافة إلى الرقيا بالقرآن الكريم، يستخدم بعض الأطباء النفسيين[2] طريقتين إضافيتين تجمعان بين العلاج المعرفي والعلاج النفسي بالقرآن الكريم هما: العلاج بتأمل ذكر الله والعلاج بتزكية السمات.

يدور العلاج بتأمل ذكر الله حول تعديل أفكار المريض ومفاهيمه المشوهة عن نفسه، والتحكم الذاتي في عملية التفكير بطرد الأفكار المشوهة والسلبية وإحلال أذكار أخرى محلها بقراءة القرآن الكريم مثلاً وذلك في جو يسمح بتأمل ذكر الله.

ويبدأ هذا العلاج بتهيئة المكان المناسب للتأمل من حيث الإضاءة والحرارة والهدوء والبعد عن المثيرات المشتتة للانتباه، وبالجلسة المريحة، واللباس المريح الذي يساعد على الاسترخاء...، ثم يطلب إلى المريض التنفس ببطء وعمق وبانتظام، وأن يلاحظ تنفسه الهادئ العميق. بعدها يطلب إليه أن يغلق عينيه لمدة خمس دقائق ثم يفتحها ويركز نظره على هدف ثابت لا يثير الانتباه. ويُمنع المريض من السرحان أو التفكير في أي موضوع، بل عليه أن يلاحظ جسده المسترخي وأنفاسه المنتظمة ويتابع دخول الهواء وخروجه من أنفه ورئتيه. وأخيراً يطلب إلى المريض أن يردد كلمات أو عبارات من مثل "سبحان الله" أو "الله أكبر" أو "الحمد لله" أو قراءة المعوذتين أو قراءة آية الكرسي أو الأذكار الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، على أن تتم القراءة والترديد بعمق وتمعن حتى يتردد صداها في كيان المريض وأن يشبع عقله بها، وأن يطرد من ذهنه أية فكرة سلبية فور ظهورها إلى حيز الشعور. فلا يسمح لذهنه بالشرود. ويستمر هذا التدريب إلى حوالي نصف ساعة أو يزيد. ويفضل أن يتم التدريب عقب الشعور بالمخاوف والأفكار السلبية التي تثير مراكز الانفعال بما يؤدي إلى القلق أو الاكتئاب أو الوساوس القهرية...الخ. وينصح مريض الاكتئاب والحزن بترديد الأذكار بصوت قوي ومرتفع نوعاً ما لإثارة الجهاز العصبي والدافعية لديه، فيما ينصح مريض القلق والمخاوف المرضية، بالترديد بصوت عميق وهادئ وبطيء وبانتظام لتأكيد الذات والثقة بالله وبالنفس.

---

(1) نقلاً عن: ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ص 95-96.

(2) انظر: رامز طه محمد، العلاج النفسي بالقرآن.

ويمكن عمل جدول دوري خاص للتأمل بذكر الله بتحديد نوع الانفعال (قلق، حزن، اكتئاب...) وشدته (يمكن استخدام التدريج الخماسي أو العشري لهذه الغاية) وتحديد الأفكار الانهزامية السلبية وشدتها (على تدريج خماسي أو عشري) وذلك قبل البدء بالعلاج. بعد ذلك يتم العلاج كما ذكرنا آنفاً، ثم يتم تحديد درجة التحسّن وانخفاض حدّة الانفعالات جراء البرنامج العلاجي المعتمد. هذا ولعل من الجدير بالذكر أن التكرار المقصود في هذا النوع من العلاج النفسي هو ليس الترديد الآلي بل الترديد الذي يتضمن تصديق القلب بإيقاظ المشاعر وتحريك القلب. ولا يتم ذلك إلا بالتأمل في معنى كل كلمة وكل لفظ يصف قدرات الله سبحانه وآياته، وأن يستشعر المريض دلالة اللفظ وأهميته بكل كيانه. فذكر الله يرتبط دوماً بحضور القلب والمشاعر. والتفكير يؤثر في المشاعر ويتأثر بها.

أما بالنسبة إلى العلاج القرآني بتزكية السمات، فيدور حول تزكية سمات شخصية يفتقر لها المريض ككظم الغيظ مثلاً. ويكون ذلك بترديد آيات من القرآن الكريم تحض على تلك السمات وتزكيها، كقوله سبحانه:(فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ)[1]، وقوله تعالى(وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)[2]. ولا يكون الترديد آلياً، بل يقتضي استشعار المريض ووعيه لمعاني الآيات الكريمة بوجدانه، وبتأمل معنى كل كلمة يقوم بترديدها، وإحياء وتنشيط معاني السمات المرغوبة التي تتضمنها الآيات الكريمة، وغرسها في ذاكرة المريض بحيث تكون حيّة وحاضرة في دائرة انتباهه ووعيه. ولا بد من تكرار ذلك وباستمرار ولمدة لا تقل عن ثلاثة شهور. بعدها يوضع المريض في مواقف تجريبية تقتضي منه ممارسة تلك السمات المذكورة بصورة واقعية ومتكررة. ويتم تحديد درجة نجاحه في ممارسة تلك السمات. فإذا ما حقق المريض نجاحاً في ذلك، عليه أن يكافئ نفسه ذاتياًَ، مادياً ومعنوياً، فور حدوث السلوك، حتى يتم تثبيته، ويزيد احتمال حدوثه مستقبلاً.

ويمكن عمل جدول دوري خاص بتزكية السمات الإيجابية، بتحديد السمات غير المرغوبة في الشخصية (من خوف وغضب وتردد وسرعة وانفعال...) وممارسة تزكية النفس للسمات المرغوبة من خلال تكرار ترديد الآيات القرآنية ذات العلاقة والاستشعار القلبي لمعانيها... كما ذكرنا سابقاً. ثم تحدد درجة النجاح في الممارسة

---

(1) الحجر، 85.

(2) آل عمران، 134.

الواقعية للسمة المرغوبة (على تدريج خماسي أو عشري). وأخيراً تحدد درجة الالتزام بتقديم المكافأة للذات فور حدوث السلوك المرغوب (على تدريج خماسي أو عشري).

ويعتمد نجاح هذه الطريقة في العلاج على رغبة المريض في تعديل سلوكه والتحرر من السمات غير المرغوبة في شخصيته. وتركز على عمليتي الترغيب والترهيب؛ الترهيب من مغبة سوق المعرفة العقلية وراء الرغبات والشهوات دون ضوابط، والترغيب في الآثار الإيجابية المترتبة على تحرير العقل والوجدان والسلوك من سلطة الأهواء والنزعات.

- **العلاج بالصبر:**

الصبر نقيض الجزع، وهو عدم الشكوى، من ألم البلاء، إلى الله سبحانه، فهو رضى عن الله سبحانه ورضى بالوضع الجديد وتقبل له، بعد المصيبة التي قدّرها الله. وعليه، فالصبر جوهر التكيف النفسي مع الواقع الجديد، ودليل نضج الشخصية، ودليل الصحة النفسية، فعن المقداد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنَ، وَمَنْ ابتُلِيَ فَصَبَـر "[1].

والصبر فضيلة وضياء، وهو أفضل عطاء للإنسان، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "مَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهِ. وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ. وَمَنْ يَصْبِرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ. وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ مِنْ عَطَاءٍ خَيْرٌ وَأَوْسَعُ مِنَ الصَّبْرِ"[2]. وعن معقل بن يسار مرفوعاً بلفظ "أفضل الإيمان الصبر والسماحة"[3]. وعليه، يستوجب على المسلم أن يوطن نفسه على احتمال المصائب والأزمات بالصبر دون ضجر. فالابتلاء لا مفر منه حتى يتمايز البشر، قال تعالى:(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُ)[4]. كما قال سبحانه: (أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ)[5].

---

(1) رواه أبو داود في الفتن، باب في النهي عن السعي في الفتنة، حديث رقم 4263.

(2) رواه البخاري في الزكاة، باب الاستعفاف في المسألة، 335/3، ومسلم في الزكاة، باب فضل التعفف والصبر، حديث رقم 1053.

(3) رواه الديلمي في مسند الفردوس عن معقل بن يسار، والبخاري في التاريخ عن عمير الليثي.

(4) محمد، 31.

(5) العنكبوت، 2-3.

وقد ذكر الله الصبر في كتابه العزيز فقال(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)[1]. و قال تعالى: (وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)[2]. وقد أمر سبحانه بالصبر على الملمات والرفق عند النوازل. "والصبر واجب باتفاق المسلمين على أداء الواجبات وترك المحظورات، ويدخل في ذلك الصبر على المصائب عن أن يجزع فيها، والصبر عن اتباع أهواء النفس فيما نهى الله عنه"[3]. فبالصبر تخلص الطاعة ويصحّ الدين وتؤدى الفروض. كما جعل الله سبحانه الإمامة في الدين نتيجة الصبــر واليقين، قال تعالى: (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآَيَاتِنَا يُوقِنُونَ)[4]. فالدين علم وعمل. والعمل لابد فيه من الصبر، بل وطلب العلم يحتاج إلى الصبر أيضاً.

وبالصبر ينال الصابرون أجرهم عند الله، قال سبحانه: (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ[5]. و قال تعالىوَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ)[6]. ولهم الأمن والهداية، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "مَنْ ابْتُلِيَ فَصَبَرَ، وَأعطِيَ فَشَكَرَ، وظُلِمَ فَعَفَا، وَظَلَمَ فَاسْتَغْفَرَ، أُولَئِكَ لَهُمْ الأمنَ وَهُمْ مُهْتَدون"[7]. ويكون حجم الجزاء على الصبر بحجم البلاء، فقد روى الترمذي وابن ماجة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال "إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عُظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ الله إِذَا أَحَبَّ قَوْماً ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَى، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ"[8].

والصبر يربي النفس على تحمل المشاق، وتجديد الهمة لمواجهة مشكلات الحياة وأعبائها. لذلك جاءت الدعوة إلى الاستعانة بالصبر والصلاة، قال سبحانه(يَا أَيُّهَا

---

(1) آل عمران، 200.

(2) لقمان، 17.

(3) ابن تيمية، مجموع الفتاوي، ج10، ص 38-39.

(4) السجدة، 24.

(5) الزمر، 10.

(6) البقرة، 155-157.

(7) ذكره ابن حجر في الإصابة 16/2، وقال في سنده أبو داوود أيضاً وذكر قبل ذلك أنه الأعمى أحد المتروكين، ص 63، الشوكاني.

(8) رواه الترمذي في الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، حديث رق 2396، وابن ماجة، في الفتن، باب الصبر على البلاء، حديث رقم 4031.

الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) [1]. والله يكون مع الصابرين، ويحب الصابرين، ويكون النصر مع الصابرين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "قَد جفّ القلم عَما هُوَ كَائِن، فَلَو أَنَ قُلُوب الخَلْقِ كُلهُم جَمِيعاً أرادوا أَنْ يَنْفَعوكَ بِشيءٍ لَمْ يَقْضه الله لَكَ لَم يَقْدروا عَلَيْهِ، أَوْ أَرَادوا أَنْ يَضُروكَ بِشيءٍ لَمْ يَقْضِه الله عَلَيْكَ لَمْ يَقْدِروا عَلَيْهِ. واعلَمْ أَنْ ما أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيَخطئَكَ، وَمَا أَخْطأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيَصيبكَ. واعْلَمْ أَنَ النَصر مَعَ الصَبر، وَأَنَ الفَرج مَعَ الكرب، وَأَنَ مَعَ العُسْر يُسْراً" [2].

ومن يصبر لا يجزع ولا يقلق إذا لحقه الأذى، ولا ينهار أمام المصائب. فهو يدرك أن ما يصيبه ابتلاء من الله. والابتلاء دليل محبة الله. والصبر يعلّم المثابرة والكفاح في سبيل تحقيق الأهداف ويقوّي الإرادة، قال ابن عباس "ليس من أحد إلا وهو يحزن ويفرح. ولكن المؤمن يجعل مصيبته خيراً وغنيمته شكراً. والأصل أن يكون الإنسان المبتلى بنقم أو بنعم حداً وسطاً، فلا يحزن من جرّاء المصيبة حزناً يخرجه إلى أن يهلك نفسه، ولا يفرح بالنعمة فرحاً شديداً يطغيه حتى يأشر ويبطر" [3]. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه "ما أصابتني مصيبة إلا وجدت فيها ثلاث نِعَمْ: الأولى أنها لم تكن في ديني، والثانية أنها لم تكن أعظم مما كانت، والثالثة أن الله يعطي عليها الثواب العظيم والأجر الكبير" [4].

والصبر عند الملمات والمصائب والأمراض والغم والهم والحزن ... يكفّر الذنوب، قالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إِذَا اشْتَكَى المُؤمِن أَخْلَصَهُ الله مِنَ الذُنوبِ كَمَا يُخلص الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ" [5]. وقال صلى الله عليه وسلم "مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمْرَض مَرَضاً إلاَّ وحَطَّ اللّهُ مِنْ خَطاياه، كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا" [6]، وقال أيضاً "لا تَزالُ الأوْصاب والمَصائِب بالعَبْدِ حَتَى تَترُكُهُ كَالفِضة البَيْضَاء النَقِيَة المَصفّاة" [7]. وقال صلى الله عليه وسلم "ما يصيب

---

(1) البقرة، 153.

(2) رواه أحمد في المسند 176/2، والترمذي رقم 2516 في صفة يوم القيامة، باب 59، وليس فيها: تعرف إليه في الرخاء يعرفك في الشدة.

(3) نقلاً عن: أسامة الراضي، مرجع سابق، ص 71.

(4) المرجع السابق.

(5) رواه البخاري في الأدب المفرد وابن حبان في صحيحه.

(6) نقلاً عن الإبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، ص 779، صحيح مسلم، رواه مسلم، حديث رقم (6511).

(7) نقلاً عن الإبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، ص 779.

المؤمن من وصب ولا نصب ولا غم ولا همّ ولا حزن حتى الشوكة يشاكها إلا كفّر بها من خطاياه"[1].

- **العلاج بالتوبة:**

جعل الله سبحانه في النفس البشرية القدرة على إدراك أخطائها ومحاسبتها، حتى يكون شعورها بالذنب ولومها لذاتها حافزاً لها على التوبة وإصلاح ما فسد فيها من فكر أو مشاعر أو سلوك. ولوم الذات ومحاسبتها – إن كان في حدود الاعتدال – يشير إلى خير صاحبها ونضج شخصيته. أما إذا زاد على حدّ الاعتدال، فقد يتحول إلى مرض نفسيء يصبغ الشخصية بالحزن والقلق والكآبة.

ويقصد بالتوبة الاعتراف بالخطيئة، مع التوحيد، إضافة إلى الرغبة في التحرر من مشاعر الذنب والقلق المرتبطة بها، وعقد النيّة على التخلي عن الذنوب والمعاصي، والندم على ما فات منها، والعزم على عدم العودة إلى الذنب مستقبلاً، والأمل بمغفرة الله ورضاه مع تأكيد خشوع القلب وصدق الضمير. وهذا هو مقصود التوبة النصوح التي تكون سبيلاً إلى الجنة كما في قوله تعالى:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)[2].

والاعتراف بالذنب أمام الله يعد ركناً أساسياً في التوبة النصوح. وقد ذكر الله سبحانه في كتابه العزيز اعتراف آدم وحواء بالذنب عند مخالفتهما أمر الله بقولهما(رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)فقد شكيا نفسيهما إلى الله تعالى طلباً للمغفرة. فالاعتراف بالخطيئة يتضمن شكوى النفس من النفس، وإقضاء بما في النفس إلى الله طلباً للخلاص والغفران. فتزول مشاعر الإثم والخطيئة وتطهر النفس وتستعيد حال طمأنينتها. كما ضرب الله سبحانه مثلاً آخر من الاعتراف بالذنب في قصة يونس الذي ذهب مغاضباً وظن أن لن يقدر الله عليه، فنادى وهو في بطن الحوت: (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

---

(1) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، 492، ومسلم 2573، من حديث أبي سعيد وأبي هريرة، مسند الإمام أحمد، حديث رقم (7985).

(2) التحريم، 8.

ويلخص الغزالي أركان التوبة في كتابه إحياء علوم الدين في ثلاث: علم وحال وفعل. فالعلم هو معرفة ضرر الذنب المخالف لأمر الله، والحال هو الشعور بالذنب، والفعل هو ترك الذنب والنزوع نحو فعل الخير، قال تعالى: (فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)[1]. كما قال سبحانه: (وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى)[2]. ولابد أن يتبع التوبة تعديل السلوك المنحرف إلى سلوك سوي صالح. فمن يعمل السوء بجهالة ثم يتوب ويصلح عمله، يغفر الله له ويدخله جنته.

والإنسان مجبول على الضعف، لذلك فهو معرض للخطأ. والكل يخطئ وباب التوبة مفتوح، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاء، وَخيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ" [3]، وقال أيضاً "وَالَّـذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللّهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللّهَ، فَيَغْفِرُ لَهُ" [4].

فالإسلام يراعي ما في الفطرة البشرية من ضعف إزاء الشهوات، رغم وجود الضوابط. فيعترف للإنسان بضعفه فيخفف عنه بالتوبة، قال تعالى: (يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا)[5]، لذلك يعامله على أساس ضعفه، فيغفر زلاته إذا لم يصرّ عليها، قال سبحانه: (وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (134) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (135)أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ)[6].

ويفرح الله سبحانه بتوبة عبده، قال رسول الله صلى الله عليـه وسـلم "لله أَشَـدُّ فَرَحـاً بِتَوْبَـةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ، مِنْ رَجُلٍ فِي أَرْضٍ دَوِّيَّةٍ مَهْلِكَةٍ. مَعَهُ رَاحِلَتُهُ. عَلَيْهَـا طَعَامُـهُ وَشَرابُـهُ. فَنَـامَ فَاسْـتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ. فَطَلَبَهَا حَتَّى أَدْرَكَهُ الْعَطَشُ. ثُمَّ قَالَ: أَرْجِـعُ إِلَى مَكَـانِيَ الَّـذِي كُنْـتُ فِيـهِ. فَأَنَـامُ حَتَّـى أَمُوتَ. فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ. فَاسْتَيْقَظَ وَعِنْدَهُ رَاحِلَتُهُ وَعَلَيْهَا

---

(1) المائدة، 39.

(2) طه، 82.

(3) أخرجه أحمد في مسنده، ج3، ص 198، والترمذي وابن ماجة والدارمي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع، رقم 4515.

(4) أخرجه مسلم، النووي، ج1، حديث رقم 423/11.

(5) النساء، 28.

(6) آل عمران، 134-136.

زَادُهُ وَطَعامُهُ وَشَرَابُهُ. فَاللهُ أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هذَا بِرَاحِلَتِهِ وَزَادِهِ"[1]. وقد روي أن "الملائكة هنأت آدم عليه السلام لمّا تاب الله عليه"[2]. وعليه، ينبغي أن يكثر الإنسان من التوبة رجاء الفوز بمغفرة الله.

والإيمان ينقص الذنوب. فإذا تاب العبد أحبه الله. وقد ترتفع درجته بالتوبة. فقد قال السلف "كان داود بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة ... فمن قضي له بالتوبة كان كما قال سعيد بن جبير: إن العبد ليعمل الحسنة فيدخل بها النار، وأن العبد ليعمل السيئة فيدخل بها الجنة. ذلك أنه يعمل الحسنة فتكون نصب عينيه ويعجب بها، ويعمل السيئة فتكون نصب عينيه، فيستغفر الله ويتوب إليه منها ... والمؤمن إذا فعل سيئة تندفع عقوبتها بعشرة أسباب، إحداها أن يتوب فيتوب الله عليه. فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له"[3].

والتوبة إصلاح للذات ومانع لها من تكرار المعاصي. وهي علاج لمشاعر الذنب. فالمعاصي بمنزلة الأخلاط الرديئة في البدن، فإذا استفرغ منها استراح البدن. وكذلك القلب، إذا تاب من الذنوب كان استفراغاً من أخلاطه، واستراح القلب من ما كان فيه من فساد. ولا يشعر التائب بحلاوة التوبة وقت المجاهدة، بل بعد تطهير النفس وثبوتها على طريق الصلاح.

والتوبة سبيل إلى مغفرة الذنوب جميعاً. وقد وعد الله عباده بقبول التوبة مهما بلغت الذنوب من كثرتها. فلا ييأس الإنسان من رحمة الله ومغفرته، قال تعالى(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُالذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)[4]. ويستثني من ذلك الشرك بالله، أما ما دونه فيغفره الله، قال سبحانه: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ)[5]. كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "قالَ الله تَبَارَكَ وتعَالى: يا ابنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى ما كانَ فِيكَ وَلاَ أُبَالِي. يا ابنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَت ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلاَ أُبَالِي. يا ابنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئاً لأَتَيْتُكَ

(1) متفق عليه، والدوية: فلاة خالية من الناس.

(2) انظر: النووي، الأذكار، ص 93.

(3) نقلاً عن ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج10، ص 45.

(4) الزمر، 53.

(5) النساء، 48.

بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً" [1]. وإذا غفر الله الذنب زالت عقوبته. فالمغفرة وقاية من شر الذنوب. ومن تمام التوبة فعل الحسنات.

وكان قتادة رضي الله عنه يقول "القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم. أما دواؤكم فالاستغفار، وأما داؤكم فالذنوب" [2]. وكان علي رضي الله عنه يقول "العجب لمن هلك ومعه كلمة النجاة، قيل: وما هي؟ قال: الاستغفار" [3].

- **التحليل النفسي:**

كما هو معلوم، فقد عني علماؤنا المسلمون (من أمثال الغزالي وابن سينا) بسبر أعماق الشخصية وبرعوا في تحليل النفس بما يشمل تحليل السلوك الفردي وتحليل الوظائف النفسية، ولم يقفوا في تحليلهم هذا عند حدود السطح. فقد اعتمد الغزالي[*] منهج التأمل الباطني في دراسة الشخصية وعلاج أمراضها. فهو يرى أن الشخصية لا تدرك، كماهية، إلا من داخل الإنسان. والخبرة الدينية الصوفية، عند الغزالي، خبرة عميقة، لا تقتصر على الخبرة الحسية. فقد بيّن أهمية التأمل الباطني في كتابه "المنقذ من الضلال"، ففيه يقول "ثم لاحظت أحوالي فإذا أنا منغمس في العلائق، وقد أحدقت بي من الجوانب. ولاحظت أعمالي وأحسنها التدريس، فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة، ولا نافعة. ثم تفكرت في نيّتي في التدريس، فإذا هي غير خالصة لوجهه تعالى، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت". ويذكر أن الغزالي اعتزل فترة طويلة استمرت عشرة أعوام قضاها متأملاً بنفسه دارساً لها، مجاهداً إياها ومروّضاً لها، بعد أن أدرك عيوبها.

وقد أرسى علماؤنا المسلمون أسس المنهج التجريبي في دراسة العقد النفسية. فمن المعروف أن العقدة النفسية لا تعرب عن نفسها بصورة علنية، لأنها تستثير اضطراباً وخوفاً زائداً لدى صاحبها، يُلزمه إبعادها عن ساحة الشعور، لذلك يغدو من الضروري استخدام القرائن الدالة عليها لاكتشاف الدلالة الكامنة وراء الخبرة المكبوتة.

ويتم التحليل النفسي للعقد بسماع المريض كلمات مقننة واحدة تلو الأخرى. وتقاس التغيرات التي تطرأ على سرعة نبضات القلب أو على سرعة التنفس أو على

---

(1) أخرجه الترمذي وقال حديث حسن (النووي، ج1، حديث رقم 443/3).

(2) نقلاً عن الإبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، ص 777-778.

(3) المرجع السابق.

(*) لمزيد من المعلومات، انظر: سيرة الغزالي.

كمية التعرّق... الخ. وتقدم هذه المقاييس أدلة على شدة الاستجابة الانفعالية للمريض تجاه الكلمة التي سمعها. فإذا ما دقّ القلب بسرعة، أو أصبح التنفس أكثر عمقاً، أو ازداد تعرق الجسم، أو امتقع لون الوجه، فإن ذلك يعدّ مؤشراَ واضحاَ لوجود عقدة تمت استثارتها لدى المريض.

وقد استخدم ابن سينا هذه الطريقة في اكتشاف العقد لدى المرضى النفسيين، واعتمد تغير سرعة نبضات القلب مؤشراً على وجود عقدة تثيرها الكلمة التي يسمعها المريض. فقد ورد في كتاب "جهار مقالة للسمرقندي" أن "ابن أخت شمس المعالي قابوس ابن وشمكير أمير جرجان وطبرستان، كان في مقتبل الشباب ولم يكن يتجاوز العشرين من عمره، وقد مرض مرضاً شديداً، قلّ فيه طعامه، فضعف جسمه، وهزلت أعضاؤه، واصفرّ لونه، وعجز الأطباء عن مداواته، فلم ينفع فيه دواء، ولم يصلح لحاله علاج. وبعد أن جرّب أهله كافة الأطباء في عصره، ولم يجدوا فائدة على يد أي واحد منهم: سمعوا بشهرة الطبيب البارع ابن سينا فاستدعوه.

اجتمع ابن سينا بالشاب المريض في جلسة طويلة، تعرّف الطبيب فيها على المرض ولكنه أراد التأكد، فماذا فعل؟ طلب ابن سينا أن يأتوه بشخص يعرف جميع أحياء البلدة وشوارعها، فلما حضر الشخص اجتمع به ابن سينا مع الشاب المريض، وطلب من هذا الشخص أن يعدّد له أسماء شوارع البلدة شارعاً شارعاً، وكان ابن سينا يمسك بيده معصم المريض ليتعرف على سرعة نبضه، فعندما وصل الشخص في تعداده إلى اسم شارع معين أسرع نبض المريض، فعلم ابن سينا أن مشكلة المريض تكمن في هذا الشارع دون غيره من الشوارع.

وفي اليوم الثاني طلب ابن سينا أن يأتوه بشخص آخر يعرف جميع البيوت الموجودة في هذا الشارع، وعندما وصل الشخص في تعداده إلى اسم بيت معين، أسرع نبض المريض، فعلم ابن سينا أن المشكلة تحددت في هذا البيت دون غيره من البيوت. وفي اليوم الثالث طلب ابن سينا أن يأتوه بشخص آخر يعرف جميع من يسكن في هذا البيت فرداً فرداً، وعندما وصل الشخص في تعداده إلى اسم فتاة معينة أسرع نبض المريض. هنا تأكد ابن سينا أن الشاب المريض يحب هذه الفتاة حباً شديداَ سيطر عليه، وأوصله إلى هذه الدرجة من المرض والإعياء. ولم يكن لدى الشاب المريض الجرأة على مفاتحة أبويه بهذا الحب العارم، فقد كان الشاب المريض من طبقة الأغنياء والحكام في

المجتمع، والفتاة من عامة الناس وفقرائهم. ولكن أهله عندما علموا من ابن سينا أن شفاء ابنهم في التزوج بهذه الفتاة، عقدوا لهما وزفوها إليه. فشفي من مرضه، وعاد إلى حالته الطبيعية"[1].

- **العلاج بالعقاقير والأدوية:**

لا يعدّ الإسلام العلاج المعرفي والعلاج الإيماني والتحليل النفسي بديلاً عن العلاج بالعقاقير والأدوية لكافة الأمراض النفسية كما يظن بعض الأطباء النفسيين، بل يؤكد استخدامها حيث يجب، غير أنها ليست الأسلوب الوحيد للعلاج. وهذا ما يميز الأسلوب الإسلامي عن الأسلوب الغربي في العلاج.

فقد أمر الإسلام بالتداوي، وجعل لكل داء دواء. إلا أنه نهى عن التداوي بالمحرمات، فعن أبي الدرداء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "إنَّ الله أنْزَلَ الدَّاءَ وَالدَّوَاءَ وَجَعَلَ لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءَ فَتَدَاوَوْا وَلاَ تَتَدَاوَوْا بِحَرَامٍ"[2]. وعن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال "إن الله لم يجعل شفاءكم فيما حرّم عليكم"[3].

وحتى يتحقق الشفاء – بإذن الله – لا بد من إصابة الدواء المطابق للداء، مصداقاً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم "لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ. فَإِذَا أُصِيبَ دَوَاءُ الدَّاءِ بَرَأَ بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ"[4]. ويقصد بذلك استخدام الدواء المناسب وبكمية محددة، مع ضرورة تقبل المريض للدواء واعتقاد منفعته. فعن أبي سعيد الخدري أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال "إن أَخِي يَشْتَكِي بَطْنَهُ (وفي رواية استطلق بطنه) فقال: اسقِهِ عسلاً، فَذَهَبَ ثُمَ رَجَعَ مَرتَينِ أَوْ ثَلاثاً كُل ذَلِك يَقول: اسقِهِ عسلاً، فقال له في الثالثة أو الرابعة: صَدَقَ الله وَكَذبَ بَطْن أَخِيكَ"[5]. فقد برئ المريض بالعسل عندما تحققت الكمية المناسبة من العسل لحصول البرء.

وقد حقق علماؤنا المسلمون ومن أبرزهم ابن سينا والرازي والكندي وابن الجوزي قصب السبق في علاج الأمراض النفسية. فقد اكتشفوا عدداً من الأدوية لهذه الغاية. وفيما يلي أمثلة توضيحية للعلاج النفسي بالعقاقير والأدوية عند ابن سينا[6]:

---

(1) نقلاً عن: معروف زريق، علم النفس الإسلامي، ص 154-155.

(2) أخرجه أبو داود في سننه.

(3) رواه البخاري.

(4) رواه مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله.

(5) رواه البخاري ومسلم، حديث رقم (3680) رواه عبد الله بن إسحاق الجوهري.

(6) نقلاً عن: (لجنة التراث في م.د.ن الأدوية النفسية في التراث العربي)، الثقافة النفسية، ص 69-72.

أ. **في علاج الصرع**: أشقيل (Seilla)، وأظفار الطيب، وأفتيمون (Thymus)، وإكليل الملك (Melilotus)، والخشخاش (Papaver Sonmiferum)، وزراوند (Aristolochia)، وغالية (Zelodite) وآس بري (Myrtus Ruscus)، ونادين (Valeriana)...

ب. **في علاج الميلانخوليا (الاكتئاب):** أشقيل، وأفتيمون، وضرم (Lavendula)، وخربق (Hellbous)، والبندق الهندي، والصبر والخشخاش، وعصبة القلب (Hypericum Perforatum)، وعود الصليب (Paenia)...

ج. **في علاج الجنون والاضطراب العقلي**: أصابع صفر، والبندق الهندي، وعود الصليب، وجزر قرنفلي...

د. **في علاج الهستيريا:** ارطماسيا، وترنجان (Mrlissa Officinalis)، ونادرين، وهيبوفاريقون...

هـ. **في علاج إرهاق الدماغ**: ترنجان، وإكليل الجبل، وجزر قرنفلي، و دهن الورد، ودراج، وسنبل ناردين، وصبر، وعود، وقصعين (Salvia Officinalis)، وهليلج، وهيبوفاريقون، وحنظل، وزراوند، والزهرة، وفاريقون ...

و. **في علاج الاضطرابات العصبية**: ترنجان، وجزر قرنفلي، وخزامي، وزنبق الوادي، وكزبرة، وموهيا، وحشيشة الاوز، وناردين مخزني، وسياليوس، وقرع، وصبر، وعنب الثعلب، وعترة، ونرجس، وخربق، وعود الصليب، وهيبوفاريقون، وأفنسنيتن، وإكليل الجبل...

كما استخدام العرب والمسلمون الخشخاش، والبندق الهندي، وست الحسن، وكف الثعلب في علاج بعض الاضطرابات النفسية.

- **بعض الأمراض النفسية وعلاجها من منظور إسلامي:**

لمّا كان المقام لا يتسع للحديث عن الأمراض النفسية وعلاجها من منظور إسلامي، ارتأينا أن نقصر الحديث على خمسة منها هي: الخوف المرضي، والوساوس القهرية، والاكتئاب،والغضب، والكبر.

- **الخوف المرضي:**

الخوف عند الغزالي هو "احتراق القلب في انتظار مكروه في المستقبل"[1]. وهو انفعال داخلي طبيعي في الإنسان للمحافظة على حياته، يشعر به عندما يواجه خطراً مخيفاً يفاجأ به لأنه لا يتوقعه، ومن أمثلته خوف داود عليه السلام حينما فوجئ، وهو في خلوته، بالخصمين أمامه وقد تسورا المحراب، وكذلك خوف إبراهيم عليه السلام حينما رأى ضيوفه (ولم يكن يعلم بأنهم ملائكة) لا يمدون أيديهم إلى الطعام الذي قدّمه لهم. فالخوف والحال هذه ردّ فعل لخطر وشيك يصعب التكيف معه.

وقد وردت مشتقات لفظ "الخوف" ومرادفاته في القرآن الكريم (كالخشية والفزع والرهبة والرعب والوجل) وأنواع وأسبابه وأعراضه في ما يزيد على (130) آية.

ولا يجوز أن يعدّ الخوف عيباً في الشخصية إلا إذا وصل حدّ الإفراط بحيث أصبح خوفاً دائماً من موضوعات (أشخاص أو مواقف أو أفعال أو أشياء) لا تخيف بطبيعتها (كالخوف من الظلام والخوف من الناس وخوف المنافق من أن يطلّع أحد على نفاقه). والخوف المرضي لا يمكن ضبطه، ولا يستند إلى أساس واقعي يمكنه تبريره، فيحول دون التكيف الاجتماعي أو الشخصي الناجح، ويصعب على صاحبه ممارسة حياته بصورة طبيعية، ويصبح بحاجة إلى علاج نفسي لإعادة تكيفه.

ومن أمثلة الخوف المرضي: الخوف من المرتفعات أو الظلام أو البرق أو الرعد أو المرض أو الموت أو ركوب البحر ... الخ. ويعد الخوف المرضي من الموت أخطر أنواع المخاوف وأشدها على النفس.

ومن أعراض الخوف المرضي: التوتر والارتباك، وتصبب العرق، والتلعثم، وخفقان القلب، وسرعة النبض، والدوار، والقيء، وفقد الشهية، والإغماء (أحياناً)، وجفاف الفم والحلق، واتساع حدقة العين... هذا ومن الجدير بالذكر أن الحدود بين الخوف الواقعي والخوف المرضي متداخلة في الحياة الواقعية، فهي فروق في الدرجة فقط.

---

(1) الغزالي، إحياء علوم الدين، 106/4.

ويكون علاج الخوف المرضي بردّ النفس إلى الفضائل التي تمثل صحة النفس، وتزكية سمات الشجاعة، ونبذ الخوف. كما يكون بتبصير المريض بأفكاره وإدراكاته المشوهة وتوقعاته السلبية، فلن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا. ويمكن استخدام الأدوية المهدئة (المهدئات) للتخفيف من مشاعر الخوف، إن اقتضى الأمر ذلك.

هذا وقد استخدم ابن مسكويه في كتابه "تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق" [1]، أسلوب العلاج المعرفي لعلاج الخوف من الموت. وتدور طريقته في العلاج المعرفي حول "تعديل أفكار المريض حول حقيقة الموت، وأين تصير النفس بعد الموت. فمن يظن أن نفسه ستفنى بفناء بدنه، وأن العالم سيبقى بعده إلى الأبد، أو أن يعتقد أن للموت ألماً عظيماً غير ألم الأمراض، وأن عقوبة ستحل به بعد الموت، أو ما شابه من ظنون، لا شك أنه يخاف الموت أو يرتعد عند ذكره".

ويؤكد ابن مسكويه[2] ضرورة تشخيص أسباب المرض أولاً، ومن خلالها يتم العلاج فهو يرى، مثلاً، أن الخوف من الموت يعود إلى سببين هما:

- **الجهل بحقيقة الموت**: وعليه، يكون على المعالج أن يبين للمريض حقيقة الموت، وأن الموت يعني انفصال الجوهر عن البدن، وأنه نقي من الكدر، وسعد السعادة التامة.
- **الجهل بمصير النفس بعد الموت**: وعليه، يكون على المعالج أن يبين للمريض أن النفس جوهر شريف إلهي، إذا تخلص من الجوهر الكثيف الجسماني فقد سعد وعاد إلى ملكوته وقرب من بارئه.

كما استخدم الماوردي[3] في كتابه "أدب الدنيا والدين" العلاج المعرفي لعلاج الخوف من الموت، فهو يؤكد" ضرورة إشعار المريض بما تعلمه من نزول الفناء وتقضي المسرّ، وأن لها آجالاً منصرمة ومدداً منقضية، إذ ليس للدنيا حال تدوم ولا لمخلوق فيها بقاء". وعليه، فإن الخوف من الموت يعالج بعقيدة الأجل. والأجل بيد الله، ولن تموت النفس حتى تستوفي أجلها المكتوب لها قبل أن تولد، كما في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم "إِنَ أَحَدَكُمْ يُجْمَع خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ فِي أَرْبَعِينَ يَوْماً ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسِلُ الله إِلَيْهِ المَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعٍ يَكْتُبُ رِزْقَهُ

---

(1) ابن مسكويه، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، انظر: نجاتي، دراسات نفسية، ص 90.

(2) المرجع السابق.

(3) الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص 291.

وَأَجَلَهُ وَعَمَلَهُ وَشَقِيٌّ أو سَعِيدٌ" [1]. وقال سبحانه:(وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا) [2].

وهكذا فإن العلاج المعرفي للخوف من الموت يتمركز حول تبصير المريض بحقيقة المـوت وأن كل نفس ذائقة الموت. فقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أقرب الخلـق إلى الله سـبحانه. ويعلم المؤمن أن الله سبحانه كتب آجال البشر وهم أجنة في بطون أمهاتهم، قال تعالى: (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا) [3]. فلن تسـتطيع قـوة أن تميـت المـرء إلا إذا جـاء أجله. وهذه المعرفة تبعث في النفس السكينة.

والمؤمن لا يخشى الموت ويديم ذكره ويُعدّ له. لا بـل ويرغـب فيـه، لأنـه لقـاء الله سـبحانه، لذلك كان دعاء رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم "اللهـم أحببـت لقـاءك فأحبـب لقـائي". فـالمؤمن كالغائب الذي يعود إلى أهله. فهو لا يخاف الموت، ولا يشكّل له مصدراً للقلـق. أمـا الكـافر فيكـره الموت لأنه لم يعدّ له ما يهونه عليه. وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسـلم شـعور الكـافر عنـد الموت بقوله "أما الكافر فكالآبق يعود إلى سيده" [4].

كما ينبغي تصحيح الإدراك الخاطئ لحقيقة الموت. فقد يصاب البعض بالخوف المرضي من الموت خشية مواجهة آلام الموت التي تفوق الاحتمال. فعلى الرغم من أن "لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ" [5] كما يردد النبي صلى الله عليه وسلم قبل وفاته، إلا أن الله سبحانه يطمئن المؤمن التقي بأن موته سيكون سلاماً وبشرى له بالجنة جزاء ورحمة وفضلاً، قال تعالى(الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)[6]. أما الكافر فيكون الموت بداية لعذابه، قال تعالى:(وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ) كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (50) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)[7].

---

(1) سبق تخريجه.

(2) آل عمران، 145.

(3) الأعراف، 34.

(4) رواه الدارمي في المقدمة، 56.

(5) رواه البخاري، حديث رقم 6145، .

(6) النحل، 32.

(7) الأنفال، 50-51.

والموت قبض للروح بإماتة الجسد وانفصالها عن البدن الذي تعلقت به وألفته. وفي علم الله أن خروج الروح عند الموت شيء يكرهه الله، فقد روى أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم روى عن ربه أنه قال "...وما تَرَدَّدْتُ فِي نَفْسِي فِي قَضَاء شَيْءٍ قَضَيْتُ تَرَدُّدِي فِي قَبْضِ عَبْدِي المُؤمِنْ يَكْرَهُ الْمَوتَ وَلابُدَ مِنْهُ وَأَكْرَهُ مَساءَتَهُ" [1] ولكن الله سبحانه يجنب المؤمن هذا العناء.

واستخدم ابن مسكويه العلاج الإيماني لعلاج الخوف من الموت. فقد سأل أبو حيان التوحيدي أبا علي مسكويه عن سبب الجزع من الموت وعلاجه، فأجاب "إن الحياة المحبوبة والعيش المضبوط التي معها صحة البدن، واعتدال المزاج، ووجود الكفاية من الوجوه الجميلة، والتمكن بهذه الأشياء من السعي نحو السعادة القصوى، وتحصيل الصورة المكملة للإنسان مع مساعدة الإخوان الفضلاء، وقرة العين بالأولاد النجباء، والعزّ بالعشيرة وأهل البيت الصالحين كله محبوب مؤثر جيد. ومقابله هو الموت رديء مكروه، لأن هذا الموت ينقطع به ... ولا يكون علاج هذا المرض إلا بعلاج أسبابه، كأن يتجنب الذنوب والرذائل، ويطلب الحسنات والفضائل، ويجتهد في معرفة حقيقة النفس وحقيقة المعاد. فإذا عرف ذلك كله هان عليه أمر الموت" [2].

وما من شك بأن الإيمان بالله والاعتماد عليه يُشعر المريض بالراحة والاطمئنان ويبدد مخاوفه. كما يكون علاج الخوف من الموت بتجديد التوبة، فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له، وبالإعداد للقائه سبحانه بالاطمئنان إلى الصلوات الخمس وغيرها من الصالحات التي تمحى بها الصغائر واللمم. كما يكون الاستعداد للقائه باجتناب الكبائر، فقد قال تعالى:(إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا)[3].

وينبغي الثناء على المريض والتذكير بمحاسن أعماله، وأن يحسن الظن بالله، وأن يكثر من الذكر والأدعية. وقد ورد في سنن أبي داود والترمذي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعلمهم من الفزع كلمات "أَعُوذُ بِكَلِماتِ الله التامة مِنْ غَضَبِهِ وَشَر عِبَادِهِ وَمِنْ هَمَزات الشَياطِين، وَأَنْ يُحْضَرون" [4].

---

(1) الفخر الرازي، التفسير الكبير، ج1، ص 121. رواه البخاري، حديث رقم (6355) نقلاً عن محمد بن عثمان بن كرامة.

(2) ابن مسكويه، الهوامل والشوامل، ص 103.

(3) النساء، 31.

(4) رواه الترمذي وقال حديث حسن/ نقلاً عن النووي، الأذكار، ص 103.

- **الوساوس القهرية:**

قال تعالى:(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (1) مَلِكِ النَّاسِ (2) إِلَهِ النَّاسِ (3) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (4) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (5) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ) [1].

فالوسوسة، كما يرى ابن القيم في كتابه "الروح" "ابتداع ما لم تأتِ به السنة، ولم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أحد من أصحابه، زاعماً أنه يصل بذلك إلى تحقيق المشروع وضبطه كمن يحتاط بزعمه، ويغسل أعضاءه في الوضوء فوق الثلاثة، فيسرف في صب الماء في وضوئه وغسله، ويصرّح بالتلفظ بنية الصلاة مراراً، ويغسل ثيابه مما لا يتيقن نجاسته احتياطاً، ويرغب عن الصلاة في نعله احتياطاً، إلى أضعاف أضعاف هذا مما اتخذه الموسوسون ديناً، وزعموا أنه احتياط. وقد كان الاحتياط باتباع هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وما كان عليه أولى بهم، فإنه الاحتياط الذي من خرج عنه فقد فارق الاحتياط، وعدل عن سواء الصراط. والاحتياط كل الاحتياط الخروج عن خلاف السنة، ولو خالفت أكثر أهل الأرض بل كلهم" [2]. فالشيطان يوسوس في نفوس الناس ليضعف ما فيها من إيمان، ويجعل من العبادة أمراً عسيراً عليهم.

وتقع الوسوسة في العبادات كالنيّة والوضوء والصلاة والحج والصيام، فيدور الشك عند صاحبه حول اكتمال أدائها أو نقصه. وكثيراً ما نرى من يكرر وضوءه، أو يكرر النيّة للصلاة، أو يكرر عبارات الصلاة أو يشك فيها فيعيدها، ومع ذلك تبقى نفسه تشك في أدائها. ويذكر ابن الجوزي أن "رجلاً حضر عند أحد الفقهاء، فقال: كلما انغمس في النهر غمستين أو ثلاثاً لا أتيقن أنه غمرني الماء، ولا أني قد طهرت، فكيف أصنع؟ فقال له الفقيه: لا تصلِّ! فقال السائل: كيف أترك الصلاة؟ قال الفقيه: لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال "رُفِعَ الْقَلَمُ عن ثَلَاثَةٍ: عن الصَّبيِّ حَتَّى يَبْلُغَ، وَعن النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعن المَعْتُوهِ حَتَّى يَبْرَأَ"، ومن ينغمس في النهر مرة ومرتين وثلاثاً، ويظن أنه ما اغتسل فهو مجنون" [3]. هذا وقد أشرنا سابقاً إلى حديث رواه ابن أبي العاص حول وسوسة الشيطان

---

(1) سورة الناس.

(2) ابن القيم، الروح، ص 346.

(3) ابن الجوزي، الأذكياء، ص 69.

في الصلاة حتى يُلبس على المصلي القراءة في الصلاة. وقد كان ردّ رسول الله صلى الله عليه وسلم "ذَاكَ شَيْطَانٌ يُقَالُ لَهُ خِنْزَبٌ. فَإِذَا أَحْسَسْتَهُ فَتَعَوَّذْ بِاللّٰهِ مِنْهُ. وَاتْفِلْ عَلَى يَسَارِكَ ثَلاَثاً". والاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم أمر من الله سبحانه وتعالى لعلاج حال الوسوسة، قال سبحانه: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [1].

ولا تقتصر الوساوس على العبادات، بل تمتد لتشمل العقائد والعادات والمعاملات ... ففي مجال العقائد مثلاً، روى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله ولينته" [2]. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: من وجد من هذا الوسواس شيئاً فليقل "آمنا بالله وبرسله ثلاثاً، فإن ذلك يذهب عنه" [3]. وقال بعض العلماء: أنفع علاج في دفع الوسوسة الإقبال على ذكر الله تعالى والإكثار منه. ويذكر النووي في "الأذكار" قول أحمد بن أبي الحواري "شكوت إلى أبي سليمان الداراني الوسواس فقال: إذا أردت أن ينقطع عنك في أي وقت أحسست به فافرح، فإنك إذا فرحت به انقطع عنك، لأنه ليس شيء أبغض إلى الشيطان من سرور المؤمن، وإن اغتممت به زادك. قلت: وهذا مما يؤيد ما قاله بعض الأئمة: إن الوسواس إنما يبتلى به من كمل إيمانه، فإن اللص لا يقصد بيتاً خرباً" [4].

هذا وينبغي تلقين الموسوس سورتي الفلق والناس، وشرح معاني السورتين، وبيان فضلهما في ردّ الوسوسة. كما تجدر الإشارة إلى أن الفراغ والغفلة عن ذكر الله يعدّان فرصة مناسبة للشيطان للتسلل إلى النفس، لذلك لا بد من إغلاق منافذ الشيطان حتى لا تتسرب الوساوس. ويتحقق ذلك بتوجيه المريض إلى إشغال وقت الفراغ بالأعمال الصالحة، وبالابتعاد عن الوحدة، وتجنب المثيرات التي تقود إلى الوسوسة، وممارسة الرياضة البدنية والاسترخاء العضلي.

وعلى الرغم من أن بعض المراجع الطبية (الحديثة) تشير إلى النتائج الفاعلة لعقار الاكسيتوسين، إلا أن للعلاج المعرفي الدور الحاسم في علاج الوساوس القهرية في الإسلام. وتتلخص مهمة المعالج في مساعدة المريض على تعديل أفكاره غير المنطقية،

---

(1) الأعراف، 200.

(2) سبق تخريجه.

(3) كتاب ابن السني.

(4) النووي، الأذكار، ص 109.

وتوضيح حكم الوسوسة في الإسلام، والرخص الشرعية التي يتمتع بها الموسوس لغايات ضبط الذات وتقوية الإرادة، وعاقبة طاعة الشيطان بالتمادي في هذه الوساوس، وضرورة الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم (كما ذكرنا سالفاً). فالوساوس خواطر من الشيطان تتحول إلى أفكار ومشاعر وسلوك، تهجم على الإنسان قسراً، فلا يسئل عنها، فقد روى أبو هريرة قال "جاء ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النبي فسألوه: "إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ. قَالَ: (وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟) قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: «ذَاكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ" [1]. وقد ردّ كيد هذه الأفكار إلى الوسوسة، ولا يسئل صاحبها مهما كان موضوعها، ما لم تظهر بلسان أو يد. وفي حال تكرار السلوك القهري كتكرار النيّة أو الوضوء، فالرخصة في عدم تكراره حتى لو تجدد الشك في أدائه. فلا يطالب الموسوس بما يطالب به السليم، حتى يستعيد عافيته. هذا ويمكن استخدام العلاج القرآني بتأمل ذكر الله لعلاج الوساوس والأفعال القهرية، وذلك بالطلب إلى المريض ترديد الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم ثلاث مرات، ثم يقرأ المعوذتين ثلاث مرات، وذلك فور ظهور الأفكار والوساوس القهرية، على أن لا يتم الترديد آلياً، بل الترديد بتعقل ودافعية قوية لإيقاف هذه الأفكار السخيفة. ويمكن استخدام الأذكار التي سبق أن ذكرناها في هذا الفصل.

- **الاكتئاب:**

الاكتئاب حالة مرضية للحزن، تتمثل في الشعور المزمن بالعجز والتشاؤم والتعاسة والبؤس، مع تدني قدرة الذات على تحمل المصائب والأزمات والضغوط ومشاعر الذنب، وفقد الرغبة في متع الحياة. والاكتئاب يخمد روح الهمّة ويفتّر العزيمة، ويفقد الثقة بالنفس، ويضعف القوى البدنية والعقلية، وهو حمى تشل الإنسان، وتغمره بالشعور بالذنب. وقد نهى الله سبحانه عن الحزن في قوله تعالى: (وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)[2]، وفي قوله تعالى لرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم (وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ)[3]. وكان رسول اللهصلى الله عليه وسلم يستعيذ بالله من الهم والحزن. فالحزن قرين الهم.

---

(1) رواه مسلم، حديث رقم (298) رواه زهير بن حرب.

(2) آل عمران، 139.

(3) النمل، 70.

ويعدّ ابن سينا من أبرز علماء المسلمين الذين شخّصوا الاكتئاب، وتعرفوا إلى أسبابه، وتحدثوا عن طرق علاجه. ويستخدم ابن سينا مصطلح "المالنخوليا" للإشارة إلى ما نسميه "الاكتئاب" في علم النفس المعاصر. ويعرفّه (ابن سينا) بأنه "الحالة التي يتغير فيها الظنون والفكر عن المجرى الطبيعي إلى الفساد والخوف والرداءة ... ويعزو سببه إلى المزاج السوداوي الذي يوحش روح الدماغ من داخله ويفزعه بظلمة، بسبب الإفراط في الغمّ والخوف... وإذا تطور المرض وترك مع الضجر، أدى بصاحبه إلى الجنون ... ومن أعراضه الأولية: خوف بلا سبب، وسرعة غضب، وظن رديء ... أما إذا استشرى واستفحل، فيتحول إلى غمّ ووحشة وهذيان في الكلام ... "[1].

ويعتمد علاج الاكتئاب على أسبابه، فإذا كان سببه المصائب والمهالك ومرور المكتئب بخبرات مؤلمة محبطة كخسارة مادية، أو فقد عزيز بالموت أو السفر، أو فقد عضو في البدن أو خسارة معنوية ... تمحور العلاج المعرفي على تعديل الطريقة التي يفكر بها المكتئب في الأمور التي أدت إلى الاكتئاب، من خلال بيان التصور الإسلامي للحياة على أنها دار ابتلاء، وأن المصائب التي تحلّ بالمؤمن أمر ملازم للحياة البشرية، لأنها من طبيعة الحياة الدنيا. فقد ابتلى الله أنبياءه ورسله، فقد ابتلى نبي الله أيوب عليه السلام بالمرض فصبر، وأناب إلى الله، كما ابتلى يعقوب عليه السلام بالعمى، وابتلى ذا النون: (إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)[2].

والمصائب مقدرة من الله، فلن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا. لذا لا بد من أن يتمحور العلاج الإيماني للمكتئب حول الإيمان بالقضاء والقدر. وقد صحّ عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال "وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ، وَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ ". وفي الحديث الصحيح أيضاً "واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك". وبذا تهون مصائب الحياة ويوصد الباب الأول في وجه الحزن من وقوع المصيبة.

---

(1) انظر: العاني، مرجع سابق، ص 155.

(2) الأنبياء، 87.

ويوصد الباب الثاني عندما تكون المصيبة باباً من أبواب حب الله، فإذا أحب الله عبداً ابتلاه، فإن صبر اجتباه وإن رضي اصطفاه. والصبر من عزم الأمور، قال سبحانه: (وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)[1]. وقد بشّر الله سبحانه الصابرين على المصائب بالجنة.

وقد روى أبو موسى الأشعري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله "من أصابه هم أو حزن، فليدع بهذه الكلمات، يقول: اللهم أنا عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، في قبضتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيّ حكمك، عدل فيّ قضاؤك. أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن نور صدري، وربيع قلبي، وجلاء حزني، وذهاب همي، فقال رجل من القوم: يا رسول الله، إن المغبون لمن غبن في هؤلاء الكلمات، فقال: أجل، فقولوهن وعلموهن، فإن من قالهن التماس ما فيهن، أذهب الله حزنه وأطال فرحه"[2]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ما مِنْ عَبْدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ: إنّا لله، وإنّا إليْهِ راجعونَ، اللّهُمَّ أجِرْني في مُصِيبَتِي، وَاخْلُفْنِي خَيْراً مِنْها إلاّ آجَرَهُ الله في مُصِيبَتِهِ وَخَلَفَ لَهُ خَيْراً مِنْها"[3]. ويمكن استخدام الأذكار الأخرى التي وردت سابقاً في هذا الفصل لتحرير المكتئب من مشاعر الحزن والهم.

والمصائب تكفر ذنوب المؤمن الصابر الذي لا يغضب ولا يسخط، حتى يلقى الله سبحانه وما عليه خطيئة. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبايع أصحابه على الامتناع عن المعاصي "...ومن أصاب مِن ذلك شيئاً فأُخذَ به في الدُّنيا فهو كفارةٌ لهُ وطَهور، ومن سَتَرَه الله فذلكَ إلى الله: إن شاء عذَّبهُ وإن شاء غَفَرَ لَه"[4]. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل على مريض يعوده، قال "لا بأسَ، طَهورٌ إن شاء الله"[5]. ففي المعاناة النفسية من الحزن والهم والغم والوصب والنصب، حتى الشوكة التي يشاكها المؤمن، فيها كفارة له.

---

(1) لقمان، 17.

(2) رواه ابن السني في عمل اليوم والليلة، باب ما يقول إذا أصابه هم أو حزن، حديث رقم 334، قال الحافظ بعد تخريجه، حديث غريب. وقد ذكر ابن السني عن عبد الله بن مسعود نحوه وهو حديث حسن وقد صححه بعض الأئمة.

(3) رواه أحمد في مسنده وابن ماجة في سننه عن أم سلمة عن أبي سلمة عن النبي صلى الله عليه وسلم.

(4) رواه البخاري، حديث رقم 6416.

(5) رواه البخاري، حديث رقم 3420.

ولغايات تسهيل المصائب وتخفيف الشدائد، يقترح الماوردي[1] في كتابه "أدب الدنيا والدين" اتباع المريض الخطوات التالية:

1. إشعار النفس بما تعلمه من نزول الفناء وتقضي المسر، وأن لها آجالاً منصرمة ومدداً منقضية، إذ ليس للدنيا حال تدوم عليه، ولا لمخلوق فيها بقاء. وقد روى ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال "ما مثلي ومثل الدنيا إلا كمثل راكب مال إلى ظل شجرة في يوم صائف، ثم راح وتركها". وسئل علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، عن الدنيا فقال: "تغرّ وتضرّ وتمرّ".
2. أن يتصور انجلاء الشدائد وانكشاف الهموم، وأنها تقدّر بأوقات لا تنصرم قبلها، ولا تستديم بعدها، فلا تقصر بجزع ولا تطول بصبر. وأن كل يوم يمر يذهب منها بشطر، ويأخذ منها بنصيب حتى تنجلي وهو عنها غافل.
3. أن يعلم أنه في ما وقي من الرزايا، وكفي من الحوادث ما هو أعظم من رزيته، وأشد من حادثته، ليعلم أنه ممنوح بحسن الدفاع، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم "إن لله تعالى في أثناء كل محنة منحة".
4. أن يتأسى بذوي الغير، ويتسلى بأولي العبر، فيستند من سلوة الأسى وحسن العزا ما يخفّف شجوه ويقلع هلعه.
5. أن يعلم أن سروره مقرون بمساءة غيره، وحزنه مقرون بسرور غيره. فإذا كانت الدنيا تنتقل من صاحب إلى صاحب، وتصل صاحباً بفراق صاحب، فتكون سروراً لمن وصلته وحزناً لمن فارقته.
6. أن يعلم أن النعم زائرة، وأنها لا محالة زائلة. وأن السرور بها إذا أقبلت مشوب بالحذر من فراقها إذا أدبرت، وأنها لا تفرح بإقبالها فرحاً حتى تعقب بفراقها ترحاً.
7. أن يعلم أن طوارق (أي مصائب) الإنسان من دلائل فضله، وأن محنه من شواهد نبله، وقلما تكون محنة فاضل إلا من جهة ناقص، وبلوى عالم إلا على يد جاهل.
8. أن ما يعتاضه من الارتياض بنوائب عصره، ويستفيد من الحنكة ببلاء دهره، فيصلب عوده ويستقيم ويتعظ بحالتي عفوه وبلائه.

(1) الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص 291-298.

9. أن يختبر أمور زمانه، ويتنبه على صلاح شأنه، فلا يغتّر برخاء، ولا يطمع في استواء. فمن عرف الدنيا وأحوالها هان عليه بؤسها ونعيمها.

10. أن يكثر الشكور ولا يبث الجزع، قال تعالى:(فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا). فهو الصبر الذي لا شكوى فيه ولا بث.

أما إذا كان سبب الاكتئاب راجعاً إلى مشاعر الذنب، فيكون العلاج بالتوبة والاستغفار، وأن يحسن المريض الظن بالله، فلا ييأس ولا يقنط من رحمة الله ومغفرته. فهو الذي يغفر الذنوب لمن تاب؛ صغيرها وكبيرها، قال سبحانه(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)[1]. وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "قالَ اللهُ تَبَارَكَ وتعَالى: يا ابنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى ما كانَ فِيكَ وَلاَ أُبَالِي. يا ابنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَت ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلاَ أُبَالِي. يا ابنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئاً لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً"[2].

وفي الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال "إِنَّ اللّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ، لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ. وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ، لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ. حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا". وفي الحديث القدسي "يا عبادي إنكم تذنبون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً، فاستغفروني أغفر لكم". فمن أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً. وقد ورد في صحيح البخاري سيد الاستغفار "اللهم أنت ربي لا إله أنت، خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شرّ ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت".

كما يكون علاج الاكتئاب الناتج عن الشعور بالذنب بالعبادات. فالصلاة تمحو الخطايا كما يغسل الماء الدرن، والصيام إيماناً واحتساباً يمحو الذنوب، والحج المبرور يكفر الذنوب جميعاً، والزكاة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار. هذا وتشير نتائج عدد من الدراسات إلى انخفاض حالات الاكتئاب في شهر رمضان المبارك. كما تشير نتائج دراسات أخرى[3] إلى فاعلية العلاج بالذكر (الدعاء والاستغفار)، وبقراءة القرآن"

---

(1) الزمر، 53.

(2) رواه الترمذي في سننه، وقال: حديث حسن صحيح، حديث رقم (3680) رواه عبجد الله بن اسحاق الجوهري، حديث حسن غريب.

(3) العيسوي، الإسلام والعلاج النفسي، مرجع سابق.

وبصلاة التهجد في الثلث الأخير من الليل في علاج الاكتئاب، إذا ما أضيف إلى العلاج الطبي.

وقد يكون الاكتئاب ناتجاً عن خلل في عمل الدماغ، جرّاء نقص بعض الأحـماض الأمينيـة، أو نتيجة اضطراب الهرمونات، أو نتيجة الإصابة بمرض عصبي كالشلل أو تصلب شرايين الدماغ ... الـخ. وعندها لا بد من العلاج بالأدوية والعقاقير. وقد اقترح ابـن سـينا عـدداً مـن الأدويـة لهـذه الغايـة، ومنها: البندق الهندي والصبر والخشخاش والأفتيمون.

هذا ومن الجدير بالذكر أن ابن سينا يؤكد ضرورة التدرج في تعديل ميول المريض (المكتئب) ورغباته، حتـى لا تعـود الأعـراض الاكتئابيـة ثانيـة لـه. بمعنـى أن يـتم التـدرج في تعـديل السـمات الشخصية التي لعبت دوراً في ظهور أعراض الاكتئاب كسرعة الغضب والحزن والخوف من المرض أو الشعور بالذنب ... الخ حتى يكون العلاج للأسباب لا للأعراض.

- **الغضب:**

الغضـب ثـورة تهـز اسـتقرار الـنفس والبـدن، وانفعـال يحـدث تغيـيرات في وضـع الجسـم وتعبيرات الوجه من احمرار فيه وانتفاخ الأوداج... ويصف ابن مسكويه الغضب بأنه "حركة للنفس يحدث لها غليان دم القلب شهوة الانتقام. فإذا كانـت هـذه الحركـة عنيفـة، أججـت نـار الغضـب وأضرمتها، فاحتدّ غليان دم القلب، وامتلأت الشرايين والدماغ دخاناً مظلماً مضطرباً، تسوء معه حال العقل ويضعف فعله، لذلك يعمى الإنسان عن الرشد، ويصمّ عن المـوعظة"[1]. ويذهب النراقي في كتابه "جامع السعادات" إلى مثل ذلك الوصـف، فيقـول "الغضـب كيفيـة نفسـانية، موجبـة لحركـة الروح من الداخل إلى الخارج للغلبة، ومبدؤه شهوة الانتقام، وهـو مـن جانـب الإفـراط. وإذا اشـتد يوجب حركة عنيفة، يمتلئ لأجلها الدماغ والأعصاب من الدخان المظلم، فيستر نور العقل، ويضعف فعله، ولذا لا يؤثر في صاحبه الوعظ والنصيحة، بـل تزيـده الموعظـة غلظـة وشـدة"[2]. كـما يعـرّف الغزالي الغضب في "إحياء علوم الدين" بأنه شعلة نار، اقتبست من نار الله الموقدة، التي تطلع عـلى الأفئدة، وإنها لمستكنة في طيّ الفؤاد، ويستخرجها الكبر الدفين في قلب

---

(1) ابن مسكويه، تهذيب الأخلاق، ص 161.

(2) النراقي، جامع السعادات، ج1، ص 285.

كل جبار عنيد. وعندما تشتد نار الغضب فإنها تصمّ صاحبها عن كل موعظة ونصيحة"[1].

والغضب غريزة أودعها الله في عباده لحكمة معينة، كما قوى النفس الأخرى، ولكنهم يتفاوتون بينهم في سرعة الغضب والفيء، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أَلَا وَإِنَّ مِنْهُمُ البَطِيءَ الغَضَبِ سَرِيعَ الفَيءِ، وَمِنْهُمْ سَرِيعُ الغَضَبِ سَرِيعُ الفَيْء، فِتِلْكَ بِتِلْكَ، أَلاَ وَإِنَّ مِنْهُمْ سَرِيعَ الغَضَبِ بَطِيءَ الفَيء، أَلاَ وَخَيْرُهُمْ بَطِيءُ الغَضَبِ سَرِيعُ الفَيءِ، وَشَرُّهُمْ سَرِيعُ الغَضَبِ بَطِيءُ الفيء"[2].

ويكون الغضب مناسباً إن كان في حدّ الاعتدال، وفي موطنه المقبول شرعاً وعقلاً، كالغضب لانتهاك الحرمات، فيما يكون الغضب مرضياً عندما يخرج من إطار العقل والشرع، فيجرّ إلى المهالك، ويتحول إلى حالة مرضية تقتضي العلاج.

وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم معاوية بن قدامة السعدي حينما طلب إليه أن يوصيه ولا يكثر حتى لا ينسى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا تَغْضَب"[3]. ويقصد بذلك الغضب المرضي المذموم الذي يفقد الشخصية توازنها، فلا يبقى لها بصيرة ولا اختيار. وسأل سلمان علياً بن أبي طالب رضي الله عنه "ما الذي يباعدني عن غضب الله عز وجل؟ قال: لا تغضب"، وفي ذات المعنى يقول بعض السلف "أقرب ما يكون العبد من غضب الله عز وجل، إذا غضب"[4].

ويكون علاج الغضب بضبط النفس وعدم تركها على طبيعتها، أي بكظم الغيظ، تجنباً لما قد يترتب عليها من ندم وخوف، فكظم الغيظ دليل الإيمان، قال تعالى في وصف المؤمنين: (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ). فالمؤمنون أقوياء لا ينتقمون ممن يؤذيهم، بل يتجرعون الغيظ الذي يملأ قلوبهم، فيضيّقون سورة الغضب. وقد عالج رسول الله صلى الله عليه وسلم الغضب بتغيير الفهم السائد للقوة من "الصرعة"، ليصبح "القدرة على كظم الغيظ"، قال صلى الله عليه وسلم "ليس الشديدُ بالصّرَعة، إنما الشديدُ الذي يملكُ نفسَه عندَ الغضب"، فلا يردّ على الإساءة بالمثل. ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة، فهو لم ينتقم لنفسه أبداً، قالت عائشة رضي

(1) الغزالي، إحياء علوم الدين، ج3، ص 113.

(2) سبق تخريجه.

(3) رواه البخاري في الصحيح ومالك والترمذي.

(4) نقلاً عن: الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص 258.

الله عنها " مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ شَيْئاً قَطُّ بِيَدِهِ. وَلاَ امْرَأَةً. وَلاَ خَادِماً. إِلاَّ أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِ. وَمَا نِيلَ (أي أوذي) مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ. فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ. إِلاَّ أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللهِ. فَيَنْتَقِمَ للهِ عَزَّ وَجَلَّ" [1].

وكظم الغيظ فعل إرادي يطالب به المؤمن، حتى تسود الرحمة والمودة والسلام في المجتمع الإسلامي. وكظم الغيظ دليل نضج الشخصية وتساميها وحلمها وتسامحها. وهو سبيل المؤمن إلى الفوز بالجنة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "مَنْ كَظَمَ غَيْظاً وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ دَعَاهُ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُؤوسِ الْخَلاَئِقِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ الله مِنَ الحُورِ شَاءَ" [2].

وقد علّمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم طرقاً لتهدئة الغضب بالسكوت، في حال العجز عن كظم الغيظ، قال صلى الله عليه وسلم "إذا غَضِبَ أَحَدُكم فَلْيَسكُت" [3]، أو بالوضوء عملاً بقوله صلى الله عليه وسلم "إِنَّ الْغَضَبَ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ خُلِقَ مِنَ النَّارِ، وَإِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ بِالمَاءِ، فَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُم فَلْيَتَوَضَّأْ" [4]، أو بتغيير الوضع، عملاً بقوله صلى الله عليه وسلم "إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ، فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الْغَضَبُ وَإِلاَّ فَلْيَضْطَجِعْ" [5]، أو بالتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، عملاً بقــوله صلى الله عليه وسلم " إني لأعلم كلمة لو قالها (أي الغاضب) لَذهَب عنه ما يَجِد، لو قال: أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم" [6]، أو بأن تقبح في نفس الغاضب صورته، عملاً بقوله صلى الله عليه وسلم "أَلاَ وَإِنَّ الغَضَبَ جَمْرَةٌ فِي قَلْبِ ابنِ آدَمَ أَمَا رَأَيتُمْ إِلَى حُمْرَةِ عَيْنَيْهِ وَانْتِفَاخِ أَوْدَاجِهِ، فَمَنْ أَحَسَّ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فَلْيَلْصَقْ بالأرْضِ" [7]. ويمكن تفسير اللجوء إلى تغيير وضع الغاضب لتهدئة حدة غضبه بأن الغضب انفعال يحدث تغييرات في جسد الغاضب. ويزيد الإحساس بهذه التغيرات من الانفعال الذي ولّدها ابتداء. وهكذا فإن انفعال الغضب يضخم ذاته حتى يصبح شعوراً قوياً يحرك الشخصية. وبناء عليه، فإن أية مخالفة لهذه التغيرات الجسمية باتخاذ أوضاع مناقضة ترسل إيحاءات إلى النفس، فتعاكس ثورة الغضب التي فيها، فيهدأ الغضب.

---

(1) رواه مسلم.

(2) رواه أبو داوود والترمذي في السنن، عن معاذ بن أنس رضي الله عنه، وقال الترمذي: حديث حسن.

(3) تم تخريجها.

(4) تم تخريجها.

(5) تم تخريجها.

(6) تم تخريجها.

(7) تم تخريجها.

وإذا كان الغضب ناتجاً عن المصائب والبلاء، فيكون علاجه بالرضا وعدم السخط، والنظر إلى الحرمان عند الآخرين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إذا نظرَ أحدُكم إلى من فُضِّلِ عليه في المال والخَلقِ فلْيَنظرْ إلى من هوَ أسفلَ منه ممن فُضِّل عليه" [1]، وقال أيضاً "انْظُرُوا إِلَى مَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ. وَلاَ تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ. فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لاَ تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ" [2].

وقد تنوعت أساليب علاج الغضب لدى علمائنا المسلمين، فيرى ابن مسكويه أن علاج الغضب يكمن في "القضاء على أسبابه. والأسباب المولدة للغضب هي: العجب والافتخار والمراء واللجاج والمزاح والتيه والاستهزاء والغدر ... فإذا عرف الإنسان أن العجب ظن كاذب بالنفس في استحقاق مرتبة غير مستحقة لها، وأن الفضل مقسوم بين البشر، وليس يكمل الواحد إلا بفضائل غيره. وكل من كانت فضيلته عند غيره، فواجب عليه ألا يعجب بنفسه، وقل بذلك في علاج الأسباب الأخرى للغضب" [3].

كما يرى الغزالي[4] أن علاج الغضب يكون بالتعرف على أسبابه والقضاء عليها. أما بالنسبة إلى الأسباب فتتعلق بالفكر والسلوك، لذا عبّر عن أسلوبه في العلاج "بمعجون العلم والعمل" أي بالأسلوب الفكري والعملي. ويتلخص الأسلوب الفكري في علاج الغضب في ما يلي:

أ. أن يفكر الغاضب في ثواب كظم الغيظ والاحتمال، ويستحضر الأخبار الواردة بهذا الشأن.

ب. أن يخوّف الغاضب نفسه بعقاب الله تعالى إذا أمضى غضبه بغير حق.

ج. أن يحذّر نفسه من توابع العقاب والانتقام ومضاعفاتها، ويوازن بين المكاسب والمخاسر إذا كظم غيظه أو أمضاه.

د. أن يتفكر في قبح صورته عند الغضب، في مقابل صورة الحليم المشابهة لصورة الأنبياء والعلماء.

ه. أن يفكر في السبب الذي يدعو للانتقام، ويقلل من شأنه.

---

(1) رواه مسلم.

(2) رواه مسلم.

(3) ابن مسكويه، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، ص 169.

(4) الغزالي، إحياء علوم الدين، ج3، ص 169-170.

و. أن يعلم أن غضبه من جريان الشيء على ما وافق مراد الله، لا على وفق مـراده، فكيـف يقـول أن مرادي أولى من مراد الله سبحانه، أي أن يستعين بالإيمـان بالقضـاء والقـدر لتسـكن نفسـه ويهدأ باله.

أما بالنسبة إلى الأسلوب العملي لعلاج الغضـب، فيتعلـق بـالقول وبالفعـل. ويكـون العـلاج بالقول باستعاذة الغاضب بالله من الشيطان الرجيم حتى يهـدأ ويتغـير مجـرى تيـار الغضـب. كـما يقول الغاضب ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشـة رضي الله عنهـا عنـدما كانـت غضـبى "اللهم اغفر لي ذنبي، وأذهب غيظ قلبـي، وأجـرني مـن الشـيطان" إلى غـير ذلـك مـن أقـوال حتـى تنصرف النفس عن الغضب، ويتغير مجرى الفكر. فإن لم يزل ما بك فبالفعل.

أما العلاج بالفعل فيقول الغزالي فيه "فإن لم يزل ما بك (أي من الغضب) موجـوداً، فـاجلس إن كنت قائماً، واضطجع إن كنت جالساً، واقرب من الأرض التي منها خلقت، لتعرف بـذلك نفسـك، واطلب بالجلوس والاضطجاع السكون، فإن سبب الغضب الحرارة، وسبب الحرارة الحركة، وقد قـال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن الغضب جمرة توقد في القلب، ألم تر إلى انتفاخ أوداجـه وحمـرة عينيه، فإذا جاء أحدكم من ذلك شيء فإن كان قائماً فليجلس، وإن كان جالساً فليقم". وقـال رسـول الله صلى الله عليه وسلم أيضاًَ "إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإذا ذهب عنه الغضـب وإلا فليضطجع". فالمرء حين يعتريه الغضب يكون في حالـة هيجـان للـنفس، لـذا يلزمـه أن يغـيّر حالتـه النفسية الثائرة بحركة معينة تخرجه منها". ويضيف الغزالي "فإن لم يزل ذلك (أي الغضب) فليتوضأ بالماء البارد، فـإن النـار لا يطفئهـا إلا المـاء، ويستشـهد بقـول رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم "إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خلق من النـار، وإنمـا تطفـأ النـار بالمـاء، فـإذا غضـب أحـدكم فليتوضأ".

كما يستخدم الماوردي[1] في كتابه "أدب الدنيا والدين" الأسلوب التالي في علاج الغضب:

أ. أن يذكر الله، فيدعوه ذلك إلى الخوف منه، ويبعثه الخوف منه على الطاعة له، فيرجع إلى أدبه ويأخذ بندبه، فعند ذلك يزول الغضب، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾[2]، قال عكرمـة: يعني إذا غضبت. وقال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ

(1) الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص 258-260.

(2) الكهف، 24.

الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ)[1]. ومعنى "ينزغنك" أي "يغضبنك" فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم.

ب. أن ينتقل عن الحال التي هو عليها إلى حال أخرى، فيزول عنه الغضب بتغيير الأحوال والتنقل من وضع إلى آخر، كأن يجلس إذا كان قائماً أو أن يقوم إذا كان جالساً.

ج. أن يتذكر ما يؤول إليه الغضب من الندم ومذمة الانتقام (فكلمة منك تسفك دماً وأخرى تحقن دماً. فاحترس في غضبك من قولك أن تخطئ ومن لونك أن يتغير، ومن جسدك أن يخف).

أن يذكر ثواب العفو وجزاء الصفح، فيقهر نفسه على الغضب رغبة في الجزاء والثواب، وحذراً من استحقاق الذم والعقاب. وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ينادي مناد يوم القيامة: من له أجر على الله عز وجل فليقم، فيقوم العافون عن الناس، ثم تلا(فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ)[2]. وقد وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال "الخير في ثلاث خصال فمن كن فيه فقد استكمل الإيمان: من إذا رضي لم يدخله رضاه في باطل، وإذا غضب لم يخرجه غضبه من حق، وإذا قدر عفا".

أ. أن يذكر انعطاف القلوب عليه وميل النفوس إليه، فلا يرى إضاعة ذلك بتغير الناس عنه، فيرغب في التألف وجميل الثناء. وروى ابن أبي ليلى عن عطية عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ما زاد أحد بعفو إلا عزاً، فاعفوا يعزكم الله".

ويصف ابن حزم في "الأخلاق والسير" الأسلوب الذي اتبعه في علاج الغضب بقوله "كانت فيّ عيوب، فلم أزل بالرياضة، واطلاعي على ما قالت الأنبياء – صلوات الله عليهم – والأفاضل من الحكماء المتأخرين والمتقدمين في الأخلاق في آداب النفس، أعاني مداواتها، حتى أعان الله عز وجل على أكثر من ذلك بتوفيقه ومنّه، وتمام العدل ورياضة النفس والتصرف بأزمة الحقائق ، هو الإقرار بها ليتعظ بذلك متعظ يوماً، إن شاء الله. فمنها إفراط في الغضب، فلم أزل أداوي ذلك، حتى وقفت عند ترك إظهار الغضب جملة، بالكلام والفعل والتخبط، وامتنعت مما لا يحلّ من الانتصار، وتحملت من ذلك ثقلاً شديداً، وصبرت على مضض مؤلم، كان ربما أمرضني ... فناظر عقلي نفسي بما

---

(1) الأعراف، 200.

(2) الشورى، 40.

يعرفه من عيوبها حتى ذهب كله، ولم يبق لـــه، والحمد لله، أثر. بل كلفت نفسي احتقار قدرها جملة واستعمال التواضع"[1].

– **الكـبر:**

الكبر انفعال داخلي يظهر على شكل استعلاء وخيلاء للنفس في الأقوال والأفعال (من حركات ونظرات ومشية وجلسة). وقد كشف القرآن الكريم ثلاثة مظاهر سلوكية للمتكبر هي: تصعير الخدّ، والاختيال في المشي، والصوت المتعالي. ولا يقتصر الكبر على الاستعلاء على الآخرين وازدرائهم والتعالي على إقامة علاقات اجتماعية معهم، بل هو دفع للحق وأسبابه وإنكار له ورفض لقبوله، وتمرد على الخالق، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ"[2]. ويصف ابن القيم الكبر بقوله "أثر من آثار العجب والبغي من قلب قد امتلأ بالجهل والظلم، وترحلت منه العبودية، ونزل عليه المقت. فنظره (أي المتكبر) إلى الناس شزر (أي نظر بمؤخرة العين احتقاراً). ومشيه بينهم تبختر، ومعاملته لهم معاملة الاستئثار (أي الأنانية) لا الإيثار ولا الإنصاف، ذاهب بنفسه تيهاً، ولا يبدأ من لقيه بالسلام، وإن ردّ عليه يرى أنه قد بالغ في الإنعام عليه. ولا ينطلق لهم وجهه، ولا يسعهم خلقه. ولا يرى لأحد عليه حقاً، ويرى حقوقه على الناس. ولا يرى فضلهم عليه، ويرى فضله عليهم. لا يزداد من الله إلا بعداً، ومن الناس إلا صغاراً أو بغضاً"[3].

وقد كان الكبر مبتدأ الشرور كلها في الحياة الدنيا، فقد كان دافعاً لأول عصيان لأوامر الخالق سبحانه. فعندما أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام، أبى إبليس أن يسجد لآدم طاعة لله، لأنه رأى أنه خلق من نار، فيما خلق آدم من طين، فتكبر على آدم وعصى أمر ربه، فخرج من دائرة الإيمان إلى دائرة الكفر، ولُعن وطُرد من رحمة الله لاستكباره وتعاليه. كما كان الكبر دافعاً لكفر أقوام برسلهم. فقد أعلن ملأ من قوم صالح الكفر تكبراً منهم، لأنهم يرفضون أن يكونوا في دائرة واحدة مع بعض المستضعفين من قومهم، لأن ذلك لا يليق بهم وإن كانت هذه الدائرة هي دائرة الإيمان، قال تعالى:(قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آَمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ(75)

---

(1) ابن حزم، في الأخلاق والسير، ص 33-34.

(2) رواه مسلم في صحيحه، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(3) ابن القيم، الروح، ص 318.

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [1]. فالشيطان أوقظ في نفسهم الكبر الذي يحول بينهم وبين الإيمان بالله.

والكبر أنواع ثلاثة؛ كبر على العباد كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾[2]. وكبر على عبادة الله، كما في قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾[3]. وهذا هو أقبح أنواع الكبر.

وللكبر أسباب منها: الغيرة وحب الظهور، ودليل ذلك ترفع إبليس عن السجود لآدم عليه السلام. كما أن تواضع الناس أمام المتكبر يجعله يظن أن تقدمه عليهم إنما هو لأفضليته، فينظر إلى نفسه باعتزاز وإلى الآخرين باحتقار. وقد يظن المتكبر دوام النعمة فينخدع بها ويتعالى على الناس، ودليل ذلك قصة أصحاب الجنتين الواردة في سورة الكهف. وقد تسهم معايير المجتمع في تقديم الغني وذي المنصب دون النظر إلى تقواه على الفقير البائس وإن كان ملتزماً بشرع الله وهديه، ودليل ذلك حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما مرَّ رجلٌ على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: ما تقولون في هذا؟ قالوا: حَرِيٌّ إن خَطب أن يُنكحَ وإن شَفَعَ أن يُشفَّع وإن قال أن يُستَمَع له، قال: ثم سكتَ. فمر رجلٌ من فُقَراء المسلمين، فقال: ما تقولون في هذا؟ قالوا: حَرِيٌّ إن خَطبَ أن لا يُنكحَ وإن شَفَعَ أن لا يُشَفَّع، وإن قال أن لا يُستَمَعَ له. فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم هذا خيرٌ من مِلْءِ الأرضِ مثلَ هذا" [4]. وقد ينشأ الكبر من غرور العلم، فآفة العلم الخيلاء.

وقد سأل أبو حيان التوحيدي أبا علي مسكويه عن أسباب الكبر فقال "كل من استشعر في نفسه فضيلة، وكان هناك نقصان من وجه آخر، وخشي أن تتكتم تلك الفضيلة، أو لا يعرفها غيره، عرض له عارض الكبر، لأن معنى الكبر هو هذا". ويضيف "أي أن صاحبه يلتمس من غيره أن يذعن له بتلك الفضيلة ويعرفها له، فإذا لم يعرفها تحرك ضروب الحركة المضطربة، ولهذا صدق القائل: ما تكبّر أحد إلا عن ذلة يجدها في

---

(1) الأعراف، 75-76.

(2) المؤمنون، 47.

(3) غافر، 60.

(4) رواه البخاري، كتاب الإيمان باب الإكفاء في الدين، حديث رقم 5091.

نفسه" [1]. وهكذا، فإن أسباب الكبر، عند ابن مسكويه، تعود إلى مشاعر النقص في الشخصية.

والكبر خلق ذميم ينبغي علاجه، ودليل ذلك حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه "لا أقلع عنه حتى أطير نُعرته" [2]. أي لأنزع كبره وجهله من رأسه. وهذا يعني أن علاج الكبر يكون بإزالة الجهل عن نفس المتكبر، أي بتبصيره بها لتكوين صورة صحيحة لها في ذهنه. حتى يعرف أنه كما يصفه الغزالي[3]"أذل من كل ذليل، وأقل من كل قليل، وأنه لا يليق به إلا التواضع. فليتذكر الإنسان خلقه الأول من ماء مهين، قال تعالى:(أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ)[4] ويتذكر نقص عقله وقصوره، وليتذكر أنه عندما خرج إلى الحياة خرج ضعيفاً، لا يعلم شيئاً، وهو بحاجة إلى الآخرين لتلبية حاجاته، وينتهي به المطاف ضعيفاً، قال تعالى: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ)[5].

وقد أفرد ابن حزم فصلاً في كتابه "الأخلاق والسير في مداواة النفوس" بعنوان "أدواء الأخلاق الفاسدة ومداواتها"، يقول فيه "من امتحن بالعجب، فليفكر في عيوبه، فإن أعجب بفضائله فليفتش ما فيه من الأخلاق الدنيئة، فإن خفيت عليه عيوبه جملة حتى يظن أن لا عيب فيه، فليعلم أن مصيبته إلى الأبد، وأنه أتم الناس نقصاً وأعظمهم عيوباً، وأضعفهم تمييزاً ... فالعاقل هو من ميّز عيوب نفسه فغالبها وسعى في قمعها، والأحمق هو الذي يجهل عيوب نفسه ... وإن عجبت بآرائك، فتفكر في سقطاتك واحفظها ولا تنسها، وفي كل رأي قدرته صواباً فخرج بخلاف تقديرك وأصاب غيرك وأخطأت أنت ... وإن عجبت بعلمك، فاعلم أنه لا خصلة لك فيه، وأنه موهبة من الله مجردة، وهبها إياك ربك تعالى، فلا تقابلها بما يسخطه، فلعله ينسيك ذلك بعلّة يمتحنك بها، تولد عليك نسيان ما علمت وحفظت ... وإن عجبت بشجاعتك، فتفكر فيمن هو أشجع منك... ثم فكر في زوالها عنك بالشيخوخة، وإنك إن عشت فستصير من عدد العيال وكالصبي ضعفاً... وإن عجبت بمالك، فانظر في كل ساقط خسيس هو أغنى

---

(1) ابن مسكويه، الهوامل والشوامل، ص 41.

(2) المرجع السابق، ص 40.

(3) الغزالي، إحياء علوم الدين، ج3، ص 377.

(4) المرسلات، 20.

(5) الروم، 54.

منك... والمال غادٍ ورائح وربما زال عنك، ورأيته بعينه في يد غيرك، ولعل ذلك يكون في يد عدوك... وإن عجبت بمدح إخوانك بك، ففكر في ذم أعدائك إياك، فحينئذ ينجلي عنك العجب... واعلم أن فضائلك لا خصلة لك فيها، وأنها منح من الله تعالى لو منحها غيرك لكان مثلك، وأنك لو وكلت إلى نفسك لعجزت وهلكت، فاجعل بدل عجبك بها شكراً لواهبك إياها، وإشفاقاً من زوالها. فقد تتغير الأخلاق الحميدة بالمرض وبالفقر وبالخوف وبالغضب وبالهرم. وارحم من مُنع ما مُنحت، ولا تتعرض لزوال ما بك من النعم بالتعاصي على واهبها تعالى، وبأن تجعل لنفسك فيما وهبك خصلة أو حقاً، فتقدر أنك استغنيت عن عصمته، فتهلك عاجلاً أو آجلاً... "[1].

وفي معرض الإجابة عن سؤال أبي حيان التوحيدي حول علاج مرض الكبر، قال ابن مسكويه"وإنما السلامة من هذا العارض - أي الكبر – هو أن يلتمس الإنسان الفضيلة لنفسه لا لشيء آخر أكثر من أن يصير هو نفسه فاضلاً، لا لكي يعرف ذلك منه أو يكرّم لأجله، فإن اتفق له أن يُعرف فشيء موضوع في موضعه، وإن لم يُعرف له ذلك لم يلتمسه من غيره، ولا يكترث لجهل غيره به. فقد علمنا أن التماس الكرامة ومحبتها رذيلة ... والذي يجب على العاقل هو أن يلتمس الفضائل في نفسه ليصير بها على هيئة كريمة ممدوحة في ذاته، أكرم أم لم يُكرم، وعُرف ذلك منه أم لم يُعرف، ويجعل مثاله في ذلك الصحة، فإن الصحة تطلب لذاتها، ويحرص المرء عليها ليصير صحيحاً، لا ليعتقد فيه ذلك ولا ليكرم عليها. وكذلك إذا جعلت له صحة النفس بحصول الفضائل، فلا ينبغي له أن يطلب من الناس أن يكرموه لها ولا أن يعتقدوا فيه ذلك. ومتى خالف هذه الوصية وقع في ضروب من الجهالات التي أحدها الكبر"[2].

وينبغي تبصير المتكبر بأن الكبر من عمل الشيطان ووسوسته، وأن عليه أن يطرد هذه المشاعر بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، قال تعالى(إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ)[3]. وعليه أن يدرك أن الكبرياء صفة الله عز وجل فمن ينازعه بشيء منها باء بسخط الله وعذابه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى: "العزّ إزاري والكبر ردائي، فمن ينازعني شيئاً منها عذبته"[4]. وعليه أيضاً أن يعي أن

---

(1) ابن حزم، الأخلاق والسير في مداواة النفوس، ص 66-71.

(2) ابن مسكويه، الهوامل والشوامل، ص 41.

(3) غافر، 56.

(4) رواه مسلم في الصحيح، كتاب البر.

الله يطبع على قلب المتكبر، قال تعالى:(كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ)[1].
ويسخر الله منه ويعذبه عذاباً أليماً، قال تعالى: (الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)[2]. والمتكبر يلقى ربه وهو عليه غضبان، فعن ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "مَا مِنْ رَجُلٍ يَتَعاظَم فِي نَفْسِهِ وَيَخْتَال فِي مَشْيَتِهِ إلا لَقِيَ الله وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ" [3]. ولا يكلمه الله يوم القيامة ولا ينظر إليه ولا يزكيه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ شَيْخٌ زَانٍ وَمَلِكٌ كَذَّاب وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ" [4].
والكبر لا يدخل صاحبه الجنة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ" [5]، كما يدخل صاحبه النار، فعن حارثة بن وهب قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "ألا أدلكم بأهل النار كل عُتُلٍّ جَوّاظٌ مستكبر" [6]. والأحاديث كثيرة في هذا المجال، والإجماع منعقد على تحريم احتقار المؤمنين والسخرية منهم.
كما يكون علاج الكبر في النظر في سير المتكبرين وأخبارهم. وكيف آلت أمورهم، وأخذ العبر منها، وبما يحمل النفس على التوبة والإقلاع عن التكبر والخوف من المضي فيه حتى لا يحلّ بها ما حلّ بهم، ودليل ذلك قصة فرعون، إذ أغرقه الله عزّ وجلّ، لتكبره على ما جاء به موسى عليه السلام من الحق. فعصى أمر الله وتجبر (فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى)[7] ليكون عبرة لمن اعتبر. كما خسف الله بقارون وبداره الأرض عندما خرج على قومه في زينته، واختال عليهم بما أتاه الله من الكنوز التي يثقل حملها لكثرتها. وعندما نصحوه إلى الخير(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)[8]، فلم يشكر الله على ما أعطاه، بل بطر النعمة فكان جواب ربه أن قال: (أَوَلَمْ يَعْلَمْ

(1) غافر، 35.
(2) التوبة، 79.
(3) رواه البخاري في الأدب المفرد، باب الكبر، بلفظ من تعظم في نفسه أو اختال في مشيته.. وصححه الحاكم، حديث رقم 549.
(4) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار، حديث رقم 107.
(5) رواه مسلم في صحيحه عن ابن مسعود، والبخاري في صحيحه.
(6) رواه البخاري 662/8 في تفسير سورة ن، ومسلم رقم 2853 في صفة الجنة، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء.
(7) النازعات، 24-25.
(8) القصص، 78.

أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ) [1].

والكبر لا يليق بالمسلم، لذا ينبغي إلزام المتكبر خلق التواضع ومجالسة الفقراء وذوي الحاجات الخاصة ممن ابتلاهم الله، حتى تعود النفس إلى رشدها، فالله لا يحب كل مختال فخور. كما يمكن تدريب النفس على ممارسة الأعمال التي تأنف نفس المتكبر القيام بها، والاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان يقوم بالأعمال التي يقوم بها الصحابة، ومنها قصة بناء مسجده صلى الله عليه وسلم وقصة حفر الخندق وغيرها، على الرغم من محاولة الصحابة - رضي الله عنهم- منعه من ذلك لإراحته صلى الله عليه وسلم.

---

(1) القصص، 78.

خلاصة

تعرضنا في هذا الفصل إلى مفهوم المرض كانحراف عن الاعتدال والوسطية. ومداواة النفس لا تقل خطورة عن مداواة الجسد، بل أكثر خطورة منه، ذلك أنها تصيب بنية الشخصية، وتؤثر في تكامل عناصرها ووحدتها. وتتنوع الأمراض النفسية، كما تتنوع طرق تصنيفها؛ فمنها ظاهرية كفصام الشخصية والوساوس القهرية والاكتئاب، ومنها أمراض باطنية كالغضب والكبر والحسد. وتتنوع أسباب الأمراض النفسية، فقد تكون سببها الشهوات والمعاصي والتفكير في الأمور الرديئة. وقد تعود إلى عجز الشخصية عن التعامل مع المصائب والنوازل...

وطلب العلاج ملزم في الإسلام، فقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتداوي. وتتنوع خصائص العلاج النفسي في الإسلام، فهو علاج إيماني واجتماعي ومعرفي وسلوكي وتدعيمي وأخلاقي وشمولي وواقعي. وتتنوع أساليب العلاج باختلاف طبيعة المرض النفسي، ومنها العلاج المعرفي، والعلاج الإيماني والتحليل النفسي، والعلاج بالأدوية والعقاقير. يدور العلاج المعرفي حول تعديل الإدراك المشوّه للمريض بتبصيره بحقيقة نفسه والغاية من خلقه وأفكاره وأسباب مرضه وانحرافه وبحقيقة الحياة والموت. أما العلاج الإيماني فيدور حول الإيمان بالله وبالقضاء والقدر، وترجمة ذلك عملياً بالعبادات من صلاة وصوم وزكاة وحج، بالإضافة إلى التعامل مع المصائب والنوازل بالصبر وعلى أنها مقدرة من الله، وابتلاء منه للعبد المؤمن. ويكون العلاج بالرقيا بذكر الله تعالى وبالقرآن الكريم. كما يكون العلاج بالتوبة النصوح التي تكون سبيلاً إلى الجنة. واعتمد علماؤنا المسلمون ومنهم ابن سينا التحليل النفسي لدراسة العقد تجريبياً. كما استخدموا عدداً من الأدوية والعقاقير لعلاج بعض الأمراض وحسب الحاجة. هذا وقد عرضنا بالتفصيل بعض الأمراض النفسية وأعراضها وأسبابها وطرق علاجها من منظور إسلامي وهي: الخوف المرضي والوساوس القهرية والاكتئاب والغضب والكبر.

خاتمة وتعقيب

حاولنا في الفصول السابقة تحديد ملامح الشخصية الإنسانية، كما أرادها الإسلام، وصوّرتها الآيات البينات والأحاديث الصحيحة، وكما وصفها علماء المسلمين. فقد تمّ تحديد بنية الشخصية وديناميتها وقواها. كما تمّ توضيح علاقة الإنسان المسلم مع ذاته، ومع خالقه، ومع الآخرين. وقد بدا واضحاً في تلك الفصول أن القرآن الكريم نجح في تشكيل شخصية إنسانية سوية وسطية معتدلة ومتكاملة ومتوازنة؛ شخصية فريدة في سماتها الأخلاقية، وعلاقاتها الاجتماعية. شخصية تعطي الجسم حقه من العناية. كما تُعنى بالتفكير والفهم وسبر أعماق الأمور؛ بما يمكّنها من تنمية العقل الراجح. ولها قلب يعمر بالإيمان، ويدفعها إلى معارج الفضيلة. وهي شخصية توازن بين متطلباتها الفردية وحاجات المجتمع، فتحرص على أداء مسؤوليتها تجاهه.

وقد وصف القرآن الكريم السمات العامة للشخصية الإنسانية. كما وصف الأنماط الشائعة للشخصية، ووصف الشخصية السوية وغير السوية. وأشار إلى الصراع بين الجانبين المادي والروحي في الشخصية. وقد شاءت حكمة الله سبحانه أن يهب الإنسان العقل، ويمنحه حرية الاختيار، وأن يكون أسلوب الإنسان في حل الصراع هو الاختبار الحقيقي له في هذه الحياة.

كما نجح القرآن الكريم في سدّ الذرائع، وقاية للشخصية من الانحراف، ونجح أيضاً في علاج جوانب الضعف في شخصيات المسلمين، الأمر الذي كان له الأثر البالغ في إحداث تغييرات جذرية في المجتمع العربي الإسلامي من كافة النواحي، كل ذلك بفضل إشراقة الوحي والهداية الربانية.

ويعدّ القلق السبب الجوهري في ظهور أعراض الأمراض النفسية. ويهدف العلاج النفسي إلى التحرر من القلق والشعور بالأمن النفسي. وما من شك بأن الإيمان بعقيدة التوحيد وغرس التقوى، فيها شفاء للنفوس من أمراضها، بتحريرها من مشاعر القلق وبث مشاعر الأمن والطمأنينة فيها. كما أن أداء العبادات – من صلاة وزكاة وصيام وحج- يسهم في تعديل السلوكات السيئة، وفي تعلم سلوكات حميدة. ويسهم تعلم الصبر في تحمّل المصائب بإرادة قوية ونفس راضية، الأمر الذي يحدّ من الشعور بالقلق والتوتر.

كما أن المداومة على ذكر الله يشعر الإنسان بالقرب من الله، فيشعر بالأمن والسكينة. والتوبة الصادقة تحرر صاحبها من الشعور بالذنب وما يسببه من شعور بالقلق...

وقد تعرّضت الشخصية المسلمة عبر تاريخها الطويل، ولا تـزال، إلى حمـلات لتشـويهها وطمس هويتها الفكرية والروحية، وسلبها دورها الحيوي وحركتها الإصلاحية. وإن ما نشـهده اليوم من فصام في الشخصية المسلمة ومن ضعف وتبعية وتخلف وانحراف فيهـا مـا هـي إلا دلائل بيّنة على تمكن هذه الحملات من النيل منهـا، وتعريتهـا مـن قيمهـا الإسـلامية النبيلـة، وزجّها في ظلام التبعية فكراً ومشاعراً وسلوكاً، وتفريغها من جانبهـا الروحـي الـذي بـه كانـت خير أمة أخرجت للناس.

فالشخصية المسلمة، وهي تعيش العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، تواجه تحديات كثيرة داخلية وخارجية، تنذر بالبلاء والمحنة. فالتغيرات الاجتماعية التي يشهدها العالم بتأثير من الإعلام الدولي ونمو المجتمعات متعددة الثقافات (جرّاء حالات اللجوء والنزوح والهجرة القسرية...) وتغير المفاهيم والأدوار المتعلقة بالأسرة والشباب وكبار السن والمرأة والعلاقات الاجتماعية... كل ذلك بات يقتضي إعادة هيكلة للأنساق والقيم والعلاقات الاجتماعية في كل دول العالم. فالأسرة التقليدية في تغير من حيث بنيتها وعلاقات أفرادها وأدوارهم. كما يشمل التغير دور الأسرة في التنشئة والرعاية الاجتماعية. فقد اقتصر دور الأسرة على الرعاية المادية دون الرعاية الاجتماعية والروحية، الأمر الذي هيأ الأسباب للمؤسسات الأخرى في المجتمع للإسهام الفاعل في تشكيل شخصية الأبناء. واتسعت الهوة بين الآباء والأبناء وبدا واضحاً صراع الأجيال.

وظهرت أشكال من التفكك الأسري وضعف الانتماء والتضامن الاجتماعي. وبدا واضحاً غياب النموذج والقدوة الصالحة في الآباء والأمهات. كما أن التبـذل في دور المـرأة في الحضـارة المعاصرة ودخولها في عالم العمل خارج البيـت لفـترات طويلـة مـن اليـوم جـاء عـلى حسـاب رسالتها الأولى التي تتمثل في الأمومة والزوجية. أما بالنسبة للشباب، فقد بدأت عوامل أخـرى ذات صبغة عالمية تشكل سلوكاتهم وقيمهم وأذواقهم وطعـامهم وشرابهـم وملابسـهم... كـما يلاحظ توجههم نحو القـيم الفرديـة عـلى حسـاب القـيم الاجتماعيـة، الأمـر الـذي يـؤدي إلى الانعزالية الاجتماعية والتقوقع، وفقد المجتمع أسباب مناعته. هذا إضافة إلى غياب الحريـات بأشكالها المتعددة، ونقص المشاركة الفردية الحقيقية

في اتخاذ القرارات المصيرية، وإلزام الأفراد بالانصياع إلى كل تقليد سائد بغض النظر عن شرعيته.

كما يشهد العالم المعاصر تغيرات اقتصادية أدت إلى عولمة الاقتصاد وبروز الشركات الكوكبية والاعتماد على الخدمات والمعلومات؛ الأمر الذي سينعكس، بلا شك، على تشكيل معالم الشخصية الإنسانية في مجتمع القرن الحادي والعشرين. فقد زادت نسبة البطالة بين المتعلمين. وكما هو معلوم، فإن البطالة والفقر تضعفان الشخصية، إلا أن تكون مؤمنة إيماناً واعياً، فكاد الفقر أن يكون كفراً. كما زاد التوجه نحو العمل في قطاع الخدمات، وظهر نظام عالمي لتقويم المؤهلات. وأصبحت النظرة إلى الحياة نظرة اقتصادية بحتة، إلى الحدّ الذي باتت تعدّ المادة فيه قيمة عليا ودافعاً رئيساً للسلوك الإنساني ومصدراً رئيساً لسعادة الإنسان. كما حدثت مؤخراً تغييرات في المناهج التربوية تكون مساندة لعولمة الاقتصاد.

وثمة تغيرات ثقافية وقيمية يشهدها العالم تنطوي على تحديات كبيرة للشخصية المسلمة. فقد أدت ثورة المعلومات والاتصالات والإعلام (وخاصة في مجال الإرسال التلفزيوني والإذاعي وشبكة المعلومات الدولية والبريد الإلكتروني) إلى نشر ثقافة العولمة، وإلى تهيئة الشخصية المسلمة، إلى قبول الآخر بعجره وبجره. كما أدت إلى إيجاد ثقافة عالمية مشتركة تشكل الفكر والذوق والفن والأزياء والقيم الأخلاقية والجمالية، حتى أنها باتت تجمّل وجه المستعمر، وانتهت بعولمة الدين. ولعلّ الكثير مما تبثه القنوات الفضائية ما هو إلا رسائل لإشاعة الفاحشة وترويج الرذيلة والانحلال الجنسي والتفسخ الأخلاقي. كما أن مخاطر الاختراق الثقافي باتت تهدد الهوية الحضارية للشخصية المسلمة بصورة جلية، بسبب ضعف الحصانة الإيمانية من مفاسد المجتمع وعدم الالتزام بالإسلام قولاً وعملاً.

وتعكس سياسة التعليم في العالم الإسلامي الحضانة الغربية للمناهج والأنظمة التعليمية، والتي تتسم بالتبعية الفكرية، والحدّ من دور الدين في الحياة، وتدعو إلى نشر قيم الحداثة، وما بعد الحداثة، وإلى إعداد شخصية مقطوعة الصلة عن قيمها وتراثها الإسلامي. هذا فضلاً عن تزايد انتشار التعليم المختلط بين الجنسين في مؤسسات التعليم العام والعالي. وعلى الرغم مما يشهده عالمنا المعاصر من ثورة معرفية، إلا أن نسبة الأمية

في العالم الإسلامي لا زالت مرتفعة؛ فهناك ما يربو على 70 مليون أميّ في الوطن العربي، أغلبهم من النساء.

وبعد هذا العرض السريع لأبرز التحديات التي تواجه الشخصية المسلمة، فماذا عسى أن يفعل المسلم، وهو يمر بهذه المرحلة الخطيرة من مراحل تاريخه؟ فهو يقف على مفترق الطرق، تتعدد الدروب، وتتشعب حوله. والجواب نستخلصه من المسيرة الحضارية للدعوة الإسلامية التي نقلت المجتمعات من حالة الضعف والجمود والتبعية والتقليد إلى حالة الازدهار والتحرر والإبداع والاجتهاد. فرصيد الأمة من عقيدة وفكر وتاريخ مليء بينابيع الأمل التي لا تنضب. ومن أبرز هذه المنابع التي ينهل منها العلماء المسلمون: عقيدة القضاء والقدر وبشائر الصبر وحتمية الابتلاء وحقيقة الحياة ورصيد الفطرة وعدم ضياع عمل المؤمن والنصر القادم إن شاء الله. ولن يحفظ الشخصية المسلمة من الاستسلام لليأس وشلّ حركتها، ولن يردّ لها عافيتها وأصالتها، ولن تتمكن من قيادة البشرية إلى برّ الأمان، وإخراجها من الظلمات إلى النور، والإسهام في إغناء الحضارة الإنسانية، إلا بالعودة الصادقة إلى المنهج الإسلامي الخالد، والفهم الواعي لحقيقة رسالتها في الحياة، وتمثلها عقيدة وسلوكاً ومنهج حياة.

اللهم اهدنا إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، آمين.

المراجع

• المراجع العربية:

- **القرآن الكريم.**

- الأبراشي، محمد .(1975). **التربية الإسلامية وفلاسفتها**، ط3، القاهرة: مطبعة عيسى البابي وشركاه.
- الإبشيهي، شهاب الدين .(1992). **المستطرف في كل فن مستظرف**، ج1، بيروت: دار الجيل.
- ابن عدي .(1984). **الكامل في الضعفاء**، معجم أحاديث ضعفاء الرجال من كتاب الكامل، إعداد وترتيب يوسف الشيخ محمد البقاعي، بيروت: دار الفكر.
- أبو ريان، محمد .(1986). **تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام**، الإسكندرية: مكتبة دار المعرفة.
- إسماعيل، عز الدين .(1975). **نصوص قرآنية في النفس الإنسانية**، بيروت: دار النهضة العربية.
- الأسمر، أحمد رجب .(1997). **فلسفة التربية في الإسلام**، عمان: دار الفرقان.
- الأشقر، عمر .(ب.ت). **الرسل والرسالات**، عمان: مكتبة الفلاح.
- الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله .(1930). **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، ط3، بيروت: دار الكتاب العربي.
- الأصفهاني، أبو القاسم الحسين .(1997). **معجم مفردات ألفاظ القرآن**، بيروت: دار الكتب العلمية.
- الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب .(1961). **المفردات في غريب القرآن**، تحقيق محمد سيد الكيلاني، القاهرة: مكتبة مصطفى الحلبي.
- الأهواني، أحمد فؤاد .(ب. ت)، **سلسلة أعلام العرب**، ط3، القاهرة: دار المعارف.
- ابن الجوزية، أبو الفرح عبد الرحمن .(1987). **زاد المسير في علم التفسير**، تحقيق محمد ابن عبد الرحمن عبد الله، وتخريج السعيد بن بسيوني زغلول، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر.

- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم .(1398هـ). **مجموع الفتاوي** (37) مجلداً، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم وابنه محمد العاصمي النجدي الحنبلي، ط1، بيروت: مؤسسة الرسالة للطبع والنشر.
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم .(1398هـ). **مجموع الفتاوى**، ط1، بيروت: دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع.
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم .(1409هـ). **الاستقامة**، تحقيق محمد رشاد سالم، ط2، بيروت: دار الكتب العلمية.
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم .(1971). **مجموع الفتاوى**، جمع عبد الرحمن النجدي، الرياض: مطابع القصيم.
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم .(ب. ت). **مجموع الفتاوى**، جمع محمد بن عبد الرحمن بن قاسم، الرباط: مكتبة المعارف.
- ابن جماعة، بدر الدين ابن اسحق .(1934). **تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم**، تحقيق محمد هاشم الندوي، بيروت: دار الكتب العلمية.
- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد .(1978). **الأخلاق والسير في مداواة النفوس**، بيروت: دار الآفاق الجديدة.
- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد .(1983). **رسائل ابن حزم**، تحقيق إحسان عباس، بيروت: الموسوعة العربية للدراسات والنشر.
- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد .(1985). **الفصل في الملل والنحل**، بيروت: دار الجيل.
- ابن حنبل، أحمد .(1969). **مسند ابن حنبل**، القاهرة: المطبعة اليمنية بمصر.
- ابن حنبل، محمد .(1995). **المسند**، شرحه ووضع فهارسه حمزة أحمد الزين، القاهرة: دار الحديث.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد .(1983). **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق حجر عاصي، بيروت: دار الهلال.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد .(ب. ت). **المقدمة**، تحقيق علي عبد الواحد وافي، القاهرة: دار نهضة مصر.

- ابن سينا، .(1978). **نظرية المعرفة مع بيان مصادرها وآثارها**، القاهرة: مكتبة سعيد رأفت.
- ابن عبود، المهدي .(1989). **الإنسان وطاقاته الروحية**، الدار البيضاء: داتا بريس.
- ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء .(1998). **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، دمشق: دار الفيحاء.
- ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل .(1981). **مختصر تفسير ابن كثير**، تحقيق محمد علي الصابوني، ط7، بيروت: دار القرآن الكريم.
- ابن مسكويه، أبو علي .(1966). **تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق**، بيروت: دار مكتبة الحياة.
- ابن مسكويه، أبو علي .(2001). **الهوامل والشوامل**، تحقيق سيد كسروي، بيروت: دار الكتب العلمية.
- ابن مسكويه، أبو علي .(ب.ت). **الفوز الأصفر**، بيروت: دار مكتبة الحياة.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم .(ب.ت). **لسان العرب**، بيروت: دار صادر.
- البخاري، محمد ابن إسماعيل .(1958). **صحيح البخاري**، القاهرة: دار الشعب.
- البخاري، محمد ابن إسماعيل .(1996). **الأدب المفرد**، تخريج محمد عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية.
- البخاري، محمد ابن إسماعيل .(ب. ت). **الجامع الصحيح**، شرح ابن حجر العسقلاني، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر.
- البغدادي، الخطيب أحمد بن علي .(1975). **الفقيه والمتفقه**، مجلد 2، بيروت: دار إحياء السنة النبوية.
- البغدادي، الخطيب، أحمد بن علي .(1969). **الفقيه والمتفقه**، تحقيق إسماعيل الأنصاري، ط2، الرياض: مطابع القصيم.
- البوطي، محمد سعيد .(1990). **أزمة المعرفة وعلاجها في المنهجية الإسلامية والعلوم السلوكية والتربوية**، تحرير الطيب زين العابدين، ج1، فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

- البيهقي، أحمد بن الحسين .(1970). **مناقب الشافعي**، تحقيق السيد أحمد صقر، القاهرة: دار التراث.
- الترمذي، محمد بن عيسى .(1995). **الجامع الصحيح**، بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- الترمذي، محمد بن عيسى .(ب.ت). **السنن**، شرح ابن العربي، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر.
- تفاحة، أحمد .(1979). **المرأة في الإسلام**، بيروت: دار الكتاب اللبناني.
- توفيق، محمد عز الدين .(1998). **التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية**، القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر.
- الجرجاني، علي بن محمد الشريف .(1985). **التعريفات**، بيروت: مكتبة لبنان.
- جمعة، محمد .(1927). **تاريخ فلاسفة الإسلام في المشرق والمغرب**، الإسكندرية: مكتبة دار المعارف.
- الجوزية: ابن قيم .(1961). **تحفة المودود بأحكام المولود**، بومباي: المطبعة الهندية.
- الجوزية: ابن قيم .(1986). **الروح**، تحقيق عبد الفتاح محمود عمر، ط2، عمان: دار الفكر للنشر والتوزيع.
- الجوزية، ابن قيم .(1979). **الروح**، تحقيق محمد أنيس عبادة والسرجاني، القاهرة: مكتبة نصير.
- الجوزية، ابن قيم .(1987). **الجواب الكافي**، بيروت: دار إحياء العلوم.
- الجوزية، ابن قيم .(1988). **التبيان في أقسام القرآن**، ط1، بيروت: دار إحياء العلوم.
- الجوزية، ابن قيم .(1997). **الفوائد**، تحقيق ماهر عبد الرزاق، وكمال الجمل، القاهرة: دار اليقين.
- الجوزية، ابن قيم .(2003). **مفتاح دار السعادة**، بيروت: دار ابن حزم.
- الجوزية، ابن قيم .(ب.ت). **إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان**، عمان: دار الفكر.
- الحلبي، علي بن برهان الدين .(1320هـ). **إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون .(السيرة الحلبية)**، ج1، القاهرة: المطبعة الأزهرية.
- حوى، سعيد .(1986). **الرسول**، القاهرة: دار السلام.
- خليف، فتح الله .(ب. ت). **فلاسفة الإسلام**، الإسكندرية: دار الجامعات المصرية.

- الخوالدة، ناصر؛ عيد، يحيى .(2001). **طرائق تدريس التربية الإسلامية وأساليبها وتطبيقاتها العملية**، عمان: دار حنين للنشر والتوزيع.
- الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن .(1966). **سنن الدارمي**، تحقيق عبد الله هاشم يماني، القاهرة: دار المحاسن.
- الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن .(1990). **سنن الدارمي**، بيروت: دار الكتب العلمية.
- الداني، عثمان .(1930). **التيسير في القراءات السبع**، استنبول: جمعية المستشرقين الألمانية.
- الدمشقي، الإمام أبي زكريا .(ب.ت). **رياض الصالحين**، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر.
- الرازي، محمد فخر الدين .(ب. ت). **التفسير الكبير** .(مفاتيح الغيب)، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر.
- الرازي، محمد فخر الدين .(ب. ت). **مفاتيح الغيب**، ج32، القاهرة: المطبعة البهية المصرية.
- الراضي، أسامة .(1993). نموذج إسلامي للعلاج النفسي، **الثقافة النفسية**، 4(16)، 57-79.
- الزرنوجي، برهان الدين .(1985). **تعليم المتعلم طريق التعلم**، تحقيق صلاح الخيمي ونذير حمدان، دمشق: دار ابن كثير.
- الزرنوجي، برهان الدين .(1986). **تعليم المتعلم طريق التعلم**، تحقيق مصطفى عاشور، القاهرة: مكتبة القرآن.
- زريق، معروف .(1989). **علم النفس الإسلامي**، دمشق: دار المعرفة.
- السجستاني، سليمان بن الأشعث .(1988). **سنن أبي داود**. دراسة وفهرسة كمال يوسف الحوت، بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية.
- السجستاني، سليمان بن الأشعث .(1994). **سنن أبي داود**، بيروت: دار الفكر.
- **سجع الحمام في حكم الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-** .(1967). جمع وشرح علي الجندي وآخرون، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

- السمالوطي، محمد نبيل .(1984). **الإسلام وقضايا علم النفس الحديث**، ط2، جدة، دار الشروق.
- **سنن ابن ماجة** .(1996). حقق أصوله وخرّج أحاديثه الشيخ خليل مأمون شيحا، بيروت: دار المعرفة.
- **سنن أبي داود**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة: مطبعة القاهرة.
- السيوطي، جلال الدين .(ب. ت). **الإتقان في علوم القرآن**، ج1، بيروت: دار الفكر.
- الشاطبي، أبو اسحق إبراهيم بن موسى .(ب.ت). **الموافقات**، ج4، تعليق محمد عبد الله دراز، القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى.
- الشريف، محمد كمال .(1996). **سكينة الإيمان**، دمشق: دار ابن كثير.
- الشهاوي، مجدي .(1990). **وصف النبي ﷺ كأنك تراه**، القاهرة: مكتبة ابن سينا.
- الشوكاني، أحمد بن محمد .(1986). **في السلوك الإسلامي القويم**، تحقيق حسين العمري، دمشق: دار الفكر.
- الشيباني، عمر .(1983). **فلسفة التربية الإسلامية**، ط4، طرابلس: المنشأة العامة للنشر.
- الصنيع، صالح .(1995). **دراسات في التأصيل الإسلامي لعلم النفس**، الرياض: دار عالم الكتب.
- الطبري، ابن جرير .(ب. ت). **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، ج30، القاهرة: مطبعة مصطفى الحلبي.
- الطويل، عزة عبد العظيم .(1982). **في النفس والقرآن الكريم**، الإسكندرية: المكتب الجامعي الحديث.
- العاني، نزار .(1998). **الشخصية الإنسانية في التراث الإسلامي**، عمان: دار الفرقان.
- عبد الباقي، محمد فؤاد .(1987). **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر.
- العثمان، عبد الكريم .(1981). **الدراسات النفسية عند المسلمين والغزالي بوجه خاص**، ط2، القاهرة: مكتبة وهبة.

- العجلوني، إسماعيل بن محمد .(1985). **كشف الخفاء ومزيل الإلباس**، بيروت: مؤسسة الرسالة.
- العراقي، زين الدين عبد الرحيم .(1995). **المغني عن حمل الأسفار**، اعتنى به أبو محمد أشرف بن عبد المقصود، الرياض: مكتبة طبرية.
- العراقي، محمد عاطف .(1968). **النزعة العقلية في فلسفة ابن رشد**، القاهرة: دار المعارف.
- العربي، عبد المنعم .(1987). **تهذيب مدارج السالكين**، بيروت: مؤسسة الرسالة.
- العرقسوسي، محمد خير؛ عثمان، حسن ملا .(ب. ت). **ابن سينا والنفس الإنسانية**، القاهرة: مؤسسة الرسالة.
- العسقلاني، ابن حجر .(ب. ت). **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، المنصورة: مكتبة الإيمان.
- العسقلاني، ابن حجر .(1984). **تهذيب التهذيب**، ط1، بيروت: دار الفكر.
- العسقلاني، ابن حجر .(ب. ت). **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- عطار، ليلى .(1983). **الجانب التطبيقي في التربية الإسلامية**، جدة: مطبعة تهامة.
- عقلة، محمد .(1982). **الإسلام: حقيقته وموجباته**، عمان: مكتبة الرسالة الحديثة.
- عقلة، محمد .(1990). **تربية الأولاد في الإسلام**، عمان: مكتبة الرسالة الحديثة.
- عقلة، محمد .(1991). **الإسلام: مقاصده وخصائصه**، عمان: مكتبة الرسالة الحديثة.
- علي، سعيد إسماعيل .(1993). **رؤية إسلامية لقضايا تربوية**، القاهرة: دار الفكر العربي.
- العيسوي، عبد الرحمن .(1980). **الإسلام والعلاج النفسي**، الإسكندرية: دار الفكر الجامعي.
- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد .(1975). **معارج القدس في مدارج معرفة النفس**، ط2، بيروت: دار الآفاق الجديدة.
- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد .(1983). **أيها الولد**، تحقيق علي محيي الدين، القاهرة: دار الاعتصام.

- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد .(1985). **المنقذ من الضلال**، تقديم وشرح عبد الحليم محمود، ط3، بيروت: دار الكتاب اللبناني.
- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد .(1997). **إحياء علوم الدين**، ط4، بيروت: دار الخير.
- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد .(ب. ت). **إحياء علوم الدين**، القاهرة: دار الشعب.
- الغنيمي، محمد مسلم .(1977). ابن قيم الجوزية، دمشق: المكتب الإسلامي.
- الفاسي، علال .(1993). **مقاصد الشريعة الإسلامية**، بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- فرغل، يحيى هاشم .(ب.ت). **معالم شخصية المسلم**، بيروت: المكتبة العصرية.
- فروخ، عمر .(1981). **تجديد في المسلمين لا في الإسلام**، بيروت: دار الكتاب العربي.
- فلسفي، محمد .(1983). **الطفل بين الوراثة والتربية**، ترجمة فاضل الميلاني، ط3، بيروت: دار المعارف.
- القاضي، عياض .(1977). **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**، تحقيق علي محمد البجاوي، القاهرة: مكتبة عيسى البابي الحلبي.
- القاضي، يوسف؛ يالجن، مقداد .(1981). **علم النفس التربوي في الإسلام**، الرياض: دار المريخ.
- القرضاوي، يوسف .(1978). **الرسول والعلم**، مسقط: دار الصحوة.
- القرضاوي، يوسف .(1985). **العبادة في الإسلام**، ط15، القاهرة: مكتبة وهبة.
- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري .(1967). **الجامع لأحكام القرآن**، القاهرة: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر.
- القزويني، ابن ماجة أبو عبد الله .(1996). **سنن ابن ماجة**، تحقيق خليل مأمون الشيحا، بيروت: دار المعرفة.
- القزويني، السيد عبد الحسين .(1996). **رحلة إلى أعماق النفس**، بيروت: مؤسسة الأعلمي.
- القزويني، عبد الله محمد بن يزيد .(ب. ت). **سنن ابن ماجة**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ج1، بيروت: المكتبة العلمية.

- القشيري، أبو الحسن مسلم بن الحجاج .(ب. ت). **صحيح مسلم**، شرح النووي، القاهرة: المطبعة المصرية ومكتبتها.
- قطب، سيد .(1980). **في ظلال القرآن**، القاهرة: دار الشروق.
- قطب، محمد .(1991). **دراسات في النفس الإنسانية**، ط6، بيروت: دار الشروق.
- الكاند هلوي، محمد .(1993). **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، تحقيق علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي، ج16، بيروت: مؤسسة الرسالة.
- لجنة التراث في م.د.ن الأدوية النفسية في التراث العربي .(1993). **الثقافة النفسية**، 4(14)، 69-72.
- الماوردي، أبو الحسن البصري .(1988). **أدب الدنيا والدين**، تحقيق محمد فتحي أبو بكر، القاهرة: الدار المصرية.
- الماوردي، علي بن محمد بن حبيب .(1955). **أدب الدنيا والدين**، تحقيق مصطفى السقا، ط3، القاهرة: مطبعة البابي الحلبي وأولاده.
- المتقي الهندي، علاء الدين .(1993). **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، صححه ووضع فهارسه الشيخ صفوت السقا، بيروت: مؤسسة الرسالة.
- مجمع اللغة العربية .(1994). **المعجم الوجيز**، ط1، القاهرة: وزارة التربية والتعليم.
- محمد، رامز طه .(2001). العلاج النفسي بالقرآن، **كتاب اليوم الطبي**، العدد 235، القاهرة: دار أخبار اليوم.
- مرسي، سيد .(1985). **الشخصية السوية**، ط1، القاهرة: دار التوفيق النموذجية.
- مرسي، سيد عبد الحميد .(1983). **النفس البشرية**، القاهرة: مكتبة وهبة.
- مرسي، كمال إبراهيم .(1988). **المدخل إلى علم الصحة النفسية**، الكويت: دار القلم.
- مرسي، كمال؛ محمد، محمد عودة .(1986). **الصحة النفسية في ضوء علم النفس والإسلام**، الكويت: دار القلم.
- **مسند الإمام أحمد** .(1969). ج2، بيروت: المكتب الإسلامي للطباعة والنشر.
- الميداني، عبد الرحمن .(1399هـ). **الأخلاق الإسلامية وأسسها**، بيروت: دار القلم.
- نجاتي، محمد عثمان .(1987). **الحديث النبوي وعلم النفس**، جدة: دار الشروق.
- نجاتي، محمد عثمان .(1987). **القرآن وعلم النفس**، ط3، جدة: دار الشروق.

- النحلاوي، عبد الرحمن؛ عثمان، عبد الكريم؛ عرقسوسي، محمد خير .(ب. ت). **علم النفس**، الرياض: مطبعة كلية الشريعة بالرياض.
- النسائي، أحمد بن شعيب .(1992). **سنن النسائي**، ط2، بيروت: دار المعرفة.
- النسائي، أحمد بن شعيب .(2001). **السنن الكبرى**، حققه وخرّج أحاديثه حسن عبد المنعم شلبي، بيروت: مؤسسة الرسالة.
- النسائي، الحاكم أبي عبد الله .(ب. ت). **المستدرك على الصحيحين**، ط2، حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية.
- النووي، محيي الدين .(ب. ت). **المجموع شرح المهذب**، بيروت: دار الفكر.
- النيسابوري، مسلم بن الحجاج .(1970). **المستدرك على الصحيحين**، بيروت: دار المعرفة للنشر.
- النيسابوري، مسلم بن الحجاج .(1972). **صحيح مسلم**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية.
- النيسابوري، مسلم بن الحجاج .(1992). **صحيح مسلم**، تحقيق وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، ط2، دار الدعوة، دار سحنون.
- النيسابوري، مسلم بن الحجاج .(1995). **صحيح مسلم**، بيروت: دار ابن حزم.
- النيسابوري، مسلم بن الحجاج القشيري .(ب. ت). **صحيح مسلم**، شرح النووي، تحقيق عبد الله أحمد أبو زينة، القاهرة: مطابع الشعب.
- الهيثمي، الحافظ .(1982). **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، ط3،بيروت: دار الكتاب العربي.
- الهيثمي، الحافظ نور الدين .(1986). **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، بيروت: مؤسسة المعارف.
- ونسنك، أ. ي. .(1936). **المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، عن الكتب الستة ومسند الدارمي وموطأ مالك ومسند أحمد بن حنبل**، ليدن: مكتبة بريل.

• المراجع الأجنبية:

- Hjelle, L., & Ziegler, D. (1992). ***Personality Theories*: *Basic Assumptions*, *Research and Applications***, 3rd ed., New York: McGraw- Hill.

- Kosslyn, S. & Rosenberg, R. (2004). ***Psychology***: The Brain, the Person, the World, 2nd ed., Boston: Pearson and AB.

- Myers, D. (2004). ***Psychology***, 7th ed., Holland: Worth Publishers.

- Santrock, J. (2003). ***Psychology*,** 7th ed., Boston: McGraw- Hill.